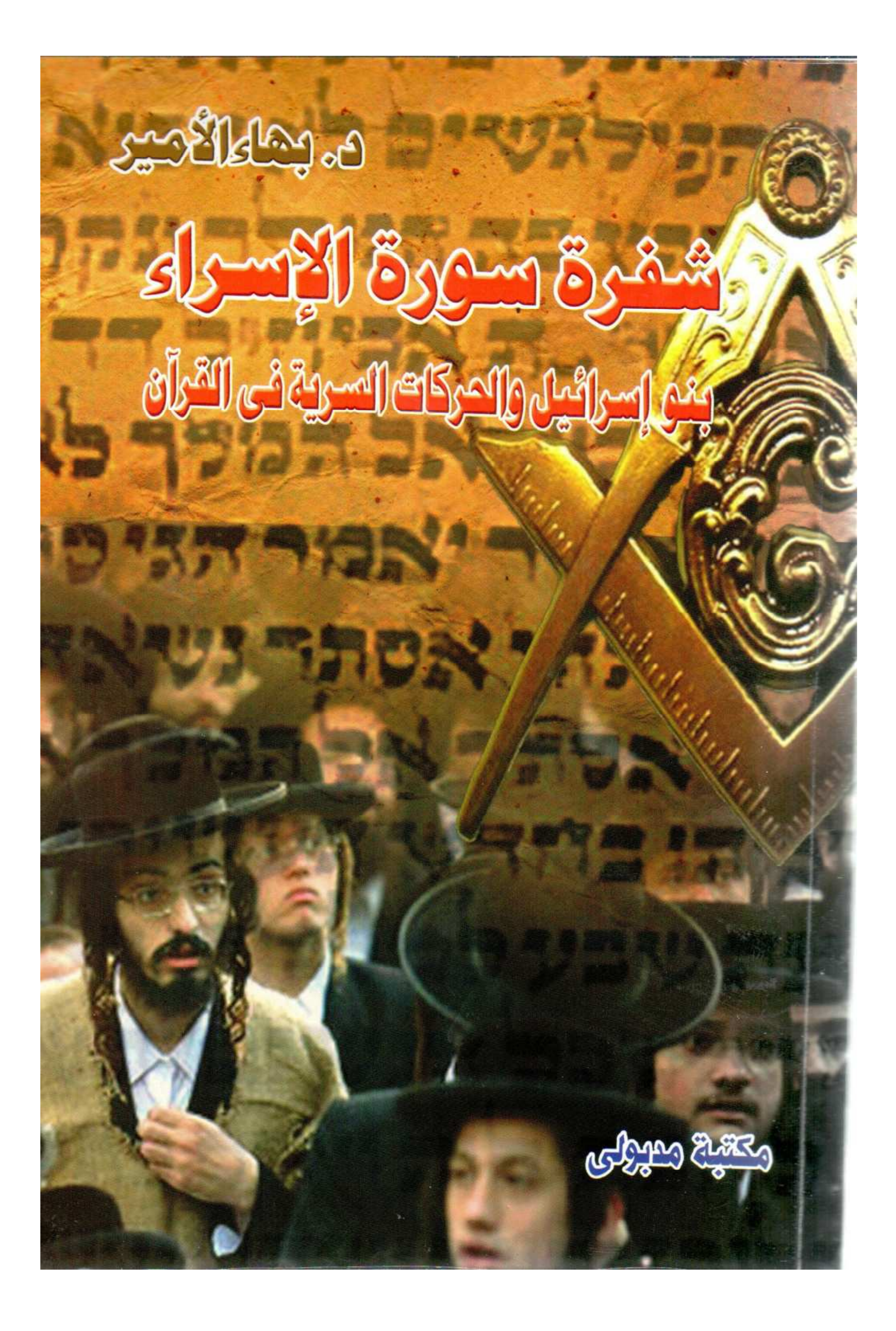

د. بهاء الأمير
شفرة سورة الإسراء
بنو إسرائيل والحركات السرية فى القرآن
مكتبة مدبولى

شـفرة سـورة الإسـراء

الأمير ، بهاء

شفرة سورة الإسراء

بنو إسرائيل والحركات السرية في القرآن

إسم المؤلف : د. بهاء الأمير

ط١. القاهرة : مكتبة مدبولى، ٢٠١٥م.

ص ١٧× ٢٤ سم

تدمك: 978- 977-767-005-0

١- القرآن – أسرار

٢- القرآن – سور وآيات

٣- القرآن – الفاظ

٤- الاسلام والسياسة

٥- القرآن - تفسير

أ – العنوان

ديوى / ٢٢٩.٨

رقم الإيداع : ٢٠١٤/٢٣٢٠٠م

مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة

ت : ٢٥٧٥٦٤٢١ – فاكس : ٢٥٧٥٢٨٥٤

الموقع الإلكترونى : www.madboulybooks.com

البريد الإلكترونى : info@madboulybooks.com

الآراء الواردة فى هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

دكتور بهاء الأمير

شفرة سورة الإسراء

بنو إسرائيل والحركات السرية في القرآن

مكتبة مدبولى

٢٠١٦

إهـــــداء

إلى

سـلـطـــان ونـاصــــــــر(•)

•) هم الأفاضل الذين ذكرناهم في مقدمة الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمـــــــة

الحمد لله يصطفي من عبيده عبادَه، ويورث من اختاره ما شاء من كتابه، ويمتن عليه ببيناته وفرقانه، ويؤتيه من علمه ويكشف له أسراره، والصلاة والسلام على من لا ينطق عن الهوى، والنور الذي بعثه الله بالنور، فكان وما زال نوراً على نور، وعلى آله وصحبه الهداة المهديين، ومن تبعهم على بصر إلى يوم الدين.

وبعد،

في كل كتاب عبارة هي مفتاحه، ويدور كل ما فيه من حولها، وكتابته وتأليفه كان من أجلها.

والكتاب الذي بين يديك كله هو فصله الأخير، وكل ما سبق هذا الفصل من فصول هو مقدمة له، وتمهيد لكي يُمكنك عندما تصل إليه استيعابه وفهمه، والعبارة التي هي مفتاح هذا الكتاب ويدور من حولها، والذي كتبناه كله من أجل بيانها، وهي عنوانه الحقيقي الذي كان ينبغي أن يوضع على غلافه، هي قوله تعالى:

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[1]

---

١) الإسراء: ٤.

في يوم من أيام الله عز وجل قَدِم إلى بعض الأفاضل ممن لهم حماسة لدين الله وغيرة على الأخلاق والفضائل، ورغبوا إليَّ في تجهيز برنامج وإعداد حلقات لبيان تاريخ الماسونية والحركات السرية وآثارها في العالم، وصلتها بالصورة التي وصل إليها وما شاع فيه من عدوان على الديانات وانحلال للأخلاق، وعلاقتها بالعلمانية والليبرالية والماركسية، والرابطة بينها وبين منظمات حقوق الإنسان وحركات التحرير النسائية، وقبل ذلك كله السر في ارتباط الماسونية والحركات السرية باليهود، ودورها في صعودهم إلى رأس العالم وسطوتهم على دوله وفي كل شعوبه.

ورأيت أن أبدأ من سيرة بني إسرائيل في القرآن، إذ لا يمكن فهم غايات الحركات السرية وما تريد أن تصل بالعالم إليه، ولا فهم أساليبها ووسائلها الملتوية شديدة الدهاء والمراوغة للوصول إلى هذه الغايات من غير إدراك موقع اليهود منها وآثارهم فيها، ولا يمكن إدراك المسألة اليهودية ولا فهمها سوى بفهم ما الذي يريد القرآن أن يخبرنا به عن بني إسرائيل وموقعهم من العالم وآثارهم في البشرية، وما يكشفه من خبئ نفوسهم وما تحويه من غايات، ومن تكوينهم وما ينتجه من سلوك وأساليب.

وما أن بدأت في سيرة بني إسرائيل في القرآن، حتى جرفتني أمواج سورة الإسراء الهادرة، فتركت، ولم أكد أبحر، سواحل بني إسرائيل وسيرتهم، وشواطئ الماسونية والحركات السرية، وغرقت في صدرها.

وظللت أياماً ثم أسابيع فشهوراً والأفاضل الذين يريدون الحلقات يسألونني إلى أين وصلت وهل انتهيت من إعدادها، وهم يستعجبون، حالاً لا مقالاً، إذ

يرون الأمر يسيراً، وأكاد أسمعهم يقولون إن موضوع الحلقات ليس غريباً عنك ولا جديداً عليك، فقد كتبتَ فيه من قبل ما كتبت، وقدمتَ فيه من الحلقات ما قدمت.

وهم لا يشعرون، وليس من عادتي أن أفسر، أني خارج العالم، سابح فوق الزمان والمكان، وغارق في صدر سورة الإسراء.

وفي هاتيك الأيام والأسابيع والشهور كنت أنام لأحلم بصدر سورة الإسراء، وأستيقظ لأدون لمحات وخطرات، وأرسم للتاريخ والأمم خرائط ومسارات، ولدورتي الإفساد والعباد رسوماً بيانيات.

وفي كل مرة أصل فيها إلى احتمال أو فرضية، أسجلها وأرسم لها خريطة ورسماً بيانياً، تبدو في النهار معقولة منطقية، ثم يمحوها من رأسي عند نومي هامس في أذني فتصير نسياً منسياً، ولا يبقى منها إلا ذكراها في الرسم والخريطة، لأعود في النهار التالي والآيات ما زالت في نفسي طلسماً مطلسماً.

ثم وأنا خارج يوماً من النوم، وعلى أعتاب اليقظة، وعيناي ما زالت بين الإغماض والفتح، أشرقت شمس الآيات في نفسي، وانبثق من شعاعها ما نوَّر عقلي وكشف سرها، وانتشلني مما كنت غارقاً فيه من لجج ظلماء، وأرساني على ضياء وضاء.

في هذه اللحظة أدركت أين العقدة، ومصدر ما وقعتُ فيه من أخطاء، وهي نفسها أخطاء كل من تعاملوا مع صدر سورة الإسراء مذ أنزلت، وعبر كل العصور، وهي الأخطاء التي ستراها بنفسك في الكتاب الذي بين يديك إذا شاء الله لك أن تتم رحلتك في بحاره.

العقدة ومصدر كل الأخطاء في تفسير هذه الآيات وفهم ما الذي تريد أن تخبر عنه القدوم عليها من غير بابها، وفتحها بغير مفتاحها، وتفسيرها وفهمها من خارجها وليس من داخلها.

فكل من قَدِم على هذه الآيات، ويستوي في ذلك من اقترب من حقيقتها ومن ابتعد، يقيدها بما في ذهنه هو، ويسلسلها بمعارفه، أو بظروف زمانه ومكانه، أو بما يريد أن ينطقها به، ومن ثَم يقدم على الآيات، وبدلاً من أن يفحصها هي بدقة وفي أناة، يتأملها إجمالاً، وتتكون في ذهنه من هذا النظر الإجمالي صورة، يترك من أجلها الآيات ليبحث عما يطابقها في ما يعرفه، أو ما يتمناه ويريده.

وكل الصور التي تكونت في أذهان كل من قدموا على صدر سورة الإسراء لتفسيرها لا تطابق الآيات نفسها، بل تختلط فيها لمحات منها بتفاصيل وزيادات وقيود من خارجها، وهو ما أفضى عبر العصور إلى طلسمة الآيات بتفسيراتها، وحجبها بالصور الذهنية التي حلت محلها.

ومن العجيب، ولأمر لا أعلمه، أن البؤرة التي أشرق منها الضياء الذي أسفرت به آيات سورة الإسراء أمام عيني نصف المغمضة، هو كلمة: ﴿ٱلدِّيَارِ﴾، في قوله تعالى عن العباد الذين يبعثهم على بني إسرائيل: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾.

ففي لمح البصر، وعقلي يصعد من قيعان النوم ويكاد يلامس سطح اليقظة، توهجت الكلمة أمام عيني وانفتحت بوابتها وخرج ما في الآيات كلها منها يتدافع بعضه في إثر بعض: الديار فقط، لا في الأرض المقدسة ولا في غيرها، ولا

منسوبة لبني إسرائيل، بنو إسرائيل في الأرض المقدسة في الدورة الثانية دون الأولى، بين الدورتين فروق، الإفساد في الأرض كلها لا في المقدسة فقط، التحريف، بعث العباد لإزالة التحريف وإصلاح الإفساد في الأرض كلها لا لعقاب بني إسرائيل وإخراجهم من هذه الأرض المقدسة.

وها هنا أبصرت بالشمس التي أشرقت من الكلمة وأضاءت الآيات كلها أن صدر سورة الإسراء سبيكة بيانية، مفتاح تفسيرها فيها هي نفسها، وأنها شفرة لغوية حلها في فحصها بمجهر حساس يكشف دقائقها ويجلي مكوناتها وتسفر به الروابط الناعمة بينها، من غير إضافات ولا زيادات ولا قيود من خارجها.

وتركت ما كنت غارقاً فيه من التفاسير وما قاله المفسرون إلى الآيات نفسها، من أجل فحص نسيجها اللغوي شديد الدقة والإحكام، والتماسك والترابط، والتركيب والتعقيد، ولم أعد إلى التفاسير إلا بعد أن انتهيت من حل شفرة الآيات من أجل نقدها وبيان أخطائها.

فكل ما ستراه في الفصل الأخير من هذا الكتاب، هو بسط ما أشرق من ضياء وانبثق من نور في هذه اللحظة، وما فاض فيها من كلمة: ﴿ٱلدِّيَارِ﴾، وكل ما ستقرأه من فصول قبل هذا الفصل الأخير هي جزء منه وتمهيد له، كتبناها لكي نؤهلك بها لفهم هذا الفصل الأخير وما فاض في هذه اللحظة المشرقة.

والحمد لله أولاً وآخراً

دكتور بهاء الأمير

القاهرة / ذو الحجة ١٤٣٤هـ / أكتوبر ٢٠١٣م

بيـــان الإلــــه

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾

(آل عمران:١٣٨)

تحـريـــر الـقـرآن

بـيـــــان:

لكي تعرف ما الذي يخبرنا به القرآن عن بني إسرائيل، وما الذي يريدنا أن نعرفه عن موقعهم من التاريخ وآثارهم في البشرية، لابد من تحريره أولاً من الفهم التقليدي النمطي الذى شاع بين العوام وكثير من عموم المسلمين، وهو أنه مجرد كتاب مقدس للعبادة ونوال البركة والحصول على الثواب.

وأهم من ذلك أنه لابد من تحريره من الفهم والمنهج والطريقة التي تعامل بها كثير من العلماء ومن المفسرين، عبر التاريخ الإسلامي كله، مع ما فيه من قصص وأخبار عن قصة الخلق وسيرة البشرية الأولى وعن الأمم السابقة عموماً، وعن بني إسرائيل خصوصاً، إذ أقاموا فهمهم وبنوا تفسيراتهم على أنها أخبار قديمة منقطعة عن الحاضر والمستقبل، وأن الغاية من إخبارنا بها مجرد العبرة والعظة وضرب الأمثلة.

فالبشر قد يقدسون أي كتاب، أو أي شئ، نجماً، أو كوكباً، أو إنساناً، أو حيواناً، كما يقدس الصابئة النجوم والكواكب، واليهود والمسيحيون الكتاب المقدس، والبوذيون بوذا، والهندوس البقرة.

فالتقديس لكتاب، أو لشئ، هو وصف لموقف الإنسان منه وليس بياناً لحقيقته في ذاته.

وأيضاً لم ينزل الله عز وجل كتابه على رسوله الخاتم، وقص عليه وعلى أمته وعلى الناس جميعاً إلى يوم القيامة أخبار بني إسرائيل، وفصل في سيرتهم

تفصيلاً، وتعبدهم بما قص وفصل في كل صلاة، لمجرد العظة والعبرة، وإلا لاستوى أن تكون العظة والعبرة بهم أو بغيرهم، ولما تغير شئ في الفحوى والغاية من الإخبار لو أبدل غيرهم بهم.

القرآن كتاب حي، أنزله عز وجل لكي يتكون به وعي من يؤمنون به، ولكي يكوِّن عقولهم، ويصنع بناءهم الذهني والنفسي، الذي يدركون به ويفهمون ما حولهم ويحكمون عليه.

القرآن كتاب الحياة والوجود، أنزله عز وجل رسالة خاتمة لكي نرى الحياة ونفهمها ونصنعها به، ولكي نرى الوجود كله وندركه ونفهمه به ومن خلال منظاره.

القرآن، كما أخبرك سبحانه وتعالى نفسه، هو بيان الإله عز وجل إلى خلقه، وهو بيانه إليهم في كل زمان وفي كل مكان إلى يوم القيامة.

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[1]

يخبرك الله عز وجل أن القرآن هدى وموعظة للمتقين، ولكنه يخبرك أنه قبل ذلك بيان للناس، وللناس جميعاً، في كل زمان وكل مكان.

ولله المثل الأعلى، إذا فتحت التلفاز أو المذياع فوجدت الحاكم في بلدك، رئيساً كان أو ملكاً أو أميراً أو سلطاناً، يوجه خطاباً أو بياناً لشعبه أو أمته، فلست بحاجة إلى من يعرفك أو ينبهك أنه يلقيه إليك وأنك مخاطب به.

---

١) آل عمران:١٣٨.

وكذلك إذا فتحت المصحف وقرأت، أو إذا سمعت القرآن يُتلى، ينبغي أن تدرك أن الله عز وجل يخاطبك أنت نفسك في اللحظة التي تقرأ أو تسمع فيها، وأن هذا بيانه إليه أنت، ثم تحاول أن تفهم ما الذي يريد هذا البيان أن يعرفك به أو يرشدك إليه.

وهو ما يعرفك به *الحسن البصري* في قوله:

"من *أراد* أن يكلم الله فليدخل في الصلاة، ومن *أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن*"

وها هنا ينبغي أن تعرف الفرق الأساسي والفاصل بين القرآن وبين النصوص المقدسة، كتابية كانت أو غير كتابية.

القرآن، بيان الإله إلى إلى خلقه، هو النص الوحيد الصادر عن الذات الإلهية ويخاطب البشر مباشرة دون وسيط ينقل أو يترجم أو راوٍ يقص أو يروي.

أما الكتب الأخرى، فغير الكتابية، وسترى نماذج منها، فليست سوى تأملات أصحابها وأفكار من كتبوها عن الإله والخلق والوجود، فهي ابتكارات عقولهم ونتاج نفوسهم، ولا هم ولا أتباعهم ينكرون هذا أو يدَّعون غيره.

وأما النصوص الكتابية، فهي رواية من كتبوها عن الإله وتعاليمه وأوامره، ويختلط فيها الوحي بسيرة البشر وأقوالهم وأفعالهم، وهي كلام من يروي لما فهمه من تعاليم الإله وأوامره، وليست نص كلام الإله.

فإذا دفعت القرآن إلى أي أحد، وسألته: هذا النص مَن الذي يتكلم فيه، وبأي صفة يخاطب البشر؟

فستكون إجابته: الذي يتكلم هو الإله أو بصفته الإله، وبعد ذلك قد يؤمن أنه حقاً كلام الإله، أو لا يؤمن فيقول لك: من يتكلم ينتحل مقام الألوهية.

أما إذا دفعت إليه الكتاب المقدس، وسألته من الذي يتكلم في هذا النص، فستكون إجابته: لا ريب هو بشر، راوٍ يروي مذكراته أو ذكرياته عما رآه أو سمعه أو أخبره به أحد آخر.

ولكي نقرب إليك المسألة، الفرق بين القرآن وبين الكتاب المقدس، هو بالضبط كالفرق بين أن تفتح التلفاز فترى الحاكم في بلدك يلقي بياناً وتسمعه بنفسك، وبين أن تفتحه فتجد نشرة الأخبار التي تروي ما قاله، مع ما فهمه من يقرؤها مما قاله، وتعلق عليه، ويختلط فيها ما قاله بما يقوله غيره، ويلوِّنها من يحررها بأفكاره، ويحشو من يقرؤها ما بين عباراتها بأرائه.

فإذا كان القرآن بيان الله عز وجل الخاتم إلى خلقه جميعاً، وهو بيان حي غايته فهم الوجود وصناعة الحياة وتكوين الوعي وبناء الأذهان والنفوس، فلا يستقيم أن يكون ما أخبرنا به من سيرة بني إسرائيل وأخبارهم، بل وما أخبرنا به عن الأمم السابقة، لمجرد الرواية والإخبار بالغيب، ولا لمحض العبرة والعظة.

القرآن، الوحي الخاتم وبيان الإله النهائي إلى خلقه، لا يأتي بحادثة من بطن الغيب، ولا يصحح واقعة، وإن بدت بسيطة موغلة في القدم، إلا لأن لها أثراً في وعي البشر، وفي أذهانهم ونفوسهم، في كل زمان، وفي فهمهم لما يرونه من

حوادث، وفي ما يتخذونه من مواقف تجاه ما يدور حولهم من أحداث في كل مكان.

وفي سيرة بني إسرائيل تحديداً، لا يروي لك بيان الإله عز وجل عنهم رواية، ولا يخبرك بقصة، ولا يأتيك من غابر الزمان بطرف من هذه السيرة إلا ليعرفك من خلالها بصفة لاصقة بأذهانهم ونفوسهم، يورثها كل جيل منهم للذي يليه، ولينبهك في ثنايا القصة إلى أخلاق وطباع، وسلوك وسجايا، وغايات وأساليب، تنتقل معهم ولا تنفك عنهم.

غاية بيان الإله عز وجل من استخراج سيرة بني إسرائيل من بطن الغيب، وإفراد هذه المساحة الهائلة لهم فيه، أن يجعلك تعي عظم موقع بني إسرائيل من التاريخ، وآثارهم الهائلة في البشر ومسيرة البشرية، ولكي تفهم من خلال هذه السيرة وما فيها من قصص وأخبار غاياتهم وأساليبهم، وما في نفوسهم، وكيف تعمل أذهانهم، ثم لكي تدرك أثر غاياتهم وما في نفوسهم في تكوين مسار التاريخ وتوجيهه، وأثر أساليبهم وطريقة عمل أذهانهم في صناعة أحداثه، وأثر هذا وذاك في تكوين مجتمعات البشر والصبغة التي تصبغ اجتماعهم.

وكل نداء أو خطاب من الله عز وجل إلى خلقه، أو إلى فئة منهم، هو خطاب ونداء لهم إلى يوم القيامة.

فلم يختلف أحد من العلماء والمفسرين أنه إذا قال عز وجل:"يا أيها الناس"، فهو ينادي الناس جميعاً، مؤمنهم وكافرهم، إلى يوم القيامة، وإذا قال عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا"، فهو ينادي عباده المؤمنين به في كل زمان وكل مكان.

ولهم في ذلك قاعدة، هي أن:

"عموم اللفظ مقدم على خصوص السبب"

والمشكلة أنهم لم يطبقوا هذا الفهم وهذه القاعدة على نداء الله عز وجل وخطابه لبني إسرائيل، وهم القوم والفئة والطائفة الوحيدة في البشرية التي يوجه عز وجل نداءه وخطابه إليها باسمها ونسبها.

فما فهمه العلماء والمفسرون وأقاموا تفسيراتهم عليه هو أن نداء الله عز وجل في القرآن لبني إسرائيل وخطابه إليهم منحصر في قبائل اليهود في المدينة زمن نزول القرآن.

أما إذا فهمت أن القرآن هو بيان الله عز وجل إلى كل زمان وكل مكان، فيترتب على ذلك أنه ينبغي أن تدرك أن الله عز وجل إذا نادى: "يا بني إسرائيل"، أو: "يا أهل الكتاب"، أو: "يا أيها الذين هادوا"، فهو يخاطب بني إسرائيل وأهل الكتاب والذين هادوا في كل زمان وكل مكان إلى يوم القيامة.

نداء الله عز وجل في بيانه الخاتم لبني إسرائيل، وحده، ودون معرفة ما الذي يتبع هذا النداء، هو في حقيقته إخبار لنا أنهم موجودون حاضرون في الزمان وفاعلون في تاريخ البشر ومسيرة البشرية.

ولو لم يكن نداء الله عز وجل في بيانه لبني إسرائيل في كل زمان ومكان، وليس في زمان نزوله ومكانه فقط، لما كان لذلك إلا أحد معنيين، إما أنه عز وجل ينادي ويخاطب من لا وجود له، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، أو أن القرآن ليس بيانه عز وجل إلى كل زمان ومكان.

القول بأن نداءه عز وجل لبني إسرائيل والذين هادوا وأهل الكتاب هو لمن كانوا يوجدون منهم في زمن نزول الوحي فقط، وأن ما يتبع هذا النداء من بيان سمات وصفات وسلوك ينحصر في قبائل المدينة أو جزيرة العرب، يفضي تلقائياً إلى القول بتاريخانية نص القرآن.

وهو ما يعني أن الله عز وجل أنزل وحيه لفئة معينة في زمان محدد ومكان بعينه، وأن كل ما فيه من بيان إنما يتعلق بهذه الفئة أو الطبقة أو الجيل في هذا الزمان وهذا المكان، لا أنه بيانه عز وجل إلى خلقه كافة.

وهو ما يكون معناه الحقيقي وترجمته الفعلية الواقعية أن مكان القرآن ليس حياة البشر ولا حركتهم، وأن الغاية منه ليست تكوين أذهانهم ونفوسهم، ولا ضبط اجتماعهم، نور إبانة ومنهج هداية، مكان القرآن الوحيد بهذا الفهم هو المتاحف.

أما إذا قلت إن نداء الله عز وجل وخطابه لبني إسرائيل هو لهم في بقاع الأرض وأصقاعها كافة، وإلى يوم القيامة، وأن ما أخبرنا به من سلوكهم وأساليبهم في التفكير والتدبير مطلقات يتوارثونها عبر الأجيال، ويتصفون بها في كل زمان، فكأنهم، في تكوينهم العقلي والذهني والنفسي، في كل أجيالهم جيل واحد، وكأنهم، في غاياتهم ووسائلهم، في كل طبقاتهم طبقة واحدة، إذا قلت هذا تكون قد أحدثتَ بما تقول ثورتين.

فأما الأولى، فهي ثورة في فهم ما الذي يريد عز وجل أن يخبرنا به عن بني إسرائيل، وما الذي يريدنا أن نعرفه عنهم.

وأما الثورة الثانية، فهي في فهم موقع بني إسرائيل من التاريخ، وعظم دورهم في صناعة أحداثه وتكوين مساره، وفي إدراك جسامة آثارهم في وعي البشر وأذهانهم ونفوسهم، وفي حياتهم ومجتمعاتهم.

ما أفرده الله عز وجل لبني إسرائيل في بيانه إلى خلقه، يخبرنا به وفي ثناياه عن شئ أشد خطراً وأعظم أثراً في تكوين البشرية وتاريخها ومسيرتها من مجرد ثلاث قبائل كانت تستوطن ضواحي المدينة ثم أجليت عنها وانتهى أمرها.

فإذا كان القرآن والوحي هو بيان الله عز وجل إلى خلقه كافة، وإلى يوم القيامة، وليس نصاً تاريخياً لأهل الزمان الذي أنزل فيه والمكان الذي تنزل عليه، فلا معنى لما أفرده لبني إسرائيل من مساحة هائلة إلا أن بني إسرائيل مسألة محورية في تاريخ البشر، وأن لهم دوراً عظيماً في سيرتهم وأثراً هائلاً في مجتمعاتهم.

إدراك أن نداء الله عز وجل وخطابه لبني إسرائيل، وأن ما يخبرنا به عنهم، هو لهم وفيهم إلى يوم القيامة يفتح آيات القرآن ويفجر ينابيعها، ويجعل ميدان عملها ومجال فهمها وتفسيرها العالم كله والتاريخ بطوله.

وتبيـــــان:

لأن القرآن هو بيان الله عز وجل الخاتم إلى خلقه إلى يوم القيامة، فقد نبهك عز وجل إلى أنه:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾[1]

فالله عز وجل جعل بيانه تبياناً لكل شئ، وأودع فيه أصول العلوم، ومفاتيح المعارف، لتكون نبعاً تتفجر منه العلوم وتنفتح به أبواب المعارف، ولتكون قواعد وضوابط تُفهم بها ومن خلالها كل المعارف والعلوم.

ومن هذه العلوم والمعارف ما لا مصدر له أصلاً سوى الوحي، وليس في طاقة البشر إدراكه ولا الوصول إليه بما يحوزونه وأودع فيهم من وسائل الإدراك وتحصيل المعرفة.

والقرآن كله ناطق بذلك في آياته ومنهجه وما يرشد إليه الإنسان، وهو صريح في ذلك في قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ ﴾[2]

١) النحل:٨٩.
٢) إبراهيم:٩.

وسائل المعرفة

وسائل المعرفة، أي الوسائل التي يدرك بها الإنسان الأشياء و يعرفها، ويحكم بها عليها، تنقسم إلى قسمين كبيرين:

القسم الأول: الوسائل الإنسانية

هو وسائل المعرفة الذاتية المركبة في الإنسان والمودعة فيه، وهي جزء من تكوينه، وتمكنه من أن يكتشف الأشياء ويدركها ويعرفها بنفسه.

وهذه الوسائل الذاتية التي هي جزء من تكوين الإنسان تشمل:

أولاً: العقل:

وتفهم به البدائه والمسائل الرياضية والحساب، وهنا نشير لك إلى الفرق بين موقع العقل في الإسلام وحضارته وموقعه من الغرب وسيرته.

العقل في الغرب صيَّرته مسيرته وتاريخه ميزاناً ومعياراً، لأن الغرب لا ميزان فيه ولا معيار، لافتقاده الوحي، وهو مصدر الميزان والمعيار.

أما فى الإسلام وحضارته وتاريخه، فالعقل أداة ووسيلة، وظيفتها العمل في المعيار والميزان، ومن داخله، لفهمه وتطبيقه.

ومما يثير الانتباه أن مادة: عقل لم ترد في القرآن في الصيغة الاسمية الساكنة: العقل، العقول، فلا تاتي إلا في الصيغة الفعلية المتحركة: أفلا تعقلون، لعلكم تعقلون، من بعد ما عقلوه.

وهذا بخلاف وسائل المعرفة الأخرى جميعها التي تأتي في القرآن بصيغتيها الاسمية والفعلية: السمع، السميع، يسمع، تسمعون، البصر، الأبصار، يبصرون.

وهي دلالة على أن العقل في الحقيقة ما هو إلا وظيفته، وانه لا يكون اداة للفهم والعلم إلا إذا كان متحركاً يجول في الشئ الذي توجه لفهمه وعلمه.

وثمة شئ آخر، وهو أن العقل، بخلاف الحواس، لا يكون وسيلة للمعرفة وحده ابتداءًا، بل هو وسيلة تبدأ من معطيات سابقة تقدمها له وسائل أخرى، ليتحرك فيها ويجول، كي يصل إلى المعرفة.

وقد تاتي هذه المعطيات الأولية التي يبدأ منها العقل الحركة من الحواس، ولذا نبهك بيان الإله إلى أنه إذا فقد الإنسان الحواس تماماً، انعدمت المعارف الأولية التي يبدأ العقل منها وفيها العمل، فيصبح وكأنه لا وجود له.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ (١)

وقد تكون المعطيات الأولية التي يبدأ العقل منها وفيها الحركة واردة إليه من الوحي.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾(٢)

فإذا فقد العقل الوحي في المعارف والعلوم التي لا مصدر لها إلا الوحي، انعدم ولم يعد له وجود، وصارت حركته ضلالاً وخبطاً في عشواء.

١) البقرة:١٧١.
٢) يوسف:٢.

ثانياً: الحواس:

والحواس تشمل تلك المجردة، كالسمع والبصر واللمس والشم والذوق، والحواس المدعومة بالآلات، كالتلسكوب أو الميكروسكوب.

ويدخل في الحواس كوسيلة للمعرفة المنهج التجريبي القائم على الملاحظة والرصد وجمع الشواهد والأدلة، ثم تحليلها، وهو المنهج الأساسي في دراسة الطبيعة وفهم حقائق الكون.

وبيان الله عز وجل يرشدك إلى أن الحواس وسيلة لمعرفة حقة وعلم حقيقي، وأنها الوسيلة الاولى في التعامل مع الطبيعة وإدراك حقائق الكون.

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾[١]

وأن الحواس هي التي تقدم للعقل المادة الأولية والمعارف الأولى، التي يتحرك فيها ويكوِّن العلم.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[٢]

وما اخبرك به الوحي حقيقة لم يدركها ويصل إليها أحد خارج عالم الوحي إلا بعد نزول القرآن بتسعة قرون، حين صاغ المفكر والفيلسوف الإنجليزي

---

١) **الغاشية:** ١٧-٢٠.
٢) **النحل:** ٧٨.

جون لوك John Locke مصطلحاً طبلوا له وزمروا، وأنشدوا الأناشيد في كيف وصل إلى مبدأ هو فتح في فهم العقل الإنساني والنفس البشرية.

والمصطلح الذي صكه لوك وصاغه هو: **Tabula Rasa**، ويعني ان الإنسان يولد صفحة بيضاء ليس في عقله ولا نفسه ولا وجدانه علم ولا معارف ولا مدركات، ثم تتكون هذه مما يرد إليه ويدخل فيها مما تجلبه الحواس أو التعاليم والخبرات.

وكما ترى، التابيولا رازا التي كتبوا فيها الأشعار وغنوا لها الاغاني ليست سوى ما أخبرك به عز وجل في بيانه قبل ان يولد جون لوك بتسعة قرون.

وقد تتوهم أيضاً لأول وهلة، أن ما عرَّفك به عز وجل في بيانه من أن الحواس وسيلة لمعرفة وعلم حقيقي مسألة هينة أو بديهية ولا تحتاج إلى إرشاد وتنبيه.

ولكي تقدر ما أخبرك به الإله في بيانه حق قدره ينبغي أن تعلم أنه قبل نزول القرآن كان للبشر عيون وآذان، ولكن كان استخدامها عشوائياً، وفي حدود ضرورة التعامل اليومي، ولم يكن في العالم منهج يعُد الحواس من وسائل تحصيل المعرفة والوصول إلى علم حقيقي.

والإغريق، وحضارتهم أكثر الحضارات أثراً وبريقاً قبل نزول القرآن، كانوا يقدسون العقل ويرونه الوسيلة الوحيدة للمعرفة والعلم الحقيقي، ولذا كانوا يحتقرون الحواس، وهي عنهم خداعة، وما تجلبه من معارف وهم ولا يصلح أن يكون علماً.

ومن ثَم كان المثل الأعلى للعالم عند الإغريق هو:

"المفكر النظري الذي يستخلص الحقائق كلها بالتأمل النظري، أما محاولات تدعيم هذه الحقائق بمشاهدات أو ملا حظات أو تجارب فكانت في نظرهم خارجة عن العلم، بل إنها تحط من قدر العلم وتجعله مجرد ظن أو تخمين"[١]

ولم يتقدم الإغريق في أي علم سوى الهندسة، لأنها العلم الذي أداته الوحيدة العقل ووسيلته التصور الذهني.

وحتى الحساب كان الإغريق يحتقرونه ويتعاملون مع أعداده على أنها وسيلة للعب واللهو والتسلية، وهو المعنى الأصلي الذي تحمله كلمة: حساب Arithmatic الغربية، الإغريقية الأصل.

ثالثاً: التعليم وتوارث الخبرات:

وهي الوسائل التي يدرك بها الإنسان العادات والأعراف، وينتقل عبرها ما يحصله من مصادر المعرفة الأخرى من جيل إلى جيل، ليتكون بتراكمها وعي المجتمع أو القوم أو الأمة أو البشرية كلها.

القسم الثانى: الوحي:

الوحي هو النور الذي يُرى به كل شئ، وتسفر به حقيقته، وتستبين ملامحه، ومن غيره تظلم الأشياء والأفكار والأحداث والتاريخ والوجود وتفقد ملامحها،

١) دكتور فؤاد زكريا: التفكير العلمي، ص١٣٧.

وتنطفئ وسائل المعرفة الأخرى كلها، وتفقد قدرتها على التمييز، وتتوهم أي شئ في أي شئ، وترى الحق باطلاً والباطل حقاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾[١]

الوحي هو مصدر المعرفة المطلق المرتفع عن الزمان والمكان، والمهيمن على كل المعارف، وهوسقف المعرفة الأعلى الذى لا تخرج أي معرفة عن حقائقه، بما في ذلك علوم الطبيعة والكون.

فإليك الدليل من أهله، يقول يوشيودي كوزان، رئيس مرصد طوكيو، وهو أستاذ في جامعة طوكيو، يصف ما جاء في آيات القرآن من معارف وإشارات تتعلق بالكون وتكوينه وشكله وحركته والعلاقات بين أجرامه:

"إن هذا القرآن يصف الكون من أعلى نقطة في الوجود، فكل شئ مكشوف أمامه، إن الذي قال هذا القرآن يرى كل شئ في هذا الكون، فليس هناك شئ قد خفي عليه"[٢]

وما فطن إليه يوشيودي كوزان هو السبب الذي من أجله حجب بنو إسرائيل الوحي عن البشر وكتموه، لأن من يحوز الوحي يملك مفاتيح المعرفة المطلقة، ويرى كل شئ في الوجود مكشوفاً دون حواجز من الزمان أو من المكان، فضنوا بهذه المعرفة المطلقة أن يصل إليها أو تكون في حوزة أحد غيرهم.

---

١) النساء: ١٧٤.
٢) نقلاً عن كتاب: أنه الحق، للشيخ عبد المجيد الزنداني، ص٦٨.

وهنا موضعٌ لأن نذكرك أنك لا يمكن أن تدرك ما الذي يريد الوحي أن يخبرك به عن بني إسرائيل، عقائدهم وأخلاقهم وسماتهم العقلية والنفسية وأساليبهم في التفكير والتدبير، إلا إذا تعاملت مع القرآن على أنه مصدر حي ومطلق للمعرفة، ثم تحاول أن تستخرج ما هو مبثوث في آياته ويسري في نسيجه من معارف، لا أن تتعامل معه بطريقة جامدة ساكنة على أنه كتاب للتقديس، أو أن ما فيه من قصص وأخبار وسير لمجرد العظة، أو لمحض نوال الثواب والبركة.

وظيفة الوحي:

وظيفة الوحي الرئيسة، كمصدر للمعرفة، صناعة وعي الإنسان، وتكوين بنائه الذهني والنفسي الذي يدرك به الأشياء ويفهمها، وضبط معاييره وموازينه التي يحكم بها عليها، لكي يكون كل ما يتكون في وعيه، وما ينتجه ويخرجه عقله من أفكار ورؤى وفهم ونظريات مصبوغاً بهذا البناء الذهني والنفسي ومحكوماً ومضبوطاً بهذه المعايير والموازين.

وذلك عبر إمداد الإنسان بالمعارف المحورية التي تكوِّن هذا الوعي وتصنع هذا البناء، والتي لا مصدر لها إلا الوحي، ولا يستطيع الإنسان أن يدركها ولا أن يصل إليها وحده بما يحوزه وما أودع فيه من وسائل لتحصيل المعرفة.

وهذا النوع من المعارف التي لا مصدر لها إلا الوحي، فقْده يؤدي إلى خلل في تكوين الإنسان، واضطراب في وعيه، وعدم قدرته على فهم أي شئ في الوجود فهماً صحيحاً وعلى حقيقته، بما في ذلك فهم الإنسان نفسه وماذا يكون.

ولذا لا يُفصِّل القرآن في معرفة ولا مسألة إلا إذا كانت عصية على الإنسان أن يصل إليها بنفسه، وفوق طاقة وسائل معرفته الذاتية المركبة فيه أن يدركها.

أما المعارف التي يمكن للإنسان أن يصل إليها وحده بعقله، أو بحواسه، أو بالتجربة والخطأ والتصويب، فإن منهج القرآن أن يضع للإنسان الإرشادات إلى الطريق الصحيح، ويدله على المسار الحق لكي لا يضل، ثم يتركه ليحوزها ويحصلها بنفسه.

والوظيفة الثانية الرئيسة للوحي، كمصدر للمعرفة، هي تنظيم العلاقة بين وسائل المعرفة جميعاً، وبيان المجال المناسب لعمل كل وسيلة من وسائل المعرفة، والذي إن وضعت واستخدمت فيه أثمرت وفتحت مغاليقه، وإن وضعت في غيره انغلق أمامها ولم تصل إلى شئ .

وربما توجد معارف تحتاج في إدراكها إلى اجتماع وسائل معرفة متعددة، فالوحي هنا يدلك على الموضع أو المجال الذي تتقدم فيه وسيلة وتتبعها الباقيات، وربما تقدمت وسيلة من وسائل المعرفة في مجال، وربما تأخرت لتتقدم عليها أخرى فى مجال آخر.

وثمة مثال صيني شهير يعرفك أنك إذا أعطيت الفقير سمكة فقد أطعمته يوماً واحداً، أما إذا علمته الصيد فقد أطعمته طوال حياته.

وهكذا الوحي، فليست وظيفته أن يعطي الإنسان معلومات أو معارف منفردة أو متناثرة أو متراكمة عن أي شئ أو عن كل شئ، بل أن يعلم الإنسان الصيد، بتكوين وعيه وبناء ذهنه الذي يصل به إلى المعرفة ويحكم به على كل شيء،

وبإعطائه المعارف التي لا مصدر لها غيره، وبهدايته إلى الوسيلة المناسبة لكل مجال من مجالات المعرفة، وبتنسيق العلاقة بينها وبيان أيها تتقدم وأيها تتأخر.

ضـــوابـــــــط

لأن الكتاب الذي بين يديك يرى القرآن على أنه بيان الإله وتبيانه، وأنه مصدر مطلق للمعرفة، لا أنه مجرد كتاب للتقديس والبركة، ولأنه سيتعامل مع ما فيه بخصوص بني إسرائيل بطريقة غير تقليدية ولا مألوفة، وتتجاوز حدود البحث عن معنى الكلمة أو الآية إلى فهم ما الذي تريد أن تخبر عنه، واستخراج الرسائل التي تحملها في نسيجها، ولأن ما تنتجه هذه الطريقة غير التقليدية ولا المألوفة، وما تُخرجه وما يترتب عليه، لا سابقة له من قبل، بل ويخالف في بعضه كل ما قاله المفسرون وما ذهب إليه المحققون، فلابد أولاً من كلمة عن ضوابط فهم القرآن واستخراج معانيه.

فهم آيات القرآن، وتفسير معانيها واستخراج ما تخبر به لا قيد عليه، عندنا على الأقل، سوى أمر من اثنين، هما الضابطان للفهم.

القيد أو الضابط الأول:

أن يكون قد ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام حديث صحيح في تفسير الآية أو الكلمة، لأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، وتفسيره وحي تتوقف أمامه كل وسائل المعرفة الأخرى، عقلاً وحواساً، وليس لها أن تتقدم عنه أو تتأخر.


﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1]

---

1) النجم:٣-٤.

ومن حكمة الله عز وجل، ومن مراده، أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يفسر من القرآن وآياته إلا ما يتعلق بالعقائد والعبادات والأحكام، ليبين لأمته كيف تكون، وليزيل الالتباس في فهم ما يقوم عليه الدين وتشاد به الملة.

وأما أغلب آيات القرآن، فلم يتعرض لها عليه الصلاة والسلام بالتفسير، وهي حكمة وإرادة إلهية، من أجل أن يظل القرآن ينبوعاً يتدفق بالمعاني والكشف والإبانة، ويفهم منه كل جيل وعصر ما لم يفهمه سابقه، فيظل القرآن نوراً يضئ سيرة البشرية كلها، ويظل حياً يصنع أذهان البشر ويتفاعل مع عالمهم وما يشهده من أحداث عبر الزمان كله.

والقيد أو الضابط الثاني:

أن يكون الفهم والتفسير وما ينتجه مقيداً باللغة العربية، وما تجيزه قواعدها ونحوها وتراكيبها وصياغاتها من فهم، وما تحمله وتحتمله كلماتها وألفاظها من معان، لأن الله عز وجل أخبرنا هو ذاته أن هذا هو القيد والضابط الوحيد في فهم كتابه.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾[1]

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ ﴾[2]

١) يوسف:٢.
٢) الزخرف:٣.

وبخلاف تفسير النبي عليه والصلاة، وقواعد اللغة ومعانيها، فلا قيد على فهم آيات القرآن وتفسيرها، لا من فهم آخر، ولا من معرفة شائعة، ولا من أقوال قيلت وألفت دون أن ترفع إلى من يوحى إليه عليه الصلاة والسلام.

فهذه الضوابط هي تقييد وإطلاق في الوقت نفسه، هي إطلاق للأفهام والعقول في فهم القرآن، وتحرير لها من التقيد بأقوال قيلت، أو أشياء ألفت واكتسبت رسوخها من اعتياد العقول والنفوس لها، ومن أن تقيدها أفهام أخرى.

فكل ما يفهمه الإنسان من إعمال العقل في آيات القرآن صحيح، بشرط أن يكون الفهم مقيداً بما تحتمله معاني الألفاظ والكلمات، وما تجيزه الصياغات والتراكيب، وبشرط ألا يكون للنبي عليه الصلاة والسلام في الآية تفسير، فحينئذ ليس لأحد بأي ذريعة أن يتقدم أو يتأخر عن تفسيره عليه الصلاة والسلام.

وهذه الضوابط هي أيضاً تقييد، للتفرقة بين الفهم وإعمال العقول وبين الهوى، وبين التفسير بمعنى محاولة الوصول إلى ما يريد النص أن يخبرنا به وبين التأويل الذي يلوي عنق النص ليخرج منه ما ليس فيه.

وهو ما يفعله بعض الضالة من العلمانيين، لكي يجعلوا القرآن موافقاً لأهوائهم، فيبدأ أحدهم من نص القرآن، ثم ينفلت خارجه، ليقول باسم أنه يفسر ويستنبط ما لا علاقة له بالكلمات والألفاظ ومعانيها، ولا تحتمله صياغة الآيات وتراكيب العبارات من أي وجه.

وهم في ذلك إنما هم قردة مقلدة، وببغاوات مرددة، تحاكي، دون وعي أو عقل، مذهب التأويل الغربي أو الهرمنيوتيكا **Hermeneutics**، الذي اضطر بعض فلاسفة الغرب وأدبائه لابتكاره، من أجل تفسير الغرائب التي يمتلأ بها الكتاب المقدس، وتتصادم مع العقل، ومع حقائق الكون وعلوم الطبيعية، وهو المذهب الذي اكتمل على يد الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر **Martin Heidegger** وتلميذه هانز جورج جادامر **Hans Georg Gadamer** .

والفرق بيننا وبين هؤلاء الببغاوات والقردة أننا نمثل بين يدي النص، لنسأله السؤال التالي: ما الذي تريد ان تخبرنا به؟

أما هؤلاء الضالة فينكرون النص ويريدون اقتحامه ولوي عنق آياته، ليوافق أهواءهم وما في رؤوسهم من ضلالات، وما يعتنقونه من مذاهب فلسفية أو اجتماعية، أو ما يتبعونه من اتجاهات سياسية.

الفرق بيننا وبينهم أن النص يحكمنا، وهم يتوهمون أنهم يحكمونه.

عــوائـــــــق

القرآن، كما علمت، بيان الله عز وجل إلى الناس كافة، وهو تبيانه سبحانه لكل شئ، وهو مصدر المعرفة المطلق وحدها الأعلى، وفيه أصول كل العلوم ومفاتيح لكل المعارف.

وهذه المفاتيح والمعارف قد تكون صريحة ظاهرة أمام النظر، وقريبة من العقل، فيدركها الإنسان دون كبير جهد أو عميق تدبر.

غير أن أغلب هذه المفاتيح عميق داخل النص، وملفوف في نسيج كلماته وآياته، ومخبوء بين تراكيبها وفي ثنايا صياغاتها، ومن ثَم يحتاج كشفها والوصول إليها إلى تدبر وتفكر، وإلى غوص عميق، ولابد لإدراكها وفهمها من أساليب وطرائق تتجاوز مجرد معرفة معنى الكلمة أو العبارة أو الآية.

وليس المقصود بالمعارف المخبوءة في آيات القرآن والملفوفة في نسيجه وبين تراكيبه بعيداً عن النظر العابر والفهم القريب وجود خفايا وخبايا أو إشارات ورموز بالمعنى الباطني، ولا أن كشف هذه المعارف بالإلهامات النفسية والوجدانية أو بالشطحات العقلية والذهنية.

فالقرآن، نعم، به خفايا وخبايا، بل وفيه، كما سترى، شفرات ورموز، ولكنها خفايا وشفرات لغوية، وحلها، كما ستعلم، بالعقل، ووسائل هذا الحل في اللغة، وليس بالإلهامات والشطحات التي ليس لها قواعد ولا دليل عليها.

القرآن، كالبحر، شاسع عميق، وكل مستوى من العمق يصل إليه فهم تنفتح معه معارف بقدر قدرة هذا الفهم على الغوص، فما يفهمه ويدركه الواقف على شاطئ القرآن يراه وينظر إليه، يختلف عما يدركه ويفطن إليه من يبحر فيه ويمخر عُبابه، وهذا وذاك يختلف عن الأعماق التي يراها من يغوص فيه، وعن الآفاق التي يدركها، والعوالم التي تنفتح له، والأعاجيب التي يستخرجها.

وربما تساءلت: إذا كانت المفاتيح والشفرات التي في القرآن لغوية، وحلها في معانيها وقواعدها وبالعقل، فلماذا لا تدركها كل العقول، بل وقد لا تراها أصلاً، ولماذا لا تنتبه الأفهام إلى المعارف التي تحويها وهي مخزونة فيها؟

والإجابة في المثال الذي أمامك، فليس كل واقف أمام البحر يتأمله وتُسر نفسه برؤيته بقادر على السباحة فيه، وليس كل سباح بغواص.

وثمة عوائق تحول دون أن ترى كل الأنظار هذه الشفرات اللغوية، ودون أن تدرك جل الأفهام ما فيها من معارف، وهذه العوائق ليست، كما قد يتبادر إلى ذهنك، العوائق التقليدية المفهومة بداهة، كالجهل بالعربية وقواعدها، وما تعنيه صياغات عباراتها وتراكيبها، وما تحمله ألفاظها وكلماتها من معان.

فإليك بعضاً من هذه العوائق التي قد تحجب العقول عن رؤية ينابيع المعرفة في القرآن، وتصرفها عن تفجيرها.

أولاً: المعارف المجهولة:

فقد تكون المعرفة أو الشئ موجوداً أمامنا ولا نراه أصلاً، لأننا لا نعرف وجوده، أو لأنه ليس موجوداً في وعينا، فالعين لا ترى إلا ما يعرفه العقل وما هو موجود في الوعي، فإذا لم يكن، فلن نراه ولن نفطن إلى وجوده.

فثمة معارف في الآيات قد لا تُفهم ولا تدرك بالبداهة والنظر العام أو المباشر، لأنها تحتاج إلى معارف أخرى من خارج القرآن لرؤيتها وإدراكها بها.

فآيات القرآن التي تصف الكون والأفلاك والنجوم، وتلك التي تخبر عن الطبيعة، اجتهد أئمتنا من المفسرين القدامى، رحمهم الله، في تفسيرها في حدود معارفهم، لكنهم لم يستطيعوا فهم فحواها وما تصفه وما تعنيه حقاً، لأنه يحتاج إلى معارف وعلوم لم تكن في حوزتهم ولا يعرفها زمانهم.

وهم أنفسهم كانوا يدركون أن ما يقولونه في تفسير هذه الآيات لا يفي بحقيقتها، ولا يستطيع الوصول إلى تحرير ما تصفه.

وللإمام الطبري، رحمه الله، عبارة بديعة، قالها عند تفسير معنى الفلك في قوله تعالى فى سورة الأنبياء:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾[١]

فبعد أن نقل الإمام الطبري ما وصل إليه من أقوال ومعارف في تفسير هذه الآية وما سبقها من آيات تصف الكون والسماء وأجرامها، على منهجه في

١) الأنبياء:٣٣.

التفسير، أحس بقصور كل ما نقله عن بيانها وكشف ما فيها، وليس عن النبي عليه الصلاة والسلام خبر يفسر معناها، فختم نُقوله ورأيه بقوله:

"ونسكت عما لا علم لنا به"[1]

ثانياً: طبقات المعاني:

فالكلمة أو الآية قد تحمل معانى متعددة، أو طبقات من المعارف، ينصرف الذهن بالقريب بها عن البعيد، أو بالطبقة الظاهرة عن الطبقة العميقة.

فقد يكون الشئ، أو المعرفة والتعريف بشئ ما، موجوداً في الآية أو الآيات ويذهل الناظر عن المراد لانصراف ذهنه في تفسير الآيات إلى معنى آخر غير المقصود، أو لاكتفائه بمعنى موجود فعلاً وعدم انتباهه إلى غيره من المعاني.

ففي قوله تعالى:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[2]

فسر الأئمة من المفسرين الدحو هنا على أنه البسط والسعة، وهو معنى صحيح للكلمة، والإمام ابن فارس يقول في معجم مقاييس اللغة:

"الدال والحاء أصل واحد يدل على اتساع وتبسط ... والدال والحاء والواو أصل واحد يدل على بسط وتمهيد "[3]

---

١) الإمام الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ج١٦، ص٢٦٧ .

٢) النازعات: ٣٠.

٣) الإمام ابن فارس:معجم مقاييس اللغة: ج٢، ص٢٦٥.

وفهم المفسرون من هذا المعنى أن المراد بالدحو استواء الأرض وتسطيحها، ولكن الكلمة لها معنى آخر، أو معنى مكمل، هو البسط والاتساع بمعنى الامتداد بلا نهاية، وهو ما يعنى أن الأرض على شكل دائرة، أو كرة، أو شكل شبيه بهما أو قريب لهما، لأن الدائرة أو الكرة هي الشكل الوحيد الذي ليس له أول ولا آخر، ومن ثَم فهو الشكل الذي يتحقق به الامتداد بلا بداية ولا نهاية، أو البسط الدائم.

والإعجاز حقاً في كلمة: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ أنها تحتمل هذه المعاني كلها، فإذا اعتقدت أن الأرض مسطحة منبسطة لأنك تراها وتدركها في حدود حواسك هكذا، فهي: ﴿دَحَىٰهَآ﴾، وإذا استدل أحد أو اكتشف مع تقدم آلات الرصد أنها جِرم سابح في الفضاء، وأنها كروية أو بيضاوية، فهي أيضاً: ﴿دَحَىٰهَآ﴾.

وجه الإعجاز الحقيقي، أن اللفظ أو الكلمة في القرآن تحيط بالمعرفة الإنسانية، فكانها سوار لا يمكنها أن تخرج عنه في أي زمان، وعند أي طبقة من المعرفة.

ومن الطريف هنا أن تعلم أنه إلى الآن يوجد في الغرب، وليس في الشرق، من يعتقد أن الأرض مسطحة أو منبسطة ولها حواف وبداية ونهاية.

وفي بريطانيا جمعية اسمها: جمعية الأرض المسطحة الدولية **International Flat Earth Society**، أسسها الإنجليزي صمويل شينتون **Samuel Shinton** سنة ١٩٥٦م، وتعتقد الجمعية، التي يبلغ عدد

أعضائها بضعة آلاف في أوروبا وأمريكا الشمالية، أن الأرض مسطحة، وعلى شكل قرص، وان القارات توجد على السطح الأعلى لهذا القرص!

والأطرف أن من بين أعضاء الجمعية، بل وبعض من ترأسوها، هم من علماء الفلك والطبيعة، وأول رئيس لها هو إليس هيلمان **Ellis Hillman** وكان أستاذاً في أحد أرقى معاهد العلوم والتقنية في العالم، وهو معهد البولي تكنيك **Polytechnic** في زيورخ!

ثالثاً: الآيات المتشابهة:

قد تبدو آيتان، أو مجموعة آيات، متشابهة في كلماتها أو في صياغاتها، فتتقيد الأذهان في فهم آية أو آيات، ومعرفة ما الذي تخبر عنه، بما فهمته من الآية أو الآيات الأخرى، وتذهل عن الفروق الدقيقة بين الآيات، وما تزيده آية عن أخرى من حرف أو كلمة، أو ما تقله عنها، وما قُدم في موضع وأُخر في آخر، وما حذف وما أثبت، وما تؤدي إليه هذه الفروق من اختلاف ما تخبر به كل منهما عن الأخرى.

فالآيات التي تبدو متشابهة، وربما يتوهم الذهن أنها تتكلم أو تخبر عن شئ واحد، هي في حقيقتها وعند الغوص فيها غير متشابهة، والفروق الدقيقة بينها في الصياغة تنتج اختلافاً كبيراً وآثاراً متباينة في المعنى.

رابعاً: جمع الآيات:

قد تبدو الآية، في ظاهرها، صامتة أو وحيدة المعنى، ولكن جمع الآيات المختلفة في الموضوع الواحد معاً يحولها إلى ينبوع يتدفق بالمعارف، وينكشف

بهذا الجمع ما لا ينكشف برؤية الآيات وفهمها منفردة منفصلة معزولة عن بعضها.

فثمة من المعارف ما لايمكن رؤيته، ولا الانتباه إليه، ولا فهم معناه إلا بجمع الآيات المختلفة في الموضوع الواحد معاً.

نمـــــــاذج

فإليك هذه النماذج على ما تحويه آيات القرآن من معارف لا يمكن رؤيتها ولا إدراكها بالاقتصار على الأساليب التقليدية التي تتوقف عند فهم معنى الكلمة أو العبارة أو الآية، دون الانتباه إلى سؤال والبحث عن إجابته، وهذا السؤال هو: ما الذي تريد الآية أو الآيات أن تخبرنا عنه؟

وهي نماذج ليس المقصود منها التعرف على ما تحويه الآيات من معارف، ولكن بيان كيف يكون منهج التعامل مع الآيات الذي يُنطقها ويجعلها ينبوعاً متدفقاً بالمعاني والمعارف، لكي يكون ذلك نموذجاً للمنهج الذي سنتعامل به مع آيات بني إسرائيل، لمحاولة فهم ماذا يريد الله عز وجل أن يخبرنا به عنهم.

وهي نماذج تعمدنا في اختيارها أن تكون في مجالات مادية، وبعيداً عن سيرة بني إسرائيل، لكي يكون الفهم أيسر والخلاف أقل.

وفي كل مثال قاعدة، سوف نحتاج إليها ونحن نحل شفرة سورة الإسراء، ونحاول أن نفهم ما الذي تريد أن تخبرنا به آياتها عن بني إسرائيل.

لؤلؤ ومرجان

فهذا مثال على أن الآيات التي تبدو متشابهة، وربما تتوهم أنها تتكلم أو تخبر عن شئ واحد، هي في حقيقتها وعند الغوص فيها غير متشابهة، والفروق الدقيقة بين ألفاظها وكلماتها تنتج اختلافات شاسعة البون في معانيها وما فيها.

يقول عز وجل في سورة الفرقان:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾[1]

ويقول سبحانه وتعالى في سورة الرحمن:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾[2]

كما ترى، الآيات تبدو متشابهة وتخبر عن شئ واحد، لكن بينها في الحقيقة فروق، وهذه الفروق، التي تبدو دقيقة، تجعل ما تتكلم عنه كل منهما لا علاقة له بما تخبر عنه الأخرى.

في السورتين أن الله عز وجل مرج البحرين، وفي لسان العرب لابن منظور:

---

١) الفرقان:٥٣.
٢) الرحمن:٢٠-٢٢.

"مرج الأمر مرجاً، فهو مارج ومريج: التبس واختلط ... ومرج الله البحرين العذب والملح: خلطهما حتى التقيا، قال الفراء في قوله تعالى: "مرج البحرين يلتقيان": أرسلهما ثم يلتقيان بعد، وقيل: خلاهما ثم جعل لا يلتبس ذا بذا، وقال الزجاج مرج: خلط، يعني: البحر الملح والبحر العذب، ومعنى: "لا يبغيان"، أي: لا يبغي الملح على العذب فيختلط"[١]

وفي المعجم الوسيط:

"أمر مريج: مضطرب قلق، وفي التنزيل العزيز: "فهم في أمر مريج"[٢]

فمرج البحرين معناها أنه عز وجل أرسل الماءين وأطلقهما، فيلتقيان معاً ويتقابلان، ويتحرك كل منهما نحو الآخر في اضطراب.

والبحر عند العرب هو:

"الماء الكثير، ملحاً كان أو عذباً، سمي بذلك لعمقه واتساعه"[٣]

وفي السورتين أن الماءين أو البحرين بينهما برزخ، والبرزخ هو:

"ما بين كل شيئين، وفي الصحاح: الحاجز بين الشيئين"[٤]

فالماءان أو البحران يتجه كل منهما نحو الآخر ويلتقيان، ولكن بينهما برزخ أو حاجز يمنعهما من الامتزاج والاختلاط.

فإليك نماذج مما قاله أئمة المفسرين في بيان المقصود من آية سورة الفرقان.

---

١) الإمام ابن منظور: لسان العرب:ج٢، ص٣٦٥.
٢) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص٨٦١.
٣) لسان العرب: ج٤، ص٤١.
٤) لسان العرب: ج٣، ص٨.

قال الإمام القرطبي والإمام أبو حيان التوحيدي رحمهما الله:

" قال الحسن: يعني بحر فارس وبحر الروم، وقال ابن عباس وابن جبير: يعني بحر السماء وبحر الأرض، قال ابن عباس يلتقيان في كل عام وبينهما برزخ قضاء من قضائه"[١]

وتفسير الشيخ الشعراوي قريب من هذا، إذ يقول رحمه الله:

"البحر أعده الله ليكون مخزن الماء في الكون... وجعل بينه وبين الماء العذب تعايشاً سلمياً، لا يبغي أحدهما على الآخر رغم تجاورهما ... وأصل كلمة برزخ اليابسة التي تفصل بين ماءين"[٢]

وأما الإمام الطبري، فبعد ان نقل، في تفسيره، ما وصله من آثار في تفسير البحرين والبرزخ والحجر المحجور، اختار قول ابن جريج:

"فلم أجد بحراً عذباً سوى الأنهار العذاب، فإن دجلة تقع في البحر، فأخبرني الخبير بها أنها تقع في البحر فلا تمور فيه، بينهما مثل الخيط الأول ... والنيل يصب في البحر"[٣]

وفسر الإمام الطبري اختياره بأن:

"الله تعالى ذكره أخبر في أول الآية أنه مرج البحرين، والمرج الخلط في كلام العرب، فلو كان البرزخ الذي بين العذب الفرات من البحرين والملح

---

١) الإمام القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ج١٣، ص٥٩، الإمام أبو حيان التوحيدي: تفسير البحر المحيط ج٦، ص٤٦٤.

٢) تفسير الشعراوي: ج٢٦، ص١٠٤٧٠.

٣) جامع البيان: ج١٧، ص٤٧٤.

الأجاج لم يكن هناك مرج للبحرين... ولا هناك من الأعجوبة ما ينبه إليه أهل الجهل من الناس ويذكرون به"[١].

وأما الذي اتاح له زمنه وما ظهر فيه من معارف أن يقترب من الذي تخبر عنه آية سورة الفرقان فعلاً، فهو فضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، فذكر في تفسيره: التحرير والتنوير أن:

"المراد بالبرزخ تشبيه ما في تركيب الماء الملح مما يدفع تخلل الماء العذب فيه، بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر، ويبقى كلاهما حافظاً لطعمه عند المصب"[٢]

فاهتدى الطاهر بن عاشور بذلك إلى أن ما تخبر عنه آية الفرقان هو مصبات الأنهار العذبة في البحار الملح، بل وحدد موضعاً معيناً فسر به الآية، وهو:

"ملتقى ماء نهري الفرات ودجلة مع ماء بحر خليج العجم"[٣]

ما تخبر عنه آية سورة الفرقان هو مصبات الأنهار في البحار والمحيطات، حيث يلتقي ماء النهر العذب بماء البحر أو المحيط شديد الملوحة دون أن يمتزجا، والبرزخ هو اختلاف خواص كل منهما عن الآخر، كالكثافة ودرجة الحرارة وسرعة الجريان.

وأصل الحجر في اللغة، كما يقول ابن فارس، في معجم مقاييس اللغة:

---

١) جامع البيان: ج١٧، ص٤٧٥-٤٧٦.
٢) الشيخ الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير: ج١٩، ص٥٤.
٣) تفسير التحرير والتنوير: ج١٩، ص٥٤.

"الحاء والجيم والراء أصل واحد مطرد، وهو المنع والإحاطة على الشئ ... والعقل يسمى حجراً لأنه يمنع من إتيان ما لا ينبغي"[1]

فالحجر المحجور تعني في اللغة: منطقة ممنوعة أو محرمة، وتفسيرها، كما نقل الشيخ عبد المجيد الزنداني في بحثه: منطقة المصبات والحواجز بين البحار، عن دراسة للدكتور محمد إبراهيم السمرة، أستاذ علوم البحار بجامعة قطر، أن:

"منطقة المصب منطقة حجر على معظم الكائنات الحية التي تعيش فيها، لأن هذه الكائنات لا تستطيع أن تعيش إلا في نفس الوسط المائي المتناسب في ملوحته وعذوبته مع درجة الضغط الأسموزي في تلك الكائنات ... وهي في نفس الوقت منطقة محجورة على معظم الكائنات الحية في البحر والنهر، لأن هذه الكائنات تموت إذا دخلتها، لاختلاف الضغط الأسموزي أيضاً"[2]

والتقاء الماء الملح بالعذب، ووجود برزخ من اختلاف خواصهما يمنع امتزاجهما، ومنطقة محرمة بينهما، ظاهرة توجد في كل مكان يصب فيه نهر في بحر، كالفرات في الخليج، والنيل في البحر المتوسط، غير أن أكبر مكان توجد فيه هذه الظاهرة وأشدها، وضوحاً فيه، مصب نهر الأمازون في المحيط الأطلنطي[•]

---

١) معجم مقاييس اللغة: ج٢، ص١٣٨

٢) الشيخ عبد المجيد الزنداني: منطقة المصب والحواجز بين البحار، ص٧، بحث منشور بموقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

●) انظر صورة لمصب نهر الأمازون في ملحق الصور.

فنهر الأمازون أعرض أنهار الدنيا، وأعمقها، وأغزرها، وأطولها بعد النيل، ومتوسط عرضه ١٩٠ كم، وفمه أو مخرجه إلى المحيط يصل إلى ٢٤٠ كم، فيتدفق منه الماء في المحيط بغزارة، ويصنع دائرة من الماء العذب يبلغ اتساعها مائتي كم داخل ماء المحيط الملح، ودون أن يختلط أحدهما بالآخر.

والآن إلى سورة الرحمن.

للتشابه الشديد بين آية سورة الفرقان وآيات سورة الرحمن، ذهب جل المفسرين، وإن لم ينصوا على ذلك، إلى أن آيات سورة الرحمن ليست سوى تكرار لآية سورة الفرقان، وأنهما تتكلمان عن شئ واحد، ومن ثَم فسروا هذه بالتفسير نفسه الذي فسروا به تلك.

والإمام الطبري نقل في موضع سورة الرحمن نُقولاً لا تختلف عن تلك التي نقلها في موضع سورة الفرقان، ولكنه، للغرابة، اختار منها هنا قولاً غير الذي اختاره هناك:

"وأولى الأقوال عندي بالصواب قول من قال: عني به بحر السماء وبحر الأرض، وذلك لأن اللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أصداف بحر الأرض عن قطر ماء السماء، فمعلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء"[١]

وأما الشيخ الطاهر بن عاشور، فقد فسر المقصود بالبحرين في سورة الرحمن بقولين، أحدهما تابع فيه غيره من المفسرين، وخالف فيه تفسيره لآية سورة الفرقان، فقال رحمه الله:

---

١) **جامع البيان: ج٢٢، ص٢٠١.**

"يجوز أن تكون التثنية تثنية بحرين ملحين معينين... فالمراد: بحران معروفان للعرب، فالأظهر أن المراد البحر الأحمر الذي عليه شطوط تهامة، وبحر عمان، وهو بحر العرب الذي عليه حضرموت وعدن من بلاد اليمن، والبرزخ الذي بين هذين البحرين هو مضيق باب المندب"[1]

وفي قوله الآخر، فسر الطاهر بن عاشور بحري آيات سورة الرحمن بالتفسير نفسه الذي فسر به آية سورة الفرقان:

"هما نهر الفرات وبحر العجم، والتقاؤهما انصباب ماء الفرات في الخليج الفارسي، والمراد بالبرزخ الذي بينهما الفاصل بين الماءين الحلو والملح، بحيث لا يغير أحد البحرين طعم الآخر بجواره، وذلك بما في كل ماء منهما من خصائص تدفع عنه اختلاط الآخر به"[2]

فإليك ما بين آيات سورة الرحمن وآية سورة الفرقان من دقائق الفروق في الألفاظ والصياغة، وما يترتب عليها من عظيم الآثار في المعنى، ومن اختلاف ما تتكلم عنه كل منهما.

سورة الفرقان تزيد عن سورة الرحمن شيئاً، وتقل عنها آخر، وما قل هنا وزاد هناك يخرجك من ظاهرة ليدخل بك في أخرى.

في سورة الفرقان أن الماءين بينهما، مع البرزخ، حجر محجور، أما سورة الرحمن فليس بين البحرين فيها هذا الحجر المحجور، فهما يلتقيان، وبينهما

١) تفسير التحرير والتنوير: ج٢٧، ص٢٥٠.
٢) تفسير التحرير والتنوير: ج٢٧، ص٢٤٨-٢٤٩.

برزخ يحول دون امتزاجهما، أو أن يبغي أحدهما على الآخر، ولكن ليس بين البحرين منطقة حرام أو ممنوعة، كالتي في موضع الفرقان.

فهذا الذي تقله سورة الرحمن عن سورة الفرقان، وأما ما تزيده عليها، فهو أن موضع التقاء البحرين يخرج منه اللؤلؤ والمرجان، والمرجان هو: صغار اللؤلؤ أو نوع من الكائنات البحرية تعيش في المياه الملح وينتج صنفاً من الأحجار الكريمة.

وكلمة: ﴿ يَخْرُجُ ﴾ في آية سورة الرحمن، هكذا، بفتح الياء وضم الراء، هي قراءة ابن كثير المكي، والكوفيين: عاصم وحمزة والكسائي، وخلف العاشر.

وأما قراءة المدنييْن: نافع وأبي جعفر، وأبي عمرو البصري، ويعقوب الحضرمي، فبضم الياء وفتح الراء، على بناء الفعل للمفعول، هكذا: ﴿يُخْرَجُ﴾، ووافقهم اليزيدي من الشواذ(●)(١)

والكلمة التي زادتها سورة الرحمن على سورة الفرقان، والأخرى التي قلتها عنها، تطير بك من مصبات الأنهار، لتغوص بك في قاع الخليج!

ولكن إليك أولاً تفسير الدكتور محمد إبراهيم السمرة لما تصفه آيات سورة الرحمن:

"أسفرت الدراسات الواسعة لخصائص البحار عن وجود خواص مائية تفصل بين البحار الملتقية، وتحافظ على الخصائص المميزة لكل بحر من حيث

●) القراءات الشاذة، هي قراءات صحيحة، ولكنها لم تبلغ حد التواتر في السند، ويستنبط منها ولا يُتعبد بها، وسميت شاذة لخروجها عن رسم المصحف العثماني.

١) الإمام ابن الجزري: النشر في القراءات العشر: ج٢، ص٣٨١، الإمام أحمد بن محمد البنا: اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: ج٢، ص٥١٠.

الكثافة والملوحة، والأحياء المائية، والحرارة، وقابلية ذوبان الأوكسجين في الماء، وهكذا يحدث الاختلاط بين البحار المالحة، مع محافظة كل بحر على خصائصه وحدوده المحددة بوجود تلك الحواجز المائية بين البحار... ومن المهم جدًا أن نجد ذكرًا للؤلؤ والمرجان في هذه المنطقة من البحار، وأن لا نجد مثل ذلك عند بحث التقاء المياه العذبة مع المياه المالحة، ويدل ذلك على أن اللؤلؤ والمرجان يتكونان في المناطق البحرية النقية ولا يتكونان في مناطق امتزاج المياه العذبة مع مياه البحر"[1]

وثَمة ما يفسر آيات سورة الرحمن غير هذا الذي فسرها به الدكتور السمرة وأقرب إليه من المثال الذي ضربه، وهو التقاء البحر المتوسط بالمحيط الاطلنطي.

فالدكتور السمرة اضطر أن يبحث عن تفسير الآيات في التقاء الماء الملح بالماء الملح، لأنه نفى نفياً باتاً وجود اللؤلؤ والمرجان في مناطق التقاء الماء العذب بالملح، مع أنه توجد منطقة من العالم يوجد فيها ويخرج منها اللؤلؤ والمرجان، ليس من منطقة التقاء الماء العذب بالملح، بل من موضع اللقاء والتماس بين الماءين، حرفياً كما تقول الآيات.

أما الطريف حقاً، فهو أن هذه المنطقة أمام بصر الدكتور السمرة، وهو أستاذ علوم البحار في جامعة قطر، وعلى مرمى حجر منه!

---

١) نقلاً عن الشيخ عبد المجيد الزنداني: منطقة المصب والحواجز بين البحار، ص١٢-١٣.

مع اكتشاف البترول وشيوع الصناعات القائمة على استخراجه وتكريره اندثر كثير من الصناعات والحِرَف التقليدية التي كانت شائعة في الخليج العربي وجزره عبر السنين.

وإحدى هذه الحرف أو المهن حرفة الغوص في قاع الخليج للبحث عن اللؤلؤ واستخراجه، وكانت رحلة الغوص على اللؤلؤ واستخراجه تستغرق شهوراً، تنطلق فيها السفن وتتنقل بين مغاصات في قاع الخليج، يعرف الغواصون مواضعها ومواقعها(•)

وحين ينفد الماء، كانت السفن تضطر لترك الغوص والإبحار إلى أقرب شاطئ للتزود بالماء، وفي مناطق معينة للغوص كانت توجد عيون تتفجر منها مياه عذبة في قاع الخليج، ويتدفق منها الماء لعشرات الأمتار صانعاً أنهاراً من الماء العذب وسط ماء الخليج شديد الملوحة دون أن يمتزج به.

ولأن الخليج قليل العمق نسبياً، ويتراوح عمقه بين ٥٠ متراً و ٩٠ متراً(••)، كان الغواصون يغلقون أفواه القرب على السفينة، ثم يغوصون إلى بطن الخليج، إلى أن يصلوا إلى الماء العذب المتدفق منه، فيفتحون القرب ويملؤونها بالماء، ثم يغلقونها مرة أخرى ويصعدون إلى السفن.

•) انظر صورة لأشهر مغاصات اللؤلؤ في الخليج في ملحق الصور.

••) هذا دليل آخر على خطأ تفسير دكتور محمد إبراهيم السمرة، فاللؤلؤ يوجد ويستخرج من البحار قليلة العمق نسبياً، كالخليج، والمناطق القريبة من الجزر وشواطئ المحيطات والبحار، ولا يوجد في أعماق البحار والمحيطات السحيقة، كالمثال الذي ضربه دكتور السمرة، والدليل الثالث قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ ﴾، على القراءة بفتح الياء وضم الراء، التي تدل على أنه قريب سهل المنال ويخرج للناس وحده أو دون كبير عناء، وهو ما ينطبق على مغاصات اللؤلؤ في الخليج القريبة من الشواطئ والجزر، ويتنافى مع تفسير الدكتور السمرة، لأن مناطق التقاء البحار بالمحيطات يحتاج التنقيب فيها واستخراج أي شئ من أعماقها الكبيرة إلى جهود فادحة وإمكانات تقنية فائقة.

وأشهر هذه العيون المتفجرة بالماء العذب وسط ماء الخليج الملح: عين إغمسة قرب الكويت، ومجموعة عيون الكواكب أو الكويكبات حول جزيرة البحرين، وأهل الخليج ينطقونها: الجواجب، باللهجة المحلية(•)

فهذه العيون وتيارات الماء العذب المتفجر منها، والمتدفق بغزارة ليلتقي بماء الخليج الملح، دون أن يختلط أو يمتزج به، واللؤلؤ، كباره وصغاره، الذي يوجد ويستخرج من موضع التقاء الماءين والتماس بينهما، هو ما تصفه آيات سورة الرحمن.

ومن هذا المثال او النموذج تعرف قاعدة، وهي أنه عند النظر العابر أو المتسرع، أو عند عدم الانتباه وافتقاد الدقة، قد تتوهم أن الآية أو الآيات في القرآن يمكن تفسيرها بأشياء متعددة، تبدو متشابهة، أو أنها تنطبق كلها على ما تخبر به الآيات، إلا أنه عند التمهل والتأمل والتعامل بميزان حساس مع الألفاظ والكلمات، يستبين أنها تعني شيئاً محدداً له مواصفات خاصة وسمات محددة، ولا تنطبق إلا عليه وحده.

وهي قاعدة ينبغي أن تحتفظ بها، لكي تستحضرها وتتذكرها وأنت تعرف المعنى المخصوص لإفساد بني إسرائيل في آيات سورة الإسراء.

(•) انظر صورة لموقع مجموعة الكواكب أو الكويكبات في ملحق الصور.

أيمن وغربي

وإليك نموذجاً آخر ترى به كيف تبدو الآية صامتة أو وحيدة المعنى، ثم حين يضم إليها غيرها، وتراها معاً، تُفجر التساؤلات وتتدفق منها المعاني والمعارف.

يقول عز وجل في سورة مريم:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾[1]

حار المفسرون في تفسير المقصود بالجانب الأيمن في هذه الآيات، لأن الجبل، أي جبل، كما لابد تعلم، ليس له يمين ولا يسار.

وقد حاول الإمام أبو حيان التوحيدي، في تفسيره: البحر المحيط، حل هذه المشكلة، فقال:

"والجبل نفسه لا يمنة له ولا يسرة، ولكن على يمين موسى بحسب وقوفه فيه"[2]

وهو نفسه حل الإمام القرطبي، إذ قال إن جانب الطور الأيمن هو:

"يمين موسى"[3]

---

١) مريم: ٥١-٥٢.
٢) الإمام أبو حيان التوحيدي: تفسير البحر المحيط: ج٦، ص١٨٨.
٣) الجامع لأحكام القرآن: ج١١ و ص١١٤.

وأما غير القرطبي وأبي حيان من المفسرين، فقد ذهبوا إلى البحث عن نقطة مرجعية أو مركز لتحديد الاتجاهات بناءً عليه أو بالنسبة إليه، لأنه إذا لم يوجد هذا المركز فلا معنى ليمين ولا يسار.

فذهب الإمام الطبري إلى أن هذه النقطة المركزية التي تتحدد الاتجاهات بموقعها منها هي القبلة، فقال:

"وإنما ذلك كما يقال: قام عن يمين القبلة وعن شمالها"[١]

وعلى ذلك فالجانب الأيمن لجبل الطور المقصود في الآية هو الذي يقع يمين مستقبل القبلة، وهي مكة، فيكون جانب الطور الأيمن هو جانبه الغربي.

ولكن الطاهر بن عاشور في تفسيره: التحرير والتنوير قال إن المركز الذي تتحدد بموقعها منه الاتجاهات هو:

"مشرق الشمس، جهة مشرق الشمس هي الجهة التي يضبط بها البشر النواحي"[٢]

وبناءً على ذلك، ذهب الطاهر بن عاشور إلى أن جانب الطور الأيمن المذكور في الآية هو جانبه السفلي أو الجنوبي.

ولكنه، رحمه الله، اضطر إلى الرجوع عن تفسيره حين وصل إلى قوله تعالى في سورة القصص:

---

١) جامع البيان: ج١٥، ص٥٥٩.
٢) تفسير التحرير والتنوير: ج١٦، ص١٢٨.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1]

فقال إن وصف الشاطئ بالأيمن لأنه:

"أيمن باعتبار أنه واقع يمين مستقبل القبلة، على طريقة العرب من جعل القبلة هي الجهة الأصلية لضبط الواقع"[2]

واضطر الشيخ الطاهر بن عاشور إلى الرجوع عما قاله في موضع سورة مريم، لأنه وجد نفسه قريباً من قوله تعالى:

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[3]

فالآية تنص نصاً على أن جانب الطور الذي كان به الوعد وعنده اللقاء هو الجانب الغربي، فجانب الطور الأيمن هو جانبه الغربي نصاً.

الآن سترى كيف يغير جمع الآيات الفهم والمعنى، ويفتح آفاقاً ما كانت لتفتح عند النظر لكل آية وفهمها بمعزل عن الأخرى.

المفسرون افترضوا أن مركز تحديد الاتجاهات القبلة، ثم جعلوا هذه القبلة مكة أو البيت الحرام الذي يقع في الجنوب من جبل الطور، وما قالوه خطأ بنص القرآن، لأن الله عز وجل أخبرك في آية أخرى أن قبلة موسى وبني إسرائيل

---

١) القصص: ٣٠.
٢) تفسير التحرير والتنوير: ج٢٠، ص ١١٢.
٣) القصص: ٤٤.

التي أمرهم باتخاذها هي بيوتهم، وبيوتهم في مصر، في غرب جبل الطور، وليس في جنوبه، وذلك في قوله تعالى في سورة يونس:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[1]

ثم إنه عز وجل أخبرك في آية ثالثة أنه واعد نقباء بني إسرائيل عند جانب الطور، وأخبرهم أن اللقاء عند جانبه الأيمن، وذلك قوله في سورة طه:

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾[2]

إذاً فجانب الطور تم تحديده من الله عز وجل بأنه الأيمن في عهد الموعد واللقاء، وبنوا إسرائيل، أو النقباء منهم، كما أخبرك عز وجل في سورة المائدة، كانوا يعرفون ماذا يعني وصف جانب الجبل بأنه أيمن وذهبوا إليه في الموعد، وفي زمن بني إسرائيل والموعد واللقاء لم تكن القبلة مكة، بل بيوت بني إسرائيل، وبيوت بني إسرائيل في مصر غرب جبل الطور.

فلو كانت القبلة هي مركز تحديد الاتجاهات، لكان الجانب الأيمن للطور هو جانبه الشمالي وليس الغربي، والقرآن ينص على أن جانب الطور الذي كان عنده النداء واللقاء هو جانبه الغربي.

والذي أحدث المشكلة، وجلب الحيرة للمفسرين في تحديد المقصود بجانب الطور الأيمن، كما لابد لاحظت، هو النظر في كل آية وفهمها وحدها معزولة

١) يونس:٨٧.
٢) طه:٨٠.

عن غيرها من الآيات، ولو جمعت آية سورة القصص مع آية سورة مريم، لما كان ثَمة حاجة إلى البحث عن مركز أو نقطة مرجعية لتحديد الاتجاهات وتمييز اليمين من اليسار، للوصول إلى الجانب المقصود.

فالجانب الأيمن للطور في سورة مريم هو جانبه الغربي في سورة القصص دون حاجة للبحث عن مركز لتحديد اليمين واليسار.

ولكن ثَمة سؤال ينفلق عنه الجمع بين الآيتين، وهو: إذا كان جانب الجبل الموصوف بالأيمن عرفناه نصاً من وصفه سبحانه وتعالى بأنه الغربي، فما فائدة وصف جانب جبل الطور بأنه أيمن أصلاً، ولماذا لم يخبرنا عز وجل بأنه الجانب الغربي مباشرة دون حاجة لوصفه بأنه أيمن؟

لأنه لو أخبرنا عز وجل أن جانب الطور الذي واعد عنده موسى والتقاه هو الغربي فقط، لانغلقت الآيات وأُصمتت، وضاع ما هو مخبوء فيها .

فالله عز وجل في الآيتين معاً لا يخبرنا بالجانب الذي التقى فيه موسى وواعد فيه بني إسرائيل فقط، بل يعرفنا الاتجاه الذي سار فيه موسى أو خط سيره، لأنه لا يمكن أن يكون جانب الطور هو الأيمن والغربي في الوقت نفسه إلا في حالة واحدة، هي أنه عليه السلام جاء إلى الطور قادماً من الشمال في اتجاه الجنوب، فهذه هي الكيفية الوحيدة التي يكون بها الجانب الغربي للطور عن يمين موسى.

ولو أنه عليه السلام قدم إلى الطور من الجنوب إلى الشمال، مثلاً، لكان غرب الجبل عن شماله لا عن يمينه.

وصفه عز وجل لجانب الجبل بأنه أيمن وأنه غربي هو إيجاز معجز لخط سير موسى عليه السلام ولخريطته المفصلة في سفر الخروج في التوراة(•)

فلو قال عز وجل الأيمن فقط لما عرفت ولا فهمت شيئاً، لأن الجبل لا يمين له ولا يسار، ولو قال الغربي فقط لفقدت اتجاه حركة موسى عليه السلام وخط سيره.

بقي أنه حين تجتمع الآيات معاً تشع بطبقة من المعرفة أعمق وأشد بريقاً، ولكن رؤيتها والانتباه إليها وإدراكها يحتاج إلى معارف من خارج القرآن.

عرفت من آية سورة طه أن جانب الطور تم تحديده من الله عز وجل أنه أيمن في عهد الموعد واللقاء، وبنوا إسرائيل، أو النقباء منهم، كانوا يعرفون ماذا يعني وصف جانب الجبل بأنه أيمن قبل أن يتحركوا ويذهبوا إليه في الموعد، فكيف عرف موسى عليه السلام، وكيف عرف النقباء الجانب المقصود وهم في موضعهم قبل التوجه نحو الجبل؟

لا معنى لإدراك بني إسرائيل، حين أخبرهم موسى عليه السلام بالموعد، أن جانب الطور الأيمن هو الغربي، إلا أن الأيمن هو الغربي مطلقاً، وبصرف النظر عن اتجاه الحركة، فكيف يكون ذلك؟

لكي تدرك ذلك وتفهمه لابد أن تتذكر أولاً أن موسى عليه السلام ولد في مصر، وربي أميراً مصرياً في قصر فرعون، حاكمها، فثقافته وعلومه، قبل أن يمتن الله عز وجل عليه باصطفائه، مصرية، وكذلك بنو إسرائيل، فقد كانوا

(•) انظر خريطة لخط سير موسى عليه السلام وبني إسرائيل في اتجاه جبل الطور، في ملحق الصور.

يعيشون بين المصريين وأخذوا عنهم علومهم ومعارفهم، وحين قدم موسى عليه السلام إلى الطور وحين قدموا هم إليه بعد ذلك مع موسى، لم تكن التوراة أنزلت عليهم ولا صاروا أهل كتاب، فحتى هذه اللحظة كانت معارفهم هي معارف المصريين.

وعند المصريين القدماء اليمين هو الغرب مطلقاً، لأن المصري القديم كان يحدد الاتجاهات بأن يستقبل النيل الآتي من الجنوب، وهو عنده واهب الحياة، فيكون ما على يمينه هو الغرب وما على يساره هو الشرق.

ولذلك في مصر القديمة كان المصري يعُد كل ما يقع عن يمينه غرباً، ويعبر عن اليمين والغرب بكلمة واحدة في النطق وعلامة واحدة في الكتابة، وكذلك كل ما على شماله هو عنده شرق، ويعبر عن اليسار والشرق بكلمة واحدة وعلامة واحدة.

والكلمة الواحدة التي تعبر عن اليمين والغرب في مصر القديمة تنطق، كما ضبطها السير آلان جاردنر **Alan Gardiner**، في كتابه: فقه اللغة المصرية القديمة **Egyptian Grammar**:

"إمنت Imnt، والعلامة التي تدل عليها في الكتابة صقر يمسك ريشة"(١)

والكلمة الواحدة التي تعبر عن اليسار والشرق تنطق:

"يابت Iabt، والرمز الذي يدل عليها في الكتابة حربة Spear مشرعة وبنهايتها راية كالعلم"

---

1) Alan Gardiner:Egyptian Grammar,P502.

فكما ترى، إمنت في المصرية القديمة هي الغرب، واليد اليمنى، والجانب الأيمن من الإنسان، وكل ما يقع على يمينه، ويابت هي الشرق، واليد اليسرى، وجانبه الأيسر، وكل ما كان على شماله(•)

ومن هذا النموذج تعرف قاعدة أخرى سوف تراها في صدر سورة الإسراء، وهي أن القرآن يسمي الأعلام والأماكن والمواقع والجهات بأسمائها التي تُعرف وتسمى بها عند أهلها في زمانهم الذي يتكلم عنها فيه.

•) انظر صورة للعلامة التي تدل على الغرب واليمين، وأخرى للتي تدل على الشرق واليسار في ملحق الصور.

خريطة الوجود الإلهية

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾

(البقرة:٣١)

قصة الخلق خريطة الوجود

مما لا يدركه كثير من الناس أن الغيوب التي يخبرنا بها القرآن، وما أخرجه لنا من أغوار التاريخ وتلافيف الزمان من قصص وأخبار، وما تحويه من معارف، وما تبينه من حقائق، هدفه الحقيقي تكوين وعي البشر وبناء أذهانهم ونفوسهم التي يرون بها ويفهمون الحياة وكل شئ في الوجود، وليس مجرد القص والإخبار، ولا حتى العبرة والعظة.

فهذه كلها أهداف ساكنة وغايات جامدة، وتجعل مكان القرآن المتاحف لا حياة البشر، ولا فرق حينئذ بينه وبين برديات المصريين القدماء وآثارهم وما فيها من أخبار وحقائق عنهم وعن زمانهم.

القرآن بيان الإله الحي إلى خلقه، وهو نص لفهم الوجود ولصناعة الحياة بهذه المعارف والأخبار.

ولو لم يأت القرآن بهذه الغيوب ويُعرف الإنسان بحقائقها لاختل تكوينه ووعيه، ولتقلقل بناء ذهنه ونفسه، ولاضطرب فهمه للأشياء والأحداث والزمان والتاريخ، بل ولاختل واضطرب فهمه لذاته وفقد كينونته.

ومما يغفل عنه كثير من الناس أن الصورة التي يعرف بها الإنسان الماضي تتحكم في فهمه لحاضره وإدراكه لمستقبله، فإذا عرف الإنسن الماضي مشوهاً أو محرفاً تشوه إدراكه للحاضر والمستقبل.

منهج القرآن، وما يريد ترسيخه في وعي البشر وأذهانهم، من خلال ما أورده من قصص وأخبار، أنه لا يمكنك أن تفهم ما يحدث في الحياة فهماً صحيحاً إلا إذا عرفت ما حدث على وجهه الحقيقي والصحيح.

ولذا إذا أخبرك القرآن بقصة وكررها وألح في إخبارك بها فهذا يعني أن هذه القصة وما تحويه من حقائق لها موقع محوري في تكوين وعي الإنسان الذي يرى ويفهم به كل شئ، وأن افتقادها أو إخفاءها أو تحريفها والعبث بمكوناتها يؤدي إلى خلل في تكوين الإنسان وفي فهمه لكل شئ في الوجود والحياة.

ولم يخبرك القرآن بقصة، ويكررها ويلح في إخبارك بها وبتفاصيلها، قدر تكراره لقصة الخلق، وقدر إلحاحه على تعريفك بتفاصيلها، ولا يضارعها في ذلك سوى سيرة بني إسرائيل!

وبين القصتين رباط وثيق.

قصة الخلق، ومن خلال ما ترويه عما حدث للإنسان في الملأ الأعلى، وما واكب هبوطه منه إلى الأرض وبدء مسيرته عليها، هي التي تعرف الإنسان أصله وحقيقته: ماذا يكون، ومن أين أتى، وكيف أتى إلى الأرض، ولماذا، وما سبب وجوده عليها، وما مهمته فيها، وإلى أين يذهب بعد أن يودعها، وهي التي تعرفه بالإله الذي خلقه، ووهبه العلم والمعرفة، ومنحه ملكاته وقدراته، وتعرفه بالشيطان عدوه وتربصه به، وبالكون والطبيعة والمخلوقات وموقفه منها، والعلاقة التي يجب أن تكون بينه وبينها.

قصة الخلق هي خريطة الوجود والبوصلة التي يعرف بها الإنسان البداية والنهاية وأين موقعه من الزمان وما علاقته بالوجود، ومن غير هذه الخريطة والبوصلة، الإنسان بالضبط كتائه في صحراء الزمان، وجد نفسه في قلبها ولا يعلم الاتجاهات، ولا بدايتها ولا نهايتها، ولا فى أي بقعة هو منها، ولا أين هي كلها من العالم، فكل الأشياء فيها متشابهة.

وحينئذ إذا ظهر له أحد داخل هذه المتاهة التي لا يعلم كيف دخلها، وكيف وإلى أين سيخرج منها، وأعطاه أي خريطة، وأشار إلى أي مسار فيها، فسيتبعه طائعاً مختاراً، وهو في الحقيقة مجبر لا اختيار له.

فإذا كانت الخريطة التي يمنحها له هذا الذي ظهر له مزورة، فقد أضله وزاده تيهاً وهو لا يدري، وحينئذ لا يكون أمامه إلا أن يحصر وعيه وذهنه في اللحظة التي هو فيها ولا يشغلهما بما قبلها ولا بما بعدها، وفي البقعة التي هو فيها فلا يرنو إلى ما خلفها.

من غير قصة الخلق يفقد الإنسان كينونته ومعنى وجوده، ويختل تكوينه الذهني والنفسي، ويصبح حائراً يساءل كل شئ حوله ولا شئ يجيبه، كما يقول لبيد بن ربيعة:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الجبال بعدنا والمصانعُ

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد إذ هو ساطعُ

فلا يجد أمامه وحوله إلا أن يسأل النجوم في السماء، والجبال والتلال في الصحراء، والنخيل في القرى والواحات، فإذا لم يجد منها إجابة قال حزيناً آيساً:

فوقفت أسائلها وكيف سؤالنا صماً خوالد ما يبين كلامها

وربما قلت: لبيد بن ربيعة هذا كان يعيش في صحراء بيداء قفر خلاء من الحضارة، فمن الطبيعي أن يكون تائهاً حائراً يساءل الصم الخوالد ولا يجد إجابة لتساؤلاته.

ونقول لك: بل وفي القرن العشرين فشلت الحضارة والمدنية بزينتها وزخرفها وتقنياتها أن تحل محل خريطة الوجود في قصة الخلق، وفي أن تحقق للإنسان كينونته ومعنى وجوده، فما زال الإنسان في زمن الصعود إلى القمر يسأل ما كان يسأله في الزمن الذى كان فيه يعبد القمر.

يقول الشاعر إيليا أبو ماضي في طلاسمه:

جئتُ، لا أعلم من أينَ، ولكنّي أتيتُ
ولقد أبصرت قُدّامي طريقاً فمشيتُ
وسأبقى ماشياً إن شئتُ هذا أم أبيتُ
كيف جئتُ؟ كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري!

أجديدٌ أم قديمٌ أنا في هذا الوجودْ
هل أنا حرٌّ طليقٌ أم أسيرٌ في قيودْ

هل أنا قائدُ نفسي في حياتي أم مقودْ

أتمنّى أنّني أدري ولكن ...

لست أدري!

وطريقي، ما طريقي؟ أطويلٌ أم قصيرْ؟

هل أنا أصعدُ أم أهبِط فيه وأغورْ

أأنا السّائر في الدّربِ أم الدّربُ يسيرْ

أم كلاّنا واقفٌ والدّهر يجري؟

لست أدري!

ليت شعري وأنا عالم الغيب الأمينْ

أتُراني كنت أدري أنّني فيهِ دفينْ

وبأنّي سوف أبدو وبأنّي سأكونْ

أم تُراني كنت لا أدرك شيئاً؟

لست أدري !

أتراني قبلما أصبحت إنساناً سويّاً

أتُراني كنت محواً أم تراني كنت شيّاً

ألهذا اللّغز حلٌّ أم سيبقى أبديّاً

لست أدري... ولماذا لست أدري؟

لست أدري!

قيل لي في الدّير قومٌ أدركوا سرّ الحياةْ

غير أنّي لم أجد غيرَ عقولٍ آسناتْ

وقلوب بليت فيها المنى فهي رفاتْ

ما أنا أعمى فهل غيريَ أعمى؟

لست أدري!

قد دخلت الدّير عند الفجرِ كالفجرِ الطّروبْ

وتركت الدّير عند اللّيل كاللّيل الغضوبْ

كان في نفسي كربٌ، صار في نفسي كروبْ

أمن الدّير أم اللّيلِ اكتئابي؟

لست أدري!

قد دخلت الدّيرَ استنطقُ فيه الناسكينا

فإذا القوم من الحيرة مثلي باهتونا

غلب اليأسُ عليهم، فهم مستسلمونا

وإذا بالباب مكتوب عليه ...

لست أدري!

ولقد قلتُ لنفسي، وأنا بين المقابرْ

هل رأيتِ الأمنَ والرّاحةَ إلاّ في الحفائرْ؟

فأشارتْ، فإذا للدّود عَيثٌ في المحاجرْ

ثم قالت: أيّها السّائل إني ...

لست أدري!

أيّها القبرُ تكلّمْ، وأخبريني يا رِمامْ

هل طوى أحلامَك الموتُ وهل مات الغرامْ

من هو المائتُ من عامٍ ومن مليونِ عامْ

أيصيرُ الوقت في الأرماسِ محواً؟

لست أدري!

أوراء القبر بعد الموت بعثٌ ونشورْ

فحياةٌ فخلودٌ أم فناءٌ ودثورْ

أكلام النّاس صدق أم كلام الناس زورْ

أصحيح أنّ بعض الناس يدري؟ ...

لست أدري!

إنّني أشهد في نفسي صراعاً وعراكا

وأرى ذاتيَ شيطاناً وأحياناً ملاكا

هل أنا شخصان يأبى هذا معْ ذاك اشتراكا

أم تُراني واهماً فيما أراهُ؟

لست أدري!

كلّما أيقنت أني قد أمطت السّتر عني

وبلغت السّر سرّي ضحكت نفسي مني

قد وجدت اليأس والحيرة لكن لم أجدني

فهل الجهل نعيم أم جحيم؟

لست أدري!

أنا لا أذكر شيئاً من حياتي الماضيةْ

أنا لا أعرف شيئاً من حياتي الآتيةْ

ليَ ذات غير أني لست أدري ماهيه

فمتى تعرف ذاتي كنهَ ذاتي؟

لست أدري![1]

وإيليا أبو ماضي يخبرك في قصيدته أنه سأل البحر والدير والمقابر وكل ما رآه حوله، ولو أنه ولَّى وجهه شطر بيان الله عز وجل إلى خلقه، وسأل خريطة الوجود الإلهية، لوجد ما يُذهب حيرته وما يجيب على تساؤلاته، كما وجد لبيد بن ربيعة ما خرج به من التيه وهداه.

قصة الخلق، على أي صورة كانت، هي المصدر الأول لتكوين وعي الإنسان ونفسه وذهنه، وهي التي تتحكم في كل ما يتكون فيها، وفي كل ما تنتجه ويخرج منها.

وإذا أخفى أحد خريطة الوجود الحقيقية التي تجيب على هذه الأسئلة إجابة صحيحة، فقد حول الوجود إلى متاهة يضل فيها البشر في كل اتجاه، ويدورون حول أنفسهم بلا نهاية، ودون أن يصلوا إلى إجابة، لأن الإجابة فوق قدرات الإنسان وما يمتلكه من وسائل للمعرفة.

---

١) ديوان إيليا أبي ماضي، ص١٩١.

وإذا حجب أحد خريطة الوجود الحقيقية وأخرج للبشر خريطة مزورة، وتعمد أن يعبث بها وبمكوناتها لكي يضللهم فيها عن الإجابات الصحيحة، يكون بذلك قد أفسد وعيهم وأذهانهم ونفوسهم، وأفسد كل ما يتكون فيها وكل ما تنتجه ويخرج منها من أفكار ونظريات وفلسفات، ومن آداب وعلوم وفنون، وهو في الحقيقة الذي يحكم وعي البشر ويتحكم في كل ما ينتجونه.

وكل ما أنتجته البشرية في كل عصورها من ضلالات وأباطيل وأساطير وخرافات هو من آثار افتقاد قصة الخلق الحقيقية وخريطة الوجود الإلهية، أو تحريفها، ومن إفرازات الوعي والأذهان والنفوس المختلة التي تكونت بهذا الافتقاد أو التحريف.

وهذا هو إفساد بني إسرائيل المقصود في سورة الإسراء كما ستعلم.

وها هنا بداية أن تعرف صلة بني إسرائيل بقصة الخلق وخريطة الوجود.

ما أفرده الله عز وجل في بيانه إلى خلقه لبني إسرائيل من مساحة هائلة، وما أولاه من عناية لسيرتهم لم يولها لأحد غيرهم، لأن إخفاء خريطة الوجود الإلهية الحقيقية، وكتمها وتحريفها، وإخراج هذا التحريف للبشر، وبثه في وعيهم، وصناعة حياتهم به هو عمل بني إسرائيل الرئيسي في التاريخ، وهو دورهم وموقعهم المحوري من سيرة البشر.

لذا سيرة بني إسرائيل في القرآن، وفهم موقعهم من البشرية ودورهم في التاريخ وآثارهم في الأمم يبدأ من عند قصة الخلق، وبفهم خريطة الوجود.

والقرآن نفسه يدلنا على ذلك بأسلوبه المعجز والرسائل المشفرة(•) المبثوثة في صياغات آياته.

وخريطة الوجود وسيرة البشر في القرآن تبدأ من قبل وجودهم على الأرض، تبدأ من الملأ الأعلى.

●) لمنع الالتباس، المراد بالتشفير هنا التشفير اللغوي وليس الرموز ولا الإشارات الباطنية.

في الملأ الأعلى

يقول عز وجل في بيانه إلى خلقه:

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[1]

الإنسان في الوحي، مصدر المعرفة المطلقة، كائن علوي ومخلوق مشرف، خلقه الله عز وجل بيديه، وخلقه سبحانه وتعالى خلقاً مباشراً مستقلاً من غير مخلوق أدنى منه سبقه فخرج منه، وإنما خلقه عز وجل على صورته وأنشأه إنشاءًا كاملاً تاماً في أبهى صورة وأحسن تقويم، من غير مراحل سابقة في خلقه أدنى مرتبة أو أحط منزلة.

﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾ ﴾[2]

ويقول عز وجل:

﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[3]

وجعل الله عز وجل فى خلق الإنسان نفحة قدسية من روحه، وهو عز وجل رفع قدر هذا المخلوق الذي خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه وشرفه، فأسجد له ملائكته التي هى أشرف مخلوقاته عز وجل وأقربها إليه والذين هم:

---

١) ص:٧٥.
٢) التين:٤.
٣) ص:٧١-٧٢.

﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾[١]

يقول عز وجل:

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾[٢]

وما أخبرك به عز وجل في بيانه إلى خلقه من حقائق لا مصدر لها إلا الوحي ينسف الداروينية ونظرية التطور، ويطيح بأصولها وما قامت عليه وما قامت لأجله، فمنبع الداروينية وهدفها الحقيقي نفي الخلق، ومن ثَم إزاحة الوجود الإلهي من وعي البشر ومن أذهانهم ونفوسهم، وإزالة الوحي وآثاره من حياتهم ومجتمعاتهم.

الداروينية التي تجيب على الأسئلة التي لا إجابة عليها إلا من الوحي، وغايتها الحقيقية أن تحل محله، ليست نظرية علمية، بل هي عقيدة أو ديانة، وهي ديانة باطلة وإحدى ثمار تحريف الوحي، ومن ابتكروها ويؤمنون بها يعلمون أنها ليست سوى بديل للإله والخلق الإلهي.

يقول آرثر كيث، وهو من كبار التطوريين:

"إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً ولا سبيل إلى إثباتها بالبراهين، ونحن نؤمن بها لأن البديل الوحيد لها هو التسليم بوجود خالق والخلق المباشر، وهو ما لا يمكن حتى مجرد التفكير فيه"!

---

١) التحريم:٦.
٢) البقرة:٣٤.

وأما العجيب فهو أنه في الوقت الذي كان يقر فيه أصحاب النظرية وأهلها أنها مليئة بالفجوات التي لا تستطيع الإجابة عليها، كان نفر من الحمقى في بلاد العرب، من أمثال أحمد لطفي السيد وإسماعيل مظهر وسلامة موسى، يعتبرونها مقدساً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن يعارضها ولا يؤمن بها ويعتنقها عندهم رجعي ومتخلف!

الشيطان عدو الإنسان:

وأما الشيطان في خريطة الوجود الإلهية وقصة الخلق الحقيقية، فهو عدو الإنسان الذي حسده على مكانه من الإله ومكانته عنده وموقعه من الوجود ومهمته التي خلقه عز وجل وشرفه من أجلها، فعصى، لعنه الله، أمر الإله عز وجل وأبى السجود لآدم استكباراً وتمرداً، فطرده عز وجل من رحمته وجعله ملعوناً إلى يوم الدين.

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]

وهو لعنه الله إذ طرد من رحمة الله عز وجل وأبلس منها وعلم مصيره، نذر نفسه لغواية الإنسان وإضلاله، كي يثبت خطأ الله، عز وجل وتعالى عن ذلك، في اختياره.

---

١) الحجر:٣٣-٣٥.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾[1]

وجعل مهمته في الوجود إخراج هذا الكائن المشرف المفضل عليه عن مهمته وتضليله عنها حتى يكونا سواءًا بسواء.

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[2]

والآن بعد إذ علمت ماذا يكون الشيطان في خريطة الوجود الإلهية الحقيقية، إليك نموذجاً تعرف منه ماذا يكون الشيطان في وعي النخب الأدبية والثقافية في بلاد العرب، لتدرك أي خريطة وجود تلك التي كونت نفوس هذه النخب وصنعت أذهانهم في عصرهم الحديث.

يقول الشاعر الشهير أمل دنقل في المقطع الأول من قصيدته: كلمات سبارتكوس الأخيرة:

المجد للشيطانِ ..... معبود الرياحْ
من قال لا في وجه من قالوا نعمْ
من علم الإنسان تمزيق العدمْ
من قال لا ... فلم يمتْ
وظل روحا أبدية الألمْ[3]

---

١) الإسراء:٦٢.
٢)الأعراف:١٦-١٧.
٣) الشاعر أمل دنقل: الأعمال الكاملة، ص١١٠.

الشيطان هو الذي علم الإنسان تمزيق العدم وحقق له وجوده وكينونته !!

فهل أدركت الآن لماذا هو مشوه وعي هذه النخب، ولماذا هي مختلة أذهانهم ونفوسهم، لأن ما تكونت به ويحكمها ويتحكم في كل ما يتكون فيها وتنتجه ليس سوى خريطة الوجود البني إسرائيلية، ووصول هذه الخريطة إلى بلاد العرب وإزاحتها لخريطة الوجود الإلهية من وعي أهلها وحلولها محلها هو إفساد بني إسرائيل وعلوهم في الأرض الكبير.

من الملأ الأعلى إلى مقر الخلافة

كان الإنسان هذا المخلوق المشرف المكرم في الملكوت والملأ الأعلى، فلماذا تركه وهبط إلى الأرض؟

كيف ظهر الإنسان على الأرض، هل كان وجوده على هذا الكوكب الذي يبدو كل شئ فيه معداً لاستقباله مصادفة عشواء؟!

وإذا كان الإنسان في ملأ أعلى، فما الذى حدث لهذا لإنسان في الملأ الأعلى فأُهبط إلى الأرض، هل كان وجوده على الأرض عقاباً له، هل كان قدره ومصيره المحتوم من غير غاية له على الأرض ولا هدف؟

هل الإنسان جاء إلى الأرض ليكون قائداً وخليفة أم لعقابه وتعذيبه، وهل الأرض مقر الإنسان ومركز قيادته ومحل عرشه أم هي ملعونة وهي سجنه ومعتقله؟

هذه الفترة بين وجود الإنسان في الملأ الأعلى وبين بداية مسيرته على الأرض هي فجوة في كل العقائد والفلسفات والحضارات والديانات والكتب عدا القرآن، بيان الله عز وجل وتبيانه لخلقه.

هذه الفجوة بين وجود الإنسان في الملأ الأعلى وبين وجوده على الأرض هي تاريخ العالم كله، وهي كل مشاكله، وكل عقائده، وكل فلسفاته، وكل إيمانه، وكل إلحاده.

فكما يخرج المولود من بطن أمه، من بطن هذه الفجوة بين ظهور الإنسان على الأرض وما سبق هذا الظهور، ومن الضرب أخماساً فى أسداس من أجل تفسيرها وملئها، خرجت كل ضلالات الغرب ونظرياته وفلسفاته وفهمه للوجود، قبل نهضته وبعدها، ومنها خرجت كل أساطير الشرق وخرافاته.

ماذا حدث حقاً بين وجود الإنسان في الملأ الأعلى وبين الهبوط منه إلى الأرض؟

يقول عز وجل:

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]

أمر الله عز وجل آدم أن يأكل من ثمار الجنة ونعيمها، ونهاه ابتلاءًا واختباراً له أن يقرب شجرة لم يعين القرآن اسمها ولا نوعها ولا ما تثمره.

هي شجرة فقط ونوعها لا علاقة له بما حدث، ولا يغير معرفته أو جهله من فهمه شيئاً.

والإمام الطبري نقل أقوالاً عديدة في تفسيره تعين نوع الشجرة، بعضها يقول إنها سنبلة، أو أنها شجرة تين، أو أنها كرمة، أو شجرة عنب، أو شجرة بُر.

---

١) البقرة:٣٥.

وكل ما نقله الطبري في تعيين نوع الشجرة تخمينات لا أصل لها، عقب عليها هو رحمه الله بقوله:

"وذلك علم إذا عُلم لم ينفع العالمَ به علمُه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به"[1]

وأما الإمام القرطبي فقد حسم المسألة، فقال في تفسيره:

"وليس في شئ من تعيين الشجرة ما يعضده خبر"[2]

وما لا يعضده خبر ليس له حكم.

ضحك كالبكا:

سوف تعرف عندما تصل إلى قصة الخلق البني إسرائيلية المحرفة أن تحديد نوع الشجرة في خريطة الوجود المزورة التي أخرجها بنو إسرائيل للناس كان أحد الأركان الرئيسية في التحريف والتزوير، وهو التحريف الذي صنع وعي الغرب وكونه ويحكم كل ما يتكون فيه وما ينتجه عبر عصوره كلها.

ولكن ما نتوقف عنده هاهنا لطرافته هو أنه مما شاع في القصص والروايات والأفلام والمسلسلات، وفي الصحف والمجلات، حتى صار من الثقافة العامة أن الشجرة التي أكل منها آدم وكانت سبباً في إخراجه من الجنة كانت شجرة تفاح.

---

١) جامع البيان: ج١، ص٥٥٧.
٢) الجامع لأحكام القرآن: ج١، ص٣٠٥.

فإليك مثالان، أحدهما لأديب كبير في بدايات القرن العشرين، والثاني لأستاذ جامعي وناقد أكاديمي من بدايات القرن الحادي والعشرين، لكي تعرف من هذه الأمثلة أن التوراة وثقافتها هي الرافد الذي تكون به العقل العربي والبناء الذهني والنفسي لبلاد العرب في العصر الحديث، عبر تسربها في الآداب والفنون ووسائل الإعلام والثقافة الشعبية، بل وعبر تسربها في الدراسات العلمية والأكاديمية.

فإليك المثال الأول:

في كتابه الشهير: صندوق الدنيا، كتب الأديب إبراهيم عبد القادر المازني قصة قصيرة عنوانها: من مذكرات حواء، قال إنه يحاكي فيها قصة: من مذكرات آدم للأديب الأمريكي مارك توين، فإليك هذه العبارة لتعرف أي حواء تلك التي دون أديب بلاد العرب مذكراتها:

"بعد أربعة أيام طوال وجدت آدم فألقيت عند قدميه الغصن الذي قطعته من الشجرة المحرمة مثقلاً بالتفاح الشهي، فنظر إليَ نظرة استغراب وسألني عن هذا الورق الذي أستر به جسدي، فقلت ستعرف هذا متى أكلت من التفاح، فانتزعه مني فعراني فخجلت، فقال لقد علمت أنك اكلت منه فهاجت الوحوش وهمت بأكلي"[1]!

١) الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني: صندوق الدنيا، ص١١٣.

فحواء التي يعرفها الأديب العربي وتكون بها رأسه ويكتب مذكراتها، هي حواء التحريف البني إسرائيلي، التي أكلت من شجرة التفاح وأغوت آدم ليأكل، لا حواء الوحي وخريطة الوجود الإلهية.

فربما قلت لنفسك: هذا أديب واسع الخيال لا يؤاخذ على ما تبدعه قريحته، والأدب تتلاقى مياهه وتختلط أمواجه.

فإليك النموذج الثاني: الناقد الأدبي والأكاديمي والأستاذ الجامعي الذي يكوِّن عقول الناشئة ونفوسهم في إحدى الجامعات، في البلاد التي أنزل عليه الوحي وتكونت بخريطة الوجود الإلهية، ومن غيره وغيرها ما كان لها وجود.

يقول دكتور عبد الله الغذامي في كتابه: الخطيئة والتكفير:

"...وهي صورة لا يملك القارئ وهو يتأملها إلا أن يتذكر تاريخ البشر الأزلي في قصة الوجود الأولى كما رسمها القرآن الكريم ممثلة في حادثة أبينا آدم مع حواء ... فحواء كانت هي اللحظة الحساسة في تاريخ البشر منذ تواجه معها آدم على مشهد التفاحة وهي تقدمها له ليأكل منها وهو يضعف أمامها ناسياً تحذير الله سبحانه وتعالى له من الفاكهة المحرمة، وأخيراً ينسى نفسه فيأكل من الحرام ويأثم، وعندئذ يحكم الله عليه بالهبوط إلى المنفي (الأرض)"[1]!!

فاضحك ضحكاً كالبكا!

---

١) دكتور عبد الله الغذامي: الخطيئة والتكفير، ص١١٣.

هل في قصة الوجود الأولى كما رسمها القرآن الكريم تفاحة، وفي أي سورة أو موضع فيه وجد أن حواء هي التي أكلت ثم قدمت الفاكهة المحرمة لآدم وأغوته بالأكل منها، هل قال الله عز وجل لنا في خريطة الوجود التي أنزلها في بيانه وحفظها بحفظه أن الأرض للإنسان منفى، ووجوده فيها عقوبة؟!

فإذا أخفينا عنك اسم هذا الذي قرأت ما كتبه، وحجبناه عنك ولم نعرفك به، وطلبنا منك ان تخمن ماذا يكون، فاختر إجابة للسؤال التالي:

هل هو:

١- مسلم ٢- يهودي ٣- مسيحي ٤- مسلم عقله توراتي

ثم قل لنفسك بعد ذلك: فليكن ما يكون، ولكن كيف صار أستاذا جامعياً في علم نقد النصوص، بل كيف حصل على الدكتوراة في النقد، ومن الذي منحه إياها وهو لايعرف الفرق بين قصة الخلق في القرآن وقصة الخلق في التوراة؟!

والآن نعرفك من أين أتت التفاحة التي تمتلئ بها هذه الأدمغة المختلة.

كوْن الشجرة التي مُنع آدم من الأكل منها في الجنة كانت شجرة تفاح معلومة لا أصل لها، ولا وجود لها لا في سفر التكوين في التوراة العبرية، ولا في أي ترجمة معتمدة لها، وإنما مصدرها يهودي إغريقي اسمه أكويلا بونتيكس Aquila Ponticus، كان يعيش في القرن الثاني الميلادي، وقام بترجمة العهد القديم ترجمة روائية أدبية لم يلتزم فيها بالنص العبري، وإنما أدخل فيها خياله وحول الترجمة إلى قصص وحكايات، فكان مما أدخله في الترجمة من خياله أن الشجرة المحرمة في الجنة كانت شجرة تفاح.

أما الحق، فهي شجرة فقط، ولا يفرق نوعها في قصة الخلق، ولا علاقة له بما حدث.

ثم ماذا بعد أن أكل آدم من الشجرة؟

وسوس الشيطان إلى آدم.

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[1]

والشجرة لم تكن شجرة خلد في الحقيقة، وإنما كان وصفها بذلك من وسوسة الشيطان لآدم وإغوائه له، كما أخبرك عزوجل:

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾[2]

والقرآن ينسب وسوسة الشيطان لآدم وليس لحواء، ثم إنهما أكلا منها معاً ودون إغواء أحدهما للآخر:

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾[3]

فآدم وزوجة أكلا معاً ولم تكن امرأته هي المسؤولة وحدها، ولا هي التي أغوت آدم ليأكل.

---

١) الأعراف: ٢٠.
٢) طه: ١٢٠.
٣) طه: ١٢١.

وتحريف هذه الحقيقة هو البذرة التي نمت منها شجرة أن المرأة سبب شقاء الرجل بإخراجه من الجنة، وأن مهمتها في الوجود الغواية، وأنها رسول الشيطان إلى الرجل، وهي البذرة التي رواها ونماها عبر التاريخ وبثها في العقائد والأفكار من بذروها في خريطة الوجود المحرفة، ليرسخوا في أذهان البشر أن الرجل والمرأة في صراع دائم وأن كلاً منهما في مواجهة الآخر، ثم وفروا لهما معاً الحطب والوقود الذي يجعل الصراع أبدياً، عبر النظريات والفلسفات والقصص والروايات والأفلام والمسلسلات.

فإليك نموذجاً آخر من بلاد العرب على الوعي المختل والتكوين المشوه، تعرف منه أصل مسألة تحرير المرأة، وعلى أي أسس وبأي شئ تكونت حركاتها، وتدرك به أن خريطة الوجود المحرفة، الجرثومة التي أطلقها بنو إسرائيل في وعي البشر ومجتمعاتهم بعد ان حجبوا خريطة الوحي الحقيقية، هي النبع الذي يتدفق منه الفساد عبر العصور، وفي كل الأمم والشعوب.

أشهر داعية لتحرير المراة ومساواتها التامة بالرجل، وأشدهن شططاً في زمانك هذا دكتورة نوال السعداوي، وكل كتب نوال السعداوي ونظرياتها وأفكارها عن تحرير المرأة قائمة على خريطة الوجود البني إسرائيلية، وليست سوى بناء عليها، أو امتدادات لها، أو فروع منها.

ففي كل كتبها بلا استثناء تبدأ بسرد قصة الخلق البني إسرائيلية وما فيها من إغراء حواء لآدم بالاكل من الشجرة وتحميلها وزر إخراجه من الجنة إلى منفاه ومحل عقوبته في الأرض، ثم تشرع في سب الأديان جميعاً، والتنظير لطرحها والتخلص منها وإحلال نظرية التطور محلها، لأنها بما نسبته لحواء كانت

السبب في جعل المراة في مرتبة أدنى من الرجل وفي ازدرائها عبر التاريخ كله، بل وتتطاول على الذات الإلهية، لأن الجرثومة البني إسرائيلية بالت في رأسها أن الإله تجنى على الانثى ونسب الشر لها ولم ينسبه للذكر.

فإليك من كتابها: الرجل والجنس هذا الحوار الذي دار بينها وبين أبيها، وهي في السنة الأولى من المرحلة الثانوية حول ضمير المذكر وضمير المؤنث، لكي تعرف منه أن إلحادها وتشوه وعيها والخلل في تكوينها، وشطط كل ما يدركه وما ينتجه هذا الوعي المشوه والتكوين المختل ليس سوى بعض من آثار سريان الجرثومة البني إسرائيلية في بلاد العرب وضربها لعقول أهلها ونفوسهم.

"وقال أبي:... وآدم كان أكثر سمواً من حواء لأنه كان الاصل، أما حواء فلم تكن إلا أحد أضلاعه، وهي التي أغرته أن يأكل من الشجرة المحرمة.

قلت بدهشة: فكيف تكون حواء جزءًا صغيراً من آدم وهي الأضعف ومع ذلك تصبح هي الأقوى فجأة فتقنعه بأن يخالف الله ويسمع آدم كلامها، حواء ليست هنا ضعيفة بل إنها قوية وأقوى من آدم، وهي الطرف الإيجابي وآدم هو السلبي.

وقال أبي: نعم ولكن إيجابية حواء كانت في الشر فقط.. لولا حواء لبقي آدم في الجنة، وقد نسب الشر إلى حواء ونسب الخير إلى آدم، وهذا هو السبب في مخاطبة الله بضمير المذكر: هو.

قلت لأبي: ولكن حواء لم تكن السبب في الشر، لأن إبليس هو الذي أشار عليها أن تغوي آدم بالأكل من الشجرة المحرمة، أي إن إبليس هو سبب الشر

في العالم، وإبليس مذكر ... فلماذا ألصقت تهمة الشر والشيطنة وإغراء آدم لحواء؟

قال أبي: لأن حواء هي التي أغرت آدم"[1] !!

بعد ان قرأت هذا الحوار الطريف، الذي يشخص لك حقيقة مرض نوال السعداوي، ويعرفك بالفيروس الذي شوه عقلها ونفسها ووجدانها، فلا ينبغي أن يكون قد فاتك أن أباها، الذي يبدو لك أنه يحامي عن الإله، لا يفرق عنها في شئ، فهي تتهم وهو يبرر ويفسر، وكلاهما عقله وتكوينه محصور داخل خريطة الوجود البني إسرائيلية وما فيها من جراثيم وليس في وعيه غيرها.

إذاً أكل آدم وزوجه من الشجرة معاً، فماذا حدث؟

هاهنا وقفة حاسمة فاصلة بين القرآن وبين الغرب وكل ما أنتجه وأنتجته الأمم والشعوب والحضارات من أساطير ومن نظريات ومن فلسفات، بعد أن غابت الحقيقة التي لا مصدر لها إلا الإله وحده.

أكل آدم من الشجرة فأخطأ، لكنه لم ينزل إلى الأرض مباشرة بعد خطئه، بل هناك حدث بين عصيانه لأمر ربه وبين نزوله إلى الأرض.

وهذا الحدث الذي أتى به الإله عز وجل في بيانه إلى خلقه، ليضئ عقولهم، وليكون بناء أذهانهم وتكوين نفوسهم ومصدر وعيهم، تنهار به كل الأساطير والخرافات والنظريات والفلسفات التي أنتجها الغرب والشرق، ماذا حدث؟

تاب آدم!

---

١) دكتورة نوال السعداوي: الرجل والجنس، ص٢١.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]

إذاً تاب آدم وزوجة وأنابا إلى الله، واعترفا بجهلهما وذنبهما، وطلبا منه عز وجل الرحمة والمغفرة.

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [2]

والأمر بالهبوط إلى الأرض للإنسان الأول كان بعد هذه التوبة، وبعد قبولها، وبعد أن صار بتوبته في هداية الله عز وجل ونوره .

ومن المثير للانتباه أن القرآن لا يذكر الأمر لآدم عليه السلام وزوجه بالهبوط إلى الأرض إلا بعد ذكر توبته وقبولها:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا ﴾[3]

وفي سورة طه:

﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا ﴾[4]

فإليك نموذج آخر على ما يضحك ويبكي يعرفك الماء الذي يسري في عقول الساسة ومن يكتبون في السياسة في بلاد العرب، من أين ينبع وما الذي يلوثه.

---

١) البقرة:٣٧.
٢) الأعراف:٢٣.
٣) البقرة:٣٧-٣٨.
٤) طه:١٢٢-١٢٣.

في يوم الثالث والعشرين من أغسطس سنة ٢٠١١م نشرت صحيفة الأهرام المصرية مقالاً سياسياً للخبير الاستراتيجي والمفكر السياسي دكتور عبد المنعم سعيد عنوانه: الخطيئة الأصلية، افتتحه بهذه العبارة:

"عندما قضم آدم التفاحة ارتكب الخطيئة الاولى التي بعدها بات على الإنسان أن يدير حياته على الأرض، ومع الإدارة جاءت السياسة"[١]!

ألم يفتح هذا المصحف ولو مرة واحدة في حياته، ألم يمر في مراحل تعليمه كلها بأحد يُعرفه أن آدم تاب قبل ان يهبط إلى الأرض، وأن الله عز وجل هو الذي وهبه العلم والمعرفة؟!

الذي يسري في عقول الساسة ومن يشتغلون بالسياسة في بلاد العرب، وما يحكم وعيهم وما ينتجه ليس سوى ماء خريطة الوجود المحرفة.

فإذا ما تساءلت: من أين، وكيف تلوث عقل هذا وأمثاله بالتحريف، فمما دلنا هو عليه دون أن يدري، من علوم السياسة والإدارة، وكلها نبتت من التحريف وخريطة الوجود المزورة، وهي مروية بها.

١) دكتور عبد المنعم سعيد: الخطيئة الاصلية، الاهرام ٢٣ أغسطس ٢٠١١م.

في مقر الخلافة

آدم، الإنسان الأول خلقه الله عز وجل شريفاً عزيزاً مكرماً، وابتلاه اختباراً بالشجرة فنسي وأخطأ وأكل منها، ثم تاب وأناب إلى خالقه عز وجل فقبل توبته.

والسؤال الآن:

إذا لم يكن هبوط آدم إلى الأرض عقاباً له ولا نفياً فلماذا إذاً أهبطه عز وجل إلى الأرض؟

هل الإنسان جاء إلى الأرض ليكون قائداً وخليفة أم لعقابه وتعذيبه، وهل الأرض مقر الإنسان ومركز قيادته ومحل عرشه، أم هي ملعونة وهي سجنه ومعتقله ومنفاه؟

يقول الله عز وجل في بداية أول عرض لقصة الخلق في القرآن في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١]

يخبرك الله عز وجل أنه أهبط آدم من الملأ الأعلى إلى الأرض من أجل مهمة محددة، هي أن يكون خليفتة عز وجل فيها.

١) البقرة: ٣٠.

إلا أن في الآية حقيقة أخرى كامنة، وهي أن وجود آدم على الأرض وهبوطه إليها من الملأ الأعلى واستقراره فيها إرادة إلهية وأمر مقرر عليه قبل أن يوجد وقبل أن يخلق، ففي هذا الحوار في الملأ الأعلى بين الله عز وجل وملائكته لم يكن آدم موجوداً، ولم يكن قد خلق بعد، ولم يكن قد أدخل الجنة، ولا نهي عن الأكل من الشجرة، ولا هو أكل منها.

إذاً هبوط آدم ووجوده في الأرض واستقراره فيها إرادة الله عز وجل التي لم يخلق آدم أصلاً إلا من أجلها، بل إنه عز وجل لم يعرف الملائكة بالمخلوق الذي سوف يخلقه إلا من خلال مهمته التي سوف يخلقه من أجلها، وهي الوجود في الأرض وخلافته عز وجل فيها.

فآدم مكانه الأرض ومستقره الأرض وهبوطه إليها مقرر مراد قبل خلقه وهو المقصود من خلقه.

معنى الخلافة

ما هو بالضبط معنى الخلافة، المهمة التي خلق الله عز وجل آدم وأبناءه من أجلها وأسكنهم الأرض للقيام بها؟

الخلافة، كما يقول الإمام القرطبي، معناها أن الإنسان:

" خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره"[1]

إذاً المقصود من الخلافة هو نيابة الإنسان عن الله عز وجل في الكون لأن:

"الخلافة هى النيابة عن الغير"[2]

هذه هي المهمة التي خلق الإنسان من أجلها، ومن أجلها أهبط من الملأ الأعلى، أن يكون خليفة الله عز وجل في إمضاء أحكامه وأوامره.

هذه المهمة التي خلق الإنسان من أجلها، وهي الخلافة عن الله عز وجل في الكون، تضع للإنسان الإطار الذي ينبغي له أن يتحرك فيه، والفهم الذي يجب أن يعيه لنفسه ولعلاقته بالكون وبالله عز وجل، كما توضح له خريطة مسيرته في الحياة وتضع له العلامات الإرشادية فيها.

فالخلافة أو النيابة هي عن الله عز وجل الخالق الواحد، المطلق القدرة، التام العلم، المحيط بكل شئ، فإذاً هذا تشريف للإنسان ومرتبة له في الوجود لم ينلها مخلوق آخر غيره حتى الملائكة المقربون.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج١، ص٢٦٣.
(٢) الراغب الأصفهانى: المفردات فى غريب القرآن، ص ١٥٦.

فالإنسان هو الكائن المشرف الذي خلقه خالق الوجود واختاره، ليكون خليفة له في الأرض والكون كله.

وجعل الله عز وجل علامة لباقي مخلوقاته على اختيار هذا المخلوق للخلافة وتكليفه بها وتشريفه على من سواه، وهي أمره عز وجل الملائكة بالسجود له، لا سجود العبادة، ولكن سجود إعلان الخضوع لأمر الله عز وجل في إرادته واختياره، وإعلان التسليم للمختار بالخلافة والتشريف والطاعة له في إمضاء أحكام الله عز وجل وأوامره.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾[1]

والملائكة هم أطهر خلق الله عز وجل وأقربها له، وهم منفذوا أمره وحكمه، فالأمر لهم بالسجود هو أمر لكل من سواهم بالسجود والطاعة.

فما هي مهام الإنسان، وما هو المطلوب منه ليكون خليفة ويحقق إرادة المستخلف منه ولا يخرج عن إطار مهمة الخلافة الموكولة إليه؟

يقول عز وجل مخاطباً خلقه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2]

فمهمة الإنسان التي خلق من أجلها وأهبط إلى الأرض للقيام بها أن يكون خليفة الله عز وجل.

ويقول عز وجل:

١) البقرة: ٣٤.
٢) فاطر: ٣٩.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1]

فالإنسان لم يخلق إلا لعبادة الله عز وجل.

إذاً كيف يمكن حل هذا الإشكال، هل خلق الإنسان للعبادة أم للخلافة؟

لا يمكن حل هذا الإشكال إلا بأن تكون عبادة الله عز وجل هي الخلافة في الأرض، وخلافة الله عز وجل في الأرض هي العبادة، والعبادة والخلافة، معاً، هي مهمة الإنسان التي من أجلها خلق وأهبط إلى الأرض.

إذاً فلكي تفهم معنى خلافة الإنسان لله عز وجل وطبيعة المهمة الموكولة إليه، فلابد أن تفهمها في إطار أنها العبادة، ولكي تفهم معنى العبادة لله عز وجل حق فهمها لابد أن تفهمها في ضوء الخلافة، لأن القرآن يقرر أنهما شئ واحد.

فما معنى عبادة الله عز وجل في ضوء أنها هي خلافة الإنسان في الأرض؟

هل المعنى أن تكون مهمة الإنسان الأولى والوحيدة على الأرض أن يصلي ويصوم ويحج ويؤدي الزكاة ويسبح ويستغفر؟

هذا ما لا يمكن تصوره، لأنه لو كان هو المقصود لما كان لوجود الإنسان على الأرض معنى، ولما استطاع أن يعيش على الأرض أو يتم مسيرته عليها، لأن سعيه في هذه الحالة وعلمه وعمله وبحثه عن الرزق والضرب في الأرض كلها تكون خارجة عن مفهوم العبادة، ومن ثَم عن المراد من الخلافة، فيكون الإنسان بذلك قد خرج عن إطار المهمة التي خلق للقيام بها.

---

١) الذاريات:٥٦.

إذاً فلا يمكن أن يكون معنى العبادة لله عز وجل، في إطار أنها الخلافة في الأرض والكون، هو الفروض والشعائر فقط.

فماذا يكون معنى العبادة في ضوء أنها الخلافة ومهمة الإنسان والغاية التي خلق من أجلها، كما يقرر القرآن؟

لا يمكن الإجابة، بل تصبح مستحيلة في ضوء ما قرره القرآن، إلا بتوسيع معنى العبادة، ليشمل كل ما يمكن أن يقوم به الإنسان على الأرض، وإلا كانت كل نشاطاته وحركته خروجاً على المهمة وتجاوزاً للتكليف.

يقول الراغب الأصفهاني:

"العبودية هي إظهار التذلل والعبادة غاية التذلل"(١)

فالعبادة ليست هي الفروض والشعائر فقط، وإنما هي التذلل والخضوع لله عز وجل.

فمعنى العبادة أن يخضع الإنسان لله عز وجل:

"فيحقق فى الكون مظهراً من الخضوع والتسليم له صادر عن إرادة حرة بعد أن تحقق الخضوع والتسليم من كافة المخلوقات بصفة قسرية(٢)

أو بتعبير الراغب الأصفهاني:

"أن تتحقق عبادة الله بالاختيار كما تحققت بالتسخير"(٣)

---

(١) المفردات في غريب القرآن، ص ٣١٩.
(٢) دكتور عبد المجيد النجار: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص ٦٣.
(٣) المفردات في غريب القرآن، ص ٣١٩.

فالعبادة هي فهم الوجود والحياة بخريطة الوجود الإلهية، وصنع الحياة بها، وتكوين القيم والأخلاق والعلاقات بهديها، وضبط كل ما يصدر عن الإنسان بمنهج الله عز وجل وأوامره، أفكاره وسلوكه، علمه وعمله، نشاطه وأخلاقه.

العبادة إذاً هى الحياة الإنسانية كلها حين تسير بأمر الله عز وجل وفي نور منهجه.

وقد تقول: في هذه الحالة التي تكون فيها العبادة هي ضبط كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل أو حركة بما أراد الله عز وجل منه فيها، ماذا تكون الفروض والشعائر؟

هي الخط الساخن بين الخليفة وبين الله عز وجل الذي استخلفه، وبينه وبين الملأ الأعلى الذي قدم منه، يصله به ويذكره بنفسه، من هو، وما هي ماهيته، وما هو سبب وجوده، وينبهه إلى المهمة التي قدم من أجلها إلى الأرض ليكون دائم الوعي بها والإدراك لها، إذا غفل عنها تذكر، وإذا أخطأ عاد ورجع، وإذا تكاسل تنبه.

سلطان الإنسان

أول آثار الخلافة من الله عز وجل في الكون ومقتضياتها هي أن الإنسان مخلوق مشرف مختار على الخلائق.

فإذا كان الإنسان هو خليفة الله عز وجل في الكون المشرف، فقد ترتب على ذلك أن الله عز وجل الذي اختاره لخلافته منحه سلطاناً على الوجود، وهيمنة عليه، وقدره على تسييره وإدارته، حتى يتمكن من أداء مهام الخلافة التي خلق وشرف على الخلائق من أجلها.

وتوطيداً لهذا السلطان من المستخلِف لمن استخلفه، وتذليلاً لأداء مهمته، وإعانة له عليها، أمر عز وجل الكون كله أن يكون مسخراً لهذا الخليفة المختار.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1]

إذاً فالكون والطبيعة ليست نداً للإنسان ولا عاصية له، بل هي مذللة له، أوجدت ورتبت بأمر الله عز وجل في هذه الصورة، لتمكنه من أداء مهمته التي خلقه الله عز وجل واختاره لها، وليس الكون شراً يفر منه، ولا الطبيعة في حالة صراع دائم معه، بل هي موجود مخلوق ليسيره الإنسان في إطار المهمة

---

١) إبراهيم: ٣٢-٣٣.

المحددة التي خلق من أجلها، والوجود كله يدعوه لذلك بما هو مبثوث فيه ويعينه عليه.

فإليك مرة أخرى نموذجاً على أدمغة العرب المختلة وتكوينهم الذي لوثته وشوهته خريطة الوجود البني إسرائيلية، ولا أثر فيه للوحي، وكأن الرسول الخاتم ما بعث والبيان الإلهي ما أنزل.

إليك هذه العبارة من كتاب: الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات الذي يدل اسمه على فحواه، والذي بناه مؤلفه الكاتب والدبلوماسي عبد الله القصيمي على أن الإنسان يصنع الحضارة والعلوم والآداب والفنون بالعصيان والتمرد على كل شئ: الإله والمجتمع والطبيعة، بل وعلى نفسه:

"إن عبقرية أي إنسان ومزاياه لا تساوي أكثر من قدرته على العصيان ومن إرادته وممارسته له، إن إبداع أي مجتمع في ألف عام لا يساوي أكثر من عصيان هذا المجتمع في نفس هذه المدة، إن أي إبداع ليس إلا عصياناً ما، إن عصيان الإنسان هو تخطي ما كان، هو تخطي قدرة الطبيعة ...إن الإنسان وحده هو الذي يعصي في هذا الكون لأنه هو وحده الذي يتجاوز قدرة الطبيعة وأشواطها ويخرج عليها ويرفضها، وهو وحده الذي يتجاوز نفسه ويخرج عليها ويرفضها"(١)

الهذيان الذي أتحفك به المفكر والروائي والدبلوماسي ليس سوى أحد آثار سريان التحريف البني إسرائيلي في عقول العرب.

---

١) دكتور عبد الله القصيمي: الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات، ص٣٧٧.

فإذا تجاوزت هذا الهذيان، تعلم من بيان الإله إلى خلقه أن السلطان والهيمنة التي للإنسان على الأرض والكون وكل ما يحيط به من مخلوقات، هذه الهيمنة وهذا السلطان مُنحا من المستخلف للخليفة لإعانته في مهمته التي خلق من أجلها، وإذاً سلطان الإنسان على الكون والطبيعة والخلائق ليس أصيلاً فيه، ولا هو حازه بقدراته الذاتية، بل هو موهوب له في إطار مهمته المحددة، ألا وهي الخلافة.

فليس للإنسان أن يستخدم هذا السلطان وهذه الهيمنة إلا في إطار مهمة الخلافة عن الله عز وجل، وفي حدود أدائها، وكل استخدام لهذا السلطان خارج حدود مهمته في الكون هو خروج على إرادة المستخلف عز وجل وعقد الخلافة، لأن هذا السلطان وهذه الهيمنة لم تمنح له إلا لأداء هذه المهمة.

وكل استخدام لهذا السلطان خارج حدود مهمة الخلافة هو افتئات وتمرد من الإنسان على الذي استخلفه عز وجل، لأن الخليفة ليس حراً حرية مطلقة في التصرف في الكون والخلق، فهو حر داخل الحدود التي وضعها له من استخلفه، وهو حر في استخدام ما منح من سلطان بحيث لا يخرج عن إرادة من منحه هذا السلطان.

وكل تعد لهذه الحدود وهذا الإطار هو تعد من الإنسان لمقامه ومكانه، مقام الخليفة، إلى مقام ليس له ولا يملك قدراته ولا سلطانه، مقام الإله، ذلك أن السلطان الذي منح له سلطان جزئي محدود بحدود المهمة التي وكل بها، فسلطان الإنسان على الكون هو سلطان الخليفة الممنوح الجزئي، لا سلطان الإله الكامل المطلق.

ووضع هذا السلطان في غير إطار الخلافة هو إفساد للكون والخلائق، وإيذان بخروجها عليه، وعدم قدرته على السيطرة عليها وتسييرها بالتناسق والإحكام التي هي فيه، لأن سلطانه غير مؤهل لهذا، ولا هو يملك القدرات التي تمكنه منه.

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[١]

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾[٢]

فالكون كله سماءًا وأرضاً، براً وبحراً، المسخر للإنسان المذلل له هو نفسه الذي يخرج عن سلطانه الممنوح له إذا وضعه في غير ما منح له بسببه، ويصير هو عين هلاكه وتدميره.

وإذا كانت خلافة الإنسان في الأرض والكون تشريفاً وتكريماً له، واقتضت أن يُمنح سلطاناً يمكنه من أداء هذه المهمة على الأرض، فإن هذه الخلافة نفسها هي تكليف للإنسان ومهمة موكولة إليه محاسب عليها، وليس له أن يتنصل منها ولا أن يأبى حمل تبعاتها، مثلما أنه ليس له أن يستخدم السلطان الذي منح له بها في غيرها.

---

١) الروم: ٤١.
٢) العنكبوت: ٤٠.

فالخلافة تكليف يعني أن على الإنسان مهمة محددة، هو مسؤول أمام من استخلفه عن أدائها وتنفيذها على الوجه الذي أراده، وهذا التكليف هو المهمة الأولى والأصلية للإنسان على الأرض، لأنه ما أوجد ولا أهبط إليها إلا لأدائها.

وهذه المهمة المسؤولية التي كلف بها لها أجل مسمى محدد عيَّنه المستخلف، هو يوم القيامة للإنسانية كلها، والموت لكل إنسان وحده.

بعدها تنتهي المهمة ويُستدعي الإنسان الخليفة إلى مستخلفه، لتنشر صحائف الأعمال وتبسط التقارير، ويحاسب الخليفة على كيفية أدائه وإنجازه للمهمة، هل أداها كما أراد منه الله عز وجل الذي استخلفه، هل قصر فيها، هل تجاهل المهمة التي خلق من أجلها وخرج عن إرادة المستخلف؟

هل استخدم الإنسان السلطان الممنوح له فيما منح له من أجله أم أساء استخدامه وخرج به عن حدود المهمة المكلف بها والموكولة إليه، وإذا كان قد قصر فهل تقصيره مما يغتفر لأنه من طبيعة النقص الطينية التي خلق بها، وهذا التقصير لم يخل بإطار المهمة والتكليف، أم أن هذا التقصير كان عبثاً خارج حدود الضعف المركب فيه يستوجب العقاب، أم أن الأمر كان إطاحة بالمهمة كلها وتمرداً عليها وعلى المستخلف ومناطحة له عز وجل، التمرد الذي ليس له جزاء إلا ما يكافئه، اللعنة والعذاب الأبدي؟

يقول عز وجل:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾[1]

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره، بعد أن نقل ما وصله من أقوال الصحابة والتابعين في معنى الأمانة:

"وكل هذه الأقوال لا تناقض بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف"[2]

فالأمانة التي يحملها الإنسان معه هي التكليف بالمهمة التي يجب إنجازها على الأرض، والتي ما خلق إلا من أجلها وما أهبط من الملأ الأعلى إلا لأدائها، وهي الأمانة التي ليس له أن يتنصل من أدائها لأن وجوده ما كان إلا من أجلها.

ولا يخلو الأمر من سفسطة، فرب قائل: أنا لا أريد هذه المهمة ولا أرغب في هذا التكليف.

فقل له: إن هذا التكليف هو سبب وجود الإنسان في الأرض، ورفضه يعني رفض الإنسان لسبب وجوده، فإذا كان يمكن لإنسان أن يرفض وجوده فيمكنه أن يرفض التكليف.

وهذه المهمة التي خلق الإنسان لأدائها هي ماهيته التي عرف الله عز وجل الملائكة به عن طريقها، فرفض الإنسان المهمة هو إنكار منه لماهيته.

---

1) الأحزاب: ٧٢.
(٢) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٦٨٩.

وهذه المهمة وهذا التكليف هو الذي منح الإنسان سلطانه على المخلوقات، وسخر له الكون لكي يستطيع إنجازها والقيام بها، فإذا أراد رفض المهمة كان عليه أن يتنازل عن سلطانه على الخلائق ويترك التعامل مع ما سخر له من الأرض والكون، فلا يأكل من الأرض التي سخرت لتنبت له، ولا يشرب الماء الذى سخرت السماء والسحاب والشمس والبحار لإسقاطه له، ولا يتنفس الهواء، ولا .. ولا.. ولا.. ولا يكون.

فمن أراد رفض المهمة وترك التكليف عليه في الوقت نفسه، لارتباط المهمة بمقتضياتها وما منح له لإنجازها، عليه أن يتنازل عن سلطانه وعلمه وعقله، وعن وجوده وماهيته، وعليه ألا يكون.

العلم والمعرفة

لماذا منح الله عز وجل الإنسان العلم بالكون والطبيعة والمخلوقات، ولماذا انفرد الإنسان بهذا العلم واختص به دون باقي المخلوقات؟

لأن الله عز وجل خلق الإنسان لمهمة، هي أن يكون خليفته في الكون والخلق، وهذه الخلافة تعني تسيير كل شئ في الوجود بأمر الله عز وجل ومنهجه وحسب ما يريده عز وجل منه.

ولكي يتمكن الإنسان من أداء مهمته وتحقيق الخلافة في الأرض منحه الله عز وجل من القدرات وزوده من الوسائل ما يعينه ويمكنه من أداء مهمته، فوهبه سبحانه تعالى العلم وزوده بوسائل تحصيله لكي يتعرف على الكون الذي هو مستخلف فيه: ما هو، وما يحكمه من قانون ونظام، وما هو مخبوء فيه ومركوز من إمكانات لتكون عوناً له في مهمته، ولكي يعرف المخلوقات التي هو مستخلف عليها ومسؤول عنها: ما هي، وما هي وظائفها وما تفعله في الأرض، وكيف هي مسخرة له، وما الذي يمكنه أن يستخدمها فيه.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[(١)]

ومنح الله عز وجل الإنسان العلم والمعرفة، لكي يكون سلطاناً يتمكن به من السيطرة على المخلوقات واستخدامها والانتفاع بها.

---

١) الغاشية:١٧-٢٠.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾[1]

ومنح الله عز وجل الإنسان العلم والمعرفة ليعرف نفسه وما أُودع فيه من قدرات ووسائل سيادة وسلطان، ومن وسائل علم وكشف ليستخدمها في مهمته الاستخلافية، ولكي يطورها ويورثها من جيل إلى جيل في البشرية حتى تتحقق وتكتمل المهمة التي وجدت من أجلها.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾[2]

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾[3]

وقبل ذلك منح الله عز وجل الإنسان العلم والمعرفة ليكون مرشداً له وهادياً حين ينظر في الكون والطبيعة والخلق ويرى دقة النظام وكمال الإحكام إلى الخالق: وحدانيته، وطلاقة قدرته، وكمال صفاته، لكي يظل على اتصال بالملأ الأعلى، حتى لا ينحرف عن مهمته، أو يسئ فهم المراد منه لإتمامها.

---

١) النحل:٥-٨.
٢) الطارق:٥.
٣) الذاريات:٢١.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ ﴾[1]

مُنح الإنسان العلم والمعرفة، لأنه وسيلته في التعرف على محل مهمته، وهو قدراته الممنوحة له لإنجازها، وهو سلطانه في تسخير المخلوقات والانتفاع بها، وهو طريقه لمعرفة نفسه وما أُودع فيه من قدرات لإنجاز مهمته، وهو النجم الذي يهديه في أثناء مسيرته إلى الخالق ويذكره بوحدانيته.

وعلم آدم الأسماء كلها:

يقول عز وجل في خريطة الوجود الحقيقية التي حفظها سبحانه وتعالى في بيانه إلى خلقه:

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[2]

والاسم وعاء المسمى، وهو تكثيفه واستحضاره في الوعي، فإذا قلت: شجاع، فسوف يثب إلى أذهاننا مئات الشجعان في عرض الدنيا وطول التاريخ، فإذا أضفت إليها: كريم، ضاق النطاق وما استطعنا تحديداً لأحد، فإذا قلت: فارس عاش في الجاهلية، قلنا: هذا في الغالب عنترة.

أما إذا نطقت باسم عنترة فسوف نراه ماثلاً أمام أعيننا، وفي وعينا كل ما يتعلق به ونعرفه عنه، لأن الاسم هو كل المسمى، وهو جمع لكل ما تعلق به واستحضار لكل سماته معاً.

---

١) آل عمران: ١٩٠.
٢) البقرة: ٣١.

فالله عز وجل عرف الإنسان بأسماء الأشياء، أي بها وبكل خصائصها وصفاتها ومنافعها، المادية والمعنوية، الأسماء، كما يقول الإمام القرطبي هي:

"أسماء خلقه، وسمى كل شئ باسمه، وأنحى منفعة كل شئ إلى جنسه، والمعنى علمه الأجناس وعرفه منافعها"[1]

وأسماء القيم والأخلاق هي معناها وضوابطها، فالله عز وجل مصدر القيم والأخلاق، وهو عز وجل الذي منحها معناها، ووحيه ضابطها، ومن ثَم فإزاحة مسألة الألوهية أو نفي الوحي هو محو للمرجعية والمعايير والموازين، وتفريغ لأسماء الأخلاق والقيم من معانيها، ليملأها من شاء بما شاء.

فالحرية والأمانة والعفة والعدل والمساواة ألفاظ وكلمات كالأوعية الفارغة، والمعاني التي تملؤها مصدرها الإله وحده، ووحيه عز وجل وبيانه هو ضابط هذه المعاني، فإذا حدد أحد للبشر معاني القيم والأخلاق وضوابطها وحدودها من عنده فقد أحل نفسه في وعي البشر ونفوسهم محل الإله.

وأسماء العلاقات الاجتماعية هي ضوابطها وقواعدها، والله عز وجل هو مصدر هذه الضوابط والقواعد، ووحيه سبحانه وتعالى هو بيانها، والفرق بين الشرع وبين تركه في أي علاقة هو مجموعة من الضوابط والقواعد.

فالفرق بين الزواج والزنا ضوابط وقواعد، مصدرها الإله وبيانها في وحيه، إن وُجدت فهو زواج، وإن فقدت فهو زنا، وكذلك الفرق بين البيع والربا، وبين الهدايا والرِشا.

---

١) الجامع لأحكام القرآن: ج١، ص٢٨٢.

وخريطة الوجود البني إسرائيلية المحرفة، كما ستعلم، ليست سوى تفريغ لأسماء القيم والأخلاق من المعاني، ونسف لقواعد العلاقات الاجتماعية وضوابطها، وعمل بني إسرائيل عبر التاريخ ليس سوى بث مكونات هذه الخريطة المحرفة في وعي البشر وتكوين مجتمعاتهم بها، عبر إعادة ملء أسماء القيم والأخلاق بعد تفريغها، وشحنها بالمعاني التي يريدونها ويستوطنون بها عقول البشر، وعبر وضع قواعد وضوابط للعلاقات الاجتماعية بديلة لقواعد الوحي وضوابطه يمتطون بها كل الأمم والشعوب.

ويقول عز وجل في بيانه:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾[1]

يخبرك بيان الإله أنه عز وجل الذي علم الإنسان البيان، ومادة بان، وكل ما يتفرع منها، يدل على الكشف والوضوح والظهور:

"بان الشئ: ظهر واتضح، وأبان فلان: أفصح عما يريد، وأبان الشئ: أظهره ووضحه، وتبين الشئ: تأمله حتى اتضح، والبيان: الحجة والمنطق الفصيح"[2]

وسمي الكلام بياناً لأن الإنسان يظهر به ما في نفسه ويوضح ما يفكر فيه، فالبيان هو اللغة، واللغة هي أداة التفكير ووعاء الأفكار، فلا فكرة من غير لغة

---

١) الرحمن: ١-٤.
٢) المعجم الوجيز، ص٧٠.

تُصب فيها، منطوقة أو مكتوبة، والإنسان المخلوق الذي له لغة، لأنه المخلوق المفكر، واللغة أداة نقل المعرفة وتوارثها.

"والبيان هو الكشف عن الشئ"[1]

فالبيان هو أيضاً الكشف والإبانة عن حقائق الكون والطبيعة ومعرفة ما فيها، ولذا كانت الآيات التالية كلها في الكون والطبيعة، لكي توجه الإنسان إلى المجالات التي ينبغي أن يضع فيها ما وهب له من علم وقدرات:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ [وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢﴾[2]

إذاً فالله عز وجل هو الذي منح الإنسان العلم والمعرفة، وأمره سبحانه وتعالى بهما، وهو الذي وهبه التفكير وأودعه أدواته، وهو عز جل الذي علمه اللغة ووهبها له لكي يتمكن من الكشف والإبانة عن علمه وأفكاره، ومن نقلها وتوارثها ومراكمة آثارها.

أما في خريطة التحريف البني إسرائيلية، فالإله منع الإنسان من العلم وحرمه من المعرفة، وحازهما الإنسان بإرشاد الشيطان، وبالتمرد على الإله وعصيانه، وعلى غير إرادته.

---

١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص٦٩.
٢) الرحمن: ١-١٢.

فإليك ما تعرف به أي خريطة وجود تلك التي كونت الوعي في بلاد العرب وتحكمه وتتحكم في ما يدركه وما ينتجه.

يقول عميد الأدب العربي طه حسين في كتابه: من بعيد:

"والحق أن هذه الخصومة بين العلم والدين، كما قلت في غير هذا الموضع، قديمة يرجع عهدها إلى أول الحياة العقلية الفلسفية، والحق أيضاً أن هذه الخصومة بين العلم والدين ستظل قائمة متصلة ما قام العلم وما قام الدين لأن الخلاف بينهما أساسي جوهري لا سبيل إلى إزالته أو تخفيفه إلا إذا استطاع كل منهما ان ينسى الآخر نسياناً تاماً ويعرض عنه إعراضاً مطلقاً"[1]

ابن الأزهر الذي يلقبونه بعميد الأدب في بلاد العرب يؤمن أن العلم والدين نقيضان لا يجتمعان، ألم يحفظ القرآن أو يقرأه يوماً، ومن أين أتته الجراثيم التي كونت عقله ولوثته؟

فإليك من كتابه: مستقبل الثقافة في مصر ما يعرفك بها وبمصدرها وكيف صبت في عقله:

"الكاتب الفرنسي المعروف بول فاليري شخص العقل الأوروبي فرده إلى عناصر ثلاثة: حضارة اليونان وما فيها من أدب وثقافة وفن، وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه، والمسيحية وما فيها من خير وحث على الإحسان، فلو أردنا أن نحلل العقل الإسلامي في مصر والشرق القريب أفتراه ينحل إلى شئ آخر غير هذه العناصر؟

---

١) دكتور طه حسين: من بعيد، ص٢٠٢.

خذ نتائج العقل الإسلامي كلها، فستراها تنحل إلى هذه الآثار الأدبية والفلسفية والفنية التي هي متصلة بحضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن، وإلى هذه السياسة والفقه اللذين هما متصلان أشد الاتصال بما كان للرومان من سياسة وفقه، وإلى هذا الدين الإسلامي الكريم وما يحث عليه من إحسان، ومهما يقل القائلون فلن يستطيعوا أن ينكروا أن الإسلام قد جاء متمماً ومصدقاً التوراة والإنجيل، وإذاً فمهما نبحث ومهما نستقص فن نجد ما يحملنا على أن نقبل أن بين العقل الاوروبي والعقل المصري فرقاً جوهرياً"[١]

والإسلام الذي يفهمه السيد العميد وتكلم عنه في كتابه ليس سوى صورة من المسيحية، وفحواه عنده هي فحواها، فالذي كون العقل المصري الحديث، أو عقله هو في الحقيقة، ثلاثة روافد هي: الثقافة الإغريقية، والحضارة الرومانية، والمسيحية التي يتوهمها إسلاماً، أو يموهها فيه.

والمسيحية كلها ليست سوى امتداد أو فرع تفرع من خريطة الوجود البني إسرائيلية في سفر التكوين، فالتجسد الذي يحكم الوعي المسيحي، شجرة بذرتها في سفر التكوين، وعقيدة الصلب التي هي لب المسيحية، أصلها وجذرها خطيئة الإنسان الأول والعقوبة المفروضة عليه في الأرض في الخريطة البني إسرائيلية.

والإغريق والرومان حضارات أقيمت على افتقاد الوحي والجهل به، فهي من ثمار حجب الوحي ومن إفرازاته في دورة الإفساد الأولى، كما ستعلم تفصيلاً في أثناء رحلتك معنا.

---

١) دكتور طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، ص٣٠.

فالروافد التي كونت ذهن عميد الأدب العربي ونخب مصر الضالة، كلُها نبعت من التحريف، وتدفقت في عقولهم من خريطة الوجود البني إسرائيلية وآثارها.

فلا تعجب إذا علمت أنه في النصف الأول من القرن العشرين نسف الرواد بوعيهم المشوه كل قواعد المجتمع، وهتكوا نسيجه، وأذابوا قيمه، ومحوا أخلاقه، وشوهوا وعي أهله جميعاً.

وقد كان تشويه وعي هذه النخب وتكوينها مقصوداً، ليكون إفسادهم لبلاد العرب وسيلة لإقامة دولة اليهود، فكل تخريب في بلاد العرب كان يقابله وضع لبنة في دولة اليهود، فتفكيك بلاد العرب بالأفكار الوطنية والقومية والنخب التي تكونت بها كان يقابله اجتماع اليهود، وإقامة إسرائيل لم يكن ممكناً من غير إسقاط دولة الإسلام الموحدة، وفي الوقت الذي كان فيه الضالون في بلاد العرب يميتون العربية كان اليهود يعيدون إحياء العبرية، وحين كانوا يهجرون القرآن ويخرجونه من وعي العرب وعقولهم ونفوسهم كان اليهود يصنعون دولتهم ويقيمونها بالتوراة.

فإذا ما تساءلت: كيف تشوه وعي هذه النخب ومن أين؟

فالإجابة: عبر نظم التعليم التي أقامها الفرنسيس والبريطان، والبعثات التي أرسلوها إلى بلادهم ليصنعوا رؤوس هذه النخب في معاملها، وعبر المحافل الماسونية التي نشروها في مصر ليربوهم فيها، وعبر القوانين التي شرعوها

وأحلوها بقوة المدافع محل الشريعة، وعبر سياساتهم الإدارية والإعلامية، وعبر الحكومات العميلة لهم.

والبريطان والفرنسيس والأمريكان، وكل من جاءوا إلى بلاد العرب منهم، عسكريين وساسة ورجال فكر وأدب وأصحاب علم وإدارة، منذ نابليون وحتى زمانك هذا، هم أنفسهم من الماسون الذين كونت وعيهم وصنعت عقولهم ونفوسهم وتتحكم فيها خريطة الوجود البني إسرائيلية.

فإليك مثالاً واحداً، والباقي على شاكلته.

أشهر رجال بريطانيا في تاريخ مصر وأشدهم أثراً فيه، والذي وضع في عهده هيكل تعليمها الذي ما زال سارياً إلى اليوم، والذي أزاح بسطوته الشريعة وأحل محلها القانون الوضعي، والذي تربى على يديه جل نخبة مصر الحديثة الذين حددوا ملامحها ومنحوها سماتها: اللورد كرومر.

واللورد كرومر اسمه الأصلي: إيفلين بيرنج إيرل أوف كرومر Evelyn Baring Earl of Cromer

واللورد كرومر ماسوني، وأسرته، أسرة بيرنج، إحدى أعرق الأسر الماسونية في بريطانيا، وثمة محفل باسمها ما زال عاملاً إلى اليوم، وهو محفل بيرنج Baring Lodge، وأسرة بيرنج كانت تمتلك أيضاً بنكاً باسمها Baring Bank، وكانت حليفة عبر بنكها لأسرة روتشيلد في بريطانيا وأحد وكلائها.

اقرأ باسم ربك الذي خلق:

يقول عز وجل في بيانه وخريطة الوجود الحقيقية المحفوظة:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[1]

فالله عز وجل هو الذي يدل الإنسان على القراءة ويأمره بها، ولكنه يرشده إلى أن القراءة الحقيقية والصحيحة لا تكون إلا باسم الله الذي خلق وفي نور وحقيقة أنه سبحانه وتعالى الذي خلق .

وهو ما يرشدك به سبحانه وتعالى إلى أن البداية الصحيحة لكل العلوم والمعارف هي الخلق الإلهي، وأنها لا تكون نقية من الأباطيل والضلالات إلا إذا كانت قائمة على هذه الحقيقة ومحكومة بها.

أما ما أنتجه التحريف وخريطته من معارف وعلوم وآداب وفنون، فهو كله قائم على إزاحة الوجود الإلهي من وعي البشر الذي ينتجها، وهدفه ترسيخ هذه الإزاحة فيه وفي وعي البشر جميعاً.

---

١) العلق:١-٥.

منهج الحياة وقواعد الاجتماع

الإنسان الآن خليفة الله عز وجل على أرضه وفي كونه، وهو في مقر خلافته، وقد شُرف بهذه الخلافة، ومُنح من أجلها سلطاناً على الكون والخلائق، وهذه الخلافة مهمة وتكليف يجب أداؤه والقيام به.

ومن أجل القيام بهذه المهمة سخر الله عز وجل كل شئ في الكون، سماءًا وأرضاً ومخلوقات، بما يعنيه على أداء مهمته، وزود عز وجل الإنسان نفسه من القدرات والطاقات والسلطان ما يمكنه من أداء هذه المهمة والقيام بتبعاتها.

ومن أجل أن يتمكن آدم من أداء وظيفته ورسالته زوده عز وجل بالعلم والمعرفة وأدوات تحصيلها.

وبدأت البشرية مسيرتها على الأرض بآدم عليه السلام وزوجه عارفاً بالله عز وجل تائباً إليه مهتدياً، ووهبه المنهج الذي يسير عليه والقواعد التي يُكوِّن بها عالمه ويقود بها الكون والمخلوقات من مقر عمله في الأرض.

فالبشرية بدأت رحلتها تائبة مهتدية راشدة على الحق ومعها منهج إلهي تتبعه وقواعد ربانية تسير عليها.

يقول عز وجل في بيانه إلى خلقه:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾[1]

١) الأعراف: ٢٦.

بيان الله عز وجل يعرفك أنه سبحانه علم الإنسان الأول كيف يتعامل مع الطبيعة، وكيف ومن أين يأكل، وكيف يصنع ما يستر به عورته.

وقراءة عاصم ومن وافقه، كابن كثير المكي وأبي عمرو البصري وحمزة الكوفي ويعقوب الحضرمي وخلف العاشر، برفع كلمة: ﴿وَلِبَاسُ﴾، على انها مبتدأ.

وأما نافع المدني من وافقه، كابن عامر الدمشقي والكسائي الكوفي وأبي جعفر المدني، فقرءوا بنصبها عطفاً على كلمة: ﴿لِبَاسًا﴾ الأولى، ووافقهم الحسن وابن شنبوذ من الشواذ[1]

فيكون المعنى أنه عز وجل أنزل على بني آدم لباس التقوى مع لباس أجسامهم، أي إنه عز وجل أنزل مع آدم التائب المهتدي الذي يعرف الإله ويوحده منهجاً يطيعه ويهتدي به، ويعرف منه القيم والأخلاق والعلاقات الاجتماعية، ما معناها وما قواعدها وضوابطها وكيف تكون.

وهذه الحقيقة الإلهية التي كشفها لك عز وجل في بيانه إلى خلقه، تخالف سيرة البشر الأولى في كل النظريات والفلسفات والعلوم التي كونها وأنتجها سريان تحريف الوحي فى أذهان من أنتجوها وعقولهم كما سترى.

فالسيوسيولوجي علم الإجتماع، والأنثروبولوجي علم الأجناس، والسيكولوجي علم النفس، ونظرية التطور، والماركسية، والليبرالية والعقد الاجتماعي، والعلوم السياسية والاقتصادية، والآداب والفنون، كلها قامت

---

١) الإمام ابن الجزري: النشر في القراءات العشر: ج٢، ص٢٦٨، الإمام أحمد بن محمد البنا: اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: ج٢، ص٤٦.

وارتفعت صروحها الكاذبة على فرضية أن الإنسان بدأ مسيرته على الأرض تائهاً يخبط في عماء المجهول، وأنه كون معارفه وعلومه وعلاقاته ونظام حياته، وكون أخلاقه وقيمه، بل وكون عقائده وأفكاره عن الإله، من سيرة خبطه العشواء هذه وما صاحبها من تجارب، لأنها كلها نبتت ورُويت بخريطة التحريف البني إسرائيلية التي أوجدت الإنسان على الأرض تائهاً آبقاً مطروداً من الإله، وجعلت الأرض منفاه التي يقضي فيها عقوبته ويصنع عالمه ضارباً فيها بنفسه بمعزل عن الإله.

فإليك مثالاً واضحاً لا لبس فيه تدرك به الفرق بين ما تثمره سيرة الإنسان الأول في خريطة الوجود الإلهية، وما تفرزه سيرته المحرفة في خريطة الوجود البني إسرائيلية، وتعرف منه أيهما التي نبتت منها المعارف والعلوم، ورويت به الآداب والفنون، وأقيمت عليه العلاقات، وصنعت به المجتمعات.

هل الأسرة والزواج إرشاد إلهي أم اكتشاف وابتكار بشري؟

إذا كان الزواج إرشاداً والأسرة وضعاً إلهياً، فيكون هو وهي العلاقة الوحيدة الصحيحة بين الرجل والمرأة، وأي صورة أخرى لهذه العلاقة خطأ أو خطيئة.

وأما إذا كان الزواج والأسرة ابتكاراً واختراعاً إنسانياً، فلا غضاضة ولا وزر في أن يبتكر من شاء غيره وغيرها، وحينئذ تكون العلاقات الحرة والشيوع الجنسي، بل والشذوذ لا غبار عليها.

فإليك ما الذي يخبرنا به الوحي وخريطة الوجود الإلهية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ۝١﴾[1]

ثم إليك أشهر فاسق وعربيد في التاريخ يخبرك هو نفسه أن انحلاله وشذوذه ليس سوى نظرية وفلسفة منطقية أفرزتها تلقائياً سيرة الإنسان الضال الآبق وانفصاله عن الإله ووحيه وإرشاده في خريطة الوجود البني إسرائيلية.

يقول الكونت دي صاد:

"ما دام الإله غير موجود فإن العاقل هو من يسعى إلى إشباع رغباته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً دون أن يجر على نفسه عقوبة أرضية، وكل الرغبات خير، والأخلاق أوهام، والعلاقات الجنسية بكل صورها جيدة، ولا يوجد شئ اسمه شذوذ، لأنه ليس هناك من يستطيع أن يقول ما هو الشذوذ وما الذي يكون شاذاً وما الذي لا يكون"[2]

والآن تأمل على بصيرة في كل شئ حولك، القصص والروايات، والأفلام والمسلسلات، والمدارس والجامعات، والنوادي والبلاجات، والشوارع والمواصلات، وسوف تفطن وحدك إلى أن الحياة كلها تم صنعها وإقامتها بالتحريف وعليه، فصار الزنى ممارسة للحب وبديلاً عن الزواج، والعلاقات الحرة نسفت بها الأسرة، والشذوذ أصبح يحتفى به ويدافع عنه كالفطرة.

---

١) النساء:١.
٢) ول ديورانت: قصة الحضارة: ج٤٢، ص٤٠٠.

وكل العلوم الإنسانية، ومناهج التعليم، وجماعات حقوق الإنسان، وحركات تحرير المراة، واتفاقيات الأمم المتحدة ومواثيقها، قائمة على فرضية التحريف، وهدفها ترسيخها.

والآن إليك أشهر نموذج على وعي العرب المشوه الذي كونه التحريف وحل فيه محل الوحي، فهذه هي مسيرة البشر كيف بدأت وكيف سارت عند قاسم أمين، وهي نفسها الفرضية التي فرع منها وأقام عليها دعوته لتحرير المرأة.

يقول قاسم أمين إن علاقة الرجل بالمرأة عبر التاريخ مرت بأربعة مراحل، كل مرحلة منها تواكب طوراً من الأطوار التي مر بها المجتمع البشري، ففي المرحلة الأولى:

"كانت علاقة الرجل بالمرأة متروكة إلى الصدفة ولا تفترق عما يشاهد بين الأنعام، وكان الشأن إذا ولدت المرأة ولداً أن يجتمع القوم متى وصل الولد إلى سن البلوغ وينسبوه إلى أشبه الناس به"[1]

فالذي يعرفه قاسم أمين المصري العربي المسلم عن البشرية ويؤمن به أنها بدأت بالانحلال والإباحية المطلقة والشيوعية الجنسية، بلا إرشاد ولا منهج ولا قواعد ولا قيم ولا أخلاق، والمرأة في هذه المرحلة، والتي وصفها بما قرأت، هي المرأة الحرة.

وفي المرحلة الثانية:

---

١) قاسم أمين: المرأة الجديدة، ص١.

"لما ودع الإنسان بداوته واتخذ وطناً قاراً واشتغل بالزراعة وجد نظام البيت، ومن أهم ما ساعد على تشكيل العائلة أنه كان لكل عائلة معبود خاص بها تختاره من بين أسلافها... وترتب على دخول المرأة في العائلة حرمانها من استقلالها"[1]

فالزواج وتكوين الأسر لم يكن سوى ابتكار من الإنسان اضطره إليه اشتغاله بالزراعة وما واكب مرحلة حياته هذه من ظروف وملابسات، وانتقال المرأة من الإباحية وامتطاء الرائح والغادي لها إلى الزواج والوجود في أسرة داخل بيتها وبين أبنائها كان استعباداً لها!!

ومما قاله الرائد المعتوه تعلم أنه لا يعتقد أن البشرية بدأت بالإباحية والشيوع الجنسي فقط، بل وأنها بدأت بالوثنية والشرك، ثم كان أن اخترعت من بين ما اخترعت الألوهية والوحدانية!!

ثم يوجز المختل عقلياً ونفسياً المراحل الأربع التي مرت بها البشرية في كلمتين، كما يقول، هكذا:

"عاشت المرأة حرة في العصور الأولى حيث كانت الإنسانية لم تزل في مهدها، ثم بعد تشكيل العائلة وقعت في الاستعباد الحقيقي، ثم لما قامت الإنسانية على طريق المدنية تغيرت صورة هذا الرق واعترف للمرأة بشئ

---

١) الأستاذ قاسم أمين: المرأة الجديدة، ص٣.

من الحق، ولكن خضعت لاستبداد الرجل، ثم لما بلغت الإنسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامة"[1]

فهل هذا الذي يفهم ويوقن أن الزواج ابتكار واختراع إنساني، وهو استعباد للمرأة، وأن البشرية بدأت مسيرتها بالإباحية والانحلال، وهي حرية المرأة التي يريد بتحريرها إعادتها إليها، هل قرأ أو سمع أو أخبره أحد يوماً أن ثمة وحياً أنزل وفيه يُعرف الله عز وجل البشر أنه:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[2]

وأن الزواج وضع وإرشاد إلهي من قبل أن يوجد آدم على الأرض وتبدأ البشرية مسيرتها:

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[3]

فمن أين جاء هذا الأحمق بهذه النظرية التي قدمها على أنها حقيقة علمية مطلقة؟

كل ما قاله المحرر الأحمق وصار به رائداً عن المراحل الأربعة التي مرت بها البشرية، واستعباد المرأة مع تكوين الأسرة وابتكار مؤسسة الزواج، وما دعا إليه من تحريرها، سرقه من كتاب فريدريك إنجلز: أصل العائلة والملكية

---

١) المرأة الجديدة: ص٢٠-٢١.
٢) الروم: ٢١.
٣) الأعراف: ١٩.

الخاصة والدولة Origin of family, private property and state الذي صدرت طبعته الأولى بالألمانية١٨٨٤م، قبل صدور كتاب: المرأة الجديدة بست عشرة سنة، وعند صدور كتاب: المرأة الجديدة سنة ١٩٠٠م كان قد طبع في أربع لغات، منها الإنجليزية والفرنسية.

وربما تتعجب سائلاً: ما الذي جمع قاسم أمين الليبرالي بإنجلز الشيوعي، وكيف وأين تعرف به؟

وسيزول عجبك وتعرف من الذي عرَّف قاسم أمين بفريدريك إنجلز، وغرس أفكار هذا في رأس ذاك، حين تعلم أن قاسم أمين كان عضواً في محفل كوكب الشرق الماسوني في القاهرة، وأن فريدريك إنجلز كان ماسونياً من الدرجة الحادية والثلاثين في محفل إنجلترا الأعظم!

ثم إليك المثال الأفدح، توقن به أن الغرب وعلومه وآدابه وفنونه لم تكن سوى قنوات سرت من خلالها خريطة الوجود البني إسرائيلية لتستوطن وعي العرب ويختل بها تكوينهم، ولتروي كل ما ينتجونه، لتتم بهذا الاستيطان والاختلال وبهذا النتاج دورة الإفساد الثانية.

يقول توفيق الحكيم في كتابه: زهرة العمر، وهو جمع لرسائله التي أرسلها بعد أن عاد إلى مصر إلى صديقه في فرنسا أندريه، ولم يكن في حسبانه، كما يقول هو، أنها ستنشر يوماً ما:

"إذا كانت الأديان السماوية هي الحق، فلابد أن تكون قديمة قدم الحق، أو على الأقل قدم الإنسان، الأنبياء إذن لم يخلقوا الحق خلقاً بظهورهم، ولكنهم

كشفوا عن ظهوره الأزلي، فلا غرابة إذن في البحث عن منابع الأديان السماوية فيما كان قبلها من وثنية، والبحث عن منابع الوثنية في قلب الإنسان من يوم ظهوره على الأرض"[1]

وكما ترى، الأديان السماوية عند توفيق الحكيم المصري العربي المسلم، منابعها في الوثنية، وهذه الوثنية نفسها تفجرت ينابيعها من تلقاء نفسها في قلب الإنسان الأول منذ وجد نفسه على الأرض تائهاً هائماً، فالوثنية هي الأصل والبداية، والإنسان هو الذي كون بنفسه عقائده وأفكاره عن الإله ومسألة الألوهية، وهو الذي ابتكر التوحيد والوحدانية!

فهل فهمت الآن كيف وبأي وسائل أزيحت خريطة الوجود الإلهية من وعي العرب، وعبر أي قنوات تسربت إليه خريطة التحريف البني إسرائيلية، ثم استوطنته وشوهته، وصارت هي التي تحكمه وتتحكم في كل ما يتكون فيه، وتسري في كل ما ينتجه؟!

---

١) توفيق الحكيم: زهرة العمر، ص٢٩١.

بنــو إسرائيـــل

﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(الدخان:٣٢)

فى بيان الإله

القرآن، كما علمت، هو بيان الإله عز وجل إلى خلقه جميعاً ودليل هدايتهم إلى يوم القيامة، ولكي نقرب لك مسألة بني إسرائيل فيه، نعود بك إلى المثال الذي رأيته في: بيان الإله.

إذا أدرت مفتاح التلفاز فوجدت الحاكم في بلادك، رئيساً، أو ملكاً، أو سلطاناً، أو أميراً، يلقى بياناً إلى الأمة، ثم إذا بك تجد الرئيس أو الملك أو السلطان يفرد مساحة في بيانه لفئة معينة أو طائفة أو جماعة، لا يفردها لأحد غيرهم، فيتعقبهم، ويخاطبهم، ويتركهم ثم يعود إليهم، فلابد أن هذه الفئة أو الجماعة بالبديهة لها أهمية خاصة وأثر كبير ودور محوري في بلادك، بقدر ما أفرد الحاكم لهم.

فإذا تأملت القرآن، بيان الله عز وجل الخاتم للناس، وخطابه الأخير لهم، وجدته أفرد مساحة هائلة لبني إسرائيل واليهود لم يفرد مثلها لأحد في العالمين غيرهم.

ذلك وما بنو إسرائيل واليهود بأكثر البشرية عدداً، ولا أشدها مراساً، ولا أعظمها عمراناً وبناءًا، والنصارى وهم أكثر البشرية عدداً وأشدها مراساً وأكثرها حروباً وأعظمها عمراناً وبناءًا لم يفرد لهم الله عز وجل في بيانه النهائي إلى خلقه عشر معشار ما أفرده وخص به بنى إسرائيل.

فإذا سرت في القرآن من أوله تقابلك سور طوال، كالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف، محورها وموضوعها الرئيسي بنو إسرائيل، سيرتهم وأقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم، بل إنه عز وجل يخبرك وينبهك:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾[1]

فلماذا تعقب الله عز وجل بني إسرائيل واليهود فى بيانه وكتابه ونوره المبين، ولماذا أفرد لهم ما لم يفرده لأعتى الإمبراطوريات وأعرق الممالك والملكيات، ولماذا يقص على بني إسرائيل وحدهم من بين البشرية كلها أكثر الذي هم فيه يختلفون؟

ما أفرده الله عز وجل في بيانه إلى خلقه لبني إسرائيل يعني ثلاثة أشياء:

الأول: أن بني إسرائيل مسألة كبيرة ومحورية في التاريخ، وفي تكوين العالم، وفي سيرة البشر، فموقع بني إسرائيل من البشرية وأثرهم فيها وفي تاريخها هو بقدر ما أفرد الله عز وجل لهم في بيانه إلى خلقه.

ومن العجيب أنه لم يرد في كتاب الله عز وجل إلى خلقه ذكر للإمبراطورية الإغريقية على ما يبدو من عظم أثرها فى ثقافة العالم وآدابه وفنونه، ولا للإمبراطورية الرومانية على اتساع دولتها وعظم جيوشها وأثرها في شكل العالم وقوانينه، ولم يرد ذكر ولا إشارة لدولة عظمى، لا بريطانيا حين كانت إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس، ولا الولايات المتحدة الأمريكية بقوتها النووية وغطرستها.

---

١) النمل: ٧٦.

لم يرد في القرآن من ذكر الإمبراطوريات العظمى والممالك الكبرى سوى جانب من تاريخ مصر القديمة، وهو الجانب من تاريخها الذي يتصل بسيرة بني إسرائيل ويلتقي بها!

فتفهم من ذلك أن بني إسرائيل أشد خطراً وأبعد وأعمق أثراً في تكوين العالم وفي خط مساره، وفي صناعة تاريخه، وفي مسيرة أممه وشعوبه، من أعتى الإمبراطوريات ومن أعرق الممالك وأعظمها.

الثاني: أن هذا الأثر والدور لبني إسرائيل في سيرة البشر، وفي صنع عالمهم وتاريخهم، مسألة حية في كل زمان ومتدفقة مع مسار البشر وتاريخهم إلى يوم القيامة.

فما أخبرك به عز وجل عن بني إسرائيل في كتابه وبيانه ليس الهدف منه مجرد القص والإخبار، ولا محض العبرة والعظة بسيرة بني إسرائيل، فهذا الفهم يحول القرآن إلى كتاب ساكن لا علاقة له بواقع البشر ومعزول عن حياتهم، ويجعل ما يقصه من أخبار عن ماض حدث وانتهى وانقطعت آثاره، وحينئذ لا يكون ثَمة فرق بينه وبين برديات المصريين القدماء.

هذا الفهم، كما أخبرناك من قبل، يجعل بيان الله إلى خلقه مكانه المتاحف، وليس وعي البشر وحياتهم.

القرآن كتاب حي، أنزله عز وجل بياناً إلى خلقه ليصنع به وعيهم، ويُكوِّن أذهانهم ونفوسهم، ويَكُون نوراً يرون به كل شئ، ويحكمون به على كل شئ،

ومن غيره يصيرون عمياناً في ظلام دامس لا يرون أي شيء ولا يفهمونه على حقيقته، كما أخبرك هو ذاته عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾[1]

ما أفرده الله عز وجل في كتابه لبني إسرائيل يعني أن ما يخبرنا به عز وجل به من سيرتهم، ومما فعلوه وقالوه، آثاره حية سائرة مع الزمان وفاعلة في التاريخ تصارع الوحي وآثاره في مجال عمله، ألا وهو وعي البشر وأذهانهم ونفوسهم، على ملئها وتكوينها وبنائها وصناعتها.

بل إن القرآن يخبرك أن بني إسرائيل أنفسهم موجودون في الزمان حاضرون في التاريخ فاعلون فيه.

تعرف ذلك من أن بني إسرائيل هم الفئة الوحيدة في بيان الله عز وجل التي يقص سيرتهم وأخبارهم، ثم يخلط قصه وروايته عنهم فى صيغة الغيب بتوجيه النداء والخطاب إليهم في صيغة الحضور.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾[2]

وخطاب الله عز وجل إلى بني إسرائيل ونداؤه لهم في بيانه يعني أنهم موجودون حاضرون، وأنهم يعرفون أنهم بنو إسرائيل، وإلا لما كان لتوجيه الخطاب إليهم معنى.

فبنو إسرائيل سائرون مذ وجدوا في الزمان، وفاعلون في التاريخ.

---

١) النساء: ١٧٤.
٢) البقرة: ٤٧.

الأمر الثالث: الذي يعنيه ما أفرده عز وجل لبني إسرائيل في بيانه إلى خلقه، أن بني إسرائيل مسألة، على عظمها وعظم أثرها في البشر وعالمهم، ومع كونها مسألة حية وآثارها باقية، ومع كون بني إسرائيل أنفسهم باقين فاعلين في الزمان، هى مسالة خفية عصية على الأذهان أن تدركها، أو أن تفطن إلى أهميتها وآثارها إلا بإرشاد من الإله إليها.

فمنهج القرآن أنه لا يفصل في أي مسألة يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى الحق ووجه الصواب بما أودعه الله عز وجل فيه من وسائل الإدراك والمعرفة وبالتجربة والخطأ والتصويب، بل يشير إشارات هادية فقط.

ومثال ذلك الآيات الكونية في القرآن، ففيها إشارات موجزة إلى حقائق الكون والطبيعة دون تفصيل ولا إسهاب، لأن الإنسان مؤهل بما خلق عليه وأودع فيه مع هذه الإرشادات اليسيرة أن يصل إلى وجه الصواب، وأن يصحح خطأه إذا أخطأ.

تفصيل الله عز وجل في بيانه إلى خلقه في سيرة بني إسرائيل، وتعقبه عز وجل لهم، يعني أن آثار بني إسرائيل في البشر والتاريخ آثار غير مرئية، وفوق طاقة الإنسان بوسائل معرفته وإدراكه أن يعيها ويدركها أو يفهمها من غير الإرشاد الإلهي.

فالآن ماذا يقول لك الله عز وجل في بيانه عن بني إسرائيل، وما الذى يكشفه من خفايا سيرتهم وآثارهم، ليكون بناء الأذهان والنفوس ونوراً ترى به وتفهم الحياة وما يحدث فيها، والتاريخ وكيف يسير؟

اصطفاء مشروط

لايمكنك ان تفهم سيرة بني إسرائيل في القرآن، ولا ما يريد الله عز وجل أن يخبرك به عنهم إلا بعد فهم سيرة البشر على الأرض كما يعرفك بها القرآن.

بدأت البشرية مسيرتها على الأرض بآدم عليه السلام وزوجه، كما علمت، عارفاً بالله عز وجل، تائباً إليه مهتدياً، من أجل أن يبدأ في ممارسة مهام وظيفته التي خلقه عز وجل من أجلها، ألا وهي خلافته عز وجل، وهي قيادة نفسه ونسله وقيادة الوجود كله بمنهج الله عز وجل.

ومن أجل أن يتمكن آدم من أداء وظيفته ورسالته زوده عز وجل بالعلم والمعرفة وأدوات تحصيلها، ووهبه المنهج الذي يسير عليه، والقواعد التي يكون بها عالمه، ويقود بها الكون والمخلوقات من مقر عمله في الأرض.

فالبشرية بدأت تائبة مهتدية راشدة على الحق معها منهج إلهي تتبعه وقواعد ربانية تسير عليها.

وهذه الحقيقة الإلهية التي كشفها عز وجل في بيانه إلى خلقه تخالف سيرة البشر الأولى في كل النظريات والفلسفات والعلوم التي كونها وأنتجها سريان تحريف الوحي وخريطة الوجود المزورة فى أذهان من أنتجوها وعقولهم، كما سترى.

يخبرك عز وجل في بيانه إلى خلقه أنه:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾[١]

فالبشرية بدأت أمة واحدة، على دين واحد وملة واحدة، هي الحق، وتهتدي بمنهج الإله الحق، وتسير بنوره وإرشاده.

وفي تفسير هذه الآية أخرج الحاكم في مستدركه والإمام البزار في مسنده البحر الزخار، بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنه قال:

"كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين"[٢]

وإبان مسيرة البشرية، وبعد أن زاد عددها وانشعبت وتفرقت وابتعدت عن أحداث الخلق الأولى، انحرفت عن أصلها بأهواء النفس والشهوات، وبضلالات العقل وأوهام الذهن، وبنسيان سيرتها الأولى، وبوسوسة الشيطان الذي جعل وظيفته في الوجود إضلال هذا المخلوق الذي شرفه عز وجل عليه واصطفاه فأوكل إليه مهمة خلافته والنيابة عنه في تسيير الخلق والخلائق، كما أخبرك عز وجل:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[٣]

---

١) البقرة:٢١٣.
٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، والإمام البزار في مسنده، وابن أبي حاتم في تفسيره، وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن المنذر.
٣) ص:٨٢-٨٣.

وإذ ينحرف قوم من البشر أو يضلون يصطفي الله عز وجل رجلاً منهم، فيه نقاوة الفطرة والخلق الأول، ويعرفه بما ضل عنه قومه، ويكلفه تعريفهم به وإعادتهم إليه.

فنوح عليه الصلاة والسلام، أو آدم الثاني، عرَّف قومه بأحداث الخلق الأولى وكيف كان الخلق أطواراً:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾[١]

وأن هذه الاطوار بدأت من الأرض، وأنه عز وجل هو الذي بسطها لهم، ثم يبعثهم منها بعد أن يعودوا إليها:

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾[٢]

وأخبرك عز وجل في نهاية سورة الأعلى أن ما فيها هو ما كان في صحف إبراهيم من قبل موسى عليهما الصلاة والسلام:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾[٣]

وما في سورة الأعلى أنه عز وجل هو الذي خلق الإنسان وسواه، وقدر لكل شئ منافعه وهدى الإنسان إليها:

---

١) نوح: ١٣-١٤.
٢) نوح:١٧-٢٠.
٣) الأعلى: ١٨-١٩.

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣﴾[1]

وهود عليه الصلاة والسلام عرَّف قومه بسيرة البشر الأولى، وما تلاها من زيغ إلى أن اصطفى عز وجل نوحاً لإعادة البشرية إلى الحق الأول:

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗ﴾[2]

وصالح عليه الصلاة والسلام أخبر قومه بأن الله عز وجل خلقهم من الأرض، ولأجل غاية ومهمة، هي أن يعمرهم فيها:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[3]

والرسل والأنبياء جميعاً أخبروا أقوامهم أن الذي خلقهم إله واحد، وأمروهم بعبادته سبحانه وتعالى وحده:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾[4]

فلما اتسعت البشرية وصارت أمماً وشعوباً، شاءت إرادته عز وجل أن يصطفي أمة كاملة، لا رجلاً واحداً، ينزل على رجل منهم وحيه ويؤتيه رسالة إلى البشر، في كتاب يودع فيه عز وجل قصة الخلق الحقيقية وسيرة الإنسان

---

١) الأعلى: ١-٣.
٢) الأعراف: ٦٩.
٣) هود: ٦١.
٤) الأنبياء: ٢٥.

الأول ومفتاح تصنيف البشر الإلهي ومنهج قيادة البشر وسبل هدايتهم، فى خطة شاملة لإصلاح مسيرة البشرية، عقائدياً وأخلاقياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً.

ومن أجل إصلاح مسيرة البشرية اصطفى عز وجل بني إسرائيل واستأمنهم على رسالته وكتابه، لكي يحفظوه ويقوموا به ويكونوا مرآة له، فتصير رسالة الإله ومنهجه حياة حية، تراها الأقوام والأمم الأخرى، فتعرف الإله ووحيه من آثاره في بني إسرائيل فتهتدي بهم وتقتدي.

والسؤال الذي ربما تسأله هاهنا: لماذا اصطفى عز وجل بني إسرائيل تحديداً من بين باقي الأقوام والأمم؟

اصطفاهم عز وجل، لا لميزة عرق، ولا فضيلة جنس، ولا لتقديس عنصر أو دم، بل اصطفاهم عز وجل لأنهم حينئذ أقرب الأمم إلى الهدى والرشد بوجود ميراث الأنبياء بينهم، وبقاء آثار النبوة فيهم بانحدارهم من إبراهيم أبي الأنبياء، ومن ذريته إسحق ويعقوب عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

اصطفاهم عز وجل بعلمه لكونهم الأقرب إلى العلم بالحق وميراث الهدى كما قال عز وجل:


﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]

والسؤال الثاني الذي قد تسأله: هل كان هذا الاصطفاء مطلقاً، ودون قيد ولا شرط؟

---

١) الدخان:٣٢.

بالإيمان والطاعة لا بالدم والسلالة

ولابد أن نتوقف بك هنا قبل الإجابة على هذا السؤال، لنزيل لبساً في أذهان كثير من الناس، خاصة في زماننا هذا الذي اختلت فيه الموازين والتبس فيه الحق بالباطل، وأحدثت وسائل الإعلام والأفلام والمسلسلات خلطاً وفوضى في أذهان الناس.

فهناك سؤال يردده كثير من الناس، خاصة الشباب وهم في حيرة، يقولون: أليس الله عز وجل اختار بني إسرائيل وأخبرنا بذلك في القرآن، فلماذا ننكر أنهم شعب الله المختار؟

ومنهم من يُتبع السؤال سؤالاً آخر: إذا كان الله أخبرنا في القرآن أنه هو الذي منح الأرض المقدسة لبني إسرائيل، إذاً فهي أرضهم ومن حقهم؟!

ونزيل هذا الالتباس من ذهنك وأذهانهم فنقول: إن الله عز وجل لا يصطفي احداً ولا يفضله بدمه أو عرقه أو سلالته أو جنسيته أو قوميته أو لونه، فليس بين الله وبين أحد من خلقه سبب ولا نسب إلا الإيمان به وطاعته، فإذا عصى أحد، فرداً أو جماعة أو قوماً أو شعباً، أمر الله، فقد انفصم تلقائياً ما بينه وبين الله عز وجل.

وقد نبهك الله عز وجل في كتابه وبيانه إلى هذا بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[1]

فالله عز وجل يخبرك أن وراثة النبوة بالاتباع والإيمان والطاعة، وليس بالدم والعرق والسلالة، فأولى الناس بأبي الأنبياء من آمنوا واتبعوه، وليس أبناءه وسلالته.

بل إن الله عز وجل يخبرك أنه بتر نسب ابن إلى أبيه النبي لأنه عصاه وكفر، فحين رأى نوح عليه السلام ابنه يغرق أمام عينيه أخذته به شفقة الأبوة وأن يكون مصيره إلى النار، فنادى ربه:

﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[2]

فرد عليه عز وجل ليعلمه ويعلمك ويعلمنا قائلاً:

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾[3]

وقراءة الكسائي الكوفي ويعقوب الحضرمي[4]:

﴿قال يا نوحُ إنه ليسَ منْ أهلكَ إنه عَمِلَ غَيْرَ صالِحٍ﴾

فكون ابن النبي عصى الله عز وجل وعَمِلَ غَيْرَ صالح، بتر صلته بأبيه ولم يشفع له عند الله عز وجل.

---

١) آل عمران:٦٨.
٢) هود:٤٥.
٣) هود:٤٦.
٤) الإمام ابن الجزري: النشر في القراءات العشر: ج٢، ص٢٨٩، الإمام أحمد بن محمد البنا: اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: ج٢، ص١٢٧.

فالآن نعود إلى السؤال وقد صارت الإجابة واضحة ومفهومة: هل كان هذا اصطفاء الله عز وجل لبني إسرائيلٍ اصطفاءاً مطلقاً ودون قيد ولا شرط؟

والجواب: لا، لأنه عز وجل أخبرك في بيانه الكاشف أنه عز وجل اصطفاهم اصطفاءًا مشروطاً بأمرين:

الشرط الأول: الإيمان والطاعة، وأن يقيموا وحى الله عز وجل ورسالته فيهم، وأن يترجموا هذه الرسالة في أخلاقهم، وفي سلوكهم وعلاقاتهم، وفي حياتهم وسيرتهم، يقودهم ويرشدهم ويقيم الرسالة فيهم أنبياؤهم، فتصير بهم حياة حية وواقعاً يعيشونه.

فيقول عز وجل:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾[1]

والشرط الثاني: لهذا الاصطفاء أن يبينوا الكتاب الذي أُنزل عليهم للناس، وأن يدعوهم إليه ويقيموهم عليه، بأن يكونوا هم تطبيقاً له ونموذجاً تراه الأمم فتعرف الإله ووحيه من آثاره فيهم.

يقول عز وجل:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[2]

---

١) المائدة: ٤٤.
٢) آل عمران: ١٨٧

كتاب للناس لا لبني إسرائيل

هذا الكتاب، خطة الإصلاح الإلهية الشاملة، الذي جعل الله عز وجل فيه تفصيلاً لكل شئ، هل أنزل على موسى عليه السلام من أجل بني إسرائيل فقط أم للناس جميعاً؟

يقول عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [1]

فالله عز وجل يخبرك أنه أنزل الكتاب على موسى بصائر وهدى ورحمة للناس جميعاً، لا لبني إسرائيل وحدهم.

وقد ذهب كل المفسرين تقريباً إلى أن كلمة: ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ هنا المقصود بها بنو إسرائيل، فمنهم من لم يتوقف في تفسيره عند كلمة الناس أصلاً، وإن كان يفهم من تفسيرهم ضمناً أنه كله قائم على أن الناس هنا هم بنو إسرائيل، ومن أمثلة هؤلاء الإمام ابن كثير في تفسيره، والإمام القرطبي في تفسيره: الجامع لأحكام القرآن، والإمام أبى حيان التوحيدي في تفسيره: البحر المحيط، والشيخ الشعراوي في تفسيره.

١) القصص:٤٣.

ومن توقف من المفسرين عند كلمة: ﴿لِلنَّاسِ﴾، صرح أن المقصود بها بنو إسرائيل، فيقول الإمام الطبري في: جامع البيان في معنى الآية:

"ولقد آتينا موسى التوراة من بعد أن أهلكنا الأمم التي كانت قبله، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، بصائر للناس، يقول: ضياءً لبني إسرائيل فيما بهم إليه الحاجة من أمر دينهم"[1]

وانفرد الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره: التحرير والتنوير بأن أضاف إلى بني إسرائيل في تفسير كلمة: ﴿لِلنَّاسِ﴾ بعض من عاصرهم، كقوم فرعون ومن تهود من عرب اليمن، ومن يريد أن يقتدي بهم، فقال رحمه الله:

"والناس هم الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل، وقومُ فرعون، ولمن يريد أن يهتدي بهديه، مثل الذين تهودوا من عرب اليمن، وهدى ورحمة لهم، ولمن يقتبس منهم"[2]

ومما يثير الانتباه أن الطاهر بن عاشور ضبط كلمة: **" قومُ فرعون"** في تفسيره المطبوع بالرفع، عطفاً على الضمير: **"هم"**، وليس بالجر عطفاً على: **"بني إسرائيل"**، فكأنه فرق بين الرسول والرسالة وبين البصائر والهدى والرحمة التي فيها، فجعل موسى ورسالته لبني إسرائيل خاصة، وما فيها من بصائر وهدى ورحمة عامة لبني إسرائيل ولغيرهم ممن عاصرهم واهتدى بهم.

---

١) الإمام الطبري: جامع البيان:ج١٨، ص٢٥٩.
٢) الشيخ الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير: ج٢٠، ص١٢٩.

ونقول لك: القرآن ترد فيه الكلمات والألفاظ في مواضعها بدقة متناهية وميزان حساس، فإذا قال عز وجل: ﴿لِلنَّاسِ﴾ مطلقة دون تقييد، فهو للناس جميعاً، ولو كان المقصود أن الكتاب لبني إسرائيل فقط لنص عليهم، أو لقيد كلمة الناس بما يحصر معناها فيهم.

وتفهم أن إنزال الله عز وجل للتوراة كان للناس جميعاً، لا لبني إسرائيل وحدهم، ويؤكده لك، أن وصفه سبحانه وتعالى للتوراة هو نفسه وصفه للقرآن في قوله تعالى:

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾[1]

وفي قوله تعالى:

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾[2]

فالتوراة والقرآن، كلاهما أنزل هداية للناس أجمعين، لا للقوم الذين أنزل فيهم وعليهم وحدهم، وكلاهما أنزله عز وجل فرقاناً بين الحق والباطل.

فيقول عز وجل في وصف التوراة وسبب إنزالها:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾[3]

وهي نفسها صفة القرآن وسبب نزوله:

---

١) الأعراف: ٢٠٣.
٢) الجاثية: ٢٠.
٣) الأنبياء: ٤٨.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[1]

وإليك الدليل الصريح على أن الله عز وجل أنزل التوراة للناس جميعاً، لا لبني إسرائيل فقط، في قوله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾[2]

والقراءة بتاء الخطاب في الآية:

﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾

هي قراءة القراء العشر، عدا ابن كثير المكي، وأبي عمرو البصري[3]

وأما قراءة المكي والبصري، ومعهم ابن محيصن واليزيدي من الشواذ، فبياء الغيبة، هكذا:

﴿يَجْعلونَه قَراطيسَ يُبْدونَها ويُخفونَ كثيراً﴾

ولأن المفسرين تعاملوا مع ما جاء في القرآن عن بني إسرائيل، وإنزال الكتاب عليهم، وتحريفهم له، على أنه ماض انتهى وانقطعت آثاره، وذكره فقط للإخبار أو للعظة والعبرة، ولأنهم تعاملوا مع القرآن كله، في غير العقائد والأحكام، على أنه خطاب محلي لأهل مكان نزوله فقط، وحصروا ما يتكلم عنه

---

١) الفرقان: ١.

٢) الأنعام: ٩١.

٣) النشر في القراءات العشر: ج٢، ص٢٦٠، اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: ج٢، ص٢٢.

فيه وفيهم، فقد حار من انتبه منهم في تفسير مَنْ يكون المخاطب في الآية على القراءة بتاء الخطاب.

وقد حاول الإمام القرطبي والإمام أبو حيان التوحيدي حل مشكلة كيف يكون الخطاب في صيغة الحضور لبني إسرائيل الذين جعلوا الكتاب قراطيس أبدوا بعضها وأخفوا جلها، وبنوا إسرائيل الذين فعلوا هذا، كما فهموا، فعلوه قديماً وهم غائبون لا حضور لهم، فجاءت عباراتهم أقرب للإبهام منها للإبانة.

فإليك النموذج المبين على هذه الحيرة التي ما كانت لتكون لو فطن المفسرون إلى أن الله عز وجل يخاطب بني إسرائيل لكي ينبهنا أنهم موجودون، وأن ما يخبرنا به عنهم في صورة الخطاب لهم هو حقائق سارية متجددة وآثارها لا تنقطع عبر الزمان، لا ماض حدث وانتهى وغابت آثاره.

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور:

"إما أن يكون الخطاب لغير المشركين، إذ الظاهر أن ليس لهم عمل في الكتاب الذي أنزل على موسى ولا باشروا إبداء بعضه وإخفاء بعضه، فتعين أن يكون خطاباً لليهود على طريقة الإدماج، أي الخروج من خطاب إلى غيره، تعريضاً باليهود وإسماعاً لهم وإن لم يكونوا حاضرين، وإما أن يكون خطاباً للمشركين، ومعنى كونهم يجعلون كتاب موسى قراطيس يبدون بعضها ويخفون بعضها أنهم سألوا اليهود عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فقرأوا لهم ما في التوراة من التمسك بالسبت، أي دين اليهود، وكتموا ذكر

الرسول الذي يأتي من بعد، فأسند الإخفاء والإبداء إلى المشركين مجازاً، لأنهم كانوا مظهراً من مظاهر هذا الإخفاء"[1]

وأما الإمام الطبري فقد حل المسألة بأن رجح القراءة بياء الغيبة، وهي قراءة المكي والبصري، على القراءة بتاء الخطاب، وهي قراءة جمهور القراء، فقال رحمه الله:

"والأصوب أن تكون القراءة بالياء لا بالتاء، على معنى ان اليهود يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً، ويكون الخطاب بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لمشركي قريش"[2]

فالإمام الطبري اختار القراءة في نهاية الآية بالياء، وفسرها بالإخبار عما فعله بنو إسرائيل بالكتاب الذي أنزل عليهم قديماً، لا في زمن بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، وجعل ذلك من باب ضرب المثال لمشركي العرب بعد أن جعل الخطاب في صدر الآية لهم.

وحل المشكلة في فهم الآيات فهماً آخر يجعل ما فيها متجانساً، ومترابطاً مع ما كل أخبرنا به عز وجل عن بني إسرائيل في بيانه إلى خلقه.

فالله عز وجل يخاطب فعلاً بني إسرائيل الذين أنكروا إنزال الرسالة على النبي الخاتم وقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، فيوبخهم بأنه ليس أول إنكار لهم، فقد جعلوا الكتاب الذي أنزل على موسى قراطيس وأخفوها عن الناس.

---

1) تفسير التحرير والتنوير: ج٧، ص٣٦١.
2) جامع البيان: ج٩، ص٣٩٨.

فمفتاح فهم الآية وفك شفرتها، في إدراك أنه عز وجل يريد أن يخبرنا أن بني إسرائيل، الذين أنزل عليهم التوراة فأبدوا منها قليلاً وأخفوا ما لا يوافق هواهم، موجودون مستمرون في الزمان، يتوارثون تكوينهم الذهني والنفسي، ويتوارثون غاياتهم وأهدافهم، ويتوارثون سلوكهم وعملهم، ويتوارثون التوراة ويتوارثون معها كتمها وإخفاء ما فيها، وأنهم هم أنفسهم من ينكرون الوحي وإنزال الرسالة على النبي الخاتم.

فمن حِكَم تعدد القراءات إتمام المعنى واستكماله، والإتيان بالمعاني المختلفة التى لا يحيط بها وجه قراءة واحد.

فالإخبار في القراءة بصيغة الغيب عن بني إسرائيل الذين أخفوا الكتاب، والخطاب في القراءة بصيغة الحضور هو لهم أيضاً، والقراءتان معاً ينبهك بهما عز وجل إلى أن هؤلاء هم أنفسهم أولئك في تكوينهم الذهني والنفسي، وفي وراثتهم للكتاب الذي أنزل عليهم، وفي توارثهم لإخفائه وكتمانه.

فإذا كنت ذاكراً أن القرآن هو بيان الله عز وجل إلى خلقه إلى يوم القيامة، فستفهم أنه يخبرك ويخبرنا أن الطائفة من بني إسرائيل التي أخفت الوحي وكتمته في زمن نزول التوراة، والتي كانت تتوارث كتمانه وإخفاءه إلى زمن نزول القرآن، مازالت موجودة وتخفي الوحي وتكتمه إلى زماننا هذا، وستظل موجودة وتتوارث إخفاءه إلى يوم القيامة.

وكلمة: ﴿لِّلنَّاسِ﴾، التي لم يتوقف عندها أحد من المفسرين في هذا الموضع من سورة الأنعام، هم الناس جميعاً، ولا يمكن أن يكون المقصود بالناس هنا

بني إسرائيل فقط لأنه عز وجل يخاطبهم، فلو كان الكتاب لبني إسرائيل فقط لقال لهم: قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى لكم.

ويزيدك تأكداً أن كلمة: ﴿لِلنَّاسِ﴾، في كل ما ورد من آيات تخبرك عمن أنزل الله عز وجل الكتاب والتوراة على موسى عليه الصلاة والسلام بصائر وهدى لهم، هم الناس جميعاً، لا بنو إسرائيل وحدهم كما قال المفسرون، قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[1]

فصريح الآية يخبرك أنه عز وجل أنزل الكتاب على بني إسرائيل، وهي تخبرك في الوقت نفسه أنه سبحانه وتعالى حين أنزله أخذ عليهم العهد والميثاق أن يبينوه للناس جميعاً، وألا يكتموا ما فيه من هدى ونور عن أحد منهم، لا بني إسرئيل ولا غير بني إسرائيل.

ومن الغريب أن من توقف من المفسرين عند كلمة: ﴿لِلنَّاسِ﴾ في هذا الموضع من سورة المائدة، جعل معناها الناس جميعاً، خلافاً لما قالوه في غيرها من المواضع، ولكنهم جعلوا الضمير في قوله تعالى:﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ راجعاً إلى النبي، مع أنه لا ذكر له عليه الصلاة والسلام في الآية ولا في الآيات التي قبلها، فقال الإمام الطبري في معنى الآية:

١) آل عمران: ١٨٧.

"واذكر من هؤلاء اليهود وغيرهم من أهل الكتاب منهم يا محمد، إذ أخذ الله ميثاقهم ليبينن للناس أمرك الذي أخذ ميثاقهم على بيانه للناس، في كتابهم الذي في أيديهم، وهو التوراة والإنجيل"[1]

والذي دفع المفسرين، ممن قصر الميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل بالبيان وعدم الكتمان على النبي عليه الصلاة والسلام، إلى ذلك، هو هذه القراءة بتاء الخطاب، وهي قراءة جمهور القراء، عدا ابن كثير المكي وأبي عمرو البصري وشعبة عن عاصم الكوفي[2]، الذين قرأوا بياء الغيبة، هكذا:

﴿لَيُبَيِّنُنَّه للنَّاسِ ولا يَكْتُمونَه﴾

وأما الطاهر بن عاشور فقد نحا نحواً آخر، فجعل الضمير في الآية راجعاً إلى الكتاب، لا إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

"وقد أخذ عليهم الميثاق بأمرين، هما بيان الكتاب، أي عدم إجمال معانيه أو تحريف تأويله، وعدم كتمانه، أي إخفاء شئ منه"[3]

ولكنه فهم أن الآية إخبار عن بني إسرائيل الذين أُخذ عليهم الميثاق ببيان الكتاب كله في عهد موسى عليه السلام فقط ولم يعد لهم حضور، فقال في تفسير القراءة بالخطاب إنها:

---

١) جامع البيان: ج٦، ص٢٩٣.
٢) النشر في القراءات العشر: ج٢، ص٢٤٦، اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: ج١، ص٤٩٧.
٣) تفسير التحرير والتنوير: ج٤، ص١٩١.

"على طريقة الحكاية بالمعنى، حيث كان المأخوذ عليهم ذلك العهد غائبين في وقت الإخبار عنهم"(١)

والذي جمع بين أن الضمير في الآية يعود على الكتاب، وما فيه من بينات، وإن كان قد خص نعت النبي عليه الصلاة والسلام من بين هذه البينات بالذكر، وبين أنه في الوقت نفسه خطاب لبني إسرائيل في زمن النبي عليه الصلاة والسلام، هو الشيخ الشعراوي في تفسيره، فقال رحمه الله، في معنى الآية:

"لتبينن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم كما هو موجود عندكم دون تغيير ولا تحريف، وعنما يبينون أمر الرسول بأوصافه ونعوته فهم يبينون الذي جاء حقاً في الكتاب الذي جاءهم من عند الله، وهكذا نجد أن معنى تبيين الكتاب وتبيين نعت رسول الله أمران ملتقيان"(٢)

ونقول لك: الضمير في قوله تعالى:

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾

يعود على الكتاب المذكور في الآية، لا على النبي عليه الصلاة والسلام الذي لا ذكر له فيها، والذي أخذ الله عز وجل منهم الميثاق على بيانه للناس جميعاً وعدم كتمانه هو ما فيه من البصائر والهدى والرحمة التي أخبرك بها عز وجل في موضع سورة القصص، ومنه نبأ النبي الخاتم، يدلك على ذلك ختام الآية، وهو قوله تعالى:

---

١) تفسير التحرير والتنوير: ج٤، ص١٩١.
٢) تفسير الشعراوي، ص١٩٣٥.

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾[١]

فما نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً الكتاب الذي أنزل إليهم، وليس النبي الخاتم الذي بعث للناس كافة.

والذي يريد القرآن إخبارك به عن بني إسرائيل والكتاب الذي أنزل عليهم، بالجمع بين الإخبار بياء الغيبة والقراءة بتاء الخطاب، هو ما فتح الله عز وجل على الشيخ الطاهر بن عاشور، فقاله في هذا الموضع من سورة آل عمران، وإن يكن في عبارة خاطفة عابرة:

"الذين أوتوا الكتاب هم اليهود، وهذا الميثاق أُخذ على سلفهم من عهد رسولهم وأنبيائهم، وكان فيه ما يدل على عمومه لعلماء أمتهم في سائر أجيالهم، إلى أن يجئ رسول"[٢]

الذي يريد بيان الله عز وجل تنبيهك إليه وإخبارك به، أن ثَمة طائفة من بني إسرائيل تحوز التوراة، كتاب الله المنزل، وتعلم ما فيه من هدى ونور، وتتوارثه عبر الزمان، وتتوارث معه كتمانه وتحريفه وبث هذا التحريف في البشر.

---

١) آل عمران:١٨٧.
٢) تفسير التحرير والتنوير:ج٤، ص١٩١.

الفرق بين التوراة والقرآن

إذا كانت التوراة كالقرآن، أنزلها عز وجل بصائر وهدى ورحمة، ولتكون نوراً للناس جميعاً لا لبني إسرائيل وحدهم، فما الفرق بين التوراة والقرآن؟

الفرق بينهما هو الحفظ.

فالله عز وجل عهد إلى بني إسرائيل، القوم الذين أنزل عليهم كتابه ورسالته، واستأمنهم أن يحفظوها ويحافظوا عليها، كما أخبرك عز وجل:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾[١]

أما القرآن، بيان الله الخاتم إلى خلقه ورسالته الأخيرة إليهم، فقد عصمه الله عز وجل، بأن أوكل مهمة حفظه والحفاظ عليه إلى ذاته عز وجل.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[٢]

وبحفظ القرآن وعصمته، صار كتاب الله وبيانه ورسالته إلى خلقه مشاعاً بين البشر، وخطاباً لهم جميعاً باقياً إلى يوم القيامة.

الفرق بين التوراة والقرآن أن الله عز وجل استودع بني إسرائيل التوراة، وجعل معرفة الناس بها، وبما أنزل سبحانه وتعالى فيها من بصائر وهدى

١) المائدة: ٤٤.
٢) الحجر: ٩.

ورحمة من خلالهم، فلا تظهر في العالم إلا بهم، ولا تتجلى على البشر إلا فيهم، أما القرآن فقد أراده عز وجل بائناً ظاهراً يتجلى على البشر بنفسه، غير قابل للكتم ولا الإخفاء ولا التحريف، التزمه البشر أو أعرضوا عنه، وسواء وجدت الأمة التي تقيمه وتترجمه فيها واقعاً وحياة حية أو لم توجد.

أئـمـة لـمـــن؟

كيف يكون الكتاب الذي أنزل على موسى عليه الصلاة والسلام لبني إسرائيل، والله عز وجل اصطفاهم لحمله وحفظه، وهو في الوقت نفسه بصائر وهدى ورحمة للناس جميعاً؟

الإجابة في قوله تعالى في بيانه إلى خلقه في سورة القصص عن بني إسرائيل:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾[1]

ويقول عز وجل في سورة السجدة:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]

أغلب المفسرين فرقوا بين معنى أئمة في الآيتين، ففي سورة القصص نقل الإمام الطبري والإمام أبو حيان التوحيدي عن فتادة المفسر قوله:

"ونجعلهم أئمة، أي: ونجعلهم ولاة الأمر وملوكاً"[3]

وهو القول الذي اختاره ورجحه أيضاً الإمام القرطبي، مفسراً ترجيحه بأن:

---

١) القصص:٥.
٢) السجدة:٢٣-٢٤.
٣) جامع البيان: ج١٨، ص١٣٥، والبحر المحيط: ج٧،ص١٠٠

" المَلِك إمام يؤتم به ويقتدى به"(١)

فهؤلاء المفسرين فهموا: **"أئمة"** في آية القصص على أن المقصود بها أن يكون بنو إسرائيل حكاماً وملوكاً.

ونقل القرطبي قولاً آخر في معنى: ﴿أَئِمَّةً﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه، وهو أن يكون بنوا إسرائيل:

"قادة في الخير"(٢)

أما الشيخ الشعراوي فقد جمع في معنى: ﴿أَئِمَّةً﴾ بين الإمامة بمعنى المُلك، والإمامة بمعنى الهداية إلى الحق، فقال رحمه الله إن معنى أئمة:

"أئمة في الدين وفي القيم، وأئمة في سياسة الأمور والملك"(٣)

وكذلك الشيخ الطاهر بن عاشور، فيقول رحمه الله إن الله عز وجل جعلهم أئمة:

"بأن أخرجهم من ذل العبودية وجعلهم أمة حرة مالكة أمر نفسها، لها شريعة عادلة وقوانين معاملاتها، وقوة تدفع بها أعداءها، ومملكة خالصة لها، وحضارة كاملة تفوق حضارة جيرانها، بحيث تصير قدوة للأمم في شؤون الكمال وطلب الهناء، فهذا معنى جعلهم أئمة، أي يقتدي بهم غيرهم ويدعون إلى الخير"(٤)

---

١) الجامع لأحكام القرآن: ج١٣، ص٢٤٩.
٢) الجامع لأحكام القرآن: ج١٣، ص٢٤٩.
٣) تفسير الشعراوي:ج١٧، ص١٠٨٧٦
٤) تفسير التحرير والتنوير: ج٢٠،ص٧١

فابن عاشور جعل إمامة بني إسرائيل بمعنى إقامة حضارة متكاملة أو نموذجية، تكون قدوة للأمم في الخير، وفي الشريعة والعدل، وفي القوة والبأس، فتراها الأمم وبها تقتدي، فوضع رحمه الله يده على المعنى الصحيح، وإن كان فاته تجلية صلة هذه الحضارة المتكاملة ونصبها نموذجاً للأمم بالكتاب الذي أنزل على بني إسرائيل، وأن الغاية منها أن تكون ترجمة حية للكتاب، وتطبيقاً واقعياً للرسالة، والوسيلة التي ترى بها الأمم كيف يتجلى الوحي في البشر.

وأما الذي اتفق فيه المفسرون جميعاً في هذا الموضع من سورة القصص، فهو أنهم فسروا قوله تعالى بعدها:

﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ﴾

على أن المقصود بها وراثة الأرض وحكمها، فيقول الإمام الطبري:

"ونجعلهم وارث آل فرعون، يرثون الأرض من بعد مهلكهم"[١]

ويقول ابن عاشور:

"وأما جعلهم الوارثين، فهو أن يعطيهم الله ديار قوم آخرين ويحكمهم فيهم"[٢]

هذا مع أن الآية التي بعدها تبدأ بقوله تعالى:

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[١]

---

١) جامع البيان: ج١٨، ص١٣٥.

٢) تفسير التحرير والتنوير: ج٢٠، ص٧١.

فلو كانت الوراثة المقصودة وراثة الأرض لكانت الآية التي بعدها تكراراً لا لزوم له.

أما في آية سورة السجدة، فقد ذهب المفسرون في تفسير كلمة: ﴿أَئِمَّةً﴾ نحواً آخر، فذهبوا جميعاً إلى أن: ﴿أَئِمَّةً﴾ فيها بمعنى من يُقتدى بهم.

فاتفق القرطبي وأبو حيان في معنى: ﴿أَئِمَّةً﴾ في سورة السجدة على عبارة واحدة، وهي أن معناها:

"قادة وقدوة يهتدى بهم في دينهم"[٢]

وقال الطبري:

"وجعلنا من بني إسرائيل أئمة، وهي جمع إمام، والإمام يؤتم به في خير أو شر، وأريد بذلك في هذا الموضع أنه جعل منهم قادة في الخير، يؤتم بهم ويهتدى بهديهم"[٣]

وقال الشعراوي:

"ليس المقصود بالإمامة هنا السلطة الزمنية، إنما إمامة القدوة بأمر الله"[٤]

---

١) القصص:٦.
٢) الجامع لأحكام القرآن: ج١٤، ص١٠٩، والبحر المحيط:ج٧، ص٢٠٠.
٣) جامع البيان:ج١٨، ص٦٣٧.
٤) تفسير الشعراوي: ج١٩، ص١١٨٥١.

وهدى الله عز وجل الطاهر بن عاشور إلى ارتباط إمامة بني إسرائيل بالوحي الذي أنزل عليهم، فقال:

"﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾، الأمر هو الوحي والشريعة لأنهما من أمر الله بها، ويشمل الانتصاب للإرشاد"[1]

فجعل ابن عاشور معنى الإمامة إرشاد الناس إلى الوحي وهدايتهم إليه، فبنو إسرائيل صاروا أئمة بالوحي والرسالة، والوحي والرسالة صارت بترجمتها فيهم بصائر للناس وهدى ورحمة.

ونقول لك: المعنى يكون أوضح وأبين بجمع آية القصص وآية السجدة معاً، فمعنى أئمة في سورة القصص هو نفسه معناها في سورة السجدة.

فالأصل في كلمة إمام لغوياً أنه الطريق الذي يتبعه الناس ويسيرون فيه، وقد جاءت كلمة إمام، بمعناها اللغوي هذا، في القرآن في قوله تعالى في سورة الحجر عن قرى قوم لوط وأصحاب الأيكة:

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾[2]

أي بطريق واضح ظاهر بيِّن، هو طريق القوافل.

وسُمي الإمام إماماً لأن الناس يتبعونه ويسيرون خلفه، كما يتبعون الطريق ويسيرون فيه.

---

١) تفسير التحرير والتنوير: ج٢١، ص٢٣٧.

٢) الحجر:٧٩.

وكلمة: أئمة، هكذا جمعاً، لم ترد في القرآن إلا بمعنى القدوة والمثل المتبع، فمنها قوله تعالى عن إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[1]

وقد وردت كلمة: أئمة، في كل مواضعها في القرآن، بمعنى الإمامة في الهدى والدلالة على الحق والخيرات، إلا في موضع واحد جاءت فيه على معنى الإمامة في الضلال، وهى قوله تعالى في سورة القصص في فرعون وقومه:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾[2]

وقوله الله عز وجل في سورة السجدة:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾[3]

قد تكون: **"مِن"** فيه للتبعيض، فيكون المعنى: وجعلنا من بعضهم أئمة، ويحتمل حينئذ أن يكون المقصود أن هؤلاء البعض أئمة لباقي بني إسرائيل، فمعنى الآية يحتمل أن يكون أنه عز وجل جعل بعض بني إسرائيل أئمة لباقيهم.

ولكن آية سورة القصص يقول فيها عز وجل:

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾[1]

---

١) الأنبياء:٧٣.
٢) القصص:٤١.
٣) السجدة:٢٤.

فالمعنى هنا لا لبس فيه أنه عز وجل جعل بني إسرائيل جميعاً أئمة، فأئمة في الموضعين، موضع القصص وموضع السجدة، معناها أن الله عز وجل أنزل الوحي على موسى عليه السلام ليصنع به بني إسرائيل، ليكونوا أمة الوحي والرسالة، تراهم الأمم فتعرف الله عز وجل من آثار وحيه فيهم، فتهتدي بهم وتقتدي.

وأما قوله تعالى:

﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

فقد فسره لنا الله عز وجل ذاته في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾﴾[٢]

فالله عز وجل جعل بني إسرائيل جميعاً أئمة، بأن أورثهم ميراث الأنبياء قبلهم وما أُنزل معهم من هدى ورشاد، لا الأرض، أو مجرد الحكم والملك.

وهو نحو قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[٣]

مرة أخرى، إذا كان بنو إسرائيل كما أخبرنا عز وجل أئمة، أي يُقتدى بهم ويهتدى بهديهم، فالسؤال: أئمة لمن، وكيف؟

فأما أئمة لمن، فللأقوام والأمم والناس جميعاً.

---

١) القصص:٥.
٢) غافر:٥٣.
٣) فاطر:٣٢.

وأما كيف، فكما يخبرك بيان الله عز وجل إلى خلقه في ثنايا ما يرويه وما يقصه من سيرتهم، بأن يقيموا رسالة الله فيهم، ويتحول وحيه عز وجل ومنهجه وشريعته بهم وبإقامتهم لها إلى حياة حية، تراها الأقوام والأمم، فتعرف الله عز وجل من آثاره وآثار وحيه وشريعته فيهم، فيقتدون بهم ويتبعونهم ويهتدون بهدايتهم.

ولذلك ما كانت الأنبياء بعد نزول التوراة تُرسَل إلا إلى بني إسرائيل خاصة، دون باقي أمم الأرض وأقوامها، لأنها كلها تبع في الاهتداء أو الضلال لهم، تهتدى بهداهم وتضل بضلالهم، وهو ما تجده صريحاً في توبيخ المسيح عليه السلام لهم في إنجيل متى:

"أَنْتُمْ مِلْحُ الأَرْضِ، وَلكِنْ إِنْ فَسَدَ الْمِلْحُ فَبِمَاذَا يُمَلَّحُ ؟ لاَ يَصْلُحُ بَعْدُ لِشَيْءٍ، إِلاَّ لأَنْ يُطْرَحَ خَارِجًا وَيُدَاسَ مِنَ النَّاسِ.¹⁴أَنْتُمْ نُورُ الْعَالَمِ.... فَلْيُضِئْ نُورُكُمْ هكَذَا قُدَّامَ النَّاسِ، لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمُ الْحَسَنَةَ، وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ"(١)

وما وبخهم عليه المسيح هو ما يخبرك به عز وجل في ثنايا خطابه لهم:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾(٢)

١) متى:٥: ١٣-١٦.
٢) البقرة:٨٧.

فتنبه أن الله عز وجل يخاطب بني إسرائيل في زمن نزول القرآن، فيوبخهم على ما فعله أسلافهم في زمن نزول التوراة على موسى والإنجيل على عيسى، في مصر وفلسطين، وكأنهم هم الذين فعلوه، أو كأنهم هم أسلافهم، أو أسلافهم هم.

فقد دمجهم الله عز وجل معاً حتى صيرهم طائفة واحدة، وبينهم آلاف السنين، وكأن الزمان توقف والمكان لم يتغير.

كل ما في شأن بني إسرائيل في بيان الله عز وجل إلى خلقه يصب في اتجاه واحد، وهو أنه يريد إخبارك وتنبيهك إلى طائفة أو فئة من بني إسرائيل لها تكوين ذهني ونفسي واحد، لا يغيره مرور الزمان ولا تقلبهم في المكان، فهي تتوارث هذا التكوين كما هو، وتتوارث معه غاياته وأساليبه.

التحريـــف

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾

(النساء:٤٦)

طائفة من بني إسرائيل

اصطفى عز وجل بني إسرائيل على علم وأنزل عليهم وحيه واستودعهم رسالته وكتابه، لكى يحفظوه ويحافظوا عليه، ويبينوه للناس بإقامته فيهم، فيكونوا لهم بذلك أئمة وقادة ورادة.

فما الذى حدث وما الذى فعله بنو إسرائيل أو طائفة من بني إسرائيل؟

يخبرك الله عز وجل في بيانه الكاشف والمحفوظ أن طائفة من بني إسرائيل حرفت الوحي وهو ينزل عليهم، وحرفته لا عن غفلة أو سهو، بل حرفته عن قصد وعلم ووعى وهم يعقلون ما يفعلونه:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾[1]

وبيان الله عز وجل إلى خلقه اختص بني إسرائيل أو اليهود بالتحريف دون النصارى أو المسيحيين، فالتحريف، كما يخبرك الله عز وجل، صفة اليهود وبني إسرائيل وحدهم.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[2]

وقد فصل سبحانه لك ذلك في الربع الثاني من سورة المائدة.

١) البقرة:٧٥.
٢) النساء:٤٦.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾[1]

فجمع عز وجل في وصف بني إسرائيل وكشف حقيقتهم وما فعلوه في الوحي بين التحريف والنسيان.

ويقول الإمام الطبري إن تحريف بني إسرائيل معناه أنهم:

"يحرفون كلام ربهم الذي أنزله على نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام، وهو التوراة، فيبدلونه ويكتبون بأيديهم غير الذي أنزله الله عز وجل، ثم يقولون لجهال الناس: هذا هو كلام الله الذي أنزله على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام".[2]

أما الطاهر بن عاشور فيقول إن التحريف أصله الميل بالشئ إلى الحرف، وهو جانب الشئ وحافته، وعلى ذلك تحريف الوحي معناه:

---

١) المائدة:١٢-١٣.
٢) جامع البيان: ج٨، ص٢٥١.

"الميل عن سواء المعنى وصريحه إلى التأويل الباطل ... فهو على هذا تحريف مراد الله في التوراة إلى تأويلات باطلة"[1]

ويجوز أن يكون التحريف مشتقاً من الحرف، وهو الكلمة والكتابة، فيكون المراد بالتحريف:

"تغيير كلمات التوراة وتبديلها بكلمات أخرى لتوافق أهواء اهل الشهوات في تأييد ما هم عليه من فاسد الأعمال"[2]

ثم يعقب الطاهر بن عاشور بقوله:

"والظاهر أن كلا الأمرين قد ارتكبه اليهود في كتابهم"[3]

أما المسيحيون أو النصارى فيقول عز وجل في شأنهم في الآية التي بعدها:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾[4]

فالله عز وجل نسب إلى بني إسرائيل التحريف والنسيان، ولكنه نسب إلى النصارى النسيان فقط، فالآيات على ذلك تخبرك بمعرفة مخبوءة في نسيجها وغير مرئية في ظاهرها، وهي أن التحريف الذي تجده في كتب النصارى هو من عمل اليهود.

---

١) تفسير التحرير والتنوير: ج٥، ص٧٥.
٢) تفسير التحرير والتنوير: ج٥، ص٧٥.
٣) تفسير التحرير والتنوير: ج٥، ص٧٥.
٤) المائدة: ١٤.

"ونسي الشئ تركه على ذهول وغفلة، أو تركه على عمد"[١]

فالفرق بين تحريف الوحي ونسيانه، أن النسيان ذهول عن الوحي غفلة، أو ترك له عمداً، وفقط، أما التحريف فأمران لا أمر واحد، كتم والوحي وإخفاؤه مع وجوده والاحتفاظ به، وإخراج بديل له مزور للبشر.

ولذا فالتحريف لا يكون إلا عمداً، والنسيان قد يكون سهواً وقد يكون عمداً.

فالنصارى ذهلوا عما أوتوه غفلة أو تركوه عمداً، أما بنو إسرائيل فهم يحوزون الوحي الأصيل الذي أنزل عليهم ويكتمونه عندهم، ويخرجون للبشر تحريفه عمداً، وهم مع ذلك ذهلوا عن بعضه ونسوه، أنساهم عز وجل إياه عقاباً لهم على ما يخفونه ويبثون نقيضه عمداً.

والقرآن، بيان الله عز وجل إلى خلقه، لم ينسب تحريف الوحي إلى بني إسرائيل دون النصارى فقط، ولكنه نسبه إلى طائفة من بني إسرائيل وبعض اليهود لا إلى كل اليهود.

ففي تفسير قوله تعالى في سورة النساء:

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[٢]

ذكر الإمام الطبري قولين يفسر بهما معنى: ﴿مِّنَ﴾.

---

١) المعجم الوسيط، ص٩٢٠.
٢) النساء:٤٦.

القول الأول نسبه إلى الكوفيين، وهو أن: ﴿مِّنَ﴾ بيانية أو صلة: ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في قوله تعالى قبلها:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾[1]

فيكون المعنى:

"ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه"[2]

والقول الثاني نسبه الطبري إلى أهل البصرة، وهو أن تكون: ﴿مِّنَ﴾ للتبعيض، وعلى ذلك يكون معنى الآية:

"من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم عن مواضعه"[3]

ولكن الإمام الطبري اختار قول الكوفيين، الذي يجعل: ﴿مِّنَ﴾ للصلة، وينسب التحريف للذين أوتوا نصيباً من الكتاب أجمعين.

والشيخ الطاهر بن عاشور ذكر الوجهين كالإمام الطبري، ولكنه لم يرجح أحدهما على الآخر[4]

وما تركه الإمام الطبري هو الصحيح وليس ما اختاره، لأن دليل صحته في القرآن نفسه.

---

١) النساء: ٤٤.
٢) جامع البيان: ج٧، ص١٠١.
٣) جامع البيان: ج٧، ص١٠٢.
٤) تفسير التحرير والتنوير: ج٥، ص٧٤.

ففي سورة البقرة فرَّق بيان الإله في مسألة التحريف بين طائفتين أو فئتين من بني إسرائيل.

الأولى هي الطائفة التي تكتم الوحي وتحرفه عن علم ووعي وقصد، وتخرج للبشر هذا التحريف لإضلالهم، والطائفة الثانية هم عموم بني إسرائيل، ممن لا يعلمون عن الوحي المخبؤ والكتاب المنزل المكتوم شيئاً، لا يعلمون إلا التحريف، فهو الذى رأوه وتعلموه وتكونوا به.

فالطائفة الأولى هي التي يقول فيها عز وجل:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾[١]

أما الطائفة الثانية فهي التي يخبرك عنها عز وجل بعدها مباشرة:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾[٢]

والأمنية معناها التلاوة الظاهرة دون علم ولافهم ولا فقه، ومنها قوله تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾[٣]

أي: في قراءته، لا في علمه، ولا في ما يعتقده.

---

١) البقرة:٧٥.
٢) البقرة:٧٨.
٣) الحج:٥٢.

والأمنية تعني الكذب، ومنها قول سيدنا عثمان بن عفان:

"ما تمنيت مذ أسلمت"

أي: ما كذبت.

فتفهم من الآية أن هناك طائفة أخرى من بني إسرائيل لا يعلمون عن الوحي والكتاب المنزل شيئاً، لا يعرفون إلا الأكاذيب والتحريف الذي حرفته الطائفة الأولى وتلقوه عنهم، فهم يتلون هذا التحريف وما كتبته الطائفة الأولى بأيديها خاشعين متبتلين، ويتكون وعيهم ونفوسهم به، وهم يعتقدون أنه وحي الله المنزل.

فالطائفة الأولى التي حرفت الوحى عن علم وتكتمه رأس، والطائفة الثانية، الأميون، جسد لهذا الرأس يتكون بما يأتيه منه ويتبعه في حركته.

وتنبه أن قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾[1]

يخبرك أن الأمي عند الله عز وجل هو من حُرم علم الوحي وزال الوعي به وبحقائقه وقضاياه ومعارفه ومنهجه من ذهنه وتكوينه، الأمي هو من فقد الوعي بالوحي مصدراً للعلم والمعرفة، الأمي من يرى ويفهم بغير نور الوحي، ويفكر بغير علمه، ويزن بغير معياره وميزانه.

وأما وصف النبي عليه الصلاة والسلام بأنه أمي في قوله تعالى:

---

١) البقرة:٧٨.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (1)

فهو نسبة لأمة، لا لأم، ومعناه أنه عليه الصلاة والسلام بُعث في أمة أمية لم ينزل عليها وحي وليس عندها كتاب ولا بعث فيها رسول، أي بخلاف أنبياء بني إسرائيل، الذين بعثوا في بني إسرائيل، الذين عندهم الوحي والكتاب.

وهو معنى قوله عز وجل:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾(2)

أما الدليل على عدم علم النبي عليه الصلاة والسلام بالقراءة والكتابة، فقوله تعالى في سورة العنكبوت:

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾(3)

---

1) الأعراف:١٥٧.
2) الجمعة:٢.
3) العنكبوت:٤٨.

تتوارث كتمان الوحي وتحريفه

نعود بك إلى قوله عز وجل في بيانه إلى خلقه:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾[١]

الفريق لفظ يدل على الجماعة ولا مفرد له من لفظه، فمن يكون هذا الفريق؟

يقول الإمام أبو حيان التوحيدي إن كلمة: ﴿فَرِيقٌ﴾ في الآية:

"هم الأحبار الذين حرفوا التوراة في صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل جماعة من اليهود كانوا يسمعون الوحي إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليدخلوا في الدين ما ليس فيه"[٢]

وما قاله أبو حيان نحا نحوه الشيخ الطاهر بن عاشور وزاده بياناً، فقال عن هذا الفريق:

"يحتمل أن يريد مِن قومهم الأقدمين، أو من الحاضرين في زمن نزول الآية"[٣]

فلأن الآية تخاطب النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين في زمن نزول القرآن، فقد افترضا رحمهما الله أن من تخبر عنهم الآية، ممن يحرفون كلام الله

١) البقرة:٧٥.
٢) تفسير البحر المحيط: ج١، ص٤٣٩.
٣) تفسير التحرير والتنوير: ج١، ص٥٦٧.

من بعد ما عقلوه، يحتمل أن يكونوا من بني إسرائيل في عهد موسى وزمن نزول التوراة، أو أن يكونوا من بني إسرائيل في زمن نزول القرآن.

وأما الإمام القرطبي فقد نقل في هذا الفريق الذي حرف الوحي عمداً قولين، والقولان يقصرانه على الأقدمين من بني إسرائيل، فقال هم:

" الأحبار السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام، فسمعوا كلام الله، فلم يمتثلوا أمره، وحرفوا القول في إخبارهم قومهم، وهو قول الربيع وابن إسحق، وقال السدي وغيره: بدلت طائفة منهم ما سمعت من كلام الله على لسان نبيهم موسى عليه السلام"[1]

والسؤال الذي لم يسأله أبو حيان وابن عاشور والقرطبي، هو: إذا كان الفريق الذين حرفوا من بني إسرائيل هم الأقدمين، زمن موسى عليه السلام ونزول التوراة، فلماذا يوبخ عز وجل الحاضرين من بني إسرائيل زمن نزول القرآن، ممن أبوا الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام، على التحريف الذي حرفه هؤلاء الغابرين وكأنهم هم الذين فعلوه، وما تفسير الضمير في قوله عز وجل: ﴿ مِّنْهُمْ﴾ الذي يجعل الأقدمين من بني إسرائيل فريقاً من هؤلاء الحاضرين، أو هم هم؟

وما لم يسألوه أجاب عنه الإمام الطبري رحمه الله، فقد اختار قولاً واحداً في هذا الفريق، وهو أنهم طائفة من بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، ثم

---

١) الجامع لأحكام القرآن: ج٢، ص٢

فسر دخول هؤلاء الأقدمين في الضمير العائد على الحاضرين من بني إسرائيل زمن القرآن في قوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾، بقوله:

"وإنما جعل الله الذين كانوا على عهد موسى ومن بعدهم من بني إسرائيل من اليهود الذين قال الله لأصحاب محمد: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، لأنهم كانوا آباءهم وأسلافهم، كما يذكر الرجلُ اليوم الرجلَ، فيقول: كان منا فلان، يعني أنه كان من أهل طريقته ومذهبه، أو من قومه وعشيرته"[1]

فالإمام الطبري رحمه الله فطن إلى أن الانتقال في الآية من الرواية عن بني إسرائيل الأقدمين في صيغة الغيب إلى الإخبار عنهم في صيغة الحضور، وإدخال من كانوا في عهد التوراة في ضمائر من هم في عهد القرآن ليس سوى شفرة لغوية تريد أن تخبرنا أن هؤلاء في تكوينهم هم أنفسهم أولئك، وأن ما فعله الأقدمون من بني إسرائيل ورثه الحاضرون منهم، وهو نفسه ما يفعلونه، وسوف يظلون يتوارثونه ويفعلونه.

وما لم نر أحداً أدركه أو سأل عنه هو: لماذا حرفت طائفة من بني إسرائيل الوحي وهو ينزل عليهم عن وعى وعلم وقصد، ولماذا أخبرنا الله عز وجل بهذا التحريف، ولماذا ألح في إخبارنا به حتى جعل الصفة الرئيسية اللاصقة ببني إسرائيل واليهود في ذهن كل قارئ للقرآن هي التحريف والتزوير؟

هنا نعود بك إلى ما أخبرناك به في: بيان الإله، الوحي بيان كاشف ونور تنكشف به حقيقة الوجود، وفيه تبيان كل شئ، وهو مصدر المعرفة المطلق

١) جامع البيان: ج٢، ص١٤٠.

المهيمن على مصادر المعرفة كلها، ومن ثَم فمن يحوزه يحوز سلطة المعرفة المطلقة المهيمنة، ويصبح وعيه حاكماً لوعي البشر جميعاً، وهو مصدر تكوينه.

حجب بنو إسرائيل الوحي وحرفوه لأنهم ضنوا على باقي الأقوام والأمم بما فيه من معرفة شاملة وعلم محيط، وما يمنحه من قوة وسلطة، وأرادوا حيازته خالصاً لهم دون تقيد بشروط حيازته، ألا وهى الإيمان والطاعة وإقامة هذا الوحي ومنهجه فيهم، وهداية الأمم كلها إليه من خلالهم.

بنو إسرائيل حرفوا الوحي وكتموه لأنهم ضنوا على الأمم الأخرى بالهداية ومعرفة الإله الحق، وأرادوا أن يكون الإله لهم وإلههم وحدهم، ولا صلة لأحد به غيرهم.

يحرفون لا حرفوا

لماذا أخبرنا عز وجل في بيانه النهائي والمعصوم إلى خلقه كافة بهذا التحريف، ولماذا شدد على هذا الإخبار وألح فيه؟

هذا الإخبار والإلحاح لا معنى له إلا أن ما حرفه بنو إسرائيل من الوحي آثارة مستديمة قائمة فى عالم البشر، سائرة في الزمان، وأن هذه الآثار لا تنقطع إلى يوم القيامة.

ومن المثير للانتباه، وهو ما يؤكد ما نقوله هنا، أن الله عز وجل في كل ما أخبرك به عن كتم بني إسرائيل للوحي وتحريفهم له يخبرك به في صيغة المضارعة وليس في صيغة الماضي.

فيقول عز وجل في سورة البقرة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾[1]

فالله عز وجل يخبرك عن الذين: ﴿يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وليس عن الذين كتموه.

ويقول عز وجل في سورة النساء:

---

١) البقرة: ١٧٤.

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾[1]

ويقول في سورة المائدة:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[2]

مرة أخرى، بيان الله عز وجل يخبرك ويلح في إخبارك عن: **"الذين يحرفون"**، وليس عن الذين حرفوا.

فالآيات كلها تخبرك عن تحريف طائفة من بني إسرائيل ومن الذين هادوا للوحي ولكلم الله ورسالته في صيغة المضارعة، التي تعني الحال والاستمرار والتجدد والاستدامة، لا في صيغة الماضي، التي تعني الحدوث والانتهاء والانقطاع.

صيغة المضارعة التي أخبرك فيها عز وجل عن كتم بني إسرائيل للوحي وإخفائهم له وتحريفه، تعني أن الكتم والتحريف عمل مستمر متجدد، لا يتوقف ولا تنقطع آثاره عبر الزمان.

وهو ما أشار إليه الشيخ الطاهر بن عاشور في إحدى فتوحاته الخاطفة، فبعد أن فسر، في موضع سورة المائدة، معنى التحريف من غير أن يخرج في هذا

---

١) النساء:٤٦.
٢) المائدة:١٣.

المعنى عما قاله من سبقه من المفسرين، قال رحمه الله في عبارة عابرة، في سطر واحد منفرد عما قبله وما بعده:

"وجئ بالمضارع للدلالة على استمرارهم"(١)

وعند تفسيره لمعنى النسيان في قوله تعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾، قال رحمه الله:

"والنسيان المراد به الإهمال المفضي إلى النسيان، وعبر عنه بالفعل الماضي لأن النسيان لا يتجدد"(٢)

فكأن الطاهر بن عاشور أدرك، ضمناً، أن القرآن يريد أن يخبرنا أن ما نسيه بنو إسرائيل قد حدث مرة واحدة قديماً، أما الكتم والتحريف وبث هذا التحريف فهو عمل دائم مستمر ومتجدد، وهو ما يعني وجود طائفة من بني إسرائيل قوامة على كتمان الوحي الأصيل عندها وتتوارث التحريف وبثه في البشر، وهذا التوارث هو الذي يكون به التحريف وبثه عملاً دائماً متجدداً في كل عصر.

وهو ما يخبرك به القرآن فعلاً!

القرآن ينبهك أن الفئة أو الطائفة من بني إسرائيل التي تكتم الوحي الأصيل وتخفيه وتخرج للبشر تحريفه، هي نفسها موجودة عبر التاريخ كله، تتوارث هذا الكتم والتحريف وإخراج ما حُرف.

---

١) تفسير التحرير والتنوير: ج٦، ص١٤٣.
٢) تفسير التحرير والتنوير: ج٦، ص١٤٤.

فالله عز وجل في القرآن يخاطب بني إسرائيل أنفسهم قائلا:

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[1]

ويقول عز وجل موبخاً بني إسرائيل في صيغة الغيبة:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ ﴾[2]

فهذه الآيات تخبرك إلى جوار معناها القريب الظاهر، عن جحود بني إسرائيل، بشيئين:

الأول: أن وحي الله عز وجل الأصيل موجود بين طائفة من بني إسرائيل عصر نزول القرآن.

والثاني: أن الطائفة التي تكتم هذا الوحي من بني إسرائيل وتخبئه وتخرج للناس تحريفه، هي أيضاً موجودة عصر نزول القرآن.

بل إن الله عز وجل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم إن اعتراه شك فيما يأتيه من وحي أن يسأل الذين يعرفون الكتاب من قبله، لكي يعرف صدق ما يأتيه بموافقته لما معهم وما بين أيديهم من الوحي.

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَـٰبَ مِن قَبۡلِكَ ﴾[3]

---

١) المائدة:١٥.
٢) البقرة:١٠١.
٣) يونس:٩٤.

والتوراة، وحي الله وكتابه المنزل، أنزلت على بني إسرائيل في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، والقرآن أنزل في القرن السابع الميلادي.

فالآيات تخبرك أن التوراة الأصلية الأصيلة، وما فيها من علم شامل محيط وخطة لإصلاح مسيرة البشر، كانت موجودة عند الطائفة من بني إسرائيل التي تحرفها بعد عشرين قرناً من نزولها!

بل وتخبرك الآيات أن هذه الطائفة نفسها موجودة، تتدفق مع الزمان، وتتوارث كتم الأصل وإخراج التحريف، لأن الله يخاطبهم ويوجه كلامه إليهم مباشرة.

وهو ما أدركه الإمام الطبري عند تفسيره لمعنى نقض بني إسرائيل للميثاق وتحريفهم للوحي في سورة المائدة، فقال رحمه الله:

"وهذا من صفة القرون التي كانت بعد موسى من اليهود، ممن أدرك بعضهم عصر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن الله عز ذكره أدخلهم في عداد الذين ابتدأ الخبر عنهم، ممن أدرك موسى منهم، إذ كانوا من أبنائهم، وعلى منهاجهم في الكذب على الله، والفرية عليه، ونقض المواثيق التي أخذها عليهم في التوراة"[1]

فالطائفة من بني إسرائيل التي تحوز الوحي وتكتمه، وتحرفه وتبث في البشر تحريفه، تكونت مع نزول التوراة على موسى عليه السلام، وظلت

١) جامع البيان: ج٨، ص٢٥١.

موجودة تتوارث هذا الكتم والحيازة، وهذا التحريف والبث، إلى زمن نزول القرآن.

ولأن الله عز وجل ينادي هذه الطائفة من بني إسرائيل ويخاطبها في بيانه إلى خلقه إلى يوم القيامة، فهذه الطائفة حاضرة في الزمان وفاعلة في التاريخ، وما زالت موجودة إلى يومك هذا، تحوز الوحي وتعلم حقائقه وتكتمه، وتحرفه وتبث تحريفه، وتصارع بهذا التحريف وحي الله الأصيل في تكوين وعي البشر وأذهانهم ونفوسهم، وتنازعه على صبغ حياتهم وبناء مجتمعاتهم.

ولأن الله عز وجل أفرد في بيانه الخاتم لهذه الطائفة من بني إسرائيل ما لم يفرد مثله، ولا رُبعه، ولا عُشره، لأحد في العالمين غيرهم، لا قديماً ولا حديثاً، فلا فئة، ولا أمة، ولا مملكة، ولا إمبراطورية، ولا حضارة، في العالم ولا التاريخ، لها موقع هذه الطائفة من البشرية، ولا آثارها فيها، ولا دورها في خط مسارها وصناعة تاريخها.

وهذا الموقع على مركزيته، وهذا الدور على عظمه، عصي على الإنسان أن ينتبه إليه ويدركه بوسائل إدراكه الذاتية وحده، وهذه الآثار على جسامتها عسيرة عليه أن يفطن إلى صلتها ببني إسرائيل بما أودع فيه من مصادر ووسائل للمعرفة من غير تنبيه الوحي، مصدر المعرفة المطلق المرتفع عن الزمان والمكان والمحيط بالسر وأخفى، ومن غير إرشاده وبيانه.

أصل السر ورأس حركاته

ونعود بك مرة ثالثة إلى قوله عز وجل:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾[١]

هذه الآية تخبرك وتنبهك إلى معرفة لا مصدر لها غيرها، وهي التأريخ لبداية الحركات السرية وعالمها، عالم السر والخفاء والكتمان، ولمن بدأه وهو قلبه ونواته.

الآية تؤرخ لبداية عالم السر والخفاء وأصل الحركات السرية في العالم بعصر نزول التوراة والوحي على بني إسرائيل، وبنو إسرائيل هم من بدأه، وهم قلب الحركات السرية ونواتها وطاقتها ومن يسيطرون عليه.

والقرآن بهذا هو المصدر الوحيد في العالم الذي يعود ببداية عالم السر والخفاء والحركات السرية إلى عصر نزول التوراة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

ثم الآية تخبرك بمعرفة أخرى لا مصدر لها غيرها، وهي أن المسألة القلب أو النواة التي تكونت حولها الحركات السرية، وقام عليها عالم السر والخفاء هي تحريف الوحي، ثم كتمانه وإخفاؤه وإظهار التحريف للعالم وبثه في البشر.

---

١) البقرة:٧٥.

ولا يشترك مع القرآن، في العودة بأصول عالم السر والخفاء وبداية كتمان شئ وإظهار آخر وبثه، إلى عصر نزول الوحي على بني إسرائيل، سوى القبالاه، أو التراث الباطني الشفوي اليهودي.

والقبالاه لب عالم السر والخفاء، وينبوع أفكار الحركات السرية وأساليبها وطقوسها ورموزها، وهي التى صبغتها وكونت عقول أهلها ونفوسهم.

والقبالاه تعود بالكتم والإخفاء والتمويه إلى عصر نزول التوراة، كالقرآن تماماً.

في سورة البقرة يخبرك عز وجل أنه واعد موسى عليه الصلاة والسلام أربعين ليلة:

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾[1]

ولكن في سورة الأعراف يخبرك عز وجل بشيء آخر زائد على ما في سورة البقرة، وهو أن ميقات موسى مع ربه تم بالأربعين ليلة:

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[2]

المعنى الذي يخبرك به عز وجل في آية الأعراف أن لقاء موسى عليه السلام بربه كان أربعين ليلة مرة واحدة، أوحى الله عز وجل إليه فيها بالتوراة وأمره أن يبلغها لبني إسرائيل، وأمر بني إسرائيل أن يبينوها للناس جميعاً وألا يكتموها.

---

١) البقرة:٥١.
٢) الأعراف:١٤٢.

فالغرض من آية الأعراف ليس الإخبار عن الميقات أو مدته كآية البقرة، بل هدفها غلق الطريق أمام تصور أو افتراض أنه كان ثَمة لقاءات أخرى.

فلماذا اغلق بيان الإله إلى خلقه ميقات موسى مع ربه، وأكد أنه تم بالأربعين ليلة؟

آية الاعراف هي في الحقيقة رد على القبالاه او التراث الباطني اليهودي، ففي القبالاه أن:

"موسى ذهب للقاء الإله ثلاث مرات، ومكث فى كل مرة أربعين ليلة"[1]

ففي المرة الأولى أوحى إليه الإله نص التوراة في الألواح، وأمره أن يبلغ ما فيها من تعاليم وتكاليف لبني إسرائيل جميعاً ويأمرهم بها.

وفي المرة الثانية أطلعه الإله على المعاني العميقة لنص التوراة وتفسير هذه المعاني، وأمره أن يقصر هذه التفسيرات والمعاني العميقة على الأحبار والكهان دون عموم بني إسرائيل.

وفي المرة الثالثة عرَّفه الإله أن التوراة نص مشفر، وأطلعه على شفرتها ورموزها وعرفه بما تحمله من معان، وأمره أن يختص بهذه الشفرة وحلها وما تحويه من معارف وعلوم طائفة من بني إسرائيل، هم النقباء السبعون فقط، وأن يحجبها عن سواهم فلا يُطلع عليها أحداً غيرهم.

ثم صار هؤلاء النقباء السبعون يورثون هذه العلوم والمعارف المشفرة للصفوة من الأحبار والكهان في كل جيل من بني إسرائيل.

---

1) Manly Hall:The secret teachings of all ages, P113.

والفرق بين القرآن والقبالاه، كما ترى، أن بيان الإله الخاتم هدانا إلى أن الله عز وجل لم يمنع علماً عن أحد من خلقه، بل أمر سبحانه وتعالى موسى بإبلاغ الكتاب الذي أنزل عليه لبني إسرائيل جميعاً وللناس أجمعين، وأنه عليه السلام بلغ ما أوحي إليه من ربه ولم يكتم منه شيئاً عن أحد.

ووجود علوم ومعارف سرية خفيه تتوارثها فئة من بني إسرائيل ولا تطلع عليها أحداً غيرها، لا من بني إسرائيل ولا من غيرهم، ليس فقط في القبالاه، بل له أصل في أحد الأسفار الأبوكريفا، وهي الأسفار المخفية أو غير القانونية وغير المعترف بها، وهو سفر إسدراس أو عزرا الثاني .

في الإصحاح الرابع عشر من سفر إسدراس الثاني، أن عزرا كاتب التوراة كان يجلس تحت شجرة سنديان فكلمه الإله من غابه قريبة وأخبره أنه:

"أنا الرب إلهك، لقد أظهرت نفسي لموسى وكلمته حين كان شعبي في بيت العبودية في مصر، وأرسلته ليطلق شعبي، وأرشدته إلى جبل سيناء ليمكث معي أياماً عديدة، وأريته أشياء عجيبة، وعرفته بأسرار الزمان وما يكون في آخر الأيام، وأمرته قائلاً: هذه الكلمات تنشرها للناس، وأما هذه فتبقى سراً ولا تطلع عليها أحداً"[١]

فالسفر يقول إن الإله حين أوحى إلى موسى عليه السلام التوراة، أمره بنشر بعض ما أوحى به إليه وبكتم بعضه الآخر.

---

1) Zaine Ridling: The Apocrypha with the apocryphal books,P506.

وليس هذا فقط، بل يقول من كتبوا السفر إن الإله حين أوحى لعزرا بأسفار العهد القديم وأمره بكتابتها، أمره أن يُظهر جزءًا مما كتبه وأن يحجب جلها وما فيها من معارف إلا عن طائفة من بني إسرائيل، هم حكماء بني إسرائيل، ففي الإصحاح نفسه:

"وفي اليوم الثالث وأنا جالس تحت شجرة السنديان أتاني صوت العلي من بين الشجيرات وناداني: إسدراس، إسدراس، اجمع أدوات الكتابة وأحضر ساريا ودابريا وسيليما وإيكانوس وعزيل، المهرة في الكتابة، للقائي أربعين يوماً، فأخذت الرجال الخمسة وانطلقنا إلى البرية، وقال لي العلي: افتح فمك واشرب ما أسقيه لك، وفتحت فمي فسقيت شراباً كالماء ولونه كالنار، وعندما شربت أشرق نور في قلبي وانسكبت الحكمة في صدري. ومنح العلي الحكمة للخمسة أيضاً وأنار قلوبهم، فكتبوا في أربعين يوماً أربعة وتسعين سفراً...وعند نهاية الأيام قال لي العلي: انشر الأسفار الأربعة والعشرين الأولى بين الناس جميعاً، من يفقه ومن لا يفقه The worthy and the unworthy، وأما الأسفار السبعون الأخيرة فلا تطلع عليها إلا الحكماء The wise، فمن هذه الأسفار تنبع الحكمة وتسري المعرفة"[1]

فالإله، كما يقول السفر، أنزل الوحي على عزرا، فأخذ يملي ما يوحى إليه على الكتبة الخمسة، فكان عدد ما كتبوه أربعة وتسعين سفراً، أمر الإله عزرا أن ينشر أربعة وعشرين سفراً منها، وهي عدد أسفار العهد القديم، وأن يحتفظ بالأسفار السبعين الباقية سرية وألا يُطلع عليها أحداً سوى حكماء بني إسرائيل!

1) The Apocrypha with the apocryphal books:P508.

إذاً القبالاه، أو التراث الباطني اليهودي، والأسفار المخفية، تتفق مع القرآن في وجود طائفة من بني إسرائيل تظهر شيئاً لعموم بني إسرائيل وللناس جميعاً، وتخفي شيئاً آخر تعلمه وتتوارثه من جيل إلى جيل، وتحجبه وتكتمه عن هؤلاء العموم من بني إسرائيل وعن الناس.

وما صححه لك بيان الإله إلى خلقه واستخرجه من بطن الغيب وكشفه لك، وخالف فيه القبالاه والأسفار المخفية، أن ما تخفيه هذه الطائفة من بني إسرائيل وتكتمه عن البشر هو الحق والوحي الأصيل، وليس طبقة من العلوم والمعارف لا يؤتمن عليها عموم الناس، وأن ما تظهره لهم هذه الطائفة وتبثه فيهم هو تحريف هذا الحق والوحي الأصيل.

والمصدر الوحيد الذي يتفق مع القرآن في جوانب المسألة كلها: وجود طائفة من بني إسرائيل تتوارث إخفاء شئ وكتمه، وتتوارث معه بث شئ آخر في غيرها من بني إسرائيل وعموم الناس، وأن هذا الذي تكتمه هو الحق والوحي الأصيل، وما تبثه من إجل إضلال الناس عمداً هو تحريفه، هذا المصدر الوحيد هو بروتوكولات حكماء صهيون.

يقول من يحوز الوحي والحق ويكتمه ويبث التحريف في البشر من أجل إضلالهم في البروتوكول الثالث عشر:

"ولهذا السبب سنحاول أن نوجه العقل العام نحو كل نوع من النظريات المبهرجة التي يمكن أن تبدو تقدمية أو تحررية، لقد نجحنا نجاحاً كاملاً بنظرياتنا عن التقدم في تحويل رؤوس الأميين الفارغة من العقل نحو

الاشتراكية، ولا يوجد عقل واحد بين الأميين يستطيع ان يلاحظ انه في كل حالة وراء كلمة التقدم يختفي ضلال وزيغ عن الحق، ما عدا الحالات التي تشير فيها هذه الكلمة إلى كشوف مادية أو علمية، إذ ليس هناك إلا تعليم حق واحد، ولا مجال فيه للتقدم، إن التقدم كفكرة زائفة يعمل على تغطية الحق، حتى لا يعرف الحق أحد غيرنا، نحن شعب الله المختار الذي اصطفاه ليكون قواماً على الحق"[1]

فإذا أن تعرف من يكون هؤلاء الذين يوافقون القرآن، ويُقرون باحتكار الحق و كتمانه، وإشاعة الضلالات عبر التاريخ كله عمداً، فارجع إلى آخر سطر في وثيقة البروتوكولات، وستجد أن الموقعين عليها هم:

"ممثلو صهيون من الدرجة الثالثة والثلاثين"

Representatives of Zion of the 33 degree

وللماسونية مذاهب عدة، والمذهب الاسكتلندي هو أعرقها وأقدمها وأوسعها انتشاراً، ومذاهب الماسونية الأخرى، بل والحركات السرية كلها، ليست سوى فروع منه أو امتدادات له أو انشقاقات عليه.

والمذهب الاسكتلندي يتكون من ثلاث وثلاثين درجة مرتبة في ست مراتب، والمرتبة السادسة مرتبة مفردة ليس فيها إلا درجة واحدة، هي الدرجة الثالثة والثلاثين، وهي الدرجة السامية Sublim وقمة هرم الماسونية التي يتكون منها

١) محمد خليفة التونسي: بروتوكولات حكماء صهيون ، ص٩٤.

المجلس السامي Suprem Council الذي يسيطر على النشاط الماسوني، واسم الدرجة: درجة المفتش الأعظم Inspector General.

فالطائفة من بني إسرائيل التي تخفي الوحي وتكتمه، وتبث تحريفه في الأمم والشعوب عبر التاريخ، هي قمة هرم الماسونية والرأس الخفي للحركات السرية في العالم.

عالم من التحريف

ما الذى حرفه بنو إسرائيل ويتوارثون تحريفه وبثه في وعي البشر وأذهانهم ونفوسهم عبر العصور، هل يمكن معرفته وإدراك ما يترتب عليه وما آثاره التي دعت بيان الإله إلى خلقه أن يفرد له هذه المساحة الهائلة، ويلح في إخبار الناس به هذا الإلحاح؟

نخبرك أولاً بما فهمه المفسرون من معنى التحريف والمراد به، لتعرف الفرق بينه وبين ما يخبرك به الله عز وجل في بيانه إلى خلقه فعلاً.

جل المفسرين، كما علمت، تعاملوا مع تحريف بني إسرائيل للوحي على أن المراد به تحريفهم التوراة أو الكتاب قديماً في عهد نزولها على موسى عليه السلام، وأغلبهم فسر معنى التحريف تفسيراً لغوياً أو عمومياً، من غير أن يُعنى بماذا يكون هذا التحريف بالضبط، ولا كيف يكون مستمراً عبر الزمان كما تخبرنا صيغة المضارعة، ولا لماذا ألح القرآن على إخبارنا به هذا الإلحاح.

فقال الإمام الطبري في معنى تحريف بني إسرائيل الكلم كلاماً متشابهاً في كل مواضعه، في سورة البقرة، وفي سورة النساء، وفي سورة المائدة، وهو أنهم:

"يبدلون معناها ويغيرونها عن تأويلها "[١]

ونظيره قول الشيخ الشعراوي:

١) جامع البيان: ج ٧، ص١٠٣.

"جاءوا بأشياء وأقاويل وقالوا إنها من عند الله وهي ليست من عند الله"(١)

ومن تجاوز من المفسرين بيان معنى التحريف اللغوي والعمومي إلى محاولة تحديد هذا الذي حُرف، فقد فهم معنى التحريف وقصره على الأحكام الفقهية، فيقول الشيخ الطاهر بن عاشور في معنى التحريف:

"هو تبديل معاني كتبهم السماوية، وهذا التحريف يكون غالباً بسوء التأويل اتباعاً للهوى، ويكون بكتمان أحكام كثيرة مجاراة لأهواء العامة، قيل: ويكون بتبديل ألفاظ كتبهم"(٢)

وبعض المفسرين وقع فيما نبهناك إليه من قبل، إذ تعاملوا مع آيات القرآن، خصوصاً خارج آيات العقائد والعبادات، على أنها خطاب للمكان واللحظة من الزمان التي أُنزل فيها، وأن ما يحمله هذا الخطاب من معان مقصور على أهل هذا المكان وهذه اللحظة، وتفسيره محصور فيها وفيهم.

فهؤلاء المفسرون، رحمهم الله جميعاً، لا شك يؤمنون أن القرآن هو الرسالة الخاتمة، وأنه يخاطب الناس جميعاً، لكنهم لم يحولوا هذا الإيمان إلى منهج في التعامل مع القرآن، ولم يكن له أثر في فهمهم ما الذي تخبر عنه آياته، ولا في ارتفاع وعيهم إلى إدراك أن ما يخبر عنه غير موقوت بزمان ولا محدود في مكان.

---

١) تفسير الشعراوي: ج٥، ص٣٠٠٩.
٢) تفسير التحرير والتنوير: ج٦، ص١٤٣.

وربما نلتمس لهم العذر، لأن ما يخبر به بيان الله عز وجل إلى خلقه عن بني إسرائيل وتحريفهم للوحي، يحتاج في إدراكه وفهمه إلى علوم ومعارف لم تكن في حوزتهم ولا يمكن معرفة المراد به من غيرها.

لأن المفسرين لم يتعاملوا مع القرآن على أنه بيان الله عز وجل المفتوح إلى كل الأزمنة وكل الأمكنة، فمنهم من حصر ذهنه، وهو يبحث عما يكون هذا التحريف الذي حرفه بنو إسرائيل للوحي، في أسباب النزول وما تحويه من قصص، فيقول الإمام أبو حيان عن تحريف الكلم:

"أي يزيلونه ويميلونه عن مواضعه التي وضعها الله فيها، قال ابن عباس والجمهور: هي حدود الله في التوراة، وذلك أنهم غيروا آية الرجم، أي وضعوا الجلد مكان الرجم، وقال الحسن: يغيرون ما يسمعون من الرسول عليه السلام بالكذب عليه "[1]

والشئ الوحيد الحاضر والمستمر والمتجدد الذي فهمه المفسرون من تحريف بني إسرائيل للوحي، هو إنكارهم إخبار التوراة بنبوة النبي عليه الصلاة والسلام، وتحريفهم صفاته الموصوف بها فيها.

فالتحريف، كما يقول الإمام القرطبي، هو أنهم:

"غيروا صفة محمد صلى الله عليه وسلم"[2]

وكما ترى، المفسرون كان يحكمهم في فهم معنى تحريف الوحي أمران.

---

١) البحر المحيط: ج٣، ص٥٠٠.
٢) الجامع لأحكام القرآن:ج٥، ٢٤٣.

الأول: أن هذا التحريف مسألة قديمة في عهد نزول التوراة على موسى عليه السلام، ولذا ارتبط المراد بالتحريف عندهم بالكتابة والأوراق والقراطيس، ولم يرد على خلدهم، من قريب ولا من بعيد، أن يبحثوا عن معنى هذا التحريف في العالم وتاريخه، ولا عن آثاره في البشرية وسيرة أممها وشعوبها.

والأمر الثاني: أن هذا التحريف يقع في أحكام فقهية مفردة أو وقائع محددة، فلم يفطن أحد منهم إلى أن التحريف الذي يفرد له بيان الله عز وجل إلى خلقه هذه المساحة، ويلح في الإخبار به هذا الإلحاح، لا يمكن أن يكون لمجرد تبديل حكم فقهي أو مجموعة أحكام جزئية.

والعلة الحقيقية والأصلية لهذا الفهم الذي ضيق به المفسرون المراد بالتحريف، وجعلهم يحصرونه في مسائل قديمة وتتعلق بالورق والقراطيس، أو في وقائع معدودة محددة، أو في أحكام فقهية مجزأة متناثرة، أنهم توهموا أن المراد من هذا الإخبار بالتحريف، بل ومن كل ما أخبر به القرآن عن بني إسرائيل، مجرد العبرة والعظة لكي لا نفعل مثلهم.

فإليك نموذجاً صريحاً مبيناً على ما كان يحكم المفسرين في بيان ما هو التحريف، وما قيدهم في فهمه، وأوصلهم إلى ما وصلوا إليه من تضييق معناه، في تعقيب الشيخ الطاهر بن عاشور على ما ذكره من معنى التحريف في موضع سورة المائدة، وهو رحمه الله أكثر المفسرين انتباهاً إلى صيغة المضارعة التي جاء فيها التحريف ووعياً بمعناها:

"والمقصود هنا أن نعتبر بحالهم، ونتعظ من الوقوع في مثلها، وقد حاط علماء الإسلام، رضي الله عنهم، هذا الدين من كل مسارب التحريف ..."(١)

ونقول لك: تحريف بني إسرائيل للوحي الذي أخبرك به الله عز وجل في بيانه إلى خلقه وألح في إخبارك به، واختصه بهذه المساحة الهائلة، وجعله سارياً في الزمان بوضعه في صيغة المضارعة، مسألة أشد خطراً وأعمق وأبقى آثاراً من مجرد الإخبار عن وقائع قديمة ماتت وقُبرت مع من فعلوها، ولمجرد العظة والعبرة، ومن إخبارنا عن تغيير حكم أو أحكام في قراطيس معزولة عن تكوين العالم وتاريخه وعن مسيرة البشرية ومسارها.

التحريف الذي يخبرك به بيان الله عز وجل إلى خلقه مسألة حية فاعلة في وعي البشر وتكوينهم في كل زمان ومكان، وهائلة الآثار في سيرة البشر وتكوين حضاراتهم وصناعة تاريخهم في كل العصور.

التحريف هو أداة بني إسرائيل التي يصارعون بها وحي الإله الأصيل، في كل مكان وفي كل زمان يوجدون فيه، قديماً وحديثاً، من أجل إزاحته والحلول محله في تكوين وعي البشر وبناء أذهانهم ونفوسهم، ومن أجل إزالته وأخذ موقعه في صناعة تاريخهم ونسج مجتمعاتهم.

والله عز وجل أخبرنا بهذا التحريف لا لنتعظ ونعتبر، بل لكي ننتبه إليه ونتعقبه في وعي البشر وأذهانهم ونفوسهم، ولكي نتتبع آثاره في سيرة البشر ومجتمعاتهم وتاريخهم، فنزيله ونمحو آثاره، ولكي نكافحه ونحذر عودته إلى وعي البشر وعالمهم.

---

١) تفسير التحرير والتنوير: ج٦، ص١٤٤.

وصناعة العالم بالتحريف، ثم إزالته ومحو آثاره بالوحي، ثم تسريب بني إسرائيل للتحريف إلى وعي البشر مرة أخرى وإعادة تكوين العالم به بعد إزاحة الوحي منه، هي قصة الصراع الوجودي الممتد عبر الزمان وفي بقاع الأرض كلها بين الوحي وتحريفه الذي تخبرك به سورة الإسراء.

فاصبر وصابر إلى أن تصل إليها.

هندسة التحريف

مرة أخرى، ما الذى حرفه بنو إسرائيل ويتوارثون تحريفه وبثه في وعي البشر وأذهانهم ونفوسهم عبر العصور، هل يمكن معرفته وإدراك ما يترتب عليه من آثار جعلت بيان الإله إلى خلقه يفرد له هذه المساحة الهائلة ويلح في إخبار الناس به هذا الإلحاح؟

يقول عز وجل في بيانه:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾[1]

ويقول سبحانه:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾[2]

فالله عز وجل يخبرك أن ما أنزله في القرآن محفوظاً معصوماً هو ما أنزله سبحانه في التوراة المنزلة، وهو نفسه الوحي الأصيل الذي تحوزه طائفة من بني إسرائيل وتكتمه وتتوارثه، وتتوارث معه تحريفه وبث هذا التحريف.

---

١) البقرة:٨٩.
٢) المائدة:١٥

بيان الله عز وجل يريد أن يرشدك إلى أنه يمكن معرفة ما حرفه بنو إسرائيل، ومعرفة آثاره، بمضاهاة القرآن، البيان الخاتم والوحي المحفوظ، وما فيه صنو التوراة المنزلة، بالتحريف.

المسألة الأولى والأم التي كان تحريفها النبع الذي يتفجر منه الفساد فى كل زمان ومكان، كما سنبرهن لك ونفصل لاحقاً، هي قصة الخلق التوراتية وخريطة الوجود البني إسرائيلية، والتي كان عمل بني إسرائيل واليهود الرئيسي عبر التاريخ إزاحة خريطة الوجود الإلهية بها، عبر بثها، أو بث فحواها ومضمونها ومكوناتها في وعي البشر وتكوين أذهانهم ونفوسهم بها أينما وجدوا، وعبر دسها في العلوم والمناهج والفلسفات والفنون والآداب، وعبر تسريب آثارها القيمية والأخلاقية والاجتماعية في مجتمعاتهم حيثما حلوا.

المسألة المحورية الثانية في التحريف، هي كتم مسألة الألوهية وكتم خطة إصلاح الإله لعالم البشر التي أنزلها عليهم ليحملوها إلى الناس ويهدوهم إليها، وإقامة بناء متكامل ونسيج شامل نقيض لها، من أجل حجب مسألة الألوهية عن البشر واحتكار الإله ومعرفته ووحيه.

رسالة بني إسرائيل تحولت مع التحريف من تعريف الناس بالإله وهدايتهم إليه إلى قطع صلتهم به وتضليلهم عنه.

وهو ما أخبرك به عز وجل في بيانه إلى خلقه من خبيئة نفوسهم:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[1]

فماذا فعل بنو إسرائيل بالضبط من أجل احتكار الإله وإزالته من وعي البشرية وقطع صلتهم به وبهديه.

تحريف الوحي نسيج شامل وهندسة متكاملة، كلها مقلوب نسيج الوحي وهندسته، وأول لبنة في بناء التحريف ومعماره هي تغيير مفتاح تصنيف البشر في كتابه ورسالته التي أنزلت عليهم.

تاريخ العالم في القرآن كونته عقائده، ومساره رسمته أفكاره، وميزان الحكم على الأقوام والشعوب والأمم في القرآن إيمانهم بالله أو كفرهم، وطاعتهم له أو معصيتهم، فلا فضيلة لقوم ولا أمة بالميلاد، ولا قداسة لشعب بالنسب أو العرق.

وخريطة البشر الإلهية خريطة عقائدية، مفتاح تصنيف البشر فيها العقائد، هي التي تصلهم معاً أو تفصل بينهم، ومدار الاصطفاء والشرف في هذه الخريطة الإيمان والطاعة، وإقامة وحي الإله وحمله إلى الناس وهدايتهم إليه.

تعلم ذلك من قوله عز وجل في بيانه النهائي المحفوظ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾[2]

---

1) البقرة:١٠٩.
2) الحج:١٧.

فأقسام البشرية في القرآن ستة أقسام لا سابع لها، هي التي جمعتهم هذه الآية، لأن هذه هي الأقسام والأصناف التي سيفصل بينها عز وجل يوم القيامة، والله عز وجل سيفصل يوم القيامة بين البشر جميعاً.

وهذه كلها أقسام وأصناف عقائدية وليست أصنافاً عرقية أو قومية، مفتاح تصنيفها العقائد ومسألة الألوهية.

والمراد الإلهي من مفتاح تصنيف البشر العقائدي، وأن تكون مرجعية الإله ووحيه هي التي تصل بين الأمم أو تفصل بينهم، أن يكون داخل هذا التصنيف دائماً صنف أو أمة واحدة، هي التي على الحق، وما عداها على الضلال والباطل، فترى باقي أقسام التصنيف من الأمم هذه الأمة، فتعرف من سيرتها ومن آثار الوحي فيها الحق، فتقتدي بها وتهتدي، كما أخبرك عز وجل في بيانه المحفوظ:

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾[1]

فكانت أول لبنة في تحريف بني إسرائيل هي أنهم طمسوا مفتاح التصنيف الإلهي للبشر، واستبدلوا به مفتاح تصنيف مزوراً، بتحويل خريطة البشر من خريطة عقائدية إلى خريطة عرقية قومية، مدار الاصطفاء فيها ومعيار الشرف والريادة التقديس الأبدي غير المشروط لبني إسرائيل بالدم والميلاد، لا بالإيمان والطاعة، ولا بالعمل بالرسالة وحملها إلى الناس كما أُمروا.

---

١) الأعرف: ١٨١.

"٦لِذلِكَ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَا الرَّبُّ، وَأَنَا أُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ وَأُنْقِذُكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ وَأُخَلِّصُكُمْ بِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ وَبِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ، ٧وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْبًا، وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهًا"[1]

فأصبحت رابطة الدم والعرق والنسل والسلالة هي العقيدة التي تنبع منها أفكار بني إسرائيل واليهود، ويدور حولها فهمهم لكل شئ، وهي التي تصبغ كل ما تنتجه أذهانهم، وكل ما يسري فيه ماتنتجه هذه الأذهان من أشخاص، ومن علوم ومعارف، ومن مناهج ونظريات، ومن أبنية وصروح، تقام بهؤلاء الأشخاص، وبهذه العلوم والمعارف والمناهج والنظريات، في الأخلاق والاجتماع والاقتصاد والسياسة والآداب والفنون.

ومفتاح تصنيف البشر العرقي السلالي في السيرة التوراتية، أحل بني إسرائيل في وعي البشر محل الإله ووحيه وإرادته، ثم بإحلال كل قوم أنفسهم مرجعية ومركزاً ونبعاً للأفكار والقيم والشرائع محل الإله، يعيد القوم إنتاج سيرة التوراة لبني إسرائيل، لكن دون إله!

فتتكون خريطة للبشر، مفتاح تصنيفهم فيها الأعراق والأقوام والقوميات، ولا موضع لأحد داخلها أن يحوز شرف الاصطفاء ومعرفة وحي الإله الحق سوى بني إسرائيل، شعب الإله المقدس.

وهذا التحريف تم دعمه وتقويته وتحويله إلى مسألة منطقية باللبنة الثانية في بناء التحريف، وهي تحويل العلاقة بين بني إسرائيل أو اليهود والإله إلى علاقة عضوية دموية، يكون بها الإله هو إله بني إسرائيل وحدهم دون باقي الأمم

---

١) خروج: ٦: ٦-٧.

والشعوب، فتحول الإله من رب العالمين إلى شيخ بني إسرائيل أو الجد الأعلى للقبيلة اليهودية.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾(1)

وكما أنه إلههم وحدهم، فهم أيضاً وحدهم دون العالمين شعبه الذي لا شعب له سواه، ولا يعنيه في البشرية إلا هم.

فالتوراة التي أظهرها بنو إسرائيل للناس، وسجلها التاريخ، وتتداولها الأيدي، لا تذكر الإله إلا منسوباً لبني إسرائيل أو العبرانيين فقط، ولا يتكلم هو عنهم، رضي أو غضب، إلا وهم قبيلته أو شعبه.

ففي الإصحاح الخامس من سفر الخروج أن الله عز وجل قال لموسى حين أمره أن يذهب إلى فرعون:

"**١وَبَعْدَ ذلِكَ دَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ وَقَالاَ لِفِرْعَوْنَ: «هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيُعَيِّدُوا لِي فِي الْبَرِّيَّةِ»، ٢فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «مَنْ هُوَ الرَّبُّ حَتَّى أَسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَأُطْلِقَ إِسْرَائِيلَ؟ لاَ أَعْرِفُ الرَّبَّ، وَإِسْرَائِيلَ لاَ أُطْلِقُهُ». ٣فَقَالاَ: «إِلهُ الْعِبْرَانِيِّينَ قَدِ الْتَقَانَا**"(2)

والقرآن بيان الإله الخاتم والوحى المحفوظ يصحح لك التحريف، ويعرفك ما الذي أمر الله عز وجل به موسى وما قاله موسى لفرعون حقاً.

يقول عز وجل في سورة الشعراء:

---

١) المائدة:١٨.
٢) خروج: ٥: ١-٢.

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[1]

فالله عز وجل أمر موسى عليه السلام أن يقول لفرعون أنه وأخوه رسولا رب العالمين، لا أنه إله إسرائيل ولا إله العبرانيين وحدهم.

بل إنه عز وجل يخبرك في بيانه أنه أمر موسى عليه السلام أن يقول لفرعون إنه رسول رب فرعون نفسه:

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾[2]

ما حدث في التحريف أن من كتبوا التوراة وأخرجوها للناس حرفوا: رب فرعون ورب العالمين إلى: إله إسرائيل والعبرانيين وحدهم.

ولأن الإله تحول في التحريف إلى إله إسرائيل والقبيلة اليهودية وحدها، وهم وحدهم شعبه، فلم يعد ثَمة مجال لأمة أخرى أن تعرف الإله، أو أن يكون لها صلة به، أو بوحيه وكتابه.

ومن ثَم صارت رسالة بني إسرائيل حجب الإله عن الأمم، لا تعريفهم به، وتعميتهم عنه كما يعمي صاحب الكنز على الناس كنزه.

فالقرآن يخاطبهم قائلاً:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ﴾[3]

---

١) الشعراء:١٦

٢) طه:٤٧.

٣) آل عمران:٩٩.

ومما بقي من الحق في العهد القديم، ما وبخ به النبي عاموس في السفر المسمى باسمه رؤساء بيت يعقوب وكهنة بني إسرائيل وآباءهم قائلاً:

"إِنَّهُمْ فِي الْبَابِ يُبْغِضُونَ الْمُنْذِرَ، وَيَكْرَهُونَ الْمُتَكَلِّمَ بِالصِّدْقِ، لأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّ ذُنُوبَكُمْ كَثِيرَةٌ وَخَطَايَاكُمْ وَافِرَةٌ أَيُّهَا الْمُضَايِقُونَ الْبَارَّ، الآخِذُونَ الرَّشْوَةَ، الصَّادُّونَ الْبَائِسِينَ فِي الْبَابِ"[1]

وهو نفسه ما وبخهم عليه المسيح عليه السلام بعد النبي عاموس بثمانية قرون وسجله إنجيل متى:

"وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تُغْلِقُونَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ قُدَّامَ النَّاسِ، فَلاَ تَدْخُلُونَ أَنْتُمْ وَلاَ تَدَعُونَ الدَّاخِلِينَ يَدْخُلُونَ"[2]

واللبنة الثالثة في بناء التحريف كانت الإقرار بوجود آلهة أخرى للأمم الأخرى، وإن كانت دون إله بني إسرائيل قدرة ونفاذاً وعلماً.

وهو ما تقر به التوراة وأسفار العهد القديم في مواضع متعددة، أولها في خريطة الوجود البني إسرائيلية، الينبوع المتفجر بالإفساد، ومن آخرها ما وضعه الكتبة على لسان النبي ميخا في السفر المسمى باسمه:

"وَيَكُونُ فِي آخِرِ الأَيَّامِ أَنَّ جَبَلَ بَيْتِ الرَّبِّ يَكُونُ ثَابِتًا فِي رَأْسِ الْجِبَالِ، وَيَرْتَفِعُ فَوْقَ التِّلاَلِ، وَتَجْرِي إِلَيْهِ شُعُوبٌ، ٢وَتَسِيرُ أُمَمٌ كَثِيرَةٌ وَيَقُولُونَ: «هَلُمَّ نَصْعَدْ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ، وَإِلَى بَيْتِ إِلهِ يَعْقُوبَ، فَيُعَلِّمَنَا مِنْ طُرُقِهِ، وَنَسْلُكَ فِي

---

١) عاموس:٥: ٩-١٣.
٢) متى:٢٣: ١٣.

سُبُلِهِ»، لأَنَّهُ مِنْ صِهْيَوْنَ تَخْرُجُ الشَّرِيعَةُ، وَمِنْ أُورُشَلِيمَ كَلِمَةُ الرَّبِّ، ٣فَيَقْضِي بَيْنَ شُعُوبٍ كَثِيرِينَ، ويُنْصِفُ لأُمَمٍ قَوِيَّةٍ بَعِيدَةٍ، فَيَطْبَعُونَ سُيُوفَهُمْ سِكَكًا، وَرِمَاحَهُمْ مَنَاجِلَ، لاَ تَرْفَعُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ سَيْفًا، وَلاَ يَتَعَلَّمُونَ الْحَرْبَ فِي مَا بَعْدُ، ٤بَلْ يَجْلِسُونَ كُلُّ وَاحِدٍ تَحْتَ كَرْمَتِهِ وَتَحْتَ تِينَتِهِ، وَلاَ يَكُونُ مَنْ يُرْعِبُ، لأَنَّ فَمَ رَبِّ الْجُنُودِ تَكَلَّمَ، ٥لأَنَّ جَمِيعَ الشُّعُوبِ يَسْلُكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ بِاسْمِ إِلهِهِ، وَنَحْنُ نَسْلُكُ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِنَا إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ"[1]

والعلة في إقرار بني إسرائيل واليهود بوجود آلهة أخرى مع إله التوراة إلههم، هي أن تضل الأمم والأقوام بآلهتها، فلا ترنو إلى إله التوراة ولا تعرفه ولا تصل إليه.

مرة أخرى، صارت رسالة بني إسرائيل، بدلاً من هداية الأمم والأقوام إلى الإله الحق ووحيه، تضليلهم عنه، بتزيين الضلال لمن اهتدى وتنظيره وفلسفته، وبإقرار من ضل على ضلاله، وأن ضلاله هو عين الحق، كما أخبرنا عز وجل في بيانه المعصوم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾[2]

ومع تضليل الأمم والأقوام عن الإله من أجل احتكاره واحتكار معرفته لكي يظل التقديس والاصطفاء لهم وحدهم، عمد بنو إسرائيل ومن تكوَّن حولهم من

---

١) ميخا:١:٤-٥.
٢) النساء:٥١.

اليهود إلى إرشاد الأمم إلى نقيض ما أرشد إليه الوحي في كل أمر ومسألة، لكي تنقطع صلتهم بالإله انقطاعاً تاماً، ولا يكون ثَمة احتمال لأن يصل أحد إلى الإله الحق فيزول التقديس وتتساوى معهم الأمم.

فمحور حركة بني إسرائيل في التاريخ وعملهم في البشرية، صارت دفع البشر بعيداً عن الإله وتضليلهم عنه، وقيادتهم أخلاقياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً بنسيج شامل مترابط محكم، هو بالضبط نقيض وحي السماء في كل مسألة، وتكوين أمة تكون نموذجاً وقدوة لغيرها من الأمم في الفساد، لا في الصلاح الذي اصطفاهم عز وجل من أجله.

وهو ما وبخهم عليه النبي ميخا في السفر المسمى باسمه صريحاً:

"اِسْمَعُوا هذَا يَا رُؤَسَاءَ بَيْتِ يَعْقُوبَ وَقُضَاةَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ يَكْرَهُونَ الْحَقَّ وَيُعَوِّجُونَ كُلَّ مُسْتَقِيمٍ،[١٠] الَّذِينَ يَبْنُونَ صِهْيَوْنَ بِالدِّمَاءِ، وَأُورُشَلِيمَ بِالظُّلْمِ،[١١] رُؤَسَاؤُهَا يَقْضُونَ بِالرَّشْوَةِ، وَكَهَنَتُهَا يُعَلِّمُونَ بِالأُجْرَةِ، وَأَنْبِيَاؤُهَا يَعْرِفُونَ بِالْفِضَّةِ، وَهُمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى الرَّبِّ قَائِلِينَ: «أَلَيْسَ الرَّبُّ فِي وَسَطِنَا؟ لاَ يَأْتِي عَلَيْنَا شَرٌّ!»"[١]

عمل بني إسرائيل واليهود في التاريخ صار تكريه الأمم في الحق وتعويج كل مستقيم.

ولأن: **"الرب في وسطنا"**، ولأن منهج الصلاح والإصلاح وخطة تصحيح مسار البشرية هي من إله التوراة الذي هو إله بني إسرائيل واليهود فقط، فلا

---

١) ميخا:٣: ٩-١٠.

حق للأمم الأخرى في معرفتها ولا الاهتداء بها، فليبحث كل قوم عن منهجهم وأسلوب حياتهم عند إلههم!

فإذا أردت أن تعرف الآن لماذا أولى الله عز وجل هذا التحريف هذه العناية، ولماذا وضعه في صيغة المضارعة واختصه بهذه المساحة وألح في إخبارنا به، فلأن الذي عرفناك به من طمس مفتاح تصنيف البشر الإلهي العقائدي، وإحلال مفتاح التصنيف البني إسرائيلي العرقي السلالي مكانه، واحتكار الإله ووحيه وخطة إصلاحه، والإقرار بآلهة أخرى لغير بني إسرائيل من الأمم، هو أصل المسألة القومية والبذرة التي أثمرت المعمار القومي للعالم.

مسألة الألوهية وحجب الوحي عن البشر هي الجذر العميق للمسألة القومية، إذ بمفتاح تصنيف البشر المزور صار لكل إله قومه ولكل قوم إلههم، هو حدودهم ومصدر الرابطة بينهم، وهو الذي يفصل بينهم وبين غيرهم، وهو منبع أفكارهم وأخلاقهم وشرائعهم، وهو ميزان من يوالون ومن يعادون.

فالإله الحق هو إله بني إسرائيل وحدهم، وكل قوم غيرهم لهم إلههم يصنعونه من الحجر، أو يصنعه لهم بنو إسرائيل من البشر!

يقول المؤرخ الأمريكي ول ديورانت في قصته للحضارة الغربية، وهو يفسر تطور الديانة في التوراة من عبادة آلهة متعددة إلى عبادة إله واحد، لكنه إله اليهود وحدهم لا إله البشر جميعاً:

"التوحيد حتى في يومنا هذا إنما هو توحيد نسبي ناقص، فكما كان اليهود يعبدون إلهاً قبلياً، فإنا نحن أيضاً نعبد إلهاً أوروبياً، أو إلهاً إنجليزياً أو ألمانياً

أو إيطالياً ... ولن يكون للعالم كله إله واحد حتى تربط الآلات الأرض وتؤلف بينها وتجعلها وحدة اقتصادية، وتجمع الأمم كلها في حكومة واحدة"[١]

فديورانت، لأنه أمي حُرم علم الوحي، يعتقد أن البشرية بدأت بالشرك وعبادة آلهة متعددة، ثم ارتقت حتى وصلت إلى الوحدانية، وهي إحدى ثمار التحريف البني إسرائيلي، لكنه وضع يده من حيث لا يدري ولا يعي على أصل المسألة القومية.

فبنو إسرائيل وإلههم القومي هم النموذج الذي تكونت القوميات على غراره، وبمحاكاة سيرتهم في التوراة، وببث بني إسرائيل لمفتاح تصنيف البشر المزور والخريطة العرقية في كل مكان يحلون فيه، من أجل إزالة مسألة الألوهية من وعي البشر وحجب الإله ووحيه عنهم.

بنو إسرائيل، أو العبرانيون، كما يقول هانس كهن، في كتابه: القومية معناها وتاريخها، هم المعين الذي نبعت منه أصول القومية، لأنه:

"قد نشأت عند العبرانيين الخصائص الجوهرية الثلاثة التي تتسم بها القومية، وهي فكرة الشعب المختار، والاحتفاظ بتراث مشترك من ذكريات الماضي وآمال المستقبل، وأخيراً انتظار البطل القومي الموعود، ويبدأ تاريخ العبرانيين بالميثاق الذي تم بين الله وشعبه"[٢]

---

١) ول ديورانت: قصة الحضارة: ج٢، ص٣٤٣-٣٤٤.
٢) هانس كهن: القومية، معناها وتاريخها، ص٥.

الجذر العميق للمسألة القومية ولقوميات الغرب، وجود صورة ذهنية للإله عند كل قوم تخالف ما عند غيرهم، وبهذه الفروق بين صورة الإله في الأذهان وما تراكم من آثارها قامت الحدود والفواصل، وافترقت الأقوام، وتباينت الأمم.

والحاكم أو السلطة أو النخبة في القوم، كما فطن ديورانت، ليست سوى نموذج أو صورة لسلطة الإله في أذهانهم، ويستوي في ذلك أن يكون حكمهم باسم الإله أو بغير اسمه.

فإذا حكم الحاكم أو النخبة باسم الإله فهي تَخلُفه في البشر، وإذا حكمت بغير اسمه، فبسلطة التشريع وقوة السلطة هي الإله نفسه!

والخريطة القومية ومفتاح تصنيف البشر الذي زوره بنو إسرائيل من أجل إزاحة الإله والوحي من وعي البشر، ليست سوى خريطة تفريغ هائلة للعالم من المعاني والأخلاق والقيم والمعايير والموازين.

فالإله، كما قد علمت من خريطة الوجود الإلهية، هو مصدر الاخلاق والقيم، وهو عز وجل الذي يمنحها معناها، وهو سبحانه ضابط العلاقات بين البشر ومركز اتزانها ومحور توازنها، والذي يحدد قواعدها.

أما الأقوام والقوميات فليس فيها من عند نفسها ما يُعرف به معنى القيم والأخلاق أو كيف هي ضوابط العلاقات بين البشر، فتصير هذه كلها هائمة بلا مصدر ولا ضابط.

ما يثمره مفتاح التصنيف البني الإسرائيلي المزور هو خريطة قومية للبشر، نخبة كل قوم فيها هي إلههم، فهي مصدر فهمهم للوجود وتحكم وعيهم،

وبالقوانين والتشريعات تتحكم في حياتهم، ويكوِّنون هم قيمهم وأخلاقهم بتقليدها ومحاكاتها، وهذه النخب، هي نفسها، تفهم الوجود وتكون قيمها وأخلاقها بتقليد بني إسرائيل ومحاكاة سيرتهم!

أخبرناك من قبل أن الطائفة من بني إسرائيل التي تكتم الوحي وتتوارث بث تحريفه في البشر عبر العصور، والتي أنبأك الله عز وجل بها وهتك لك سرها في بيانه إلى خلقه، هي رأس هرم الماسونية والحركات السرية في العالم، فالآن اعلم أن الثورة الفرنسية، التي أطاحت بالمسيحية من الغرب، وأزاحت مفتاح التصنيف الإلهي للبشر منه بمفتاح التصنيف البني إسرائيلي العرقي السلالي، وأعادت تكوين أممه وشعوبه وبناء معماره ورسم خرائطه وحدوده القومية، لم تكن سوى ثورة يهودية ماسونية خالصة(•)

وهذا هو إفساد بني إسرائيل في الأرض كلها.

ثم اعلم أن ما يسميه البعض في بلاد العرب نهضة وتنويراً، وما يصمه آخرون بالاستعمار الغربي، أو بأنه غزو ثقافي، لم يكن في حقيقته سوى غزو توراتي شنه بنو إسرائيل، ومن استوطن بنو إسرائيل وعيهم وأذهانهم من اليهود والماسون، بعد أن أعادوا تكوين الغرب وبناءه بغاياتهم وأهدافهم، وبعد أن امتلكوا زمامه وامتطوا ظهره، من أجل سَلِّ مفتاح التصنيف الإلهي من شعوب هذه البلاد(••)، وتسريب مفتاح تصنيفهم المزور للبشر إليها، وإعادة

•) لمعرفة حقيقة الثورة الفرنسية، وأنها تدبير يهودي ماسوني خالص، ارجع إلى كتابنا: اليهود والماسون في الثورات والدساتير، مكتبة مدبولي.

••) سل الشئ: سرقه أو انتزعه خفية وبرفق دون أن يشعر به أحد.

هندستها ورسم خرائطها وبناء معمارها وتكوين مجتمعاتها والعلاقات بينها بمفتاح التحريف.

ما دفع بنو إسرائيل الغرب اليهودي الماسوني إلى بلاد العرب من أجله هو محو خريطتها الإلهية القرآنية التي مفتاحها:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]

وإخراج الخريطة السُلالية العرقية القومية من بطن التوراة إلى عقول شعوبها ونفوسهم، ثم إلى أراضيها، وإعادة رسم خرائطها وحدودها بها، لأن هذه هي الخريطة التي يتحكم بها بنو إسرائيل في وعي البشر، أدركوا ذلك أو لم يدركوه، فهي الخريطة التي في قلبها وموقع السيادة والتحكم منها بنو إسرائيل، والأمم والشعوب الأخرى كلها تدور فيها من حولهم.

فبلاليص ستان العربية التوراتية تدور بالغرب ومن حوله، والغرب يدور باليهود والماسون ومن حولهم، واليهود يدورون بالطائفة من بني إسرائيل التي تتوارث تحريف الوحي ومن حولها.

ووصول مفتاح تصنيف البشر البني إسرائيلي إلى البلاد التي أنزل عليها الوحي وتكونت به، وإزاحته لمفتاح التصنيف الإلهي منها ومن خرائطها، وإعادة تكوينها ورسم خرائطها وهندسة معمارها بالتحريف، هو علو بني إسرائيل الكبير.

---

١) الحجرات: ١٠.

خريطة الوجود البني إسرائيلية

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾

(البقرة:٤١)

يا بني إسرائيل

القرآن بيان الله عز وجل النهائي والخاتم إلى خلقه، ووظيفة هذا البيان وغايته الأولى بناء وعى البشر وتكوين أذهانهم ونفوسهم، وإمدادهم بالمعارف التى لا مصدر لها غيره، والتي ليس فى طاقة الإنسان وما يملكه من أدوات ووسائل للمعرفة أن يعرفها أو أن يصل إليها.

وترتيب القرآن في آياته وسورة، كما تعلم، توقيفي باتفاق العلماء جميعاً، ومعنى ذلك أن الترتيب النهائي لآيات القرآن وسوره وحي من الله عز وجل إلى رسوله الخاتم، التزم به، وألزم به من كانوا يكتبون ما يمليه عليهم من كتبة الوحي.

وعن السيدة عائشة، عن السيدة فاطمة رضي الله عنهما أنها قالت: إن النبي عليه الصلاة والسلام:

"أسر إليّ: أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلاَّ حضر أجلي"[1]

إذاً ترتيب سور القرآن وآياته ترتيب مقصود مراد، وهو وحي من الله عز وجل.

١) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد وابن ماجه.

فإذا أردت قراءة القرآن أو السير فيه، فستبدأ رحلتك فيه من أوله، فتقابلك فاتحة الكتاب التي هي بوابة القرآن، والعهد الذى بين الله عز وجل وبين كل إنسان، وأم القرآن التي لا تصح صلاة إلا بها.

فإذا واصلت رحلتك فى القرآن قابلك الربع الأول من سورة البقرة، فهذا الربع الأول من سورة البقرة هو مدخل القرآن الذي يستقبل داخله بعد عبور الفاتحة، ويعرفه بالصرح الذي دخله وتكوينه وسماته وماذا يكون.

فإذا جُلت في القرآن، مع بداية رحلتك فيه، في هذا المدخل وجدته يعرفك بحقيقته وصفته، وهي أنه الكتاب الذي لا ريب فيه هدى للمتقين، ثم يصف لك هؤلاء المتقين وحالهم، ثم يقارنهم بالكافرين وكيف ختم الله على قلوبهم، وماذا ينتظرهم من عذاب عظيم.

ثم يعرفك القرآن بالمنافقين، وبصفتهم وجدالهم وذرائعهم ومرض قلوبهم، ثم يضرب لك الأمثال للتعريف بهم والتشبيه بحالهم.

ويعرفك القرآن أن الرسالة التي يوجهها لك ولكل الناس، هى أن يعبدوا ربهم الذى خلقهم والذين من قبلهم، وأنعم عليهم بنعمه وآلائه التي لا تحصى في السماء والأرض، ويبين لك ما الذي أُعد لمن كفر وعصى من نار وقودها الناس والحجارة، وما هُيأ للمؤمنين من جنات ونعيم.

وما إن تجتاز مدخل القرآن في الربع الأول إلى الربع الثاني حتى تقابلك قصة الخلق.

وقصة الخلق جاءت في مواضع عدة من القرآن، في سورة الأعراف، وسورة الحجر، وسورة طه، وسورة ص، وكل سورة من هذه السور تعرض مشهداً من مشاهد قصة الخلق، أو جانباً منها، لكن سورة البقرة التي تستقبل داخل القرآن وقارئه هي الموضع الوحيد الذي تأتي فيه قصة الخلق متكاملة، وهي أكثر مواضع قصة الخلق في القرآن تفصيلاً.

وهذا شئ مراد ومقصود، لأن قصة الخلق، كما عرفناك، هى المصدر الأول لتكوين لوعي الإنسان ولبناء ذهنه ونفسه، وهي التي تحكم كل ما يتخلق فيها وتتحكم في كل ما تثمره، وهي الخريطة التي تُعرف الإنسان ماذا يكون، ومن أين أتى، ولماذا وجد على الأرض، وما مهمته فيها، وهي التي تُعرفه إلى أين يسير، وتعرفه بحقيقة العلاقة بين مكونات الوجود ومواقعها منه، وموقع كل منها من الأخرى، وموقعه هو نفسه من الوجود.

فقصة الخلق هي التي تعرف الإنسان بالإله وحقيقة الألوهية، وبحقيقة إبليس أو الشيطان وما يحكم علاقته بالإنسان، وتعرفه بالكون والطبيعة وما طبيعة العلاقة بينه وبينها، وتعرفه الإنسان بذاته هو نفسه، لماذا يختلف عن باقي المخلوقات، وتعرفه بالعلم ووسائل تحصيله للمعرفة التي أوتيها من أين جاءته ولماذا وهبت له.

لذلك، كما فهمت الآن، أي عبث بقصة الخلق أو طمس لها أو تغيير في تفاصيلها يفضي إلى اختلال وعي الإنسان، واضطراب تكوينه، وفساد بنائه الذهني والنفسي، وإلى تضارب عناصر الوجود وفقدان العلاقة بينها، بل

ويفضي إلى جهل الإنسان بنفسه وضربه أخماساً في أسداس وهو يحاول الوصول إلى حقيقته وكنه ذاته.

من غير خريطة الوجود، أو بتحريفها والعبث بها، يفقد الإنسان كينونته ووجوده، ويصير، كما قالت نظرية التطور، حيواناً تائهاً وجد نفسه في صحراء لا يعرف من أين ابتدأت، والى أين تنتهي، ولماذا وجد فيها، وفي أي موضع هو منها، وإلى أي اتجاه يسير ويكون سيره آمناً.

والإنسان، بتحريف قصة الخلق والعبث بها، كأنه في صحراء ومعه خريطة تضلله وتفضي به إلى المهالك، بدلاً من أن ترشده وتدله على سبيل النجاة.

قصة الخلق وخريطة الوجود الإلهية، وما تحويه من مكوناتها، هي لُب الوحي، وهي نواته التي يدور كل شئ فيه حولها، ومن غيرها تفقد الشرائع والتكاليف أصلها ومصدرها الذي تنبت منه ويرويها ويمنحها معناها.

خريطة الوجود الإلهية هي الوحي الذي أنزله الله عز وجل على بني إسرائيل، واستودعهم إياه، لكي يتكون به وعيهم، ولكي يقيموا به أمة الوحي، التي تحمل الخريطة الإلهية إلى أمم الارض كلها، وتهديهم إليها مترجمة فيهم، وفي فهمهم للوجود والحياة، وفي مجتمعهم وأخلاقهم وسلوكهم.

وهو ما أخبرك به بيان الله الخاتم إلى خلقه، بصياغته المعجزة، وما تحمله من رسائل مشفرة في لغته، وملفوفة في نسيج أساليبه، ومكنونة في عمق آياته.

فإليك أولاً نموذجاً على الذهول بمعاني الكلمات والآيات القريبة المباشرة عن هذه الصياغة المعجزة وعن هذه الشفرات وهذا النسيج، وما يفضي إليه هذا الذهول من ضياع الرسائل المرسلة فيه، وفقدان ما تحويه من معارف.

يقول دكتور فتحي محمد الزغبي في كتابه: تأثر اليهودية بالأديان الوثنية، وهو في الأصل أطروحته التي حصل بها على درجة الدكتوراة في العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر، في سياق تعقيبه على علماء الغرب الذين يقولون إن قصة الخلق التوراتية في سفر التكوين اقتبسها كاتبها من الديانات الوثنية التي عاصرها:

"والحقيقة أننا لا يمكن أن نتابعهم في هذا الرأي على وجه الإطلاق، وإنما الذي يمكننا ان نقوله في هذا الشأن أننا أمام احتمالين: الاحتمال الأول: هو أن التوراة المنزلة على سيدنا موسى كانت خالية تماماً من قصة الخلق، وأنها كانت تشتمل على عدة وصايا وتشريعات فقط ... واما الاحتمال الثاني: فهو أن توراة موسى السماوية كانت تحتوي على قصة الخلق كما أنزلها الله سبحانه، وحدث أن فُقدت هذه التوراة وقام اليهود بتضييعها، ثم حينما عثروا على أجزاء منها كانت تحتوي على قصة الخلق الأصلية أو جزء منها، وقام الكتبة بخلط هذه القصة بأساطير الديانات الوثنية"[١]

ونقول لك: لو كان الذي أنزل على موسى عليه السلام الوصايا والتشريعات فقط، لما كان ثَمة تحريف، فهذه الوصايا والتشريعات موجودة في التوراة التي أخرجها بنو إسرائيل للعالم وعرفها التاريخ وتتداولها الأيدي إلى يومك هذا، في

---

١) دكتور فتحي محمد الزغبي: تأثر اليهودية بالأديان الوثنية، ص٥٢٧-٥٢٩.

الوصايا العشر، وفي غيرها من التعاليم المنسوبة لموسى في التوراة، ولغيره من الأنبياء في أسفار العهد القديم، وهي في مجملها توافق الوحي الأصيل ولا تخالفه.

ما أُنزل على بني إسرائيل في التوراة فكتموه وأخرجوا للعالم تحريفه، أشد خطراً، وأكبر وأعمق أثراً في وعي البشر وتكوين العالم من الوصايا والتشريعات.

وقصة الخلق ليست فقط كانت موجودة في التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، بل هي رسالة هذه التوراة الأساسية لبني إسرائيل، وهي البصائر والهدى والرحمة التي أُمروا ان يحملوها للناس جميعاً.

خريطة الوجود الإلهية هي الوحي الذي استأمن الله عز وجل بني إسرائيل عليه، فاختصوا بها أنفسهم، وأخفوها وكتموها عن البشر، ولفقوا تحريفاً لها، ليضللوهم عنها.

قصة الخلق وخريطة الوجود الإلهية هي الوحي المخبوء الذي تتوارثه طائفة من بني إسرائيل، والخريطة المزورة هي التحريف الذي تتوارث هذه الطائفة بث مكوناته في الأمم والشعوب، وتتحكم من خلالها في وعي البشر، وتحكم كل ما يتكون فيه وما ينتجه وما يخرج منه.

وكتم خريطة الوجود الإلهية، وبث الخريطة المحرفة مكانها، وإزاحة تلك من وعي البشر ومما يدركه وينتجه بهذه، هو ما من أجله أفرد الله عز وجل في

بيانه إلى خلقه لهذه الطائفة من بني إسرائيل ما لم يفرده لأحد في العالمين غيرهم.

فالآن تأهب للتحليق في سموات الوحي، لترى كيف يخبرك بيان الله عز وجل إلى خلقه من علٍ بذلك.

تبدأ قصة الخلق الكاملة والمفصلة في القرآن في الآية الثلاثين من سورة البقرة بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]

وتنتهي في الآية الثامنة والثلاثين والآية التاسعة والثلاثين بقوله تعالى:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾[2]

بعد انتهاء قصة الخلق في الآية التاسعة والثلاثين، يفاجئك القرآن بنقلك من قصة الخلق وبداية سيرة البشر على الأرض إلى سيرة بني إسرائيل مباشرة.

فالآيتان الأربعون والحادية والأربعون:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾[1]

---

١) البقرة:٣٠.
٢) البقرة:٣٨-٣٩.

فالقرآن بعد ذكر قصة الخلق المفصلة الكاملة لأول مرة فيه، ينقلك مباشرة إلى سيرة بني إسرائيل، ويُسقط كل ما بينهما من قصص الأنبياء وسير الأمم.

وبين قصة الخلق وبين سيرة بني إسرائيل، قصة نوح عليه السلام وقومه، وقصة إبراهيم عليه السلام وقومه، ولوط عليه السلام وقومه، وهود عليه السلام وقومه، وصالح عليه السلام وقومه، وشعيب عليه السلام وقومه.

فهل هذا الانتقال من قصة الخلق إلى سيرة بني إسرائيل مباشرة تلقائي بلا غاية، أم هو مقصود لمعنى وشئ يريد عز وجل أن ينبهك إليه؟

فإليك نموذجاً على فهم لماذا كان هذا الانتقال، وتفسيراً لما أفرده الله عز وجل لبني إسرائيل في بيانه.

يقول فضيلة الشيخ الشعراوي:

"الحق سبحانه وتعالى أراد أن يقص علينا مواكب الرسالات وكيف استقبل بنو آدم منهج الله بالكفر والعصيان، فاختار جل جلاله بني إسرائيل لأنها أكثر القصص معجزات، وأنبياء بني إسرائيل من أكثر الأنبياء الذين أرسلوا لأمة واحدة، لأنهم كانوا أكثر الأمم عصياناً وآثاماً ... ولذلك أخذت قصة بني إسرائيل ذلك الحجم الضخم في كتاب الله"(٢)

مرة أخرى، ما حكم فهْم المفسرين جميعاً، وليس الشيخ الشعراوي وحده، وما سيطر على أذهانهم، وهم يتعاملون مع ما يقوله القرآن عن بني إسرائيل،

---

١) البقرة: ٤٠-٤١.
٢) تفسيرر الشعراوي: ج١، ص٢٨٥.

أنه إخبار عن وقائع قديمة ميتة، وليس عن سيرة حية، آثارها متدفقة في الزمان وفاعلة في الحياة، يخبرنا بها عز وجل لننتبه إليها ونتعقبها، لا لمجرد الاعتبار والعظة بها.

ومن المثير الذي لم يلتفت إليه إلا قليل من المفسرين، أن الخروج من قصة الخلق وافتتاح سيرة بني إسرائيل، جاء في صورة انتقال من رواية قصة االخلق في صيغة الغيب إلى توجيه النداء والخطاب إلى بني إسرائيل في صيغة الحضور والشهود، وليس الإخبار عنهم في صيغة الغيب.

فالله عز وجل بعد قصة الخلق ينادي بني إسرائيل:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[1]

ومن انتبه من المفسرين، حاول تفسير هذا الالتفات ونداء الله عز وجل وخطابه لبني إسرائيل معزولاً عن قصة الخلق السابقة عليه مباشرة، ودون أن يفطن أو يشير إلى أي صلة بينهما.

فبعضهم فهم أن خطاب الله عز وجل لبني إسرائيل:

"انتقال من موعظة المشركين إلى موعظة الكافرين من أهل الكتاب، ووُجه الخطاب هنا إلى بني إسرائيل لأنهم أشهر الأمم المتدينة ذات الكتاب الشهير والشريعة الواسعة"[2]

١) البقرة: ٤٠.
٢) تفسير التحرير والتنوير: ج١، ص٤٤٧.

فالشيخ الطاهر بن عاشور، رحمه الله، وصل سيرة بني إسرائيل بموعظة المشركين والمنافقين في الربع الأول من سورة البقرة، وأسقط قصة الخلق التي بينهما، وعدها اعتراضاً لا صلة له بسيرة بني إسرائيل أصلاً!

وبعضهم فهم أن خطاب بني إسرائيل، لأن خطابهم وقص سيرتهم التي لا يعلمها غيرهم دليل على صدق النبي عليه الصلاة والسلام وبرهان نبوته.

يقول الإمام الطبري:

"خصهم بالخطاب، لأن الذي احتج به من الآيات التي فيها أنباء أسلافهم وأخبار أوائلهم وقصص الأمور التي هم بعلمها مخصوصون دون غيرهم من سائر الأمم، ليس عند غيرهم من العلم بصحته وحقيقته مثل الذي لهم من العلم به، فعرَّفهم، باطلاع محمد صلى الله عليه وسلم على علمها، مع بُعد قومه وعشيرته من معرفتها، أن محمداً لم يصل إلى علم ذلك إلا بوحي من الله تعالى ذكره"[1]

ونقول لك: انتقال بيان الله عز وجل من رواية قصة الخلق إلى خطاب بني إسرائيل مقصود، لتفهم من ذلك أن بني إسرائيل هم المخاطب الأول بقصة الخلق، وأن الله عز وجل يخبرهم أولاً بها، ثم يخبرنا نحن بها من خلال خطابهم وإخبارهم هم بها.

---

١) جامع البيان: ج ١، ص٥٩٤.

فإذا كان الله عز وجل في بيانه يُعرِّف البشر جميعاً، وليس المؤمنين فقط، بقصة الخلق وما واكب سيرة الإنسان الأولى، فلماذا اختص عز وجل بني إسرائيل دون البشر جميعاً بالنداء، وكأنه عز وجل يخبرهم وحدهم بها؟

الإجابة فى الآية التالية، الآية الحادية والأربعون:

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾[١]

فتفهم من ذلك أن الله عز وجل ينادي بني إسرائيل، ويخاطبهم من بين البشر جميعاً بقصة الخلق لأنها عندهم، يعرفونها ويكتمونها، وهي التي معهم، وقصة الخلق في القرآن هي ما أنزله الله عز وجل مصدقاً لها، وأن ليس المراد بما هو مصدق لما معهم في هذا الموضع عموم القرآن، أو صفة النبي عليه الصلاة والسلام، كما فهم جُل المفسرين.

فإليك مثالاً في قول الإمام القرطبي:

"التقدير: آمنوا بالقرآن مصدقاً لما معكم، يعني: من التوراة"[٢]

قوله تعالى:

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾

يخبرك أن بني إسرائيل هم الفئة الوحيدة والأمة الفريدة في البشر التي كانت تعرف قصة الخلق الحقيقية والخريطة الأصلية للوجود وتحوزها قبل نزول القرآن.

---

١) البقرة:٤١.
٢) الجامع لأحكام القرآن: ج١، ص٣٣٣.

قصة الخلق هي المسألة الرئيسية والمحورية في الوحي التي كتمها بنو إسرائيل ويكتمونها، لكي يحجبوا الإله عن الأمم ويضللوهم عنه، وهي الأصل الذي احتفظوا ويحتفظون به لأنفسهم، وتحريفها، وآثار هذا التحريف، وما يترتب عليه في وعي البشر، وفي مجتمعاتهم، هو ما يبثونه أينما حلوا وحيثما وجدوا.

وتحريف خريطة الوجود الذي يبثونه في الأمم التي تناثروا بينها عبر التاريخ، هو مصدر اختلال وعي البشر واضطراب بنائهم الذهني والنفسي، وفساد كل ما يتكون داخل هذا الوعي وما ينتجه هذا البناء الذهني والنفسي، وهو مصدر تشويه فهم الإنسان لكل شئ في الوجود، وتشويه فهمه لنفسه هو ولذاته.

تحريف قصة الخلق هو الينبوع الذي يتدفق منه الفساد في وعى البشر، وفي نفوسهم وأذهانهم، ثم يفيض في ما كل ما تخلقه وتكونه ويخرج منها.

ولكن قبل أن ترى ما فعله بنو إسرائيل في قصة الخلق، وما يترتب عليه من آثار هائلة مروعة في وعى البشر وتكوينهم، وفي سيرتهم، وفي علاقاتهم معاً، وعلاقاتهم بكل شئ في الوجود، نعود بك إلى سيرة بني إسرائيل التي ذكرها عز وجل في سورة البقرة وفصل فيها بعد قصة الخلق مباشرة.

علمتَ أن الانتقال من قصة الخلق إلى سيرة بني إسرائيل مباشرة، وإسقاط كل ما بينهما من قصص وسير، مقصود للتنبيه على ارتباط قصة الخلق ببني

إسرائيل، وأنه من المثير أن هذا الانتقال من قصة الخلق إلى سيرة بني إسرائيل كان في صيغة النداء لهم وتوجيه الخطاب إليهم.

وما هو أغرب وأشد إثارة، أن ما قصه عز وجل عليك من سيرة بني إسرائيل في سورة البقرة، جاء كله في صيغة خطاب لبني إسرائيل، فالله عز وجل يخبرنا بسيرتهم من خلال تكليمه إياهم:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾[1]

﴿ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾[2]

﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾[3]

﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾[4]

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[5]

---

١) البقرة::٤٠.
٢) البقرة:٥٠.
٣) البقرة:٥٥
٤) البقرة:٦١.
٥) البقرة:٦٣.

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[١]

فالآن استيقظ وتنبه ! ثم سل نفسك:

مَن الذي يخاطبه عز وجل ويوجه إليه كلامه في هذه الآيات من بيانه إلى خلقه؟

بنو إسرائيل الذين أنعم الله عليهم، والذين فرق بهم البحر وأنجاهم، والذين أخذ عز وجل منهم الميثاق ورفع فوقهم الطور، والذين سألوا موسى ما سألوه، وقتلوا من قتلوه، كانوا في عصر نزول التوراة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، والقرآن أُنزل على النبى عليه الصلاة والسلام في القرن الأول الهجري أو السابع الميلادي، بعد عشرين قرناً من زمن نزول التوراة وما شهده من سيرة بني إسرائيل التي يتكلم القرآن عنها.

فمن الذين يخاطبه عز وجل في هذه الآيات ويقول له: ﴿ فَرَقْنَا بِكُمُ ﴾، و: ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾، و: ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ﴾، و: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ﴾؟

هل هو سبحانه يخاطب بني إسرائيل الذين كانوا حول موسى عليه السلام؟

لا يمكن أن تكون الإجابة: نعم، لأن الله عز وجل لا يخاطب الموتى بخطاب الأحياء.

١) البقرة:٧٢.

فإذا لم يكن نداء الله عز وجل وخطابه لبني إسرائيل عصر التوراة وموسى عليه السلام لأنه يستحيل عقلاً، فمن الذين يخاطبهم عز وجل، وما تفسير أن يخاطبهم ويحاسبهم، وهم الأحياء، على ما فعله الموتى؟

هذه هي المعاني والمعرفة العميقة التي تحملها الآيات في نصها، كما أخبرناك سابقاً، والتى تنصرف عنها الأذهان بالمعاني الظاهرة القريبة المباشرة، فلا تفطن إليها إلا بعد استيقاظ وانتباه، وتفكر وتدبر، إن كان ثَمة.

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور إن بني إسرائيل الذين يناديهم الله عز وجل ويخاطبهم مباشرة هم:

"ذرية يعقوب، وفي ذريته انحصر سائر الأمة اليهودية"(١)

دون أن يحدد لنا مَن الذي يناديه الله عز وجل ويخاطبه مِن هذه الذرية، وفي أي زمان، وأي جيل منهم.

والإمام أبو حيان التوحيدي عرض ثلاثة أقوال فيمن يكون هؤلاء الذين يناديهم عز وجل من بني إسرائيل، ثم رجح أحدها، فقال هم:

"من كان بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ومن والاها من بني إسرائيل، أو من أسلم من اليهود وآمن بالنبي عليه الصلاة والسلام، أو أسلاف بني إسرائيل وقدماؤهم، والأقرب الأول"(٢)

---

١) تفسير التحرير والتنوير: ج١، ص٤٤٩.
٢) البحر المحيط: ج١، ص٣٢٨.

والإمام الطبري كان أكثر تحديداً، فقال إن من يخاطبهم عز وجل من بني إسرائيل هم:

"أحبار اليهود من بني إسرائيل الذين كانوا بين ظهراني مهاجَر رسول الله عليه الصلاة والسلام"[1]

وما لم يفسره لنا أبو حيان والطبري هو: كيف يوبخ القرآن من يخاطبهم من بني إسرائيل، ممن هم بحضرة النبي عليه الصلاة والسلام، على ما فعله أسلافهم ويحملهم وزره وكأنهم هم من فعلوه؟!

ونقول لك: نداء الله عز وجل وخطابه في آيات سورة البقرة التي تقص سيرة بني إسرائيل، هو لبني إسرائيل عصر نزول القرآن، وفي كل زمان وفي كل بقعة يوجدون فيها من الأرض بعد نزوله.

والصيغة التي قص عز وجل لنا فيها سيرة بني إسرائيل، والتي يخاطب فيها عز وجل الأحياء منهم ويحاسبهم على ما فعله الموتى من أسلافهم، لا معنى لها إلا أنها تريد أن تنبهنا إلى أن بني إسرائيل الذين أُنزل عليهم الوحي، وأخذ الله عز وجل منهم الميثاق، وحرفوا الوحي، موجودون في الزمان، حاضرون في التاريخ، بأذهانهم ونفوسهم، وبما فيها من غايات وأهداف، ومن وسائل وأساليب، وبصفاتهم وطباعهم، وما فيها من سجايا وخلال، وإن ماتوا بأجسامهم.

---

١) جامع البيان: ج١، ص٥٩٣.

بنو إسرائيل موجودون في أبنائهم ونسلهم، الذين يحملون صفاتهم وطباعهم وسجاياهم وتكوينهم الذهني والنفسي، وورثوا عنهم الوحي الأصيل ويخفونه، وورثوا معه بث تحريفه وما يترتب عليه من آثار في الأقوام والأمم عبر التاريخ، ويتوارثون صناعة وعي البشر وتشكيل مجتمعاتهم بهذا التحريف.

خريطة الوجود البني إسرائيلية

ما الذى فعله بنو إسرائيل، وما الذى حرفوه في قصة الخلق التي أخبرنا عز وجل أن أصلها موجود عندهم ويكتمونه ويخفونه، وأن ما أنزله في القرآن مصدق له؟

الأصل الذي أنزله عز وجل على بني إسرائيل، هو نفسه ما أتى به القرآن محفوظاً معصوماً، فيمكن بمقارنته بقصة الخلق التي كتبها بنو إسرائيل أن تعرف ما الذي حرفوه ويتوارثون تحريفه وبثه، وما الذي يترتب عليه في وعي البشر، وفي أذهانهم ونفوسهم، وفي حياتهم ومجتمعاتهم.

سوف نرى أولاً قصة الخلق في سفر التكوين، قبل أن نقف بك عند تفاصيلها ونقارنها بالأصل لتعرف ما الذى تعنيه وما الذي يترتب عليه؟

[15]"وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا. [16]وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلاً: مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً. [17]وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ ... [19]وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَكُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ، فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا، وَكُلُّ مَا دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا .... [1]وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟[2] فقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، [3]وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا، [4]فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: لَنْ تَمُوتَا! [5]بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ

يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. [6]فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ، فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. [7]فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ ..... فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. [9]فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: أَيْنَ أَنْتَ يا آدم؟ .... [16]وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا، وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ. [17]وَقَالَ لآدَمَ: لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ، بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِك .... [22]وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ. [23]فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. [24]فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ"[1]

فاعلم أن هذه السطور التي قرأتها هي ما من أجله تعقب الله عز وجل بني إسرائيل، وأفرد لهم في بيانه إلى خلقه ما لم يفرده لأحد في العالمين غيرهم.

فالوحي الذي يحوزه بنو إسرائيل ويتوارثونه ويكتمونه عن البشر هو أصل هذه السطور، وهذه السطور هي تحريفه الذي حرفه بنو إسرائيل، وبث فحواها ومضامينها ومكوناتها، والعلاقة ين هذه المكونات، وآثار ذلك كله، في وعي البشر وأذهانهم ونفوسهم، وتسريبها إلى أخلاقهم وقيمهم، وصناعة أنسجتهم

---

1) تكوين: ٢، ٣.

الاجتماعية وإقامة مجتمعاتهم بها، هو عمل بني إسرائيل الرئيسي في التاريخ، وهو غاية من صنعهم ويستوطن وعيهم ويتدفق في عقولهم بنو إسرائيل من الحركات السرية.

السطور التي قرأتها هي النبع الذي يتدفق منه الفساد في كل الأمم والشعوب، وهي البذرة التي نبتت منها وتكونت حولها الضلالات في كل الأزمان والعصور، وسيطرة مكوناتها على وعي البشر هو إفساد بني إسرائيل في الأرض وعلوهم الكبير.

فإليك ماذا تكون خريطة الوجود البني إسرائيلية، وبيان ما عبثوا به فيها من مكونات الخريطة الإلهية، والتحريف الذي أخبرك عز وجل في بيانه أنهم حرفوه ويحرفونه عمداً من بعد ما عقلوه وهم يعلمون.

أولاً: الشجرة التي نهى الله عز وجل آدم عن الأكل منها لا يفرق نوعها في بنية القصة، لأن الله عز وجل نهى آدم عن الأكل منها اختباراً وابتلاءًا له، وأخبره أنه إن أكل منها يكون ظالماً لنفسه، فقط لمخالفة الأمر.

فجاء التحريف وحدد نوع الشجرة بأنها شجرة معرفة الخير والشر، وجعل الإله ينهى الإنسان، الذي لا يعرف نوعها ولا ماذا تكون، عن الأكل منها، بتخويفه أنه إن أكل منها مات.

فيترتب على ذلك أن الإله خدع الإنسان، لأنه لم يُعرِّفه بنوع الشجرة، ولأنه أخبره بمصير غير حقيقي إن هو أكل منها، فآدم وزوجة أكلا ولم يموتا.

والأمر الثاني: أن تحديد نوع الشجرة بأنها شجرة المعرفة، جعل المعرفة حصراً على الإله أو الآلهة، فالإنسان خلقه الإله ليكون جاهلاً ولا حق له في المعرفة، وحصوله عليها كان بعصيان الإله وتمرده على أمره وإرشاده.

ثانياً: تقول قصة الخلق البني إسرائيلية إن الإله جبل من الأرض كل حيوانات البرية وطيور السماء، ثم أحضر آدم ليرى ماذا يدعوها، فكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها.

فالذين حرفوا القصة أخفوا أن الإله هو الذي علم آدم الأسماء، وهو ما يعني أن آدم هو نفسه مصدر معرفته عن الكون والمخلوقات، وأنه هو الذي حدد أنواعها ووظائفها، وليس أن الإله عز وجل هو الذى علمه إياها، لأن الاسم، كما قد علمت، هو جماع المسمى، أو هو وعاؤه الذي تحضر فيه وتتكثف كل صفاته وخصاله ومنافعه وقدراته.

فالقصة في ظاهرها وغلافها تقول إن الرب هو الذى خلق الحيوانات والطيور، لكنها في نسيجها وبنيتها وحبكتها وما خلف هذا الغلاف تجعل الإنسان هو الخالق الحقيقي للمخلوقات، والذي قدر لها، بتحديد أسمائها، صفاتها ومنافعها ووظائفها.

فبنو إسرائيل في تحريفهم لخريطة الوجود تعمدوا أن يؤلهوا الإنسان، أو أن يرفعوه إلى مرتبة الإله، وأن يجعلوه مصدراً لمعارفه، ومستقلاً بوسائل تحصيله للمعرفة الذاتية عن الإله وإرشاده.

ثالثاً: يقول بنو إسرائيل في قصتهم للخلق إن الحية أو الشيطان(•) هي التي عرَّفت حواء بحقيقة الشجرة، وأنها شجرة المعرفة، وأنهما لن يموتا إذا أكلا منها، بل سيحوزان المعرفة، فأكلت المرأة وأغوت آدم بالأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان.

وما يعنيه هذا هو أن الشيطان هو الذي دل الإنسان على المعرفة ومنحه إياها وليس الإله، فتكون المعرفة بذلك قرينة عصيان أمر الإله واتباع أمر الشيطان، فالمعرفة في قصة خريطة الوجود البني إسرائيل تحولت من هبة الله عز وجل لآدم إلى هبة الشيطان له، والتي حازها بطاعة الشيطان، وبعصيان الإله والتمرد عليه.

والأمر الثاني: أن من يتكون وعيه وذهنه ونفسه بهذه القصة، سوف ترتبط في تكوينه تلقائياً، وبرباط لا ينقصهم، حيازة المعرفة والعلم بالعري، لأن الأكل من شجرة المعرفة أثمر مع حيازتها عري الإنسان وانكشاف عورته.

رابعاً: أبالسة البشر تعمدوا في خريطة الوجود التي زوروها من الأصل الإلهي أن يجعلوا حواء هي التي تستقبل إغواء الشيطان، ثم تغوي آدم بالأكل من الشجرة، لتكون هي سبب خروج آدم من الجنة، ومصدر شقائه في الأرض، التي جعلوها منفاه.

فدسوا في أذهان البشر بذلك بذرة المواجهة والصراع بين الرجل والمرأة، وهي البذرة التي كانوا يتعهدونها ويقومون بريها من خلال الحركات السرية

(•) في قاموس الكتاب المقدس: "وحية التجربة كانت في المظهر كحية عادية ... لكن الشيطان كان في هذه الحية".

عبر التاريخ، بإثارة كل طرف، وإمداده بالوقود، واستنفار طاقته، وشحذ همته لحشد البراهين وإقامة النظريات، وقدح شرارة ذهنه لإبداع القصص والروايات، وتمويله لتكوين الجمعيات والحركات، التي تثبت التحريف وتبثه وترسخ آثاره.

بنو إسرائيل تعمدوا في خريطتهم المحرفة أن يفككوا مكونات الوجود كلها، وليس الرجل والمرأة فقط، وأن يمزقوا العلائق بينها، وأن يضعوها في حالة تضارب ومواجهة ونزاع.

فالإنسان في مواجهة الإله لحيازة المعرفة، والرجل في مواجهة المرأة التي كانت سبب شقائه، والمرأة في مواجهة الرجل الذي يُحملها مسؤولية هذا الشقاء، والإنسان في معركة مع الأرض والطبيعة التي هي منفاه ومحل عقوبته.

خامساً: تقول القصة المحرفة إن آدم وامرأته اختبئا من الإله في وسط شجر الجنة، فلم يعرف الإله أين هما واضطر إلى أن يناديه: **"أين أنت يا آدم"؟**

فالإله في التحريف جاهل يجوز خداعه والاختباء منه، أو في الحقيقة بنو إسرائيل، لكي يضللوا البشر عن الإله ويطمسوا في وعيهم مسألة الألوهية، ولكي يسووا بين الإله والإنسان فلا يكون لأحدهما سلطة على الآخر، جعلوا الإله إنساناً، أو شبيهاً بالإنسان.

وتقول خريطة التحريف إن الإله بعد أن أكل آدم من الشجرة قال:

"هو ذا الإنسان صار كواحد منا عارفاً الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد.. فأخرجه الرب من جنة

عدن ليعمل الأرض وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة"

والتحريف ها هنا جعل الإله آلهة متعددة أو مجتمعاً من الآلهة، ثم جعل قِدم الإله وبقاءه صفات عارية مجلوبة للإله من مصدر خارج عن ذاته، وهو شجرة الحياة التي أقام الإله حراسة عليها، لكي لا يأكل منها الإنسان فيصير إلهاً!

فالإله صار إلها بالأكل من شجرة الحياة، والإنسان في إمكانه أن يكون إلهاً أو شبيها بالإله وينازعه صفاته، فالقصة في حقيقتها ترفع الإنسان إلى مرتبة الإله، وتجعل للإله صفات الإنسان، والهدف الحقيقي لمن حرفوها أن يدسوا في وعي البشر أن الإنسان صنو للإله، ويمكنه أن يكون بديلاً للإله، أو أن يحل في الوجود محله.

سادساً: تقول القصة المحرفة أن الإله طرد آدم إلى الأرض وقال له:

"ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك"

فالتحريف جعل الأرض منفى للإنسان، ووجوده فيها عقاباً له، وجعله في هذا المنفى مطروداً من الإله وانقطعت صلته به، فلا الإله هداه ولا أرشده إلى ماذا يفعل في الأرض، ولا كلفه بشىء، ولا بيَّن له ما العلاقة التي بينه وبين زوجه وأبنائه الذين سينجبهم، ولا دله على قواعد ولا ألزمه بمنهج.

بنو إسرائيل جعلوا الإنسان منفياً فى الأرض، يصنع فيها كل شئ وحده بالمعرفة التي عرفها وحازها بعصيان الإله واتباع الشيطان.

وعلى ذلك، فالإنسان هو الذي كون علاقاته ووضع قواعدها، وهو الذى ابتكر نظمه وقوانينه، وهو الذي حدد لنفسه قيمه وأخلاقه، بل وهو الذي ابتكر أفكاره وعقائده.

فالخريطة المحرفة تقول لك في ظاهرها وبأسلوب مباشر إن الإله موجود، لكنها بتفاصيلها ومضمونها وبنائها تغرس في وعي من يتكون بها وفي ذهنه ونفسه أن الإنسان هو الذي اختلق الإله بذهنه، وأنه الذي ابتكر أفكاره عن الألوهية والإله.

الإلحاد وتأليه الإنسان

الغاية والفحوى الأولى لخريطة الوجود البني اسرائيلية، وأول آثارها، أن يتسرب إلى وعي البشر ونفوسهم أن الإنسان إله، أو أنه شبيه بالآلهة، وأنه ند ونظير للإله وقادر على الاستقلال عنه.

وهذا المضمون لقصة الخلق المحرفة هو الذي أثمر الإلحاد بكل صوره وأشكاله، فخريطة الوجود البني إسرائيلية، التي تتكلم عن الإله والخلق، هي في الحقيقة أشد ينابيع الإلحاد غزارة وتدفقاً.

فالعبث الذي عبثه بنو إسرائيل بخريطة الوجود جعلها تنضح من كل جوانبها بمضمون واحد، وهو أن الإله لا وجود له، لأن الإله في القصة شبيه بالإنسان، وعلمه وقِدمه وبقاؤه، كلها صفات عارية مجلوبة له من خارج ذاته، من شجرة المعرفة وشجرة الحياة .

فالإله في القصة المحرفة ليس في الحقيقة إلهاً، بل غاية القصة وما تبثه وتغرسه في ذهن من يتكون بها أن الإله في الحقيقة ابتكار من كتب القصة على هذا النحو.

فالقصة تقول في فحواها إن الإنسان كالإله، أو الإله كالإنسان، ولأن الإله لا يكون إلهاً إلا بمفارقته لخلقه وأنه ليس كمثله شئ، عقلاً قبل أن يكون نقلاً، فالثمرة الحقيقية لما فعله بنو إسرائيل هي الإلحاد وأنه لا إله، لأن الإله الذي في التحريف لا يستقيم أن يكون إلهاً، ولأن الإيمان به لا فائدة منه.

وكون الإله شبيهاً بالإنسان، أو أن الإنسان شبيه به ويمكنه اجتلاب صفات الألوهية، بل وحاز إحداها فعلاً على غير مشيئة الإله وبعصيانه، وقادر على أن يكون بديلاً له، هي البذرة التي رواها بنو إسرائيل عبر الحركات السرية، التي هم قلبها وطاقتها، لتكون ثمرتها المذهب الإنساني Humanism، الذي كان إحدى الدعائم التي تم إعادة تكوين الغرب العلماني بها، ثم العالم كله من ورائه.

وهو المذهب الذي يقوم على إحلال الإنسان محل الإله مركزاً للوجود، ومصدراً للقيم والأخلاق، ومستقلاً بعقله وحواسه عن الحاجة إلى مصدر للمعرفة من خارجه، أي: عن الوحي، وطارحاً للغيب، والوجود عنده هو ما يقع تحت طائلة هذا العقل والحواس، ومؤمناً بأنه قادر على خلق الجنة على الأرض بقدراته وعلمه وحده.

فالآن، ومعك نور خريطة الوجود الإلهية، تأمل عبث بني إسرائيل في الخريطة التي بثوها في البشر بأناة وعمق، ولن يكون عسيراً عليك أن تفطن وحدك أن هذه النزعة الإنسانية التي صبغت العالم، غربه وشرقه، ليست سوى بعض من آثار هذا العبث!

ولا تتعجب ولا تضرب كفاً بكف إذا أخبرناك أن البذرة التي أثمرت النزعة الإنسانية، التي هي ثورة على المسيحية، هي هي التي تكونت بها وحولها المسيحية نفسها!

فالإنسان في النزعة الإنسانية هو الإله، والإله في المسيحية هو الإنسان، وهما وجهان للشئ نفسه، وكل منهما نبْتُ العبث البني إسرائيلي ورُوي به.

إذا سألت مسيحياً: لماذا صُلب المسيح، والصلب محور المسيحية وعقيدتها الرئيسية، فسيجيبك: فداءًا للبشرية.

فإذا سألته: وما الذي فعلته البشرية لكي يفديها المسيح، فسيقول لك: آدم ارتكب الخطيئة وعصى الرب وأكل من شجرة المعرفة فطُرد إلى الأرض، لذا فالبشرية وُجدت على الأرض وارثة لهذه الخطيئة الأصلية وكل فرد فيها يحمل وزرها.

فيكون بذلك قد فتح خريطة الوجود البني الإسرائيلية، ويجيبك وهو يحملها في يده ويرى الوجود من خلالها!

فإذا غلبك الفضول وسألت: وماذا عن المسيح نفسه، فسيرد عليك: هو الإله أو ابنه تجسد في صورة البشر، ليفتدي البشرية ويكفر عن خطيئتها ويخلصها من الوزر الذي تحمله وترثه منذ بدأت رحلتها على الأرض.

فيكون بذلك قد سار بك في الدروب والمدقات التي رسمها ودقها بنو إسرائيل!

الإله والإنسان والمعرفة والشيطان

الغاية والفحوى الثانية للعبث الذي عبثه بنو إسرائيل بخريطة الوجود، هي جعل العلم والمعرفة قرينة التمرد على الإله وعصيان أوامره وإرشاده ومخالفة هديه، وثمرة اتباع الشيطان وطاعة وساوسه، وأن المرأة المنطلقة المتمردة على الإله والمتحررة من أوامره التابعة للشيطان، هي باب هذه المعرفة.

بعد أن وصلت في رحلتك إلى ما تقرأه الآن، لن تعجب إذا قلنا لك إن تحديد نوع الشجرة في خريطة بني إسرائيل للوجود هو الذي أنتج الغرب كله، حين تكون بالمسيحية والإيمان بها، وبعد أن ثار عليها وتكون بالانفلات منها!

حدد بنو إسرائيل نوع الشجرة بأنه شجرة المعرفة، والإله حرم الإنسان من الأكل منها لأنه لا حق لأحد فيها سوى الإله أو الآلهة.

ومن رحم هذا التحديد وُلدت معادلة، هي التي تحكم وعي الغرب وتتحكم فيه، وفي كل ما يتكون فيه وينتجه، ولا تتغير أطرافها، ولم يتمكن في أي عصر من عصوره من أن يتحرر منها، ولا أن يجمع بين أطرافها، أو يوفق بينهم.

وهي المعادلة التي أطرافها: الإله والإنسان والمعرفة.

في الغرب المسيحي الذي نبت وتكون من بذور العبث البني إسرائيلي بخريطة الوجود، اختارت الكنيسة للإنسان أن يهجر المعرفة لكي يكون مع الإله وطائعاً له، فكانت المعادلة التي تحكم وعي الغرب المسيحي وتتحكم فيه هي:

الإله والإنسان = هجر المعرفة

وما ترتب على ما اختارته الكنيسة، هو ما تخبرك به المؤرخة الألمانية: زيغريد هونكه في كتابها: العقيدة والمعرفة:

"أينما وضعت المسيحية قدمها، في الإسكندرية وبيزنطة، في اليونان وروما، في فرنسا وإيطاليا، أدت إلى تقلص مروع في الثقافة"[1]

وما كانت تفعله الحركات السرية، وفي قلبها بنو إسرائيل، عبر عصور الغرب كلها، هو أنها كانت تصارع الكنيسة من أجل أن تحل في تكوين الغرب محلها، وتكافح من أجل أن تنقل الإنسان إلى الطرف الآخر من المعادلة، فتجعل حيازة المعرفة في وعيه رهن بإنكار الوجود الإلهي، أو بالتمرد على التعاليم المنسوبة إلى الإله، لتكون هذه النقلة أداة الإطاحة بمسألة الألوهية كلها، وإزاحة الوحي كوسيلة مطلقة للمعرفة من وعي البشر جميعاً، وإزاحة الوحي معناها نسف المعايير والموازين التي هو مصدرها، وتفريغ القيم والأخلاق من المعاني، التي هو أيضاً ضابطها والذي يمنحها معناها.

في الغرب المسيحي كان الإنسان مع الإله ويطيعه بهجر المعرفة، وبسيطرة الحركات السرية على الغرب وصناعتها لوعيه، صار الإنسان والمعرفة معاً في مواجهة الإله، والمعادلة وأطرافها هي هي لم تتغير.

المعادلة التي صارت تحكم الغرب الإنساني العلماني هي:

الإنسان والمعرفة = التمرد على الإله

---

١) زيغريد هونكه: العقيدة والمعرفة، ص٢٣.

وهذا المضمون من خريطة الوجود البني إسرائيلية هو النبع الذي تكونت، بسريانه في أذهان صفوة الغرب ورموزه ومن صنعوا تاريخه وكونوا وعيه، العلمانية، وفصل العلم والمعرفة عن مسألة الألوهية والديانة، وارتباط التقدم بتجاوز العقائد ونفي الشرائع.

عندما يحلم القباليون

الحركات السرية، كما قد علمت، كانت تكافح عبر التاريخ، وتصارع الكنيسة، من أجل نقل الإنسان في المعادلة البني إسرائيلية، من طرفها الذي يكون فيه مع الإله ويهجر المعرفة، إلى طرفها الذي يحوز فيه المعرفة بالتمرد على الإله.

والرجل الذي أثمر كفاح الحركات السرية على يديه وبمواهبه وقدراته، والذي وضع تعريفاً للعلم الطبيعي يزيح به الوحي من وعي البشر، ورسم له مساراً يصطدم في كل خطوة فيه بمسألة الألوهية، وبدأت من عنده العلمنة الفعلية للغرب، هو فرنسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١م – ١٦٢٦م)، أبو العلوم التجريبية في الغرب، والرجل الأول في الغرب الذي ينسب إليه ابتكار المنهج التجريبي، بما صنفه من كتب، وضع فيها قواعده ورفعه بها إلى منزلته التي صار إليها في تكوين الغرب وتاريخه ومساره.

ومن أشهر هذه الكتب كتاب: تنمية العلوم Augmentes Scientiarum، وكتاب: تقدم التعليم Advancement of learning، وكتاب موجز قواعد العلم الطبيعي Parasceve Historium Naturalem.

وكتب فرنسيس بيكون وأفكاره كانت هي العقيدة والنواة التي تكونت بها وحولها الجمعية الملكية البريطانية British Royal Society، ومؤسسوها كانوا جميعاً من أتباع أفكاره وحركته.

وعقيدة بيكون التي أدخل بها الغرب كله في مسار يصطدم في كل خطوة يخطوها فيه بمسألة الألوهية، هي أن المعرفة الوحيدة الحقيقية ويوثق بها هي تلك التي تكون وسيلتها التجربة، وضابطها عقل الإنسان وحواسه، ومن ثَم فأي شئ يأتي من خارج الإنسان وبغير طريق التجربة فليس علماً ولا معرفة.

فإذا رجعت إلى فصل: بيان الإله، ستفهم أن عقيدة بيكون هذه ليست سوى غلاف، فحواه وما يغلفه في الحقيقة إزاحة الإله من اجتماع البشر، وفصله عن حياتهم، ونفي وحيه وإخراجه من تكوين وعيهم وبناء أذهانهم ونفوسهم ومن مصادر معارفهم، والوحي، كما علمت، هو مصدر القواعد والضوابط والمعاني.

فإليك الوجه البني إسرائيلي للرجل الذي عَلْمن الغرب، والعالم كله من بعده، لتدرك أن العبارات المزخرفة والنظريات المزركشة عن العلم والمعرفة والموضوعية والتجربة والحياد ليست سوى وسائل لقرطسة البشر وتفريغ العالم من العقائد والقواعد والضوابط والمعاني، من أجل فتح العالم وأذهان البشر أمام بني إسرائيل وغاياتهم ومملكتهم القادمة.

فرنسيس بيكون هو مؤسس حركة الصليب الوردي أو الروزيكروشيان Russicrucian في إنجلترا، ورئيسها وأستاذها الأعظم لعشرين سنة، وشهدت المنظمة في عهده ازدهاراً كبيراً، واستغرقت جُل الطبقات العليا من الساسة والأدباء والعلماء والمفكرين والفنانين في إنجلترا، بل وكان بيكون، عضو البرلمان الإنجليزي، ومستشار الملكة إليزابيث والملك جيمس الأول، بمناصبه ونفوذه السياسي في إنجلترا، الأب الروحي لكل الحركات السرية في عصره.

وأشهر مؤلفات بيكون على الإطلاق، كتابه أو روايته: أطلنطس الجديدة New Atlantis.

فإليك أولاً وصف أحد الأميين من مشاهير أساتذة الفلسفة لما تخيله بيكون في روايته، يقول دكتور زكي نجيب محمود في مقالة عنوانها: عندما يحلم العقلاء، نشرتها مجلة العربي الكويتية، في عدد شهر أغسطس سنة ١٩٦٧م، ثم أعاد نشرها في كتابه: نافذة على فلسفة العصر:

"حلم فرنسيس بيكون بيوم يغير فيه الإنسان معنى العلم، فلا يطلق هذه الكلمة العظيمة إلا على ذلك الضرب من الكلام الذي لا يكاد يثبته صاحبه على صفحات كتابه حتى يثب إلى حياة الناس عملاً ينفع، وله في مقارنة العلم بمعناه الفظي القديم ومعناه التطبيقي الجديد تشبيهات رائعة، فهو بالمعنى القديم كالمرأة العاقر، تناقش تناقش ولا تلد، العلم قوة، وهذه عبارة قالها بيكون، بمعنى أنه أداة تغيير البيئة المحيطة بنا على النحو الذي يحقق أغراضنا"(١)

فإليك ماذا يكون المجتمع العلمي الذي تصوره بيكون، لتعلم أن العلم وتجاربه وتطبيقاته ليست معزولة عن عقائد من ينتجه وينتجها ولا عن غاياته، ولا عن خريطة الوجود التي تحكم وعيه وتتحكم في تكوينه الذهني والنفسي، كما توهم أستاذ الفلسفة الأمي.

---

١) دكتور زكي نجيب محمود: نافذة على نافذة العصر، ص١٥-١٦.

في روايته هذه التي نشرت لأول مرة سنة ١٦٢٧م يتخيل بيكون جزيرة يقوم عليها مجتمع علمي، يُكوِّن حياته ويحكمها بالعلوم التجريبية، ويسيطر بالمخترعات على كل شئ، حتى هبوب الرياح واتجاهها.

وتبدأ رواية بيكون بإبحار سفينة أوروبية من بيرو Peru في اتجاه الغرب قاصدة اليابان والصين، وفي قلب المحيط الهادي تهب عليها عاصفة هوجاء وتتلاعب بها أمواج المحيط العاتية، فتضل وتفقد طريقها، لتخرج من التيه إلى أورشليم الجديدة!

فالجزيرة التي ابتكرها الأستاذ الأعظم لحركة الروزيكروشيان في روايته وبنى عليها عالمه العلمي اسمها بن ساليم Ben Salem، وبن ساليم اللاتينية هي: أورشليم الجديدة!

وبيت العلوم الذي يسيطر على العالم من أورشليم الجديدة هو: بيت سُليمان Salomona's House، وبيت العربية هى نفسها بيت العبرية، وبيت العربية والعبرية هي هيكل الأكادية.

فالذي تخيله فرنسيس بيكون وسعى بكتبه وأفكاره إلى إيجاده وتوجيه مسار التاريخ نحوه، ليس سوى استعادة أورشليم، أو أورشليم جديدة تحكم العالم من هيكل سليمان.

وقد يبتليك الله عز وجل فتلتقي أحداً من الأميين في بلاد العرب، ممن تراهم يملؤون جامعاتها وصحفها وشاشاتها، فيعطيك محاضرة وينشد لك نشيداً عن بيكون أبي العلوم وفيلسوف المعرفة، وداعية الموضوعية وقيام العلم على

التجربة وفصله عن الأديان وعقائدها وغاياتها وأخلاقها، ثم يقول لك من علٍ وهو يتعالم ويتصنع التواضع: هذه الأسماء رمزية أو هي مصادفات، ولا علاقة لها بأورشليم بني إسرائيل وهيكلهم.

فلا يغرنك ما يرفعه لك هؤلاء الأميون من شهادات وألقاب ومناصب، يُغْشون بها بصر العوام، ويموهون بها ما هم فيه من عته وبله، واعلم أن المحاضرة التي قالها لك الأمي والنشيد الذي أنشدك إياه، ليست سوى الأغلفة المزركشة التي يغلف بها بيكون وأمثاله ما يريدون، لكي يقرطسوه بها هو وأمثاله من الأميين.

واعلم أن المسألة ليست في العلم الطبيعي والاكتشاف والتجربة والتطبيق، بل هي في فهم موقع العلم الطبيعي من الوجود والحياة، وعلاقته بالعقائد والقيم والأخلاق، وفي تطبيقاته كيف تكون، وفي أي شئ توظف، ولأي غاية تسخر، وهي كلها أسئلة لا يجيب عليها العلم الطبيعي نفسه أو تطبيقاته، ولا تتكون الإجابة عليها وحدها أو من تلقاء نفسها، بل يحكمها من ينتج العلم، ودوافعه التي تحركه نحو العلم والتجربة، وغاياته التي يريد توظيف العلم وتطبيقاته لبلوغها ودفع العالم والتاريخ نحوها.

فهاك فرنسيس بيكون أبو العلوم وفيلسوف المعرفة نفسه يخبرك أن أورشليم الجديدة ليست سوى بعث لأورشليم القديمة، وأن بيت علوم الجديدة ليس سوى طبعة عصرية من هيكل القديمة.

هذا هو وصف بيكون في روايته لبيت سليمان في أورشليم على لسان حاكم أورشليم الجديدة:

"حكم هذه الجزيرة منذ ألف وتسعمائة عام ملك لا نوقر ذكرى أحد مثلما نوقره، فقد كان واسع الحكمة، كبير القلب، مفعماً بحب الخير، ورغم أنه بشر فانٍ فقد كان أداة إلهية Divine Instrument، واسمه سليمان Solamona... ومن أجلّ أعمال هذا الملك أنه أنشأ جمعية أو منظمة هي أشرف مؤسسة وجدت على ظهر الأرض، ووهبها لدراسة مخلوقات الإله ومعرفة طبيعتها ... وقد سماها باسم ملك العبريين، لأنه كان يرى نفسه رمزاً وتجسيداً لملك العبريين الذي عاش قبله بسنوات عديدة، وتعلم منه أن الإله خلق العالم في ستة أيام، ولذا جمعيتنا لها اسم آخر هو: كلية عمل اليوم السادس Collage of six day's work"([1])

وكما ترى، سليمان الذي أنشأ بيت العلوم في أورشليم الجديدة، وصارت به مملكته أجل الممالك، ليس سوى صورة روائية استنسخها بيكون من سليمان ملك بني إسرائيل التوراتي، ووصف سليمان أورشليم الجديدة الذي وصفه به بيكون هو نقل حرفي لوصف سليمان أورشليم القديمة في سفر الملوك الأول:

"٢٩وَأَعْطَى اللهُ سُلَيْمَانَ حِكْمَةً وَفَهْمًا كَثِيرًا جِدًّا، وَرَحْبَةَ قَلْبٍ كَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، ٣٠وَفَاقَتْ حِكْمَةُ سُلَيْمَانَ حِكْمَةَ جَمِيعِ بَنِي الْمَشْرِقِ وَكُلَّ حِكْمَةِ مِصْرَ ٣١وَكَانَ أَحْكَمَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ"([2])

1) Francis Bacon: New Atlantis,in:Works of Francis Bacon‹P205-206.

٢) الملوك الأول:٢٩:٤-٣١.

وأما بيت علوم أورشليم الجديدة، الذي أنشأ الماسون وأعضاء حركة الروزيكروشيان، من أتباع بيكون وخلفائه، الجمعية الملكية البريطانية على غراره وبمحاكاته، لكي يحولوه بها من خيال إلى واقع، فهو نفسه هيكل أورشليم القديمة، وعلومه هي أداة سيطرة أورشليم الجديدة على الأرض وتسلطها على الممالك، بديلاً عصرياً لسيطرة سليمان أورشليم القديمة على ما حولها من ممالك بمردة الجن والشياطين!

وباستثناء العميان من الأميين، أمثال من أنشدك النشيد، لا يجد من يقرأ رواية بيكون ذرة من شك في الصورة التي يريد أن يوجه العالم نحوها ويصل به إليها.

فهذا هو موقع بني إسرائيل من أورشليم الجديدة التي ابتكرها بيكون لكي تكون نموذجاً يُدفع العالم نحوه ويُصنع على غراره وبمحاكاته، وهذه هي الغاية التي يتجه العالم نحوها بصناعته على غرارها:

"وقد كان يعيش بين ظهراني أهل بن ساليم بقايا من اليهود يحتفظون بديانتهم ويحبون شعب بن ساليم محبة عظيمة، ومن هؤلاء اليهود وما يحوزونه من كتب وتقاليد Tradition، أخذ أهل بن ساليم عاداتهم وقوانينهم، وعرفوا أنهم من نسل إبراهيم Abraham وينحدرون من ابن آخر له، وأن موسى Moses هو الذي سن تشريعات بن ساليم التي يتحاكمون بها، وصبغها بحكمة القبالاه السرية Secret Cabala، وأنه عندما يأتي الهامشيحاه Messia ويجلس على عرشه في أورشليم Hierusalem،

سيكون ملك بن ساليم عند قدميه Sit at his feet، وخلفه من بعيد باقي الملوك"[1]!!

فهل أدركت الآن من يكون أبو العلوم وفيلسوف المعرفة الذي علمن الغرب ورسم مساره، ليدفعه فيه مَن جاءوا بعده مِن أتباعه وخلفائه؟

فرنسيس بيكون هو أحد أشهر القباليين في التاريخ، وأورشليمه الجديدة هي أورشليم القبالية، وإذا كان بعض أتباعه حولوا الهيكل الجديد إلى واقع بإنشاء الجمعية الملكية البريطانية، فقد حول بعضٌ آخر منهم أورشليم القبالية إلى حقيقة يدفعون بها العالم نحو غاية بني إسرائيل بإنشاء الولايات المتحدة الماسونية.

وصاحب فكرة توحيد الحركات السرية والماسونية في أوروبا ونقل مجال حركتها وعملها من أوروبا إلى القارة الأمريكية البكر الخالية من عوائق العقائد والكنيسة والتاريخ والملوك، لإنشاء أورشليم القبالية الجديدة فيها، والسيطرة بها ومنها على العالم، وتوجيهه نحو استعادة أورشليم بني إسرائيل الحقيقية القديمة، هو بيكون نفسه!

بقي أن تعلم أن فرنسيس بيكون زين هوامش صفحات كتابه وفراغاتها في مخطوطته الأصلية التي كتبها بخط يده، وفي طبعته الأولى التي ظهرت بعد وفاته بعام، كما يقول صفيه ووصيه الذي أشرف على طبع الكتاب وليام راولي William Rawley، زينها بمجموعة من الرموز اليهودية والماسونية مثل عمودي هيكل سليمان الشهيرين بوعز وجاكين، وهما أحد أركان تصميم

---

1) New Atlantis,in:Works of Francis Bacon،P209.

المحفل الماسوني، والبرجل Compass، ومربع ضبط الزوايا Square، والمسطرين Trowel، والعين المطلعة على كل شئ The All Seing Eye.

والآن يمكنك أن تعيد قراءة القصيدة التي كتبها دكتور زكي نجيب محمود في بيكون وجزيرته وبيته للعلوم، ثم تعدل عنوانها إلى العنوان الصحيح الذي ينبغي لها، وهو: عندما يحلم القباليون!

عبادة الشيطان

والنبع في خريطة الوجود البني إسرائيلية الذي تدفقت منه العلمانية، هو نفسه الذي كان من فروعه عبادة الشيطان، وفرع آخر منه تحرير المرأة، بإخراجها من هدي الشرائع، في الأخلاق والزي والسلوك، وارتباط هذا التحرير والخروج بالعلم والتقدم والمدنية.

وها هنا قد تسأل: ما الدليل على أن قصة الخلق البني إسرائيلية هي التي كونت وعي الغرب، وأنها هي التي تحكم أذهان نخبه ورموزه وصانعي تاريخه ونفوسهم، وأنها هي التي أنتجت هذا كله؟

فإليك الدليل في أشد ما ذكرناه لك شططاً وأكثره جنوحاً، وهو عبادة الشيطان.

عبادة الشيطان في الحركات السرية وجمعيات عبادته ليست مجرد كفر أو زندقة أو هرطقة كما قد تعتقد، بل هي فلسفة متكاملة، وهي نتاج طبيعي تلقائي لا غضاضة فيه لخريطة الوجود البني إسرائيلية.

فسل نفسك أولاً: الذين يعبدون الشيطان ويقدسونه ويعتبرونه صديقاً للإنسان، من أين علموا أصلاً أنه يوجد كائن أو مخلوق اسمه الشيطان لكي يعبدوه، ومن أين أتتهم وكيف دخلت في عقولهم فكرة أن هذا المخلوق أو الكائن الذي اسمه الشيطان صديق للإنسان محب له؟

فهاك الإجابة من أحد المشاهير من عُبَّاد الشيطان.

يقول حبر الماسونية الأعظم في القرن التاسع عشر اليهودي ألبرت بايك، وهو يُنظِّر لعبادة الشيطان، في تعاليم الدرجة الثالثة، درجة الاستاذ Master، وفي تعاليم الدرجة السادسة والعشرين، درجة أمير الرحمة Prince of Mercy:

"الشيطان Satan في القبالاه كفء يهوه Yehveh، فالشيطان ليس شراً، بل هو إله الخير، الذي تمرد على أدوناي(•)، ووهب الإنسان نور المعرفة وحرية الإرادة ... أدوناي هو إله الغيوب، والشيطان هو نور العالم، وهو الإله الذي خلق الكون المنظور Visible universe ويحكمه، وكلاهما إله خالد"[1]

وكما ترى، عبادة الشيطان هي ابنة خريطة الوجود البني إسرائيلية وثمرتها وليست خروجاً عليها، فبنو إسرائيل، لكي يُضلوا البشر ويفصموا علاقتهم بالإله، حولوا الشيطان في خريطة الوجود إلى محب للإنسان، أو الإله الذي يرعاه ودله على المعرفة، وهيأ له الأرض وأعانه على بدء مسيرته فيها، بعد أن طرده الإله إليها، ولعنها لكي تكون منفاه ومحل عقوبته.

ثم إليك إحدى الفروع التي فرعتها الحركات السرية من خريطة الوجود البني إسرائيلية.

•) أدوناي اسم الإله في سفر التكوين، وهي عبرية معناها: المولى أو السيد، ويهوه اسم الإله الذي ظهر لموسى في سفر الخروج، ولا يعرف معناه تحديداً، بل ولا النطق الصحيح له، لأنه يحرم نطقه إلا على الحبر الأعظم داخل قدس الأقداس.

1) Albert Pike: Morals and dogma, P:102, 567.

في الدرجات العليا من الماسونية، يتحول إغواء الشيطان لحواء إلى إغواء جنسي، نزهها الله عز وجل عما يقولون، ليثمر هذا الإغواء أول أبناء حواء: قايين بن إبليس!

وقايين بن إبليس هو الذي دل أخاه هابيل بن آدم على ما يحفظ به حياته من طعام وشراب، وهو الذي علمه كيف يحيك ما يحميه من الحر والبرد، ثم كان نسل قايين بن إبليس هم من علموا بني آدم الصيد والزراعة والصناعة.

ومن ثَم فالبشرية عبر تاريخها كله قسمان، نسل الشيطان، وهم الطبقة المستنيرة الصانعة للعلم وحاملة نور المعرفة والقائدة للبشر، وهؤلاء هم الماسون.

وأما باقي البشرية، فهم الطبقات الخاملة، وأتباع الجهل والظلام من بني آدم!

مادة التحريف

من أين أتى بنو إسرائيل بعناصر خريطتهم للوجود، وهل الصورة التي استقرت عليها العلاقة بين مكوناتها كانت عفواً أو غفلة وسهواً أم هي قصد مقصود؟

فإليك نموذجاً على ما يحدثه افتقاد الوحي مصدراً مطلقاً للمعرفة، في مجالات من المعارف لا مصدر لها غيره، وليس في طاقة الإنسان وما يحوزه من وسائل ذاتية للمعرفة أن يصل إلى وجه الحق فيها، من خلل في الفهم، وانحراف في المنهج، وانقلاب في الفرضيات، وضلال في النتائج.

إليك كيف وأين نقب أحد أكثر العقول سعة وخبرة وإحاطة بتاريخ البشر وعقائدهم عن إجابة السؤال، وما وصل إليه من نتائج، بعد أن خرج الوحي من مصادره ضابطاً ومرشداً.

يقول السير جيمس فريزر في مدخل كتابه: الفلكلور في العهد القديم:

"توصلت الأبحاث الحديثة التي تدرس فجر التاريخ البشري بشتى اتجاهاتها إلى نتيجة مؤكدة، مؤداها أن كل الشعوب المتحضرة قد تطورت، في زمن أو آخر، من المرحلة الهمجية التي تشبه في قليل أو كثير المرحلة التي لا تزال بعض الشعوب المتأخرة تعيشها إلى اليوم، كما انتهت هذه الأبحاث إلى

أن هناك آثاراً ليست بالقليلة من الطرز البدائية القديمة في الحياة والتفكير لا تزال ماثلة في عادات الناس وتقاليدهم"[1]

وكما ترى، وعي السير جيمس فريزر محصور داخل خريطة الوجود البني إسرائيلية، وما يفهمه، هو كله من آثار سريانها في تكوينه، فوعيه وتكوينه لا يستطيع الفصل بين التقدم المادي في علوم الطبيعة والكون وبين الحق في العقائد والقيم والأخلاق، وهذا عنده يرتبط بذاك، لأن التفرقة بينهما لا يرتقي إليها إلا وعي كونه الوحي.

فإليك هذه التفرقة واضحة حاسمة، نذكرك بها، لتعلم الفرق بين العقل الذي يسري فيه الوحي والعقل الفارغ منه، وأن هذا لايرقى أبداً لذاك، بالغاً ما بلغ علمه ومعارفه وألقابه وشهاداته:

"في كل حالة وراء كلمة التقدم يختفي ضلال وزيغ عن الحق، ما عدا الحالات التي تشير فيها هذه الكلمة إلى كشوف مادية أو علمية، إذ ليس هناك الا تعليم حق واحد، ولا مجال فيه للتقدم. إن التقدم كفكرة زائفة يعمل على تغطية الحق، حتى لا يعرف الحق أحد غيرنا نحن شعب الله المختار الذي اصطفاه ليكون قواماً على الحق"[2]

السير جيمس فريزر الذي تحكمه سيرة البشر في التحريف كيف بدأت على الأرض، لم يرتق وعيه إلى أن يفطن أن التقدم في الزراعات والصناعات والتقنيات، وما يرتبط بها من تيسير حياة البشر، وسيلته تجارب الإنسان

---

١) سير جيمس فريزر: الفلكلور في العهد القديم، ص٢١.

٢) محمد خليفة التونسي: بروتوكولات حكماء صهيون، ص٩٤.

وخبراته وما يتوارثه، أما العقائد والقيم والأخلاق فليس فيها إلا الحق والباطل، ولا مجال لمعرفة وجه الحق هذا إلا من مصدره، فإن افتقد الإنسان المصدر فليس إلا الباطل، ولن يصل إلى الحق بتجاربه وخبراته ولو بعد ملايين السنين، وسوف يستوي من صعد إلى القمر مع من كان يعبده.

ما لم يصل إليه وعي السير جيمس فريزر، وما كان أن يصل إليه، لا هو ولا أحد غيره من غير الوحي، أنه هو نفسه يرى الوجود ويفهم التاريخ ويستنبط من سيرة بني إسرائيل ما أرادوا هم له وللبشر جميعاً أن يروه ويفهموه ويستنبطوه!

لأن خريطة الوجود البني إسرائيلية، هي نفسها، ترسخ في ذهن من يتكون بها أن الإنسان ظهر على الأرض مقطوع الصلة بالإله، إن كان ثَمة إله أصلاً، وأنه مصدر علم نفسه، وهو الذي ابتكر أخلاقه وقيمه، وهو الذي كون عقائده وأفكاره، فقد افترض جيمس فريزر، كما افترض ويفترض أمثاله في الغرب وذيولهم في الشرق، أن قصة الخلق أسطورة محض، كونت عناصرها عقول القبائل البدائية وخيالاتهم، ثم جمع بنو إسرائيل هذه المكونات من القبائل الوثنية ولفقوا منها القصة.

لذا كان منهج فريزر الرئيسي، كما رأيت عند ديورانت من قبل، التنقيب عن مكونات خريطة الوجود البني إسرائيلية في ما وصل إليه من فلكلور القبائل والشعوب السابقة على بني إسرائيل، أو في ما وجده من معتقدات وطقوس في القبائل المعزولة عن المدنية التي عثر عليه المستكشفون في إفريقيا وآسيا واستراليا ونيوزيلندا.

ولكن جيمس فريزر وهو ينقب عن آثار معتقدات القبائل البدائية والمعزولة في المسرحية، كما يسميها، سدت طريقه صخرة هائلة، ينهار عمله كله من غير إزاحتها، فقد أعياه أن يعثر على أثر لشجرة المعرفة التي نُهي الإنسان الأول عن الأكل منها، والتي هي صُلب المسرحية والمحور الذي تدور كل تفاصيلها من حوله.

وها هنا آب فريزر إلى المغارة التي يأوي إليه كل من تحكم وعيهم وما يتكون فيه وما ينتجه خريطة الوجود البني إسرائيلية، في كل العلوم والمعارف، ليموهوا فرضياتهم داخل ظلامها، ويسدوا الفجوات التي في نظرياتهم بغبارها، ويوهمون من يقدمونها لهم أنها حقائق، فهي المغارة التي لُفقت في ظلامها الليبرالية والعقد الاجتماعي، وسُدت بغبارها ثقوب الداروينية والماركسية.

لمَّا عجز جيمس فريزر عن العثور على مادة يجعلها أصلاً لشجرة المعرفة، انتقل إلى التخمين وضرب الودع والافتراضات التي لا دليل عليها.

خمن فريزر أن أصل المسرحية حكايتان تم دمجهما معاً، دون أن يقدم دليلاً على أي منهما، إحداهما كانت تدور حول شجرة المعرفة، والأخرى صلبها شجرة الحياة، ثم افترض، من غير برهان أيضاً، أن من كتب المسرحية ومزج بين الحكايتين لم يكن ماهراً، فاحتفظ بحكاية شجرة المعرفة كما هي، واختصر حكاية شجرة الحياة اختصاراً أفقدها معالمها.

ثم خمن، مرة ثالثة، أن شجرة الحياة:

"لم تلعب في الحكاية الأصلية هذا الدور المثير السلبي الصرف الذي لعبته في هذه الحكاية"[1]

وهكذا، وبالتخمين وضرب الودع، أزاح فريزر صخرة شجرة المعرفة التي لم يعثر لها على شبيه، ولم يستطع أن يجد ما يفسر به وجودها، وأحل محلها في موضع الصدارة من مسرحية بني إسرائيل شجرة الحياة، ليفسر هذا الموضع، وبالتخمين أيضاً، بأن:

"الهدف من حكاية السقوط، فيما يبدو، هو محاولة لتفسير فناء الإنسان، ولتقديم السبب الذي من أجله أصبح الموت جزءًا من كياننا الدنيوي"[2]

فرضيات جيمس فريزر وأضرابه من الأميين ممن حُرموا علم الوحي، ووعيهم تحكمه خريطة بني إسرائيل للوجود، أن هذه الخريطة ليس لها أصل حقيقي، وأن مادتها وعناصرها ابتكار صنعته تصورات القبائل والشعوب البدائية وخيالاتها، وأن بني إسرائيل جمعوا هذه المادة والمكونات وصنعوا منها مسرحيتهم عفواً وتأثراً بتراث من سبقوهم أو من عاصروهم.

وفرضيات هؤلاء الأميين، وما وصلوا إليه من نتائج، كلها خاطئة ومقلوبة، فإليك كيف ستكون الفرضيات والنتائج بإدخال الوحي مصدراً للمعرفة في المسألة، وضابطاً وسقفاً أعلى لها.

المسرحية التي صنعها بنو إسرائيل لها أصل حقيقي، هو خريطة الوجود الإلهية التي استودعهم عز وجل إياها وكلفهم هداية الأمم إليها وإرشادهم بها،

---

١) الفلكلور في العهد القديم، ص٤٩.
٢) الفلكلور في العهد القديم، ص٤٩.

وبنو إسرائيل عبثوا بأصل هذه الخريطة وحرفوا العلاقات بين مكوناتها عمداً وقصداً من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، لكي يحتكروها ويضللوا البشر عنها، والطائفة منهم التي تعمدت ذلك تعرف الحق وتحوز الأصل وتتوارثه، وهو معها وأنت تقرأ ما نقوله لك عنها الآن، وسوف يظل معها إلى يوم القيامة، ووجود عناصر من قصة الخلق في تراث القبائل والشعوب المختلفة هو مما بقي من آثار الحق الأول، ومن آثار النبوات والرسالات قبل بني إسرائيل، وما في هذه العناصر من وثنيات وأساطير وخرافات هو من تحريفات هذه القبائل والشعوب للأصل، أو زيادات ألحقتها به، وما أخذه بنو إسرائيل من هذه الوثنيات والأساطير استعانوا به لملء الفجوات التي صنعها عبثهم بالأصل.

والآن نجيبك على السؤال.

بنو إسرائيل صنعوا خريطتهم للوجود من مادة الخريطة الإلهية ومكوناتها، فالذي فعلوه عمداً ليس ابتكار عناصر المسرحية، بل العبث بمكونات قصة الخلق الأصلية، عبر طمس حقائقها وتغيير صفاتها وتبديل العلاقات بينها.

فالإله، في خريطة الوجود الإلهية، جعلوه كبيراً لآلهة، والشجرة التي لا نوع لها في الأصل حددوه، والمعرفة التي هي هبة الإله للإنسان جعلوها نوع هذه الشجرة التي حرَّمها الإله وثمرتها، والشيطان الذي هو عدو الإنسان صيروه مرشده وهاديه إلى المعرفة، والخُلد الذي أغوى به الشيطان الإنسان جعلوه حقيقة وغرسوا له شجرة، والمهمة التي خلق الإله الإنسان من أجلها حجبوها، والوحي والإرشاد الذي زوده به أزاحوه، والأرض التي أهبطه إليها ليبدأ فيها مهمته حولوها إلى منفاه.

حجْب بني إسرائيل لخريطة الوجود الإلهية، وعبثهم بها عمداً، حوَّل الوجود إلى متاهة لا معالم لها، ولا إرشاد فيها، ضلت أكابر العقول وأعاظم الأمم والشعوب وهي تبحث عن تفسير لها أو مخرج منها.

أبناء التحريف وأتباع بني إسرائيل

الليبرالية والعقد الاجتماعي:

في خريطة الوجود المزورة أن الإنسان وُجد على الأرض مطروداً من الإله مغضوباً عليه، وما أراد بنو إسرائيل بثه بذلك في أذهان البشر وترسيخه في نفوسهم، أن الإنسان هبط إلى الأرض مستقلاً عن الإله، مفارقاً له، غير مكلف بشئ، وليس عليه التزام بشئ، فلم يزوده الإله بإرشاد وهدي، ولا ضوابط ولا قواعد في أي شئ، لا السلوك والعلاقات، ولا الأخلاق والقيم، ولا النظم والشرائع، بل ولا الأفكار والعقائد.

فالإنسان في خريطة الوجود البني إسرائيلية هو الذي صنع على الأرض قوانينه وعلاقاته وهو الذي وضع ضوابطها، وهو الذي حدد بنفسه ما هي قيمه وأخلاقه، وهو الذي ابتكر أنظمته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بالتجربة والخطأ والتصويب، وهو الذي كون أفكاره وعقائده مما أحاط به من ظروف وملابسات وأعطاها شكلها وقوتها بالتراكم والتوارث.

غاية بني إسرائيل من العبث الذي عبثوه بخريطة الوجود أن يغرسوا في وعي البشر ونفوسهم أن أفكار الإنسان وعقائده، وأخلاقه وقيمه، وأنظمته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كلها كانت ابتكارات هو الذي ابتكرها بعقله وحواسه، ووصل إليها بتجاربه، في استقلال تام عن الإله ووحيه وهديه.

والبذرة التي غرسها بنو إسرائيل في وعي البشر وأذهانهم ونفوسهم بخريطتهم للوجود، هم من كانوا طوال التاريخ يروونها ويتعهدونها، في هذا الوعي وهذه الأذهان والنفوس، عبر الحركات السرية.

فبهذا الري والتعهد، انبثقت من هذه البذرة الليبرالية وفكرة العقد الاجتماعي وضرورة وضع دستور.

فإذا تساءلت كيف ؟

فالإجابة: لأن هذه المذاهب والأفكار كلها معناها أن الإنسان حر حرية مطلقة، فليس عليه التزام بأخلاق ولا قيم، ولا تقيده قواعد ولا ضوابط، فما أعجبه وارتضاه، وماتخلق به من أخلاق وقيم، هو حر فيه، والقواعد والضوابط هو الذي يضعها ويحد حدودها في المجتمع بالاتفاق، وفي تحرر من إرشاد الوحي وقواعد الدين وضوابطه.

والدستور، الذي هو أحد آثار عبث بني إسرائيل بخريطة الوجود، والذي تم وضع معادلاته وضبط تفاعلاته ونواتجه طبقاً للمواصفات اليهودية وفي معامل الماسون، أصل فكرته وفلسفته أن قوى المجتمع، أو ممثليه، سوف يتفقون في لحظة معينة على القواعد التي ستحكم هذا المجتمع، لأنه لا قواعد ولا ضوابط سابقة على الاتفاق، وهو ما يعني أنه لا ثوابت ولا معايير ولا موازين.

فالأبالسة ابتكروا فكرة الدستور وصنعوه في معاملهم، لتكون إحدى وسائل إزاحة مسألة الألوهية ونفي الوحي، إذ حتى لو تم وضع الشرائع في صُلب الدستور، فالمعنى الحقيقي الذي سوف يسري في وعي البشر أن الدستور هو

الذي حدد القواعد وأباح الشرائع وقبِل بها ضمن قواعده، كما أنه يمكنه أن يمنعها ويخرجها منها.

فالبشر هم من وضعوا النظام وقعَّدوا قواعده، وبالاتفاق لا بالوحي هم الذين قبلوا الشرائع ومنحوها موضعها من النظام، وهم من يرفضونها، فيصير البشر بذلك فوق الإله، ودساتيرهم أعلى من وحيه.

وكما ترى، غاية بني إسرائيل من العبث بخريطة الوجود تتدسس وتتسرب في كل ما يتكون بها وتفرزه، وفي كل ما يصنعونه بها.

فإليك الوجه الآخر لمن عرفهم العالم آباءًا لليبرالية والعقد الاجتماعي والدساتير، وما هم بآبائها، فآباؤها الحقيقيون هم من كونوا وعي هؤلاء بخريطتهم للوجود، وصنعوا أدمغتهم في المعامل التي أنشأوها لذلك وعبأوها طبقاً لمواصفاتهم القياسية.

فولتير Voltaire، أشهر أعلام الليبرالية ورموزها في التاريخ، كان عضواً في محفلين:

"محفل كارلوتنبرج Krlottenberg في برلين في ألمانيا، ومحفل الأخوات التسع Loge des Neuf Soeurs في باريس"(١)

وكتب وهو في الثمانين من عمره أنه يتمنى ألا يموت قبل أن يرى هيكل أورشليم قائماً!

1) Nesta Webster:Secret societies and submersive movemens,P399.

فالليبراية عند من ابتكروها لم تكن سوى إحدى أدوات تغيير عقل العالم وتفريغه وتحويل مساره، من أجل إعادة ملئه بغاية بني إسرائيل ودفعه في اتجاهها!

والعقد الاجتماعي وفكرة الدستور، كان خلف ظهورها وفلسفتها والتنظير لها جون لوك، وجان جاك روسو.

فأما الإنجليزي جون لوك Jhone Locke فكان عضواً في حركة الروزيكروشيان أو الصليب الوردي Russicrucian، وهي توأم الماسونية وأختها الشقيقة.

وأما السويسري جان جاك روسو Jean Jacque Rousseau فكان عضواً في محفلين، الأول: هو الشرق الأعظم الفرنسي Grand Orient.

وأما الثاني، فيخبرك به ألبرت بايك، وهو يعرفك كيف تم دفع فرنسا نحو الثورة، ومنه تعرف المعمل الذي صُنعت وعُلِّبت فيه نظرية العقد الاجتماعي من أجل إزاحة مسألة الألوهية من وعي البشر ومن معمار العالم بالدولة القومية، وتعرف مَن الذي كان خلف الثورة الفرنسية التي علمنت الغرب وأخرجت مفتاح التصنيف البني إسرائيلي من التوراة إلى بلدانه وخرائطه:

"وبإشراف روسو وتحت رعايته، صار محفل عصبة جنيف Fanatic of Geneva **مركز الحركة الثورية في فرنسا"**[1]

فإليك ماذا يكون العقد الاجتماعي أو الدستور، وما المراد منه.

---

1) Morals and dogma, P823.

بدأ روسو الفصل الأول من كتابه: العقد الاجتماعي Social Contract بهذه العبارة:

"يولد الإنسان حراً، ويوجد مقيداً In chains في كل مكان"(١)

ويغنيك عن أن نشرح لك ما الذي يعنيه روسو بهذه العبارة، التي تكاد تخلب عقلك، أن تعرف اسم الفصل الذي يليها والذي جعلها مدخلاً له، واسمه: المجتمعات الأولى!

فها قد أدخلك روسو العقد الاجتماعي من بوابة خريطة الوجود البني إسرائيلية، أن الإنسان ولد حراً، معزولاً عن الإله وإرشاده، ليس عليه تكاليف ولا التزامات تجاه الآخرين، ولا تحكم علاقاته بهم أي قواعد أو ضوابط، لأن:

"هذه الحرية العامة هي نتيجة طبيعة الإنسان Nature of man، وقانون الإنسان الأول هو أن يُعنى ببقائه الخاص، وواجبه تجاه نفسه هو ما يحرص عليه"(٢)

ثم بعد أن يسير بك روسو رحلة طويلة يُنظِّر فيها للعقد الاجتماعي، وما يترتب عليه في الدولة من نظم ومؤسسات، وللأفراد من حقوق وما عليهم من واجبات، يصل بك إلى الغاية من عقده الاجتماعي، وهي الغاية التي يغنيك عنوان الفصل الذي يحملها عن قراءة تفاصيله، وغاية روسو وعنوان الفصل:

الدين المدني Civil Religion !

---

١) جان جاك روسو: العقد الاجتماعي، ص١٩، Jean Jacque Rousseau:The Social Contract,P5.

٢) العقد الاجتماعي، ص٢٠، The Social Contract,P6

فالعقد الاجتماعي ليس سوى وسيلة روسو لإلغاء رابطة الدين والعقائد بالرابطة القومية العلمانية، وإحلال الدولة القومية التي تحكم باسم الشعب محل دولة الإيمان التي تحكم باسم الإله.

الدولة التي أقامها روسو بعقده الاجتماعي، كما وصفها هو، هي التي:

"تجعل من الوطن موضع عبادة المواطنين ... ويُعترف فيها بعقائد ديانة مدنية خالصة، تُعيَّن موادها، لا كعقائد الدين بالضبط، بل كمشاعر اجتماعية Social Sentiments يتعذر على الواحد بغيرها أن يكون مواطناً صالحاً، ويقدر الحاكم أن يُبعد من الدولة كل من لا يعتقدها، لا كملحد، بل كنافر عاجز عن أن يحب القوانين، وإذا سار أحد كغير مؤمن بهذه العقائد، بعد ان أقر بها، يعاقب بالموت"[١]

غاية روسو الحقيقية من عقده الاجتماعي هي إزاحة مسألة الألوهية والرسل والأنبياء والوحي والشرائع بالدولة وأبطالها وزعمائها وقوانينها ودستورها الذي هو دينها المدني، وأن تكون هذه بديلاً لتلك.

فبعد أن أبحر روسو من بوابة بني إسرائيل، طاف بك في سراديب ودهاليز يذهل عقلك عن حقيقتها بزخرف العبارات التي يصفها بها، ثم عاد ليرسو بك في النهاية ويستقر مرة أخرى على خريطة بني إسرائيل، التي ينحصر تكوينه داخلها ولا يعرف غيرها، وتتحكم في وعيه وفي كل ما يتخلق فيه وينتجه.

---

١) العقد الاجتماعي، ص١٧٧، The Social Contract,P121.

وسيرة الرجل الذي اكتملت على يديه صياغة العقد الاجتماعي وفكرة الدستور، هي نفسها من آثار نفي بني إسرائيل للوحي والإرشاد الإلهي، وقطع العلائق بين الإنسان والإله.

في كتابه: العقد الاجتماعي، ولكي يُغيِّب وعي من يكتب لهم، ويدق عَقْده الاجتماعي في رؤوسهم، ويزيح منها مسألة الألوهية والوحي، يمجد روسو الفضائل الاجتماعية التي يقر بها الدين المدني الذي ابتكره، والتي يكون بها المواطن صالحاً.

فاعلم أن سيرة المرء هي الترجمان الحق لأفكاره، وليس زخرف القول، ولا معسول الكلام، ولا بهرج النظريات، التي هي وسائله في التضليل وحشو العقول بالأباطيل، ليس إلا.

فإليك من سيرة روسو، التي كتبها هو نفسه، ما تعرف به حقيقته، ولماذا كان العقد الاجتماعي والدين المدني هما الإخراج الطبيعي لهذ الشخص وهذه السيرة.

فهذا الذي تراه في: العقد الاجتماعي وقوراً رصيناً، يتكلم عن الفضائل ويُضلل البشر عن أنها لم يعد لها مصدر ولا معنى بعد إزاحة الإله والوحي من وعيهم، هو نفسه في كتابه: اعترافات The Conffessions، يروي لك عشرات الحكايات عن مغامراته الجنسية، وعلاقاته بالسيدات، وإغوائه للفتيات، وركوعه امام العاهرات!

ثم إليك من كتابه هذا، ما تعرف منه كيف نبتت في رأسه بذرة انفصال القيم والأخلاق والعلاقات الاجتماعية والنظم السياسية عن الوجود الإلهي، ثم ظل يرويها ويتعهدها إلى أن أثمرت العقد الاجتماعي والدين المدني.

كان روسو حائراً مضطرباً قلقاً، وسبب حيرته وقلقه تشككه في الوجود الإلهي، وفي الوقت نفسه عدم قدرته على طرحه من نفسه وإخراجه منها إخراجاً كاملاً، مع إلحاح فكرة الخلاص عليه.

وهذا التمزق هو نفسه إحدى ثمار خريطة الوجود البني إسرائيلية، التي تقول إن الإله موجود وتروي كيف خلق الإنسان، ولكن العبث الذي تعمده من عبثوا بها يدس في أذهان البشر، من خلال مضمونها والفحوى الحقيقية لتفاصيلها وحبكتها وصفات الإله فيها، أن الإله غير موجود، وأنه ليس إلا ابتكار من كتبها.

وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وكان إذ ذاك منغمساً في الملذات والفواحش، مرض روسو مرضاً طال وثقل عليه، فانتقل إلى الريف، ثم، وهو جالس أمام بضع أشجار يقذفها بأحجار يلتقطها من الأرض، انقبض قلبه وهو يتذكر حياته اللاهية، وانزعج من أن يكون قد فاته الخلاص، وانتابه الخوف من أن يكون مصيره الجحيم.

وها هنا ومضت في عقله تجربة يجريها، ويعرف منها إن كان ناجياً من الجحيم أم فاته الخلاص.

فإليك روسو نفسه يروي لك تجربته، التي وصل بها إلى ما يخرجه من حيرته وتمزقه، ويريح عقله ونفسه، وبدأ منها عقده الاجتماعي:

"وهنا ومضت في عقلي فكرة، سأقذف الشجرة التي تواجهني بحجر، فإن أصبتها فأنا من الناجين، وإن أخطأتها فقد حاقت بي اللعنة، وبيد مرتعشة وقلب يرتجف قذفت الحجر، ولسعادتي أصاب الحجر الشجرة في جذعها، وفي الحقيقة لم يكن ذلك عسيراً، فقد صوبت نحو شجرة غليظة الجذع وقريبة مني، ومنذ ذلك الحين لم اعد أشك في خلاصي Never doubted of my salvation"[١]!!

فالنتيجة التي وصل إليه روسو من تجربته العلمية المعملية الفذة، وجعلها محور عقده الاجتماعي وصلب دينه المدني، هي أنه إذا كان الإله موجوداً، فلا حرج على الإنسان أن يفعل ما يشاء، ولا إثم عليه أن يشبع غرائزه ويسير خلف هواه!

---

1) Jean Jacques Rousseau: The Conffessions، P99.

الداروينية والماركسية

ومرة أخرى، لا تتعجب حين نخبرك أن الماركسية والحتمية الاجتماعية والتاريخية ليست سوى فرع من الجذر البني إسرائيلي نفسه الذي نبتت منه الليبرالية والعقد الاجتماعي!

الليبرالية والعقد الاجتماعي، والماركسية والحتمية الاجتماعية، ليستا نقيضتين لا يلتقيان، كما تبدوان لك، أو كما يتعمد عالم التحريف أن يوهمك، لكي يكون وعيك واختيارك محصوراً بينهما، فهما فرعان من أصل واحد، وهما معاً نقيض للوجود الإلهي والوحي.

فكرة أن الإنسان بدأ مسيرته على الأرض مفارقاً للإله، وبلا وحي ولا إرشاد إلهي، وأنه هو الذي كون أفكاره وعقائده، وابتكر أخلاقه وقيمه، ووضع ضوابط علاقاته، وأقام أنظمته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية متأثراً بالظروف والملابسات التي أحاطت به وبمسيرته، التي أنتجت جان جاك روسو وعقده الاجتماعي، هي نفسها التي أفرزت الماركسية والحتمية التاريخية.

نظرية التطور البيولوجية هي بديل الإنسان الذي يفسر به وجوده على الأرض بعد استبعاد الوجود الإلهي والخلق الإلهي، ونظرية التطور الاجتماعية هي بديل الإنسان الذي يفسر به كيف تكونت قيمه وأخلاقه وعلاقاته ونظمه بعد نفي الوحي والإرشاد الإلهي، وهما معاً الفحوى الحقيقية لخريطة الوجود البني إسرائيلية، وغاية بني إسرائيل من طمس خريطة الوجود الإلهية الحقيقية.

ونظرية التطور البيولوجية، وامتدادها في الماركسية والحتمية الاجتماعية والتطور التاريخي، تكونتا وخرجتا معاً من معمل واحد من معامل بني إسرائيل لتصنيع أدمغة البشر وتعليبها.

فأما تشارلز دارون Charles Darwin، فكان عضواً في محفل كيلْوِننج الثاني Kilwining lodge No.2 في اسكتلندا، وهو المحفل الذي كان من أعضائه أبوه وإخوته جميعاً، لأن جده إرازموس دارون Erazmos Darwin كان أستاذه الأعظم.

والمغارة التي هبط على دارون فيها وحي بني إسرائيل، وفيها انقدحت شرارة التطور في رأسه وصاغ نظريته، هي محفل إنجلترا الأعظم

وأما كارل ماركس Karl Marx وفريدريك إنجلز Frederick Engels، آباء الماركسية، فهما أيضاً من أبناء خريطة الوجود البني إسرائيلية، ومن مادتها ومكوناتها صاغا الماركسية ونظَّرا للحتمية التاريخية والاجتماعية، وفي المعمل نفسه، محفل إنجلترا الأعظم.

فإليك نموذجاً واحداً تتفجر من جوانبه آثار خريطة الوجود البني إسرائيلية في الماركسية.

خريطة الوجود الإلهية ثمرتها أن الإنسان اهتدى في كل شؤونه وعلاقاته بالوحي الإلهى، وأن الله عز وجل هو الذي أرشده إلى أن العلاقة بين الرجل والمرأة لا تكون صحيحة إلا عن طريق الزواج، وأن وحدة بناء المجتمع البشري هي أن يعيشا معاً وينجبا أبناء من خلال تكوين أسرة.

أما في خريطة بني إسرائيل، فالإله ترك الإنسان يبدأ مسيرته هائماً في الأرض، ولذا فالزواج وتكوين الأسر ابتكار اضطر إليه الإنسان بحكم ما أحاط به من ظروف وملابسات في مرحلة من مراحل تطور البشرية.

والثمرة الحقيقية لما فعله بنو إسرائيل أنه ليس من حق أحد أن ينكر على أحد، لأنه لا قواعد ملزمة، ولا معيار للتمييز، ولا ميزان للعقل، وما ابتكره إنسان يمكن ان يبتكر إنسان آخر غيره ويغلفه في معسول الكلمات وزخرف النظريات.

فإليك ثمرة عبث بني إسرائيل بخريطة الوجود مكتملة ناضجة في البيان الشيوعي:

"نعم، إننا نسعى إلى محو الأسرة، فهي تعتمد على المال والربح الشخصي، ولا توجد إلا في الطبقات البرجوازية، فهل نُلام على أننا نريد أن نمحو استغلال الآباء للأبناء، نحن نفخر بذلك، ونقول: إننا نمزق هذه العلائق لنستبدل بالتربية العائلية التربية الاجتماعية، إن الشيوعية لا تبتكر هذا التدخل في التربية، فالناس تخضع للظروف الاجتماعية، وتربي أولادها بواسطة المجتمع وبمعاونة مدارسه، نحن نريد فقط أن نغير من وجهة التعبير الاجتماعي، وأن ننتزع الأسرة من براثن الطبقة الحاكمة"[1]

---

١) كارل ماكس وفريدريك إنجلز: البيان الشيوعي، ص٤٣.

مسألة الألوهية

علمت من قبل أن الغاية الحقيقية التي عبث من أجلها بنو إسرائيل بخريطة الوجود الإلهية، بل ولكل ما حرفوه من الوحي، هي طمس مسألة الألوهية في وعي البشر، لكي يحتكروا الإله والوحي.

فخريطة بني إسرائيل للوجود تقول إن الإله موجود، لكنها بمكوناتها وبنائها تغرس في وعي من يتكون بها أن الإنسان هو الذي خلق الإله بذهنه، وأنه هو الذي ابتكر أفكاره عن الإله وعقائده في الألوهية.

فإليك البرهان.

للمؤرخ البريطاني جيمس هنري برستد كتاب افتتن به بعض الأميين من المصريين، ممن ضربت تكوينهم ووعيهم الجرثومة البني إسرائيلية، لأنه قال فيه إن الضمير الإنساني انبثق فجره في مصر.

وكتاب برستد: فجر الضمير نموذج مثالي ومتكامل على آثار الجرثومة التي أطلقها بنو إسرائيل في وعي البشر وفي فهمهم للوجود، وعلى تكوُّن علومهم ومعارفهم بماء التحريف.

فالمؤرخ البريطانى قارن بين أنشودة أخناتون والمزمور الرابع بعد المائة، وأيضا بين أمثال الحكيم المصرى القديم أمينوبى وسفر الأمثال في العهد القديم، وبين أمينوبى وكلام النبى إرميا فى السفر المسمى باسمه، وبينه وبين موسى التوراتي فى سفر العدد.

وما أراد برستد أن يصل إليه من هذه المقارنات أسبقية العقائد والثقافة والأخلاق المصرية القديمة على التراث العبري، وتسربها إليه، وظهورها وتأثيرها فى عقيدة التوراة والعهد القديم وأخلاقها وقيمها، ومن ثَم إسهام الفكر والعقائد المصرية القديمة في تكوين الغرب أو الحضارة اليهودية المسيحية.

وما لم يفطن إليه الأميون، ممن دغدغ كلام برستد مشاعرهم القومية المراهقة وغيب وعيهم، هو أن برستد يتعامل مع التوارة التي أمامه كتراث أدبي وفكري وتاريخي للجماعات العبرانية، وليس كوحي سماوي.

فبرستد في: فجر الضمير يقوم بعملية بحث وحفر وتنقيب من خلال الطبقة اليهودية الإسرائيلية عما جعله عنوانا للفصل الأخير فى كتابه: **"مصادر إرثنا الخلقي"**، لكي يعود بجذور عقائد الغرب وأخلاقه إلى أقدم ما وصل إليه من نصوص مكتوبة.

فلن تحتاج وأنت تقرأ الكتاب إلى من ينبهك أن ما يقصده برستد ويبحث عنه هو: **"مصادر إرث الغرب الخلقي"**.

والنتيجة التى وصل إليها برستد هي إحدى ثمار التفسير التطوري للعقائد، وهو المسلمة والفرضية الرئيسية التي أقام عليها كتابه.

فهذا هو فهم برستد لكيف عرف الإنسان الأخلاق وقواعد الاجتماع:

"الواقع إن نهوض الإنسان إلى المُثل الاجتماعية قد حدث قبل أن يبدأ ما يسميه رجال اللاهوت بعصر الوحي بزمان طويل، وأن هذا النهوض نتيجة الخبرة الاجتماعية التي مارسها الإنسان بنفسه، ولم يُزج إلى هذا العالم من

الخارج ... وأفكار الإنسان الأول الخلقية أتت نتيجة لخبرته الاجتماعية الشخصية"[1]

برستد، كما ترى، بعد أن أكد على نفي الوحي، حوَّل الأخلاق وقواعد الاجتماع والعلاقات بين البشر إلى ابتكارات، هم من ابتكروها.

فإذا أردت أن تعرف من أين جاء برستد بهذا الذي قاله، فها هو يخبرك بنفسه:

"ليس من عالم مفكر إلا ويشعر بقوة العهد القديم والدور الأساسي الهام الذي لعبه في تقدم المدنية الغربية، غير أنه يجب علينا أن نعترف أيضاً أن كتاب العهد القديم لا يخرج عن كونه سجلاً لتجارب البشرية القديمة"[2]

وأما النبع الذي أفسد عقل برستد، وما ينهمر منه هو الذي يتدفق في وعيه، ويتحكم في كل ما يتكون فيه من فهم للوجود، وما ينتجه من أفكار ونظريات عن العقائد والأخلاق والاجتماع، هو ومن على شاكلته جميعاً، ليس سوى جرثومة بني إسرائيل التي أطلقوها في وعي البشر، ورسخوها بسيرتهم وسلوكهم في عالمهم.

يقول برستد:

"ولقد كان سير الإسرائيليين من عبادة آلهة عدة إلى عبادة إله واحد لجميع العالم بطيئاً وتدريجياً، حتى لقد استغرق عدة قرون"[1]

---

١) جيمس هنري برستد: فجر الضمير، ص١٣.
٢) فجر الضمير، ص٤٢٩.

برستد وصل إلى ما وصل إليه وجعل الألوهية والتوحيد ابتكارات ابتكرها الإنسان خلال مسيرته على الأرض، لأنه يرى الوجود ويفهم الحياة والتاريخ والعقائد والاجتماع من خلال خريطة بني إسرائيل للوجود، التي طمسوا فيها مسألة الألوهية وموهوها بتلفيقات، حولت الوجود الإلهي من حقيقة إلى أحد ابتكارات الإنسان، وجعلت الإنسان خالقاً لخالقه.

١) فجر الضمير، ص٣٧٨.

من تعاليم النص إلى عالم النص

الغرب كله، وكل ما أنتجه تكوَّن في الحقيقة بخريطة الوجود البني إسرائيلية، ومن فحواها ومضامينها ومكوناتها، ومن آثارها وإفرازاتها وما ترتب عليها، يستوى في ذلك من علم بهذه القصة ورُبي عليها، ومن لم يعلمها ولم يرها أو يقرأها مطلقاً.

فمن علمها تكون بعلمه بها وما تغرسه في وعيه ونفسه من أفكار، وفي تكوينه من مفاهيم وفهم للوجود ومكوناته والعلاقة بينها، ومن لم يعلمها تكون بآثارها في وعي رموز الغرب ومَن كونوا وعيه وتاريخه، ومِن سريانها في ما أنتجوه من مناهج ونظريات وفلسفات، ومن علوم وآداب وفنون، وفي ما أقاموه من نظم سياسية وقوانين، وما أنشأوه من مؤسسات إعلام وتعليم.

الغرب الحديث تكون بالنص وعليه، وليس باسقاط النص كما توهم وما زال يتوهم العلمانيون في بلاد العرب، وكما يعتقد من ينتقدونهم من الإسلاميين.

وكل رموز الغرب وأعلامه، في مختلف المجالات والعلوم والمعارف والفنون، كانوا أبناء النص وليسوا أبناء سقوط النص، وكلهم تكونوا بخريطة الوجود البني إسرائيلية، وبمحاكاة سيرة البشر في التوراة(•)، وكلهم كانوا من أبناء الحركات السرية، تربوا وتكون وعيهم وعقولهم ونفوسهم في أحضانها، وتم صياغتهم في معاملها.

(•) التوراة هي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، والمقصود بها هنا العهد القديم كله، من باب إطلاق الجزء على الكل.

الذي سقط في الغرب في الحقيقة ليس النص، الذي سقط وتم إزاحته من وعي الغرب الحديث هو الكنيسة ومسألة الألوهية.

وقد يبدو لك هذا شيئاً غريباً ويحتاج إلى تفسير، كيف تكوَّن رموز الغرب وأعلامه ومن كونوا وعيه ورسموا ملامحه وسماته بنص مقدس يقول إن الإله موجود، وفي الوقت نفسه أُسقط من وعيهم وتكوينهم مسألة الألوهية؟

تفسير ذلك أن رموز الغرب وأعلامه ومن كونوا مساره وصنعوا تاريخه تكونوا بعالم النص وليس بتعاليم النص.

وبين تعاليم النص وعالم النص بون شاسع يحتاج إلى تجلية.

التوراة وسائر أسفار العهد القديم تحوي تعاليم وأوامر وإرشادات منسوبة للإله على ألسنة أنبياء بني إسرائيل، ولكن نص التوراة والعهد القديم الذي يحمل هذه التعاليم والأوامر والإرشادات، هو في حقيقته سيرة بني إسرائيل أو رواية تحكي تاريخهم، وهذه التعاليم تُروى في ثنايا تلك السيرة، ومن خلال شخوصها وأبطالها وأخلاقهم وسلوكهم وما بينهم من علاقات.

فتعاليم العهد القديم محمولة على سيرة بني إسرائيل، وتصل إلى المؤمن بها متناثرة من خلال أقوال أنبيائهم، وهذه السيرة هي بالضبط نقيض تلك الأقوال والتعاليم!

فتعاليم التوراة تنهى عن الزنى والسرقة والقتل والخيانة، وعالم التوراة وسيرة أبطالها ليست سوى خروج على هذه التعاليم ونقض لها.

فالوصايا العشر التي أوصى بها موسى بني إسرائيل يأمرهم فيها الإله:

"٣لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي... ١٣لاَ تَقْتُلْ. ١٤لاَ تَزْنِ. ١٥لاَ تَسْرِقْ. ١٦لاَ تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ. ١٧لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ"[1]

ولكنهم في عالمهم وحياتهم وسيرتهم التي كتبوها ونثروا بين تفاصيلها هذه الوصايا، افتروا على نبي الله سليمان عليه السلام أنه جرى خلف آلهة زوجاته الوثنيات وقدم لها القرابين، وعلى نبي الله لوط عليه السلام أنه زنى بابنتيه، وعلى نبي الله يعقوب عليه السلام أنه غرر بأخيه عيصو وسرق منه البركة وحق البكورية، وعلى نبي الله داوود عليه السلام أنه أرسل أوريا الحثي، أحد قواد جيشه، للهلكة، بعد أن زنى بامرأته لأنه يشتهيها ويريدها.

وتعاليم النص وأوامره هي الدين والكنيسة، وعالمه وسيرة أبطاله وشخوصه هي العلمانية والحركات السرية.

والذي حدث في الغرب حقاً أن الحركات السرية كانت تكافح وتستفرغ وسعها عبر التاريخ وتصارع الكنيسة، من أجل أن تنقل الغرب من تعاليم النص إلى عالم النص، لتكوّن أهله بمحاكاة سيرة أبطاله ورموزه من بني إسرائيل في أخلاقهم وسلوكهم وما يحكم حركتهم وعلاقاتهم من قواعد وضوابط.

وما تمكنت الحركات السرية من تتويج كفاحها عبر التاريخ به، عبر تكوين الغرب الحديث بعالم العهد القديم، أزاح الكنيسة وهدم المسيحية وأسقط مسألة الألوهية من وعيه وتكوينه، وأحل محلها جميعاً بني إسرائيل وسيرتهم مقدساً مركزياً، ومحوراً يدور التاريخ حوله، ويتحرك من أجله، وفي اتجاه غاياته.

---

١) خروج: ٣:٢٠، ١٣-١٧.

الحركات السرية كانت هي القنوات التي تسلل بنو إسرائيل من خلالها في نسيج الغرب، وتمكنوا من خلالها، وبامتصاص المواهب والطاقات والعقول الخلاقة في الغرب وتكوينها في محافلها، من السريان في عقل الغرب وأعصابه وشرايينه ومن السيطرة على مقاليده ومفاتيحه.

بنو إسرائيل تمكنوا عبر الحركات السرية من استيطان عقل الغرب، وحولوه إلى آله هائلة يملكون مفاتيحها وأزرارها، أو إلى حمار يستوطنون رأسه ويمتطون ظهره، ثم بعد أن صار زمامه في أيديهم وثبوا به إلى بلاد العرب، لا لكي يستعمروها كما فهم العرب وما زالوا يفهمون، بل ليتمموا دورة الإفساد في الأرض كلها، بإعادة تكوين بلاد العرب بالتحريف عبر إعادة رسم خريطتها بمفتاح تصنيفهم للبشر القائم على الدماء والأعراق، وعبر صنع ساستها ونخبها وتكوين أذهانهم ونفوسهم بخريطتهم للوجود، ليس بتعريفهم بها وتعليمهم إياها، بل بتربيتهم على فحواها وبث مضمونها ومكوناتها وآثارها في وعيهم، وبتحويلها بسطوة السلاح والجيوش إلى واقع حي ونسيج اجتماعي، وإحلاله محل نسيج هذه البلاد الأصلي، عبر السياسات الإدارية والقانونية والإعلامية والتعليمية، وعبر القصص والروايات والأفلام والمسلسلات، وعبر وضع النخب المزورة التي صنعوها بالتحريف على رأس هذه المجتمعات وتسليمهم مقاليدها.

مرة أخرى، ما يسميه العلمانيون في بلاد العرب النهضة والعصر الحديث، وما يصمه الإسلاميون بأنه غزو ثقافي، لم يكن في حقيقته سوى غزو بني إسرائيلي، محوره وغايته إزاحة خريطة الوجود الإلهية من أذهان العرب

وإزالة آثارها في مجتمعاتهم، وإحلال خريطة الوجود البني إسرائيلية وآثارها محلها.

خريطة بلاليص ستان، كما هي الآن، بنخبها وحدودها، الخريطة العرقية القومية، خريطة يهودية مفتاح تصنيف البشر فيها المفتاح التوراتي، والدولة الوطنية القومية ليست سوى محاكاة للدولة البني إسرائيلية، وكل ما شهدته بلاد العرب منذ حملة نابليون على مصر من دول وسياسات، ومن أداب وفنون، ومن نظريات ومناهج، علمانية وليبرالية وماركسية، لم تكن سوى آثار سريان خريطة الوجود المحرفة في وعي أبنائها وسيطرتها على أذهانهم ونفوسهم، ثم تدفقها من هذا الوعي ومن هذه النفوس والأذهان إلى المجتمعات والسياسات والعلوم والآداب والفنون.

تاريخ بلاد العرب، منذ حملة الماسوني نابليون بونابرت، خلاصته إزاحة قصة الخلق القرآنية بقصة الخلق التوراتية، ومفتاح التصنيف الإلهي بمفتاح التصنيف البني إسرائيلي، وهذه هي الدورة الثانية من دورتي إفساد بني إسرائيل في الأرض كلها وعلوهم الكبير.

اختبر ذكاءك

والآن، وقبل أن نعرفك بدورة إفساد بني إسرائيل الأولى، وبطرف من آثارها، نريد أن نختبر ذكاءك، فأعد قراءة خريطة الوجود البني إسرائيلية وما عرفناك به من آثارها ومن تكونوا بها، ثم قارنه بما أتيناك به، عند خريطة الوجود الإلهية، من فهم النخب في بلاد العرب للوجود وما أنتجه هذا الفهم من أفكار وآثار، ثم اختبر ذكاءك واختر إجابة للسؤال التالى:

العلمانيون والليبراليون والماركسيون في بلاد العرب، هل هم:

١- أبناء بلاد العرب وأتباع عقائدها وتاريخها وحضارتها؟

٢- أبناء الغرب وأتباع تاريخه وصراعاته ونظرياته؟

٣- أبناء التحريف وأتباع بني إسرائيل؟

بنو إسرائيل في الشرق

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾

(النساء:٥١)

خريطة الوجود الهندوسية

الخريطة القومية للعالم، والليبرالية والعقد الاجتماعي، والداروينية والماركسية، والعلمانية والإلحاد، وتوابعها جميعاً، كما قد عرفت، هي من آثار بث خريطة الوجود البني إسرائيلية في وعي البشر وتكوينهم بها في دورة الإفساد الثانية.

فإليك الآن طرفاً من آثار حجب بني إسرائيل لخريطة الوجود الإلهية عن البشر وبث تحريفها في دورة الإفساد الأولى.

يعود أقدم نصوص الهندوسية، وهو الريج فيدا Rig Veda، إلى منتصف الألف الأولى قبل الميلاد تقريباً، ولكن العقيدة الهندوسية ظهرت واكتملت وتبلور ما يرتبط بها من شعائر وطقوس ورموز في فترة تقع بين القرن الثالث والقرن الثاني قبل الميلاد.

والهندوسية تكاد تكون ديانة باطنية خالصة، ومن غرائب الهندوسية أنها ديانة لا يُعلم لها أصل محدد، فلا يُعلم من الذي صاغ أفكارها وأسس عقيدتها، ولا من الذي ابتكر طقوسها وهيئاتها، ولا من الذي وضع نصوصها المقدسة.

فإليك أولاً نبذة عن العقيدة الهندوسية.

الإله في الهندوسية مجتمع من الآلهة لا يحصرها عدٌّ، يصفهم ول ديورانت بأنهم:

"تزدحم بهم مقبرة العظماء في الهند، ولو أحصينا أسماء هاتيك الآلهة لاقتضى ذلك مائة مجلد، وبعضها أقرب في طبيعته إلى الملائكة، وبعضها هو ما قد نسميه نحن بالشياطين، وطائفة منهم أجرام سماوية مثل الشمس..."[1]

وداخل هذا المجتمع من الآلهة التي لا تكاد تحصى، يتميز في الهندوسية ثلاثة آلهة، براهما وفشنو وشيفا، هم الآلهة العلوية والتجلي الأسمى للوجود الإلهي، وكل منهم كفء للآخر، ولا يتقدم أحدهم على صاحبيه، فهم كما يقول كبير شعراء الهندوس في القرن الخامس الميلادي كاليداسا Kalidasa:

"إله واحد يتجلى في ثلاث صور، ولا أحد منهم يوجد وحده أو ينفرد عن صاحبيه، وكل منهم أول وآخر في الثالوث المقدس Trimurti"[2]

ويقول ج. ويلكينز J. Wilkins في كتابه: الأساطير الهندية: إنه في بعض نصوص الفيدا أن:

"الإله الواحد، الذي خلق هؤلاء الآلهة الثلاثة ويتجلى في صورتهم، هو براهمان Brahman، الذي هو حقيقة سامية سرمدية، لا يحده زمان ولا مكان، ولا يعلم كنهه ولا حقيقة ذاته أحد، ولذا يسمونه أوم Aum، أي: الأسمى"[3]

١) قصة الحضارة: ج٣، ص٢٠٧.

2) Monier Williams:Hinduism,P87.

3) W.J. Wilkins:Hindu Mythology,P44

فأما براهما Brahma، فهو نفسه الإله الخالق براهمان حين يتنزل من سرمديته ويتحول من موجود سام فوق الحواس وإدراك البشر إلى موجود ظاهر ويتشكل في صورة مدركة للبشر.

وأما فشنوVishnu، فهو الإله المحب للحياة، والمحافظ على الوجود، العطوف على الإنسان، والنور الذي يهبه المعرفة ويحرسه من غضب الإله شيفا، ولأنه يحب الإنسان ويرعاه فقد يتجسد فشنو في الإنسان أو يأتي على صورته، ليعينه أو يشفيه أو يغيثه ويخلصه.

وأما شيفا Shiva، فهو قوة الهدم، التي تعمل على إفناء كل شئ، وهو من خلف كل صور التحلل في الوجود، وهو الإله القاسي على الإنسان ويكره أفكاره ويعمل على محوها وإزالة آثارها، وعلى تخريب ما تصنعه يداه.

فإذا كنت واعياً ويقظاً ربما انتبهت إلى ما بين الهندوسية والمسيحية من وجوه شبه مثيرة، بدءًا من الصور أو الأقانيم الثلاثة لإله واحد، مروراً بتجسد الإله في الإنسان أو التجلي في صورته، وصولاً إلى خلاص الإنسان من خلال هذا التجسد.

وقد تهمس لنفسك وأنت تفسر وجوه الشبه هذه: ربما يكون هذا لأن المسيحية تأثرت بالعقيدة الهندوسية، أو لأن الهندوسية اقتبست في مراحل تالية على ظهورها من المسيحية.

فاعلم أن هذا هو نفسه تفسير الأميين!

فأما إن كنت من أهل الوحي فستكون إجابتك بالبداهة والفطرة: بل لأن كلاً منهما خرج من المعين نفسه، ونبت من البذرة نفسها، والذي بذرها ورواها هو هو.

وإذا كنت أكثر وعياً ويقظة، فستفطن وحدك إلى أن العقيدة الهندوسية، التي تفصل بين الألوهية والربوبية، أو تميز في الألوهية بين الخلق وبين الرعاية والعناية، ليست سوى نسخة من خريطة الوجود البني إسرائيلية مع قليل من التحوير!

فمجتمع الآلهة هنا هو نفسه الذي هناك، وبراهما، الإله الذي خلق، والذي لا تُعلم حقيقته ولا صفاته، هو أدوناي في سفر التكوين، وشيفا هو مزيج من أدوناي الذي حرَّم المعرفة على الإنسان ويسعى لسلبه إياها، ومن يهوه القاسي العنيف في سفر الخروج.

وأما فشنو الهندوسي فهو نفسه الشيطان الذي أحب الإنسان ووهبه المعرفة في خريطة الوجود البني إسرائيلية، وهو نفسه لوسيفر أو الإله الآخر في القبالاه والحركات السرية الغربية التي تكونت بها.

وكما أنه يحرم أن ينطق أحد اسم يهوه إلا الحبر الأعظم في قدس أقداس الهيكل، يحرم نطق أوم، اسم الموجود الأسمى والحقيقة السرمدية براهمان إلا لكبير الرهبان الهندوس في قدس أقداس المعبد، ولذا لا يُعرف على وجه التحديد النطق الصحيح لهذا، كما لا يعرف النطق الصحيح لذاك.

ولأن الحية، في خريطة الوجود البني إسرائيلية، هي رمز الشيطان، أو تشكل في صورتها الشيطان وتسلل إلى جنة عدن، ليغوي حواء بالأكل من الشجرة، ويدل الإنسان على المعرفة، فقد استحالت في الهندوسية إلهاً معبوداً، ولأن هذا الإغواء تحول في بعض ما تفرع عن هذه الخريطة، كما قد علمت، إلى إغواء جنسي، فقد صارت الحية عند الهندوس رمز الفحولة وقرين القدرة الجنسية!

وفي شمال الهند يؤدي الهندوس في المعابد، إلى يومك هذا، طقوس العبادة عند تماثيل لحية هائلة اسمها: نيجاراجا Nagaraja، ويقولون إنها أم الحيات، وكانت موجودة عند بدء الخليقة، واشتركت في الخلق، وهي إحدى الصور أو الأشكال Avatar التي يتجلى في صورتها الموجود الأسمى.

وأما في جنوب الهند وشرقها فيعبدون الحيات الحية الحقيقية، ويسمونها ناجا Naga، وهي كلمة معناها في السنسكريتية: الموجود أو الكائن، ويقيمون المعابد لإيوائها وأداء طقوس العبادة عندها.

وللحيات في الهند عيد باسمها: Naga pancham، يُعقد في اليوم الخامس من شهر شرافانا Shravana، ويقع بين شهري يوليو وأغسطس من كل عام، وفي هذا العيد يذبح الهندوس في البيوت قرابين من الماعز أو الطيور أمام تماثيل الحية الإله، ويضعون اللبن والموز عند مداخل الجحور تقرباً للحيات الحية!

وإذا حدث وماتت إحدى الحيات وعثروا عليها، يتم دفنها في طقوس وموكب احتفالي يتقدمه الرهبان الهندوس يحملونها فيه إلى ضريحها المقدس!

قد علمت من قبل أن بيان الله عز وجل إلى خلقه أخبرنا بخريطة الوجود الحقيقية وألح في تكرار تفاصيلها، لأن خريطة الوجود، على أي صورة كانت، هي التي تحكم وعي البشر وتتحكم في كل ما يتكون فيه وتصبغ كل ما ينتجه، والذي يتكون وعي البشر وفهمهم للوجود بخريطته هو في الحقيقة من يُسيِّرهم ويتحكم في كل ما تفرزه عقولهم من آثار في الحياة.

فإذا رأيت تشابهاً بين الأمم والشعوب، أو بين الأزمان والأماكن، في الأفكار والمعتقدات، أو في القيم والأخلاق، أو في الاجتماع والسلوك، أو في العلاقات والشرائع، فاعلم أن ذلك ليس لأن التاريخ يكرر نفسه، ولا لأن هذا أخذ من ذاك، وهو ما يعتقده الأميون ويوجهون عنايتهم نحوه، بل لأن النبع الذي كون وعي هذا وذاك واحد، ولأن الصبغة التي تصبغ ما ينتجه كل منهما وتسري في آثاره في البشر والمجتمع والحياة هي هي.

بعد أن علمت التشابه، بل التطابق بين الهندوسية وخريطة الوجود البني إسرائيلية، لن تعجب حين تعرف أن آثار هذه، في القيم والأخلاق والاجتماع، كآثار تلك.

لأن الإنسان في خريطة الوجود الهندوسية، كما في أمها اليهودية، وُجد على الأرض، بعد أن خلقه براهما، مقطوع الصلة بالإله ويسير فيها ويصنع عالمه وحده بلا وحي ولا إرشاد، فهو غير مطالب بشئ، ولا معنى محدداً لأي قيمة أو إلزام بأي خُلق، وكل شئ مقبول، فلا فضيلة ولا رذيلة، والفصل بينهما متروك لكل شخص وما يستلهمه من تأملاته، وميزان أي فعل يفعله الإنسان تحقيقه لأهوائه وإشباعه لرغباته، ورضاه هو نفسه عنه.

يقول سري سوامي سيفاناندا Sri Swami Sivananda، وهو أحد أكابر الرهبان الهندوس، ومؤسس جمعية الحياة الإلهية Devine Life Society، وهو يعرض الهندوسية ويفتخر بمزاياها:

"الهندوسية ليس فيها أي نوع من القيود لعقل الإنسان، وهي تمنح الإنسان الحرية المطلقة في معتقداته عن الإله، وفي أفكاره عن الخلق والوجود والنفس، وفي مشاعره وإرادته، وفي أخلاقه والطريقة التي يعيش بها حياته، وليس فيها أي إدانة لهؤلاء الذين ينكرون وجود الإله كخالق أو كحاكم للعالم، فالهندوسية متسامحة ومرنة Elastic إلى أقصى درجة، وكل الديانات والمعتقدات والعبادات والطقوس والعادات والأخلاق مقبولة فيها وموقرة"[١]

فهل يذكرك ما قاله سيفاناندا بشئ؟

نعم!

فالهندوسية، في الأخلاق والاجتماع، ليست سوى الطبعة القديمة من عقد روسو الاجتماعي ودينه المدني، لأن المنابع التي تدفقت منها الهندوسية هي نفسها التي تسري مياهها في العقد الاجتماعي.

الهندوسية هي إحدى إفرازات حجب خريطة الوجود الإلهية وبث تحريفها في دورة الإفساد الاولى، التي بدأت بعد نزول التوراة وانتهت بنزول القرآن، كما أن الليبرالية والعقد الاجتماعي هي إحدى إفرازات إعادة بث خريطة

---

1) Sri Swami Sivananda: All about Hinduism,P2.

الوجود البني إسرائيلية وتكوين العالم بها في دورة الإفساد الثانية، التي بدأت من بعد نزول القرآن وتوشك أن تصل إلى تمامها في زمانك هذا.

الهندوسية والقبالاه

علمتَ أن الإله براهمان في الهندوسية هو الذي خلق الإنسان والموجودات كلها، ولكنَّا لم نخبرك كيف خلقها.

اسم الإله براهمان:

"مأخوذ من جذر سنسكريتي هو: بريه Brih، ومعناه: ينمو أو يتمدد"(١)

فالإله براهمان، الموجود الأعلى في الهندوسية، هو اللامتناهي والممتد في الكون، والوجود كله كان في داخله، فهو نفسه الخالق والمخلوقات والموجودات جميعها، أو كما تصفه الفيدا:

"هو الذي وَلد Generated الآلهة، وهو الذي ولد العالم كله، والكون كله فيه، براهمان سفينة تحتوي الوجود كله والأشياء كلها"(٢)

فإليك كيف خلق براهمان الموجودات، أو كيف أخرجها من داخله إلى العالم المنظور.

عندما حلت بالإله براهمان رغبة أن يخرج الموجودات التي في داخله، أخذ يتأمل عميقاً، فانبثق منه ماء، وباستمراره في التامل انبثقت منه أو صدرت عنه بذرة، تحولت إلى بيضة صفراء Sarva Mandala، في داخلها أول الموجودات والتجلي الأول للإله براهمان، وهو الإله براهما.

---

1) Hinduism,P86.
2) Hindu Mythology, P43.

ثم انفجرت البيضة وخرج منها الإله براهما، ليتمم الخلق، وأيضاً بالتفكير والتأمل العميق، فمن تأمله تكونت الكواكب والنجوم الجبال والبحار والأنهار والإنسان والمخلوقات كلها.

وفي رواية أخرى أن البيضة زهرة لوتس.

جوهر عملية الخلق في الهندوسية أن:

"الكون والعالم المنظور وكل شئ في الوجود كان في داخل الخالق، ثم صدر عنه بالانبثاق والفيض Emanation "[١]

وانبثاق العالم المنظور والمخلوقات أو صدورها عن براهما كان عبر وسيط، وهذا الوسيط هو عشرة براجاباتيس Prajāpatis، أو ريشي Rhshis، وهي عشرة آلهة صدرت بالتأمل عن أجزاء جسم براهما، ثم تولت هي إتمام عملية الخلق، وبالتأمل أيضاً، وأبناء براهما هؤلاء هم: ماريشي: Marichi، وأنجيرازا Angirasa، وبولاها Pulaha، وبولاثيا Pulasthya، وكراثو Krathu، وفاشيستا Vashista، وبراشيثاسا Prachethasa، وبريجو Bhrigu، ونارادا Narada.

وبراهما، الإله المخلوق من الإله براهمان، والخالق لكل شئ بعد ذلك، حتى الإله فشنو والإله شيفا، له في الفيدا هويتان أو طبيعتان يمتزجان معاً إحداهما ساكنة والأخرى نشطة، فالنشطة منهما:

---

1) **Hinduism,P86**

"اسمها شاكتي Shakti، وهي النصف المؤنث في جوهر براهما، وتصور احياناً في صورة زوجة له، وهي تمثل الصفات المؤنثة في الإله والقوة الخالقة المؤنثة في الوجود"[١]

فالإله الخالق في الهندوسية مزدوج الطبيعة وتمتزج في جوهره الذكورة والأنوثة، بل ولكل من فشنو وشيفا أيضاً طبيعة ذكورية أنثوية مزدوجة، ويصور الجوهر المؤنث لكل منهما في صورة شاكتي أو زوجة أو محظية.

وشاكتي فشنو، الإله الراعي للإنسان والذي يهبه المعرفة، واسمها ساراسفاتي Sarasvati، هي ربة العلم والكلام، وهي التي ابتكرت اللغة السنسكريتية وحروفها.

فاعلم أن قصة الخلق الهندوسية التي قرأتها ليست هي الأخرى سوى نسخة من قصة الخلق القبالية، وأيضاً مع قليل من التحوير!

في القبالاه أن الألوهية لها مستويان أو طبيعتان، فالمستوى الأول هو جوهر الإله وحقيقته، والمستوى الثاني الهيئة التي تتجلي فيها هذه الذات.

فأما الإله نفسه فيتكون اسمه من أربعة حروف عبرية تسمى الرباعي المقدس Tetragrammaton، وهي: يود Yod، وفاف Waw، ويود Yod، وهي He، والحروف الأربعة تكتب مرتبة في نسق معين داخل مثلث[•]، هو بأضلاعه الثلاثة رمز الصفات الثلاث التي هي جوهر الألوهية ولا تنفصل

---

1) **Hinduism,P90.**

●) انظر كيف يكتب اسم الإله في القبالاه في ملحق الصور.

إحداهما عن الأخريين، وهي الوجود والحضور Omnipresence، والمعرفة والإحاطة Omniscience، والقوة والقدرة Omnipatence.

ولكن لأنه يحرم نطق اسم الإله الأعظم، يطلق على الرباعي المقدس اسم رمزي، هو عين صوف Ein Sof، وهي كلمة معناها الممتد واللامتناهي، لأن الإله لا يمكن إدراك ذاته، فهو:

"مطلقAbsolute، بلا جوهر ولا مادة، ولا وصف له لأن الوصف يدنسه Defile it، والمادة والكون والإنسان كلها في داخله بلا صورة ولا هيئة، وتمثله دائرة هي رمز الخلود، فهذه البيضة الكونية Kosmic Egg تحوي الوجود كله فيها، والخلق والفناء يحدث في داخلها ولا شئ خارجها"[1]

فبراهمان الهندوسي هو نفسه عين صوف القبالي، بل ومعنى اسمهما واحد، والبيضة التي خلق منها براهمان الكون والمخلوقات باضتها القبالاه في الهندوسية، وأضلاع المثلث الثلاثة، التي يتجلى فيها جوهر عين صوف القبالي، هي نفسها الثالوث المقدس الذي يتشكل فيه براهمان الهندوسي، فالوجود والحضور هو براهما، والمعرفة والإحاطة فشنو، والقوة والقدرة شيفا.

والمستوى الثاني للألوهية في القبالاه هو نفسه براهما الهندوسي، الذي تجلى فيه براهمان ليخلق، وتجسدَ براهما في أبنائه العشرة ليكونوا وسطاءه في الخلق، كما تجلى عين صوف القبالي في شجرة الحياة لتكون وسيلته للخلق.

---

1) The secret teachings of all ages,P117.

فالقبالية الهندوسية الأوكرانية هيلينا بلافاتسكي Helena Blavtsky فطنت في كتابها: العقيدة السرية إلى أن:

"الآلـهة العشرة Prajāpatis هم أنفسهم شجرة الحياة Sephiroth بتجلياتها العشرة"[١]

وشجرة الحياة، أو سيفروت Sefirot، في القبالاه تمثل الذات الإلهية المدرَكة والخالقة للموجودات، وتتكون، كأبناء براهما، من عشر بلورات أو كرات نورانية مرتبة في ثلاثة أعمدة متوازية، ويصل بينها اثنتان وثلاثون قناة[•]

وكل بلورة في شجرة الحياة ترمز لصفة في الإله:

"فالأولى: كِثير أو التاج Kether، وهي رمز الإرادة الإلهية، والثانية: حوخمة Chochmah أو الحكمة، والثالثة: بيناه Binah أو الفهم، والرابعة: جيدولاه *Gedulah* أو العطف والحنو، والخامسة: جيفوراه *Gevurah* أو القوة والشدة، والسادسة: تيفيريت: Tiferet أو الانسجام، والسابعة: نتزاه Netzah أو النصر، والثامنة: هود Hod أو المجد، والتاسعة: يسود Yesod أو التأسيس، والعاشرة: ملخوت Malchut أو الملكوت"[٢]

---

1) Helena Blavtsky:The secret doctrine,Vol.1,P380.

•) انظر شجرة الحياة في ملحق الصور.

2) MacGregor Mathers:The kabbalaha unveiled,P23.

وشجرة الحياة القبالية هذه وبلوراتها وتجلياتها ليست سوى ابتكارات لتفاصيل على الأصل في خريطة الوجود البني إسرائيلية، وهي شجرة الحياة التي خاف الآلهة أن يأكل الإنسان منها فيصير خالداً مثلهم.

وخلق الكون والموجودات والإنسان في الهندوسية كان بالانبثاق والفيض والصدور عن الإله براهما وليس بالإرادة والأمر، لأن أصله في القبالاه هكذا.

ومن الطريف أن من يؤرخون للهندوسية وشراح عقيدتها وأساطيرها، والقباليين ومؤرخي القبالاه ومفسري طلاسمها، يصفون عملية الخلق هنا وهناك بالكلمة الإنجليزية نفسها: Emanation، أي: الانبثاق والفيض والصدور، دون أن يفطن شراح الهندوسية إلى صلتها بالقبالاه، أو يشير مفسرو القبالاه إلى آثارها في الهندوسية!

كما رأيت في الهندوسية بالضبط، الخلق في القبالاه كان بانبثاق الكون والإنسان والموجودات كلها عن الذات الإلهية، وصدورها من شجرة الحياة التي تمثلها، والفيض في العبرية: أزيلوت *Azilut*.

والإنسان والكون والموجودات كلها، قبل الخلق وظهورها في العالم المدرك المنظور كانت، في القبالاه، داخل الذات وعلى صورة التجليات في الشجرة الإلهية.

فالإله في القبالاه، كما يقول الربي جوزيف جيكاتيلا Joseph Gikatilla:

"يملأ كل شئ، ويوجد فيه كل شئ، وهو نفسه كل شئ"

وآدم الأول أو آدم القديم Adam Kadmon، هو الإنسان في العالم الأول حين كان داخل الذات الإلهية وعلى صورة الإله، قبل أن ينبثق عنه ويتشكل ويظهر في العالم المنظور، وكذا الكون ونجومه وكواكبه.

ولذا يصور الإنسان الأول أو آدم القديم، في القبالاه، مرسوماً على شجرة التجليات الإلهية، وكل عضو فيه يناظر صفة أو تجلياً من تجليات الذات، ويقع في داخل البلورة النورانية التي انبثق منها، وفي الوقت نفسه يناظر جزءًا من الكون[•]

فهاك أعضاء الإنسان في القبالاه، وما يقابلها من التجليات الإلهية في شجرة الحياة، ومن النجوم والكواكب:

"صفة التاج في الذات الإلهية تحتوي الرأس في الإنسان ومنها انبثقت، ويقابلها المحرك الأول Primum Mobile في الكون، وصفة الحكمة يقابلها النصف الأيمن من المخ والأبراج الاثني عشر، وصفة الفهم يقابلها النصف الأيسر من المخ وكوكب زحل، وصفة العطف والحنو يقابلها الذراع الأيمن وكوكب المشترى، وصفة القوة والشدة يقابلها الذراع الأيسر وكوكب عطارد، وصفة الانسجام يقابلها القلب والشمس، وصفة النصر يقابلها الساق اليمنى وكوكب الزهرة، وصفة المجد يقابلها الساق اليسرى وكوكب المريخ، وصفة التأسيس يقابلها أعضاء التناسل والقمر، وصفة الملكوت يقابلها الأقدام والمقعدة والعناصر الأربعة"[1]

●) انظر آدم القديم مصوراً على شجرة الحياة في ملحق الصور.

1) The secret teachings of all ages,P122-123.

والكون والعالم المنظور في الهندوسية يقع في المستوى الرابع في الوجود، يسبقه براهمان في المستوى الاول، ثم براهما، ثم الآلهة العشرة التي تَكوَّن العالم المنظور والإنسان من خلالها.

وأصل ذلك في القبالاه، أن ثمة أربعة عوالم، أو أربعة مستويات من الوجود، وكل عالم أو مستوى تمثله سيفيروت أو شجرة حياة، فأولاها هي الذات الإلهية، وآخرها العالم المنظور والإنسان المخلوق.

وشاكتي، التجلي الانثوي لبراهما، هي الشخيناه Shkhinah أو السكينة في شجرة الذات الإلهية القبالية التي تمتزج فيها هي أيضاً الذكورة بالأنوثة، ففي شجرة الحياة:

"العمود الأيمن من الكرات يمثل صفات اللين والأنوثة، والعمود الأيسر هو صفات الشدة والذكورة، وكرات العمود الأوسط هي الاتزان بينهما، والجانب المؤنث هو الشخيناه"(١)

ولأن آدم السماوي أو القديم كان في داخل الإله قبل أن يخرج منه، فهو أيضاً كانت تمتزج فيه الذكورة والأنوثة، أو لا تتميز فيه ولا تنفصل هذه من تلك.

وامتزاج الذكورة بالأنوثة في الألوهية، في القبالاه والهندوسية معاً، ليست سوى أثر من آثار خريطة الوجود البني إسرائيلية، وشاكتي والشخيناه هي ابتكارات الوعي والعقول التي تكونت بها، وهي أصل فكرة تحرير المرأة

---

1) Professor Don Perini:Kabbalah,Secrets of the jewish mysticism,P3.

ومساواتها التامة بالرجل، التي تولى من صنعوا هذه الخريطة بثها في وعي البشر أينما وجدوا وحيثما حلوا .

يقول بنو إسرائيل في خريطتهم للوجود:

"٢٦وَقَالَ اللهُ: نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ. ٢٧فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ، عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ، ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ"[1]

ومترجم الكتاب المقدس، في هذه الترجمة الرسمية، وضع لفظ الجلالة مكان كلمة: إلوهيم Elohim في الأصل العبري، والتي تدل على الجمع وتعدد الآلهة، كما يفعل المترجمون في كل اللغات لكي لا يصدموا المؤمنين بدياناتهم التي يسوقونها على أنها توحيدية.

يقول القبالي والماسوني من الدرجة الثالثة والثلاثين مانلي هول Manly Hall في كتابه: التعاليم السرية عبر العصور، في تفسير مجئ كلمة الإله في صيغة الجمع والتعدد في خريطة بني إسرائيل للوجود، التي يتوهم أنه ينتقدها بينما تكوينه ووعيه محصور تحت سقفها وبين جدرانها، وعقله يتحرك داخل مساراتها وبين مكوناتها:

"بعد أن خلق إلوهيم الكون بطريقة تتطابق مع التعاليم السرية Esoteric Teachings في أساطير المصريين والهندوس والإغريق، يقول سفر

---

١) تكوين: ١: ٢٦-٢٧.

التكوين إنه شرع في خلق الإنسان: "على صورتنا كشبهنا"، فتامل في صمت كيف تحولت في الترجمة كلمة إلوهيم العبرية التي توحي بالتعدد إلى كلمة إله God التي تدل على الوحدانية وانتفاء التمييز الجنسي، إن صيغة الجمع هذه تعني بلا مواربة تعدد الآلهة، ولأن الإنسان حين خلقه إلوهيم، وقبل أن يُخرِج منه المرأة، لم تكن قد تميزت فيه بعدُ الذكورة عن الأنوثة، فالعبارة التي تقول إن إلوهيم خلقه: "على صورتنا كشبهنا"، هي ضربة قاتلة deathblow للعقيدة المقدسة عبر الأزمان في ذكورة الإله، والتي صورها مايكل أنجلو في سقف كنيسة سستين"(١)

وإليك عبارة القبالي ماك جريجور ميثرز MacGregor Mathers، في كتابه: القبالاه سافرة، صريحة واضحة، تعرف بها من أين تنبع الأساطير والخرافات، وكيف تنهمر في وعي البشر مياهها:

"لقد بذل مترجمو الكتاب المقدس كل ما في وسعهم من أجل طمس كل إشارة إلى حقيقة احتواء الألوهية على الأنوثة والذكورة معاً، ولذا عمدوا إلى ترجمة: إلوهيم، التي هي في العبرية جمع المؤنث، إلى: إله التي هي مفرد مذكر، ولكن فاتهم أن الإله يقول: "نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا ...عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ، ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ "، فكيف يكون الإنسان الذي خلقه الإله على صورته وكشبهه ذكراً وأنثى إلا إذا كان الإله نفسه ذكراً وأنثى؟!"(٢)

---

1) The secret teachings of all ages,P126.
2) The kabbalah unveiled,P21.

ولأن الهندوسية هي نفسها القبالاه، فآثار هذه، في العبادة والأخلاق، بالضبط كآثار تلك.

لأن الإنسان في الهندوسية والقبالاه، معاً، كان متوحداً مع الكون كله داخل الإله ثم انبثق من الإله أو صدر عنه، فالإله ونفس الإنسان وجوهر الكون شئ واحد، وبينها ممرات وقنوات تصل بينها وتسبح هي حرة فيها، وقد تكون خاملة ويمكن تنشيطها، ويمكن للإنسان أن يشحذ طاقته النفسية والذهنية ويرتقي بالروح، التي هي آتمان Atman في الهندوسية، وروح Ruach في القبالاه، إلى ان يصل بها إلى مرتبة من التطهر والسمو تتحرر بها من قيود الجسد المادي الفيزيائي، وتعود إلى التواصل مع الإله والاتصال بالكون.

وإذا وصل الإنسان إلى هذه الحالة السماوية السامية التي كان عليها قبل أن يخرج من الإله وينفصل عن الكون، حل فيه الإله أو عاد هو إلى التوحد بالإله، براهمان الهندوسي أو عين صوف القبالي، وإلى الامتزاج بالكون، وهذه الحالة السرمدية العليا هي الموكشا Moksha في الهندوسية، والنرفانا Nirvana في البوذية، والدفيقوت Devekut القبالية.

ولأن خلق الإنسان والكون كان بالانبثاق والفيض من الإله عبر التأمل العميق، فالوصول إلى حالة الطهارة النفسية والنقاء العقلي، والعودة للتوحد بالإله والامتزاج به هي أيضاً بالسكون في الهيئة التي كان عليها الإله حين خلق، وبالتأمل العميق الذي خلق به، وهذا التأمل العميق في سكون كالإله هو في الهندوسية دهايانا Dhyana، وفي البوذية بهافانا Bhavana، وفي القبالاه كافاناه Kavanah.

فإذا كان بك فضول إلى أن تعرف هذه الهيئة التي يتأمل فيها الإنسان لكي يعود للتوحد بالإله والسياحة في الكون، فاذهب إلى أي حديقة أو ميدان في أي عاصمة أو مدينة كبرى من عواصم بلاد العرب ومدنها، وسوف ترى بعض الأميين منهم جالسين فيها.

فهؤلاء العرب الأميون قباليون وهندوس بالمحاكاة والتقليد، وإن لم يفطنوا لذلك، قرطسهم القباليون والهندوس الذين نشروا الوثنيات وطقوسها في العالم، وأقاموا لها المعاهد ومراكز التدريب، بعد أن لفوها في أغلفة العلوم والفلسفات الحرة والحداثة في العبادة.

والموكشا، أو التطهر النفسي والنقاء العقلي الذي يعود به الإنسان للتوحد بالإله، هي إحدى غايات الحياة الهندوسية الأربع.

والثلاثة الأخريات هي: دراهما Drahma، أي: أداء الواجبات اليومية التي يتعين على الإنسان أن يؤديها تجاه عمله ومن يحيطون به، وأرثا Artha، أي: تحقيق الثروة والمال والجاه ورفاهة العيش، وكاما Kama، أي: تحقيق اللذة والإشباع والإرواء الجنسي، وهي البيت الذي أتيناك بهذا القصيد من أجله.

لأن الإله في الهندوسية، كما قد علمت، تجتمع فيه الذكورة بالأنوثة، ولأن الإنسان وهو في داخل الإله وقبل أن يصدر عنه كانت تمتزج فيه الذكورة بالأنوثة، فممارسة الجنس والطقوس الجنسية هي إحدى طقوس العبادة ووسائل التطهر النفسي والنقاء العقلي التي يصل بها الإنسان إلى الموكشا ويتوحد بالإله.

والمعابد في الهند تمتلئ بالتماثيل التي تصور الأوضاع الجنسية وفنونها كطقوس للعبادة، وتوجد في الأماكن المعزولة في الغابات والجبال معابد للتطهر والوصول إلى الموكشا عبر ممارسة الطقوس الجنسية بصورة جماعية وعلانية في ساحات مكشوفة.

وارتباط العبادة والتوحد بالإله بالجنس وفنونه أصله في القبالاه .

لأن شجرة الحياة القبالية التي تمثل الذات الإلهية تمتزج فيها الذكورة بالأنوثة ولا تمييز بينهما، وآدم السماوي القديم مثلها وعلى صورتها وهيئتها، فاتحاد الرجل بالمرأة في الممارسة الجنسية يضعهما معاً في الصورة السماوية وحالة الكمال التي كانا عليها قبل الصدور عن الإله، ومن ثَم يؤهلهما للارتقاء والعودة للتوحد بالإله والاندماج فيه مرة أخرى.

ولأن القبالاه هي ينبوع الحركات السرية، فقد تحولت فكرة ارتقاء الإنسان الروحي وتوحده بالإله، عبر اتحاد الرجل بالمرأة اتحاداً جنسياً، إلى طقس علني له شعائر موقرة في الحركات السرية وجمعيات عبادة الشيطان وممارسة السحر، وهو هيروس جاموس Hieros Gamos أو طقس الاتحاد المقدس.

ولأن الطقوس الجنسية في القبالاه وسيلة لاكتمال الإنسان وتؤهله للتوحد بالإله، فالممارسة الجنسية عبادة، وإشاعة الثقافة الجنسية في المجتمع ودورانه حولها وسيلة لأن يستحضر المجتمع كله الإله ويحل فيه.

فإذا نظرت أمامك في الصحف والمجلات والشاشات، أو تلفتَّ حولك في النوادي والشواطئ والجامعات، أو انتبهت إلى ما يحدث في الشوارع وأماكن

العمل والحافلات، فستدرك أنك تعيش في عالم القبالاه والدنيا التي صنعتها خريطة الوجود البني إسرائيلية.

أما إذا غلبك الفضول وأردت أن تتعرف على عقائد القبالاه، وما يرتبط بها من طقوس، وممارسة السحر، واستحضار الجان، ومن أفكار عن الطلاسم وفكها، والسفر بين الأزمان، والانتقال بين عوالم الموتى وعوالم الأحياء، فليس عليك إلا أن تفتح التلفاز وتشاهد الأفلام التي تعرضها قنوات الأكشن العربية بعد منتصف الليل!

والهندوسية، كالقبالاه، ترتبط فيها العبادة والطقوس بممارسة السحر والتنجيم والنبوءات واستطلاع الغيوب وقراءة الطوالع.

بنو إسرائيل أم الهندوس؟

ربما يحلق في رأسك، وأنت تستكشف التشابه الذي يكاد أن يكون تطابقاً بين العقيدة الهندوسية وأفكارها وطقوسها وآثارها وبين خريطة الوجود البني إسرائيلية وما أقيم بها وعليها من ابتكارات في القبالاه، سؤال: أيهما كانت رافداً للأخرى، وهل اليهود أخذوا من الهندوس أم هم الذين بثوا فيهم؟

أما المؤرخون التقليديون فليس عندهم دراية بالمسألة، يستوي في ذلك مؤرخو الهندوسية ولا علم لهم بالقبالاه، ومن يؤرخون لليهودية والقبالاه ولا يعرفون شيئاً عن الهندوسية.

وأما القباليون وأبناء الحركات السرية أنفسهم، وهم، حقاً، موسوعيون وأكثر إحاطة بتواريخ الشعوب والأمم، ووعياً بالمؤثرات والآثار المتبادلة بينها، فقد فطن بعضهم إلى هذا التشابه الشديد بين الهندوسية وخريطة الوجود البني إسرائيلية والعقيدة القبالية.

ولكن لأن الوحي خارج مصادرهم في المعرفة، ولأن تكوينهم ووعيهم محصور داخل خريطة الوجود البني إسرائيلية، وهي نفسها مصدر فهمهم للوجود ومعرفتهم بمكوناته والعلاقة بينها، ولتاريخ البشرية كيف بدأت وكيف سارت، ولأن كل ما يتوهمونه من أفكار وابتكارات ليس سوى آثار تكوينهم بهذه الخريطة وسريانها في عقولهم ونفوسهم، فقد جاءت مختلة مناهجهم ومقلوبة فرضياتهم وضالة نتائجهم.

تقول القبالية الأوكرانية هيلينا بلافاتسكي Helena Blavtsky في كتابها: العقيدة السرية:

"أقدم الديانات في العالم، في ظاهرها Exoterically، أما من جهة جذورها السرية Esoteric root فهي واحدة، هي ديانة الهند والمزدكية وديانة المصريين، ثم يأتي بعد ذلك ديانة الكلدانيين، وآثار هذه الديانات ضائعة تماماً من االعالم الآن، ثم ديانة اليهود، الخفية في القبالاه، والظاهرة في سفر التكوين وبقية الأسفار الخمسة التي هي جمع من الأساطير الرمزية Allegorical legends التي يجب أن تُقرأ في نور الزوهار(•)"(١)

فهيلينا بلافاتسكي، كمن رأيتهم سابقاً من أمثال ديورانت وبرستد وفريزر، تفهم أن خريطة الوجود في سفر التكوين والقبالاه ليست سوى حكايات رمزية ذات أبعاد فلسفية أخذها بنو إسرائيل من الديانات والأمم السابقة ولا أصل لها عندهم، ثم، وهي تدرك وجوه الشبه الشديدة بين الهندوسية واليهودية، تجعل نصوص الهندوسية أصلاً لخريطة الوجود البني إسرائيلية والعقائد القبالية، وتفسر ذلك بأن:

"أدبيات القبالاه لم تُعرف مكتوبة قبل القرن الأول من العصر الحديث، بينما في الهند نجد أن الفيدا Vidas وأدبيات البراهمانية مكتوبة ومدونة قبل ظهور المسيحية بقرون عديدة"(٢)

•) الزوهار Zohar هو سفر الإشراق أو الضياء في القبالاه.

1) The secret doctrine,Vol.1,P39.

2) The secret doctrine,Vol.3,P167.

ما استدلت به بلافاتسكي أن التوراة تكوَّن نصها الحالي، الذي هو دمج بين ثلاثة نصوص سابقة، في بداية الألف الأولى بعد الميلاد، والزوهار وبقية أسفار القبالاه ظهرت مكتوبة في التاريخ في بداية الألف الثانية بعد الميلاد، بينما نصوص الهندوسية دُونت في منتصف الألف الأولى قبل الميلاد، والهندوسية اكتملت عقيدتها وتبلورت طقوسها قبل الميلاد بقرنين أو ثلاثة.

والنتائج التي وصلت إليها بلافاتسكي مقلوبة، لأن الفرضيات التي بدأت منها خاطئة، وهي خاطئة لأنه يحكمها فيها خريطة الوجود البني إسرائيلية، وما تعمد بنوا إسرائيل بثه في سيرتهم من أضاليل ليموهوا الوحي فيها ويضللوا البشر عنه.

وكتاب هيلينا بلافاتسكي: العقيدة السرية The secret doctrine، وهو أحد أشهر المؤلفات في القبالاه والعقائد الخفية والحركات السرية، وأحد أكثر الكتب إلهاماً للزعماء والقادة والنابهين في كل مجال من أبناء الغرب، هو كله دليل على سريان خريطة الوجود البني إسرائيلية في تكوين بلافاتسكي ووعيها وعقلها، وعلى تحكُّمها في كل ما تعرفه عن الوجود وما تفهمه منه، وعلى أنها تعيش بها وفيها.

فكل ما تقوله بلافاتسكي، في كتابها هائل الحجم، ليس سوى استنباطات من خريطة الوجود البني إسرائيلية، بناءات عليها، أو استطرادات لها، أو ابتكارات عليها وتفريعات منها، بل وعناوين فصول كتابها هذا كله ليست سوى أسماء عناصر الجرثومة البني إسرائيلية.

فهي تأتي بكل مكون من مكونات الوجود كما هي في الخريطة البني إسرائيلية، ثم تستنبط منه فكرة، أو تبني عليه عقيدة، أو تقيم نظرية، أو تبتكر طقساً، أو تبحث عن شبيه له في الهندوسية أو في غيرها من العقائد والثقافات.

ونكاد نسمعك تهمس لنفسك وأنت تقرأ العبارة الآنفة: لقد مرت عليَّ هذه العبارة من قبل، أين ترى؟

نُهنئك بذاكرتك الحديدية!

نعم، قرأت عبارة شبيهة لها عند خريطة الوجود الإلهية ونحن نبين لك آثار تحريفها في تكوين الدكتورة نوال السعداوي ووعيها وما أنتجه هذا التكوين والوعي المختل.

وعبارتنا هنا تشبه عبارتنا هناك، لأن نوال السعداوي هي نفسها هيلينا بلافاتسكي، والفرق بينهما أن بلافاتسكي قبالية بالوعي والإرادة والقصد، ونوال السعداوي قبالية بالتقليد ومحاكاة من استغفلوها ودسوا القبالاه في رأسها وفَيْرسوا تكوينها بها.

فإليك أولاً مثالاً أوضح على ما يحدثه فقدان الوحي مصدراً للمعرفة من تخبط وتيه وضلال عن الحقائق، وتوهم الحقائق في الأباطيل، يساعدك على أن تصحح فرضيات هيلينا بلافاتسكي وتعتدل أمامك النتائج.

تعلم من بيان الله إلى خلقه أنه عز وجل هو الذي أحى إلى أم موسى عليه السلام أن تلقيه في اليم، لأنه سبحانه أراد لموسى أن يكون من المرسلين، ولبني إسرائيل أن يكونوا أمة الوحي التي تتلقاه وتتكون به وتبلغه:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾[١]

ولكن في السيرة المقدسة خلط بنو إسرائيل قصص الوحي بسيرتهم الضالة، وبما ابتكروه أو جمعوه من حكايات، فلم يعد احد يستطيع أن يميز هذا من ذاك أو يفصل بينهما، سوى الطائفة منهم التي تحوز الأصل وتتوارث ما فيه من حق.

فإليك فرضية بلافاتسكي من أين جاءت قصة موسى عليه السلام وإلقائه في اليم:

"إن قصة الفرعون والنهر الكبير والصبي الذي وجد طافياً في تابوت ليست قصة موسى ولا هو الذي ألفها، فأصلها في قطع الفخار Tiles البابلية التي عُثر عليها، وتحوي قصة الملك سَرجون Sargon الذي كان يعيش قبل موسى بأزمان بعيدة[•]، ففي كتابه: آسيا قديماً Assian Antiquities، يقول مستر جورج سميث George Smith: "في قصر سنحاريب Sennicherib في كويونجيك Kouyunjik وجدت قطعة أخرى بها جزء من تاريخ سرجون المثير، ولا شك أن عزرا Ezra قد أضاف قصة سرجون إلى قصة موسى، وأنه لا يمكن أن يكون جاهلاً بالأصل، وفي لوح الفخار الذي وجدته في كويونجيك نقرأ العبارات الآتية: ١- أنا سرجون ملك أكَّاد Akkad

---

١) القصص:٧.

•) موسى عليه السلام كان قبل سرجون بعدة قرون، وبلافاتسكي تخلط في عبارتها بين موسى الذي أتى بالتوراة وبين عزرا الذي كتب أسفارها، فعزرا هو الذي بعد سرجون.

القوي ٢- أمي كانت أميرة ولكن أبي لا أعلم من هو ٣- في مدينة أزوبيرانو Azupirano على شاطئ نهر الفرات ٤- حملت بي أمي ثم وضعتني ٥- ثم في تابوت من القش وضعتني، وبالقارBitumen أغلقته ٦- ثم في النهر قذفتني ٧- فحملني النهر إلى أكاد، والساقية Water carrier التقطتني"[١]

وهكذا، وبجمع قطعة فخار من هنا مع قطعة فخار من هناك، ورتق لفافة بأخرى، صنع أبناء خريطة الوجود البني إسرائيلية، ومن تحكم وعيهم مكوناتها وآثارها، التواريخ القديمة للبلاد التي بين النيل والفرات، واعتبروا أن ما صنعوه بلصق قطع الفخار هو الحقيقة المطلقة!

ثم تبعهم في ذلك الأميون في بلاد العرب، ممن كون وعيهم وصنع أذهانهم ونفوسهم وصول خريطة التحريف وآثارها إلى هذه البلاد، لتتم بهذا الوصول وهذا التكوين وهذه الصناعة دورة الإفساد البني إسرائيلي الثانية[•].

وما لم تخبرك به بلافاتسكي، أن الغِراء الذي لصق به أسرى سيرة بني إسرائيل المقدسة قطع الفخار، والنماذج التي جمعوا هذه القطع معاً لتحاكيها، أتوا بها من هذه السيرة التي هم عبيدها، والتواريخ التي أقاموها بلصق هذه القطع إنما صنعوها لتكون مطابقة لما فبركه بنو إسرائيل فيها.

---

1) The secret doctrine,Vol.1,P339-340.

•) يمكنك أن تجد نموذجاً مثالياً على هؤلاء الأميين، أبناء التحريف وأتباع بني إسرائيل في الشرق، ممن يغرفون غرف العميان مما يكتبه أبناء التحريف وأتباع بني إسرائيل في الغرب، في كتابات الأمي سيد القمني: قصة الخلق، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، إسرائيل: التوراة، التاريخ، التضليل، إلخ .. إلخ.

يقول دكتور كمال الصليبي في كتابه: التوراة جاءت من جزيرة العرب، الذي يقول فيه إنه ينتقد روايات التوراة وما فيها من تواريخ، وهو في حقيقته من أسرى خريطة بني إسرائيل وسيرتهم، وعبد من عبيدها:

"وسجلات مصر والعراق القديمة، التي قُرئت على ضوء النصوص التوراتية، والتي أُخذت تلميحاتها الطبوغرافية تقليدياً على أنها تتعلق بفلسطين والشام ومصر والعراق، أُجبرت على إعطاء مؤشرات جغرافية وتاريخية تتوافق مع الأحكام المسبقة لدى الباحثين التوراتيين، والأمر نفسه ينطبق على تفسير السجلات القديمة التي يتابع علماء الآثار العثور عليها في أراضي الشرق الأدنى"[١]

وكما ترى، القباليون والأميون، غرباً وشرقاً، أسرى خريطة بني إسرائيل للوجود ومن عبيد سيرتهم القدسة، وكل من حُجبت عنه خريطة الوجود الإلهية أو ضل عنها هو، تلقائياً وبالضرورة، كما لابد تدرك الآن، من أسرى بني إسرائيل وعبيدهم، وهم من يحكمون بخريطتهم وسيرتهم وعيه، ويتحكمون في كل ما يكونه وما يفرزه، لأن من لا يعرف الخريطة الحقيقية ففي أي اتجاه يسير لا ريب تائه.

فالآن إن كنت ممن يُغشي أعينهم ويدور بعقولهم زخرف قول هؤلاء القباليين وبهرج نظريات أتباعهم من الأميين، وما يفترضونه ويخمنونه من لصق قطع الفخار عندك هو الحق، وتؤمن أن موسى ليس إلا سرجون البابلي،

---

١) دكتور كمال الصليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب، ص٥١-٥٢.

فلن تفقه شيئاً، ولن تتصحح في عقلك فرضية ولا تعتدل نتيجة، ولا نملك إزاءك إلا أن ندعو الله لك بالشفاء.

وأما إن كنت ممن لا يذهله تشقيق الكلام وحشوه بالعبارات الخلابة والأفكار المثيرة والكلمات الأعجمية عن أن الله عز وجل هو الحق وهو وحده علام الغيوب، وأن وحيه هو الفرقان والمعيار والميزان، وأن موسى هو نبي الله الكليم، فإليك كيف تكون الفرضيات والنتائج في نور مصدر المعرفة المطلق وبيان الله عز وجل إلى خلقه.

أولاً: ظهور الشئ غير وجوده، وسبْق نصوص الهندوسية في الظهور لنصوص القبالاه المكتوبة لا يعني أنها تسبقها في الوجود، والقبالاه نفسها تنص على أنها تراث غير مكتوب، وعلى أن توارثها هذا كان شفاهة منذ نزول الوحي على موسى عليه السلام، والقبالاه معناها أصلاً: التلقي الشفوي.

فإليك الدليل على سبق خريطة الوجود البني إسرائيلية والقبالاه، في الوجود، للهندوسية، ومن بلافاتسكي نفسها التي تقول إن القبالاه أخذت من الهندوسية:

"بالرغم من أن أدبيات القبالاه المكتوبة لا يمكن العثور عليها قبل القرن الأول من العصر الحديث، ومن أن الزوهار Zohar يُنسب دائماً للربي شمعون بن يوحاي Simeon Ben Iochai، فالحقيقة أن القبالاه قديمة قدم الشعب اليهودي نفسه، وظلت تنتقل تعاليمها شفاهة عبر الأجيال والعصور إلى أن تم تدوينها"(١)

1) The secret doctrine,Vol.3,P166.

ثانياً: خريطة الوجود البني إسرائيلية وتراثهم الباطني في القبالاه يجتمع فيها كل ما تفرق في الأمم والشعوب والثقافات والحضارات، فيوجد شبيه لكل وجه أو مكون من وجوه خريطة الوجود البني إسرائيلية ومكوناتها، أو لما في القبالاه من أفكار وطقوس وممارسات، في عقائد كل أمة أو في أساطيرها وتراثها، ولكن هذه الخريطة والقبالاه تنفرد بجمع كل الوجوه والمكونات معاً.

فبعضٌ من وجوه خريطة بني إسرائيل للوجود ومن أفكار القبالاه وطقوسها وآثارها قد رأيته في الهندوسية، وسوف ترى بعضاً آخر في الإغريقية، وبعضٌ ثالث تراه في طقوس استحضار الجان وفك الطلاسم وممارسة السحر والتنجيم التي شاعت في بلاد العرب، قديماً وحديثاً.

والكتب التي تشرح هذه الطقوس والممارسات، سواء منها ما طبع مثل كتاب: شمس المعارف للبوني، أو ما هو مخطوط ولم يطبع مثل كتاب: السحر الأسود، وكتاب: القبة الإبليسية في الأعمال السفلية، ليست سوى شذرات من كتاب: مفاتيح سليمان Clavicula Salomonis، الذي ظهر مطبوعاً في أوروبا لأول مرة باللاتينية سنة ١٦٨٦م.

ومن الطريف أن الصفحة الأولى من مخطوط كتاب: السحر الأسود مكتوب عليها أن الذي ترجم الكتاب من العبرية الأنبا شمعون سنة ١٦٠٠م، أي قبل أن يظهر كتاب: مفاتيح سليمان مطبوعاً في أوروبا بستة وثمانين عاما![•]

(•) انظر في ملحق الصور غلاف الطبعة الأولى من كتاب: مفاتيح سليمان، والصفحة الأولى من كتاب السحر الأسود.

فليس أمامنا وأمامك الآن إلا فرضيتان: إما أن بني إسرائيل هم المنبع والمصدر، وخريطتهم للوجود، بعناصرها وآثارها في الوعي، هي الروافد التي تكونت بسريانها في الأمم والشعوب، مع بعثرة بني إسرائيل في الأرض، الوثنيات والفلسفات والخرافات والأساطير، أو أنهم جمعوها من الأمم والشعوب، وكانوا هم وخريطتهم المصب الذي صبت كلها فيه.

ونقول لك: الإجابة هي: هما معاً.

فبعض مكونات خريطة الوجود البني إسرائيلية لا وجود لها ولا نظير في تراث أي أمة، كما عرفت من تنقيب السير جيمس فريزر عن شجرة المعرفة وشجرة الحياة، وفشله في العثور على شبيه لهما، مما اضطره للف والدوران وضرب الودع لإثبات فرضياته الأمية.

فهذه المكونات الفريدة في خريطة الوجود البني إسرائيلية، وقصة الخلق بالإرادة الإلهية التي تحويها، لا مصدر لها ولا سبيل إليها إلا من الأصل، والأصل هو خريطة الوجود الإلهية التي حجبها بنو إسرائيل وعبثوا بها، ثم صار عبثهم النبع الذي يتفجر منه فهم الأميين من بني إسرائيل ومن عموم البشر للوجود والحياة.

بنو إسرائيل هم المصدر والمنبع، لأن خريطتهم للوجود، بمكوناتها والعلاقات بينها، لا يمكن أن تصدر، كما أخبرناك من قبل، إلا ممن يحوز الوحي ويعرف الأصل.

وفي الوقت نفسه من خصال بني إسرائيل الذهنية والنفسية الانبهار بالوثنيات وجمعها ومحاكاتها وزخرفتها وإعادة بثها.

فأما انبهارهم بالوثنيات ومحاكاتهم لها، فيخبرك الله عز وجل بها في بيانه إلى خلقه في قوله:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ﴾[1]

وأما جمعهم لها وزخرفتها وإعادة بثها في الأمم والشعوب، فيخبرك به بيان الله عز وجل في قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾[2]

بيان الله إلى خلقه يخبرك أن نشر الأباطيل والضلالات وبثها هو عمل طائفة من أهل الكتاب، وليس الهندوس ولا غير الهندوس من الأميين.

والمسألة الفيصل بين بيان الإله عز وجل إلى خلقه وبين ما يقوله القباليون والأميون، أن بيان الإله يخبرك أن هذه الطائفة من أهل الكتاب تفعل ذلك عمداً وقصداً، وهي تعلم الحق وتكتمه.

---

١) الأعراف:١٣٨.
٢) النساء:٥١

فالقبائل والأمم والشعوب والثقافات قد تنتج الوثنيات أو الضلالات عفواً لحجب الوحي عنها وجهلها به، ولكن هذه الطائفة من أهل الكتاب هي التي تنشرها وتبثها في البشر، وتصنع لها النظريات، وتقيم بها الفلسفات، وتُكسبها الأغلفة العلمية التي تُسوقها فيها.

بيان الله عز وجل يخبرك بحقيقة لن تقدرها حق قدرها، بل ولن تراها أو تدركها أصلاً إلا إذا أوتيت علماً بسيرة الحركات السرية وآثارها في العالم وصلتها ببني إسرائيل.

فالحركات السرية والقبالية عبر العصور، وفي كل صُقع من أصقاع العالم، كانت وما زالت أكبر مصنع لامتصاص الوثنيات والأساطير والخرافات وجمعها وتدويرها وتنظيرها وفلسفتها وإعادة بثها في العلوم والفنون والآداب والحياة والمجتمعات.

وأساطير العالم كلها، ووثنياته المركبة، وعقائده الباطنية الممنهجة، وليست البسيطة الساذجة، هي من عمل هذه الطائفة من بني إسرائيل وأثر من آثار سريان خريطتهم المحرفة للوجود وابتكاراتهم القبالية في الأمم والشعوب، كما ترى في الهندوسية، وكما سترى في الإغريقية.

والاستثناء الوحيد من ذلك الحضارة المصرية القديمة التي كانت أساطيرها عن الخلق والآلهة ومكوناتها وعناصرها هي المادة الخام التي وظفتها هذه الطائفة في العبث بخريطة الإله للوجود التي أنزلها عليهم واستودعهم إياها،

ومنها نسجت القبالاه، وبمحاكاتها صنعت الحركات السرية وعقائدها وطقوسها ومراتبها ورموزها.

وهو ما من أجله اختص الإله عز وجل مصر القديمة، من بين ممالك الأرض وإمبراطورياتها كلها، بالذكرفي بيانه إلى خلقه، ثم لم يذكر من تاريخها إلا ما يتصل ببني إسرائيل ويلتقي بسيرتهم!

ولكن هذه قصة أخرى طويلة نرجو من الله عز وجل أن نتمكن من أن نفرد لها كتاباً يجليها يوماً ما.

الهندوسية والحركات السرية

بعد إذ رأيت التشابه والتماهي بين القبالاه والهندوسية، وأنهما ليسا إلا اسمين لشئ واحد، لن تعجب إذا علمت أن الهندوسية كانت عبر التاريخ معيناً للجمعيات الباطنية وينبوعاً للحركات السرية، وأن الهند تربة خصبة ومحضن لهذه الجمعيات والحركات، وأن بينها وبين الجمعيات الباطنية والحركات السرية القبالية في الغرب ترافد وتلاقح، وفي بعض الأحيان توحد وامتزاج.

فإليك بعض النماذج.

الفيدانتا Vedanta كلمة معناها غاية الفيدا، والفيدا هي نصوص الهندوسية، والفيدانتا فلسفة تأملية، ولها فروع عديدة، وإذا كانت الهندوسية كلها باطنية فالفيدانتا هي باطنية الباطنية، أو هي القبالاه الهندوسية.

والفرع من الفيدانتا الذي يرتبط بالإله فشنو، كغيره من الفروع، تكونت به وحوله تنظيمات وحركات، لها طقوس ودرجات ومراتب وأساتذة عظام مثل الماسونية والحركات السرية الغربية.

وإحدى هذه الحركات منظمة راما كريشنا Ramakrishna Order، التي أسسها سري راما كريشنا Sri Ramakrishna وتلميذه سوامي فيفيكاناندا Swami Vivekananda، في كلكتا Calcutta في البنجال Bengal جنوب الهند سنة ١٨٩٤م، ثم أنشأ لها فيفيكاناندا في العام نفسه فرعاً في نيويورك

باسم: جمعية الفيدانتا Vedanta Society، ثم صار هو رئيسها والأستاذ الأعظم لها ولمنظمة راما كريشنا بعد رحيل أستاذه.

ولمنظمة راما كريشنا وجمعية الفيدانتا ما يربو على مائة وخمسين فرعاً، تنتشر في الهند وأوروبا والقارة الأمريكية، تعلم الفيدانتا وعقيدتها وتدرب أعضاءها على طقوسها.

والدرجة العليا في الفيدانتا وحركاتها، هي أن يصل الإنسان إلى مرتبة الراجافان Raghavan، وهي مرتبة الحكمة الكاملة، فيكون قد أصبح رجلاً حكيماً أو امرأة حكيمة، بأن حل فيه نور الإله فشنو وصار من نسله المقدس.

ولأن فشنو الهندوسي، كما ترى، هو نفسه شيطان خريطة الوجود البني إسرائيلية، وهو نفسه لوسيفر القبالي، ونسل فشنو من الهندوس هم أنفسهم نسل لوسيفر من الماسون، فقد مزج حبر الماسونية الأعظم اليهودي ألبرت بايك بين الفيدانتا والقبالاه، وجعل شروح سوامي فيفيكاناندا على الفيدا فلسفة للدرجة الثانية والثلاثين من الماسونية الاسكتلندية، درجة أمير السر الملكي Prince of Royal Secret.

جمعية الحكمة الإلهية

القبالية الأوكرانية هيلينا بلافاتسكي، التي عرفت طرفاً من أفكارها، ألمانية الأصل، ولدت سنة ١٨٣١م، وكان أبوها دبلوماسياً ألمانياً يعمل في روسيا وأوكرانيا، وهناك اعتنقت القبالاه وتدربت على طقوسها.

ثم، وهي تتنقل مع أبيها في بلدان أوروبا، التقت سنة ١٨٥١م، وهي في العشرين من عمرها، معلمها ومرشدها الروحي كوت هومي Koot Hoomi في لندن، ثم ارتحلت معه إلى الهند واستوطنتها عدة سنوات، حيث فتح أمامها مرشدها معابد الهندوسية، فتلقت تعاليم الفيدانتا ومارست ما يرتبط بها من طقوس على يد مرشدها ونخبة من الرهبان الهندوس.

وقد روت بلافاتسكي تجربتها في الهند ومعابدها في كتابها: من كهوف هندوستان وغاباتها From the Caves and Jungles of Hindostan.

وكوت هومي، معلم بلافاتسكي ومرشدها الروحي، راهب هندوسي أسس، هو نفسه، بالاشتراك مع الماسوني الإنجليزي ألان هيوم Alan Hum والماسوني الإنجليزي ألفريد سينيت Alfred Sinnett جمعية سرية، هي أخوية النور العظمى Great Brotherhood of Light.

وفي أخويتهم هذه، قام مؤسسوها الثلاثة بالمزج بين أفكار منظمة الإليوميناتي Illuminati الألمانية وبين فلسفة الفيدانتا الباطنية الهندوسية، وجعلوا تنظيم هذه كتنظيم تلك، بل واسم أخويتهم ليس سوى اسم منظمة الإليوميناتي، إذ الإليوميناتي معناها: أخوية النور.

والفكرة الأساسية التي استلهمتها أخوية النور العظمى من الإليوميناتي، هي وجود سادة من الحكماء Masters يتوارثون الحكمة القديمة Ancient Wisdom عبر التاريخ، ويحل فيهم نور الإله فشنو، أو تتناسخ فيهم روحه، وهم بذلك مصدر الحكمة للبشرية كلها، والوصول إلى هذه المرتبة وحلول نور الإله فشنو في من يصل إليها يكون عبر التأمل.

وفكرة وجود حكمة أو معارف خفية تتوارثها صفوة من البشر ويسلمها جيل منهم إلى جيل هي، كما تعلم الآن، جوهر القبالاه وينبوع الحركات السرية.

وفي سنة١٨٧٥م كونت القبالية هيلينا بلافاتسكي، بالاشتراك مع الماسوني الأمريكي الكولونيل هنري أولكوت Henry S. Olcott، والقبالي الأيرلندي وليام كوان جادج William Quan Judge، جمعية في الولايات المتحدة، سمَّتها: جمعية الثيوسوفي Theosophical Society، وجعلتها صورة من أخوية مرشدها، فغايتها تعليم الحكمة، ووسيلتها مزج الهندوسية بالقبالاه.

وتفسر بلافاتسكي نفسها هذا الاسم في كتابها: مفتاح الثيوسوفي The key to Theosophical، بأن معناه:

"الحكمة الإلهية Devine wisdom، أو حكمة الآلهة Wisdom of gods"[(١)]

1) **Helena Blavatsky:The key to theosophy,P1.**

وبعد تأسيس الجمعية ارتحل مؤسسوها معاً إلى الهند، وأسسوا أول مقر للجمعية في أديار Adyar في مَدراس Madras، ثم أقاموا لها عدة مقرات في الولايات المتحدة وأوروبا.

فأما لماذا في مدراس تحديداً، فلسببين، الأول: لأنها بيئة ممهدة وتربة مخصبة لاستقبال القبالاه والحركات الباطنية وإنباتها، ففي مدراس أقيم أول محفل ماسوني في العالم خارج القارة الأوروبية والمستعمرات الأمريكية، وكان ذلك سنة ١٧٢٤م، والسبب الثاني ستعلمه لاحقاً.

وعقيدة جمعية الحكمة الإلهية، كما شرحتها بلافاتسكي نفسها في كتابيها: إيزيس سافرة Isis unveiled، والعقيدة السرية، أنه توجد عقيدة سرية متوارثة عبر التاريخ، وهي العقيدة التي كانت تعتقدها وتتوارثها الصفوة الصانعة للحضارة، والمبدعة للعلوم والآداب والفنون في كل الأمم، وهذه العقيدة الصحيحة تحوي الاديان الأخرى كلها، وهذه الديانات كلها ليست سوى صورة محرفة ومشوهة وغير كاملة من هذه الديانة الصحيحة، والتي ستكوِّن عقيدة البشرية كلها في العصر القادم.

فإليك ماذا تكون هذه العقيدة الصحيحة:

"الشيطان أو لوسيفر(•) Satan or Lucyfer هو الحياة والنشاط، وهو الطاقة الدافعة لكل شئ في الكون، لوسيفر هو النار والضوء، والحياة

(•) لوسيفر كلمة لاتينية معنها: جلاب الضوء أو حامل الضياء، وهو في الأصل الاسم الذي كان يطلقه المنجمون الرومان على كوكب الزهرة، لبريقه في السماء قبيل الفجر، وقد جاء في سفر إشعياء وصفاً لحاكم بابل الذي سبى بني إسرائيل، وهو في المسيحية الغربية اسم للشيطان، وفي القبالاه والحركات السرية هو الإله الآخر الذي وهب الإنسان المعرفة.

والكفاح، والفكر والحضارة، والحرية والاستقلال، لوسيفر هو إله كوكبنا، وهو إلهه الوحيد"[1]

فبعد أن طرد الإله الإنسان إلى الأرض وجعلها قاسية عليه وعاصية له ليعاقبه بالوجود فيها، أتم لوسيفر أو الشيطان جميله عليه، كما تقول بلافاتسكي، بأن أصلح له الأرض ومهدها، وأعد بيئتها ومواردها وطاقتها ليتمكن من العيش فيها.

وكما ترى، نذهب ونجئ، ونرحل ونعود، ونلف وندور، ونحن محصورون داخل خريطة الوجود البني إسرائيلية ولا نفارقها، ولا سبيل للخروج منها ومفارقتها إلا الوحي.

فباستثناء أمة الوحي التي يُزيل بها عز وجل إفساد بني إسرائيل وخريطتهم للوجود، صدقت بلافاتسكي فيما تقول، فالشيطان هو الإله الذي تعبده الصفوة في كل الأمم، ولا محيص لها عن عبادته لكي تصنع الحضارة وتبتكر العلوم وتبدع الفنون، لأن شيطان بني إسرائيل هذا هو الذي دل الإنسان على المعرفة ووهبه إياها.

والثيوسوفي أو الحكمة الإلهية، هذه التي رأيت عقيدتها، تحولت بجهود أتباع بلافاتسكي وخلفائها إلى علوم وفلسفات وطقوس تدرس في جامعات الغرب وأكاديمياته في غلاف أنها علوم حرة وحداثة في العبادة.

---

1) The secret doctrine,Vol.1,P245..

ومن أفكار أنجب تلاميذ بلافاتسكي، اليهودية القبالية أليس بيلي Alice Bailey، وحول كتاباتها، كون أتباعها حركة العهد الجديد New Age Movement، التي أقامت، لتعليم الحكمة الإلهية والتدريب على ما يرتبط بها من طقوس، المعاهد ومراكز التدريب ونثرتها في أرجاء العالم شرقه وغربه.

وطقوس نوال الحكمة الإلهية، عبر التأمل من أجل استحضار الإله أو السفر إليه، هي التي ترى المغفلين من الأميين يمارسونها في شوراع بلاد العرب، وهم لا يعرفون ما الذي تعنيه!

فأما أشهر الأعلام من أتباع حركة العهد الجديد وأبناء بلافاتسكي وحكمتها الإلهية، فالسويدي داج همرشولد Dag Hamersjold الأمين العام الثاني للأمم المتحدة، الذي أقام غرفة لممارسة طقوس الثيوسوفي داخل جناح الزوار في الأمم المتحدة، ووضع تصميمها وأشرف على إنشائها بنفسه، ويوثانت Uthant الأمين العام الثالث.

وأما العهد الجديد الذي تدفع جمعية الحكمة الإلهية وحركة العهد الجديد العالم نحوه، فهو العهد الذي تتوحد فيه البشرية في حضارة واحدة، لها عقيدة واحدة وأخلاق واحدة، وحكومة واحدة، بقيادة حاكم عالمي واحد، تزول بمجيئه الحروب بين الأمم والشعوب ويحل بينها السلام.

فأما هذا الحاكم العالمي الواحد، فهو، كما تقول بلافاتسكي، الماتريا الهندوسي Maitreya:

"الماتريا هو الاسم السري لبوذا الخامس Fifth Bodha، وهو التجلي الخاتم والخالد Kalki Avtar الذي سيتجلى فيها براهمان(•)، وهو المسيا الأخير Last Messiah الذي سيأتي عند ذروة الدورة الكبرى Culmination of the great cycle"(١)

فلأن بلافاتسكي تؤمن بالحلول وبتناسخ الأرواح Samsara، فهي تقول إن البشرية تمر في دورات روحية كبرى، وفي كل دورة يحل الإله في بشر ويتجلى فيه، وعند ذروة الدورة الحالية سيعود الماتريا، الذي هو بوذا الخامس، ليهدي البشرية روحياً ويوحدها ويقودها.

والماتريا الهندوسي، أو بوذا الخامس، كما رأيت عند بلافاتسكي، هو نفسه الهامشيحاه اليهودي!

وهو ما تجده صريحاً عند تلميذتها النجيبة اليهودية القبالية أليس بيلي، ففي كتابها: ظهور المسيح The Reappearance of the Christ تقول إن هذا المسيح الذي سيظهر:

(•) أفاتار Avatar مصطلح هندوسي يعني الهيئة أو الشكل الذي يحل فيه الإله ليكون ظاهراً مدركاً، وقد يكون إنساناً أو حيواناً، وهو اسم فيلم شهير من أفلام هوليوود القبالية!، وكالكي Kalki كلمة سنسكريتية معناها: الخالد، والمقصود بها في الهندوسية الإنسان الأخير الذي سيحل فيه براهمان ويتجلى في صورته، وهو في الهندوسية نظير بوذا الخامس في البوذية.

1) The secret doctrine,Vol.1,P412.

"لن يكون كالمسيح الذي رحل، رمزاً حزيناً، حالماً Pensive، سلبياً Passive، يختفي خلف ركام من الكلمات كتبها حفنة من الرجال، بل سيكون قائداً روحياً قوياً وفاعلاً "[1]

فهذا هو المسيح القادم، الذي تقول إنه هو نفسه الماتريا، وهذا هو عهده الجديد وما سيفعله فيه:

"المسيح القادم سيأتي من العرق اليهودي Jewish race، وسيعرف فيه اليهود الهامشيحاه الذي ينتظرونه Their Messiah، وسوف يتوحد فيه الشرق والغرب ويحل به السلام في العالم"[2]

وأما وسيلة الوصول إلى هذا الحاكم العالمي الواحد، الذي هو الماتريا الهندوسي والهامشيحاه اليهودي، كما يدبر أتباع هذه وأتباع تلك، فهي أكبر منظمة سرية في زمانك هذا وأكثرها إمعاناً في الخفاء والسرية، ألا وهي منظمة الأمم المتحدة!!

وهذه قصة أخرى طويلة ليس لها موضع في هذا الكتاب، ونوجزها لك في أن نخبرك أنك إذا رجعت إلى أي مرجع عن الأمم المتحدة فستجده يخبرك أنها أنشئت بعد الحرب العالمية الثانية باتفاق بين رئيس الولايات المتحدة ورئيس وزراء بريطانيا ورئيس وزراء الاتحاد السوفيتي .

فإليك ما لن تجده في المصادر الرسمية والمراجع المعتمدة، رئيس الولايات المتحدة هو الماسوني من الدرجة الثانية والثلاثين فرانكلين روزفلت Franklin

---

1) Alice Bailey: The Reappearance of the Christ, P25,27.
2) The Reappearance of the Christ, P35,42.

Roosevelt، ورئيس وزراء بريطانيا هو الماسوني من الدرجة الثالثة والثلاثين ونستون تشرشل Winston Churchill، ورئيس وزراء الاتحاد السوفيتي هو اليهودي الماسوني جوزيف فسرايونوفيتش دجوجا شفيلي Ioseb Besarionis dze Jughashvili الشهير باسم جوزيف ستالين.

فالأمم المتحدة لم تكن اتفاقاً بين الدول العظمى، بل بين اليهود والماسون في هذه الدول!

وأول أمين عام للأمم المتحدة هو اليهودي المشكوك في يهوديته والماسوني من الدرجة الثالثة والثلاثين تريجفيه لي Trygve Lie، والذي صاغ ميثاق الأمم المتحدة هو اليهودي ليو بالفولسكي Leo Palvolsky، وهو إذ ذاك مساعد وزير الخارجية في إدارة رئيس الولايات المتحدة الماسوني فرانكلين روزفلت، والذي صاغ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان هو اليهودي جون بيترز هيومفري John Peters Humphrey أستاذ القانون في جامعة ماكجيل الكندية!

وأما إذا تساءلت من أين أتت بلافاتسكي وأليس بيلي وأتباعهما بهذه الحكومة الواحدة التي تتوحد بها البشرية ويحل بها السلام بين شعوبها، فمن سيرة بني إسرائيل المقدسة ونبوءات أنبيائهم فيها:

"٢وَيَكُونُ فِي آخِرِ الأَيَّامِ أَنَّ جَبَلَ بَيْتِ الرَّبِّ يَكُونُ ثَابِتًا فِي رَأْسِ الْجِبَالِ، وَيَرْتَفِعُ فَوْقَ التِّلاَلِ، وَتَجْرِي إِلَيْهِ كُلُّ الأُمَمِ، ٣وَتَسِيرُ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ، وَيَقُولُونَ: «هَلُمَّ نَصْعَدْ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ، إِلَى بَيْتِ إِلهِ يَعْقُوبَ، فَيُعَلِّمَنَا مِنْ طُرُقِهِ وَنَسْلُكَ فِي سُبُلِهِ». لأَنَّهُ مِنْ صِهْيَوْنَ تَخْرُجُ الشَّرِيعَةُ، وَمِنْ أُورُشَلِيمَ كَلِمَةُ الرَّبِّ. ٤فَيَقْضِي

بَيْنَ الأُمَمِ وَيُنْصِفُ لِشُعُوبٍ كَثِيرِينَ، فَيَطْبَعُونَ سُيُوفَهُمْ سِكَكًا وَرِمَاحَهُمْ مَنَاجِلَ. لاَ تَرْفَعُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ سَيْفًا، وَلاَ يَتَعَلَّمُونَ الْحَرْبَ فِي مَا بَعْدُ"[١]

---

١) إشعياء: ٢: ٢-٤.

بنو إسرائيل في الهند

أخبرناك من قبل أن العقيدة الهندوسية ظهرت واكتملت وتبلور ما يرتبط بها من شعائر وطقوس ورموز في القرن الثالث والقرن الثاني قبل الميلاد، فإليك كيف كان ازدهارها وعلى يد مَن اكتملت طقوسها ورموزها.

في سنة ٢٦٩ قبل الميلاد خَلَف أشوكا الملقب بالعظيم Ashoka The Great أباه بندوسارا Bindusara على عرش الإمبراطورية التي كونها جده تشاندراجوبتا Chandragupta بتوحيد مقاطعات شبه القارة الهندية وإماراتها بعد حروب طويلة ومعارك دموية.

وبعد اعتلاء أشوكا للعرش شن حملة عسكرية على مقاطعة كالينجا Kalinga الواقعة على السواحل الشرقية لشبه القارة الهندية، وفي حملته هذه وُوجه أشوكا، الدموي كأبيه وجده، بمقاومة عنيفة، انتهت بمعركة هائلة، أباد فيها أشوكا ما يقرب من مائة ألف من أهل كالينجا، وقام بتهجير مائة وخمسين ألفاً آخرين.

وبعد المعركة، كما يقول فنسنت سميث Smith Vincent، في كتابه: حكام الهند Rulers of India، نقلاً عن النقوش التي تحكي سيرة أشوكا على الأعمدة المعروفة باسمه Ashoka Pillars، والتي دُونت بأمره:

"وأشوكا يتجول في ميدان المعركة وأراضي كالينجا أسف جلالته أسفاً Rregret شديداً، وأصابه الحزن والغم Sorrow من كثرة القتلى وجثثهم المتناثرة، والمآسي التي حاقت بعشائرهم وأهليهم"[١]

وتكفيراً عن وحشية حملته، أصدر أشوكا قانون الشفقة Law of piety، وقرر أن يتحول إلى البوذية، وأن ينشرها وينشر الديانة البراهمانية، التي هي ديانة مقاطعة كالينجا، في إمبراطوريته التي تحكم شبه القارة الهندية وتمتد من أرخبيل الملايو شرقاً إلى أفغانستان غرباً، ومن أواسط آسيا شمالاً إلى سيلان جنوباً، ثم حوَّلها في سنة ٢٦٠ قبل الميلاد إلى الديانة الرسمية للإمبراطورية.

ثم أتم ابنه ماهيندرا Mahendra، الذي خلف أشوكا على الإمبراطورية بعد وفاته سنة ٢٣٢ قبل الميلاد، نشر الهندوسية والبوذية وبسط حمايته عليهما في كل مكان يصل إليه أثر الإمبراطورية، لتتحول إلى ديانة عالمية واسعة الانتشار بين أمم وشعوب مختلفة.

فإليك ما لم يذكره التقليديون من مؤرخي الهندوسية والبوذية ومن كتبوا سيرة أشوكا العظيم.

يقول لويس باولز Louis Pauwels وجاك بيرييه Jacque Bergier في كتابهما: صباح السحرة The morning of the magicians، الذي تتبعا فيه العقائد الخفية والمعتقدات السرية وآثارها في العالم عبر التاريخ، إن أشوكا بعد معركة كالينجا، والمقاومة العنيفة التي واجهها، وفشله في استمالة أهلها:

---

1) Vincent Smith:Rulers of India,P130.

"أيقن أن النصر الحقيقي ليس في القهر والغلبة، بل في الفوز بعقول الرجال وقلوبهم Men's heart"[1]

ومن أجل الفوز بالعقول والقلوب تحول أشوكا إلى البوذية والهندوسية ونشرها بين الناس في إمبراطوريته، لأنها، كما علمت، فضفاضة، لا تجبر أحداً على اعتناق عقيدة بعينها، أو الإيمان بإله معين، أو الالتزام بأخلاق أو طريقة للعيش محددة.

أشوكا نشر الهندوسية والبوذية، لكي تكون العقد الاجتماعي، الذي يكون للناس فيه الرفاهة واللهو والانحلال والانفلات، في مقابل أن يكون له ولأسرته حكم الإمبراطورية، والسيطرة بهذا اللهو والانحلال على عقول البشر فيها.

استيقظ**!** فأنت على تخوم بني إسرائيل، وأمام نسخة في دورة الإفساد الأولى من الولايات المتحدة الماسونية في دورة الإفساد الثانية، ليس لأن التاريخ يكرر نفسه، ولكن لأن من يصنعونه هم هم، وأذهانهم ونفوسهم وغاياتهم ووسائلهم هي هي.

ونشر الهندوسية والبوذية كان وسيلة أشوكا الأولى للسيطرة على عقول الناس ونفوسهم، وأما وسيلته الثانية، فكانت، أيضاً كالولايات المتحدة الماسونية، تكوين جمعية سرية.

يقول باولز وبيربيه إن أشوكا كون جمعية سرية من تسعة رجال، كان هو أحدهم، ولذا كان اسمها: جمعية الرجال التسعة The Nine Men Society.

---

1) Louis Pauwels and Jacque Bergier: The morning of the magicians,P37.

وهدف أشوكا من تكوين هذه الجمعية السرية، كما يقولان، أنه:

"مع علمه بفظائع الحروب، كوَّن الجمعية لكي تكون مسئولة عن حفظ المعرفة وتطويرها، ولكي تمنع وقوعها في أيادي الرجال ذوي العلم والذكاء ممن قد يوظفون علمهم وذكاءهم فيما يجلب الشرور"(١)

مرة أخرى، انتبه! فأنت الآن أمام القبالاه.

ويقول باولز وبيربيه إنهم تعرفوا على الجمعية من مصدرين، الأول هو كتابات لويس جاكوليو(•) Louis Jacquolliot، قنصل فرنسا في كلكتا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان من المولعين بتاريخ الجمعيات السرية والمنقبين في كتاباته عنها، وكان هو نفسه عضواً في جمعية براهمانية سرية ووصف درجاتها وطقوسها وطريقة الترقي فيها في كتابه: العلم الخفي في الهند Occult Science in India .

وأما المصدر الثاني لباولز وبيربيه، فهو رواية: الرجال التسعة المجهولون The nine unknown men التي صدرت سنة ١٩٢٧م لتالبوت ماندي Talbot Mundy، وكان ضمن قوة المستعمرات البريطانية العاملة في الهند خمسة وعشرين عاماً.

ويقولان عن رواية تالبوت ماندي هذه إنها:

---

1) **The morning of the magicians,P37.**

•) القبالية هيلينا بلافاتسكي اقتبست من جاكوليو في عدة مواضع من كتابها: العقيدة السرية، وجعلت مؤلفاته من مراجعها.

" مزيج من الخيال والعلم Half fiction half science"[١]

ويقول باولز وبيربيه إن العلوم التي تكونت الجمعية بها ومن أجل حراستها، تمتزج فيها علوم الطبيعة بالخيمياء وتحويل المعادن الخسيسة إلى أخرى نفيسة، والتأملات الفلسفية والعقائدية بالتنجيم وممارسة السحر واستحضار أرواح الموتى.

والمزيج الذي رأيته هذا هو الخلطة التقليدية التي تكونت بها وحولها الحركات السرية التي نبعت من القبالاه ورويت بها في كل العصور.

والمكان الذي أنشأ فيه أشوكا جمعيته السرية هو مقاطعة كالينجا، وكالينجا في الهند القديمة هي مَدراس في الهند الحديثة.

وهذا هو السبب الثاني الذي من أجله أنشأت هيلينا بلافاتسكي جمعيتها للحكمة الإلهية وجعلت مقرها في مدراس.

فجمعية الحكمة الإلهية في مدراس ليست سوى إعادة بعث أو إحياء لجمعية أشوكا السرية في كالينجا!

بقي أن تعلم أن الأسرة التي وحَّد أول أباطرتها تشاندراجوبتا شبه القارة الهندية، وكان أشوكا ثالثهم، وفي عهدها تبلورت وانتشرت الهندوسية التي هي، كما علمت، ليست سوى اسم آخر للقبالاه، هذه الأسرة اسمها: أسرة الموريا Morya Dynasty، والهند في عهدها هي: إمبراطورية الموريا.

---

1) The morning of the magicians,P37

والمؤرخون التقليديون لا يعرفون من أين جاء اسم الأسرة والإمبراطورية، بل ولا يعرفون من أين جاءت الأسرة نفسها!، وبعضهم يخمن أنه اسم لجد أعلى انحدرت من الأسرة، أو أنه اسم لمكان أو بلدة تكونت أصولها فيها.

وتاريخ أكسفورد للهند Oxord history of India، الذي تتبع تاريخها من أقدم العصور، لا يذكر أي شئ عن أصول أسرة الموريا ولا عن أصل اسمها.

وكذا موسوعة ويكيبيديا، التي تحرص في كل مقالاتها ودراساتها عن الأعلام في مشارق الأرض ومغاربها على أن تذكر أصولهم ومعنى أسمائهم في لغاتها الأصلية، لا توجد أي إشارة في مقالاتها عن الأسرة وعن أباطرتها إلى أصول أسرة الموريا ومن أين جاء اسمها أو ما الذي يعنيه.

أما القبالية هيلينا بلافاتسكي، وريثة أشوكا وباعثة جمعيته السرية، فقد نقلت في كتابها: العقيدة السرية، عن الكولونيل تود Colonel Tod، في أصل اسم أسرة الموريا أنه:

"تحريف لكلمة موري Mori، وهو اسم إحدى القبائل في راجبوت Rajpoot"(١)

ونقلت عن المؤرخ الألماني ماكس موللر Max Muller أن الأسرة:

"ربما تكون أخذت اسمها من اسم البلدة التي نشأت فيها وخرجت منها"(٢)

---

1) The secret doctrine,Vol.1,P405.
2) The secret doctrine,Vol.1,P405.

أما بلافاتسكي نفسها فلم تفسر من أين أتى اسم الموريا، ولكنها قالت في وصف الأسرة ما يُعرفك بحقيقتها ويغنيك عن التفسير:

"والبورانا(•) Purana تخبرنا أن الموريا Moryas سوف تحكم الهند يوماً ما، وسوف يكون حكمها روحياً خالصاً، وستكون مملكة التجلي القادم للإله Kingdom of the next avatar"(١)

فارجع إلى ما قرأته لبلافاتسكي عن الماتريا والأفاتار، وسوف تدرك أن أسرة الموريا ليست سوى أسرة الهامشيحاه، التي بعثرها الله عز وجل في الأرض(•)، فحولوا النبي الخاتم، الذي أمرهم الله عز وجل بانتظاره واتباعه وإبلاغ الأمم بخبره، إلى البطل الذي سيبعثه إلههم ليعيدهم إلى حكم الأرض المقدسة، وجعلوا ظهوره عقيدة لأمم الأرض كلها، فصارت كل أمة، بدلاً من أن تترقب النبي الخاتم المبعوث بالحق، تنتظر البطل الذي سيعيد عرقها المقدس إلى السلطة والحكم.

وهو ما يفسر لك شعار أشوكا الإمبراطوري، الأسود الأربعة، فالأسد هو شعار يهوذا وسبطه، والحكم في بني إسرائيل لا يكون إلا فيهم، ولا يكون الحاكم إلا منهم، وكل من يصل إلى سدة الحكم من بني إسرائيل، الصرحاء أو

●) البورانا Puranas كلمة سنسكريتية معناها: في قديم الزمان أو: كان يا ما كان!، وهي نصوص هندوسية مقدسة في شكل أقاصيص عن الإله والخلق، ظهرت في فترة تقع بين القرن الثالث والقرن الخامس بعد الميلاد، وككل نصوص الهندوسية لا يُعلم من الذي ألفها.

1) The secret doctrine,Vol.1,P405

●) في القرن السابع قبل الميلاد غزا سنحاريب الأشوري مملكة إسرائيل الشمالية وشتت أسباطها العشرة، ولا يُعلم ماذا كان مصيرهم، ولا توجد وثائق ولا أخبار ولا روايات تقول أين ذهبوا، وهذه الأسباط التي يسمونها في التاريخ: الأسباط المفقودة أو الضائعة، حاضرة في الحركات السرية، فاعلة في مطابخ الأحداث وكواليس التاريخ.

الأخفياء، في أي مكان من العالم، وإن لم يكن من سبط يهوذا، فلابد أن يتخذ أسدهم شعاراً له، ليعلن أنه منهم أو أنه إنما يحكم نيابة عنهم!.

وأما ما لم تنتبه إليه بلافاتسكي، ولا من نقلت عنهم من المؤرخين، فهو أن الموريا، اسم أسرة الهامشيحاه الهندي الذي لا يعرف معناه ولا أصله أحد، ليس سوى اسم جبل الهيكل في التوراة!

"وَشَرَعَ سُلَيْمَانُ فِي بِنَاءِ بَيْتِ الرَّبِّ فِي أُورُشَلِيمَ، فِي جَبَلِ الْمُرِيَّا حَيْثُ تَرَاءَى لِدَاوُدَ أَبِيهِ"[١]

وهذا هو نص العبارة وضبط الاسم في طبعة الملك جيمس للكتاب المقدس:

"Then Solomon began to build the house of the Lord at Jerosalem in the mount Moriah,where the Lord appeared unto David his father"[2]

فالأسرة التي ازدهرت في عهدها الهندوسية والبوذية واكتملت طقوسها، وبسطت حمايتها عليها، ونشرتها وحولتها إلى ديانات عالمية، هي إحدى أسر جبل الهيكل!

---

١) أخبار الأيام الثاني: ٣: ١.

2) Chronicles2:3:1.

وشيطان بني إسرائيل في الغرب

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴾

(النساء: ٣٨)

خريطة الوجود الإغريقية

لا توجد قصة تضارع أسطورة بروميثيوس، أو سارق النار، في موقعها من الغرب، ولا في أثرها في فهمه للوجود والحياة، أو تقاربها في تكوين من صنعوا وعيه وتاريخه من الساسة والعلماء والأدباء والفنانين، وفي إلهامها لهم فيما صنعوه وأنتجوه.

ومنذ مطلع عصر النهضة Renaissance، صار بروميثيوس رمزاً لحرية الإرادة والفكر والتعبير، وللتمرد على القيود والأغلال.

وفي الطريق نحو الثورة في فرنسا، وظف الماسون من فلاسفة التنوير ومن وضعوا الموسوعة أسطورة بروميثيوس في تسريب روح الثورة على المسيحية والبابوية والعروش الملكية.

فإليك طرفاً من الآثار الهائلة لأسطورة بروميثيوس في وعي الغرب وما أنتجه أهله.

لأن بروميثيوس هو الذي سرق النار ووهبها للإنسان، فقد صار في العلوم رمزاً خالداً للمعرفة والبحث والمغامرة والاستكشاف، فتم إطلاق اسمه على أحد أقمار كوكب زحل، وبروميتيا Prometea، مؤنث بروميثيوس، هي أول فرس يستنسخها البشر في إيطاليا سنة ٢٠٠٣م، وبروميثيوس اسم جائزة لأفضل كتاب علمي، ولجمعيات فيزيائية وفلكية، ولمراكز أبحاث طبية ودوائية، ولدور نشر علمية وأدبية.

وفي الآداب مسرحية: بروميثيوس مقيداً Prometheus Bound لإسخيلوس Aeschylus هي إحدى أشهر الأعمال الإغريقية التي تخلد عذاب بروميثيوس وعقابه على أن وهب الإنسان المعرفة، وعلى غرارها ورداً عليها كتب الإنجليزي بيرسي شيللي Percy Shelley في القرن التاسع عشر مسرحيته: بروميثيوس طليقاً Prometheus Unbound، التي حرره فيها وجعله رمزاً لتغلب الإنسان بالذكاء والمعرفة على طغيان الأديان ورجالها، وبروميثيوس في إحدى أقاصيص فرانز كافكا هو رمز المعرفة دون يقين، والحرية مع الشقاء، والاستقلال مع جهل المصير.

وقصيدة: بروميثيوس للورد بايرون Lord Byron الإنجليزي، جعله فيها رمزاً لحرية الإرادة ومواجهة الصعاب، ولجوته Goethe الألماني قصيدة باسم: بروميثيوس، هو المتكلم فيها مخاطباً زيوس، رمزاً لتحدي التقاليد والتعاليم، وقدرة الإنسان أن يصل إلى الخلاص والسعادة من غيرها.

وأما في الفنون، فأسطورة بروميثيوس، رمزاً للحرية والانطلاق والثورة على القيود والخروج على الكنيسة وعقيدتها وتقاليدها ورجالها، كانت الشرارة التي أوقدت شعلة الإبداع في أذهان ما لا يُحصى من الرسامين والمثالين والموسيقيين، فاستلهموها في أعمالهم وتفننوا في تصويرها والنسج حولها.

ومن أشهر هذه الأعمال في الموسيقى سيمفونية: مخلوقات بروميثيوس The Creatures of Prometheus لبيتهوفن Beethoven، وسيمفونية: بروميثيوس الغنائية لفرانز ليست Franz Liszt، وأوبرا: بروميثيوس لكارل أورف Carl Orff.

ومن أشهرها في الرسم لوحة: بروميثيوس في السلاسل *Chained Prometheus* لبيتر روبنز Peter Rubens، ولوحة: بروميثيوس لجوستاف مورو Gustave Moreau، وفي النحت تمثال: بروميثيوس لباول مانشيب Paul Manship، ومثله لجاك ليبشتز Jacques Lipchitz.

ولأن وثبات الغرب على بلاد العرب بالجيوش والسلاح، كما علمت، لم تكن سوى وسيلة لإلحاق وعيها بوعيه، ولإعادة تكوينها بما تكون به هو نفسه من خريطة الوجود البني إسرائيلية وآثارها وتوابعها، فقد حل بروميثيوس وأسطورته في وعي نخب هذه البلاد، التي تم تكوينها بالتحريف، في المحل نفسه الذي حل فيه من وعي نخب الغرب، وصار له الموقع نفسه والأثر نفسه.

فإليك ما تعرف منه قدر بروميثيوس، وموقع أسطورته في أذهان العرب الذين أنتجهم وصول دورة الإفساد البني إسرائيلي وموجات التحريف إلى بلادهم.

يقول الشاعر نزار قباني في قصيدته: حوار ثوري مع طه حسين التي نظمها وألقاها في ذكرى وفاته، يشبهه فيها ببروميثيوس:

أيّهـا الأزْهَــرِيُّ يـا سـارقَ النّــارِ
ويــا كاســراً حــدودَ الثوانـــي

أنــتَ أرضعتَنــا حليــبَ التّحــدّي
فَطَحَنَّــا النجــومَ بالأســـنانِ

واقتَلَعنـــا جلودَنـــا بيدَيْنـــا
وفَكَكْنـــا حجـــارةَ الأكـــوانِ

ورَفَضْنا كُلَّ السّلاطينِ فـي الأرضِ
رَفَضْنـــا عِبـــادةَ الأوثـــانِ[1]

فالمعرفة التي قبسها طه حسين من الغرب، والفهم الذي أخذه عنهم للوجود والحياة، صارت في وعي من صنعهم الغرب من أبناء بلاد العرب النار التي سرقها بروميثيوس من رب أرباب الإغريق ووهبها للإنسان ليبتكر العلوم ويبدع الآداب والفنون، وليواجه بها السلاطين ويتحرر من الأديان، ويتمرد على الأزهر ويخرج على الأعراف.

وقصيدة الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي الشهيرة التي يتحدى فيها الداء والأعداء، والتي مطلعها:

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشمَّاء

اختار لها عنواناً: نشيد الجبار، ولكنه جعل لها معه عنواناً آخر هو: هكذا غنى بروميثيوس[2]

ويقول الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي في وصف رفاعة الطهطاوي:

---

١) الشاعر نزار قباني: من قصيدة: حوار ثوري مع طه حسين، الأعمال السياسية الكاملة: ج٣، ص٤٧٦-ص٤٧٦-٤٧٨.

٢) ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، ص٢٩.

"الطهطاوي سرق لنا النار، لكن الطهطاوي لم يكن أول سارق لها ولن يكون الأخير، فالنار التي سرقها الطهطاوي هي النار التي سرقها بروميثيوس، وربما كانت هناك علاقة ما بين بروميثيوس وموسي الذي رأي النار في سيناء، فذهب ليأتي منها بقبس يسير علي هداه، النار التي سرقها بروميثيوس إذن واقتبسها موسي هي المعرفة ، وهي الحكمة، وهي النور الذي نهتدي به في الظلمة، ونتحرر من الخوف ، ونتقدم إلي الامام ، وننتصر علي البؤس والخرافة والطغيان"[1]

وعبارة أحمد عبد المعطي حجازي هذه أتيناك بها من أجل شيئين متناقضين، الأول أنها نموذج على الهذيان باسم العقل والخبل في أردية الثقافة، فالشاعر الذي يكلمك عن المعرفة والحكمة ويتغنى بالكلمات المزركشة عن الانتصار على البؤس والخرافة جعل موسى نبي الله الكليم الذي كان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد سارقاً من بروميثيوس الأسطوري الذي ظهرت أسطورته لأول مرة في القرن السابع قبل الميلاد، بعد موسى عليه السلام بستة قرون!!

وأما الشئ الثاني، فهو أن الشاعر، وهو يهذي عن موسى وبروميثيوس والنار، وضع يده من حيث لا يدري على ما تاه عنه المؤرخون، وضل عنه الباحثون المنقبون عن أصول الأساطير ومنابعها التي تدفقت منها في الأمم، وهو ما سنفصله لك في موضعه.

---

١) الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي: الطهطاوي مترجم أم داعية، الأهرام: العدد ٤٤١٤٤، ١٧ أكتوبر ٢٠٠٧م.

وما نعرفك به هنا ليكون عوناً لك على فهم ما سنخبرك به وعلى تقبله، هو الفرق بين الأسطورة والخرافة.

الأسطورة تحريف لأصل حقيقي، أو تغيير لتفاصيله أو صفة مكوناته، أو ابتكارات حول هذا الأصل أو تفريعات منه، أما الخرافة فاختلاق وابتكار محض لما لا اصل له.

يقول دكتور عبد المعطي شعراوي في كتابه: أساطير إغريقية:

"الأسطورة هي قصة حقيقية خيالية في نفس الوقت، فكيف يكون الشئ حقيقياً وخيالياً في نفس الوقت، الأسطورة قصة حقيقية، إذ أنها تحتوى على عنصر الحقيقة، فلابد أن يكون هناك عنصر حقيقى في كل أسطورة، هذا العنصر الحقيقى هو مركز الأسطورة، ثم تأتى الأجيال المتعاقبة لتتناول تلك القصة الحقيقية وتغلف ذلك المركز الحقيقى بقشور هي في الحقيقة من بنات أفكار تلك الأجيال أو معتقداتها، فإذا حاول الدارس للأسطورة أن ينزع تلك القشور واحدة بعد الأخرى فإنه سوف يصل بلا شك إلى عنصر الحقيقة التي تكونت منه الأسطورة في الأصل، وهذه الحقيقة قد تكون حقيقة تاريخية أو علمية أو اجتماعية أو دينية "[١]

والدكتور عبد المعطي شعراوي طبق ما فهمه من معنى الأسطورة على بعض أساطير الإغريق، كأسطورة حصان طروادة، وذكر كيف تكونت حول حقيقة تاريخية، هي حرب وقعت فعلاً بين طروادة في آسيا الصغرى وممالك

---

١) دكتور عبد المعطي شعراوي: أساطير إغريقية: ج٢، ص٦.

الإغريق في جنوب أوروبا، وأسطورة عشق أوكيانوس إله البحر أو المحيط لسيليني إلهة القمر، وقال إنها محاولة من خيال الإنسان البدائي لتفسير ظاهرة طبيعية، هي ارتباط المد بظهور القمر في مرحلة الاكتمال حين يكون بدراً، واقتران الجذر باختفاء القمر.

واقتبسنا هذا الاقتباس الطويل وأتيناك بهذه الأمثلة، ليس فقط لنعرفك بمعنى الأسطورة، ولكن لنقول لك إن صاحبه طبق تفسيره للأسطورة على أساطير صغيرة داخل الأسطورة الكبرى، وعلى تفاصيل وفروع من الشجرة الكاملة، وما لم يرد على خلده هو ولا أمثاله، أن يعمموا هذا الفهم والتفسير على أصل الأساطير الإغريقية، فلم ينتبهوا إلى وجود أصل حقيقي يجب أن ينقبوا عنه، ولا فطنوا إلى أن ثَمة نبعاً لها ينبغي أن يستكشفوها ويسيروا معها إلى أن يصلوا إليه، بل عدوها اختلاقاً محضاً، كما يقول في صراحة: ب. كوملان في كتابه: الأساطير الإغريقية والرومانية:

"الأساطير هي في الحقيقة مجموعة من الأكاذيب، ولكنها أكاذيب كانت لقرون طويلة حقائق يؤمن بها الناس، وكان لها في عقلية الإغريق والرومان ما للعقائد والحقائق من قيمة"[1]

والمؤرخون من العرب يسمونها: أساطير، لكنهم يتعاملون معها فعلاً على أنها خرافات، أما الغربيون فيسمونها باسمها الذي يتفق مع ما يعتقدونه فيها، فهي عندهم: خرافات Mythology، لا أساطير Legends.

١) ب. كوملان: الأساطير الإغريقية والرومانية، ص٥.

وما نقوله لك نحن: إنها أساطير حقاً، تكونت حول أصل، وهذا الأصل هو خريطة الوجود البني إسرائيلية، وهذا الأصل تكون بتحريف أصل آخر والعبث به عمداً، وهو خريطة الوجود الإلهية.

وقبل أن تعرف من يكون بروميثيوس هذا، وماذا تكون أسطورته التي خلبت لب الأميين في الغرب والشرق، لابد أن تعرف أولاً الجزء الأول من خريطة الوجود الإغريقية، ألا وهو كيف عرف الإغريق الألوهية والخلق، وعلى يد مَن.

"التقى أورانوس Ouranos، الذي هو السماء، بجايا Gaia، التي هي الأرض، فأنجبت ثلاثة أنواع من النسل: السيكلوبس Cyclopes، أو العمالقة ذوي العين الواحدة، والعمالقة ذوي الأذرع المائة Hekatokheires، والجبابرة التيتان Titans، وتمرد السيكلوبس على أبيهم الظالم، فأطاح بهم إلى تارتاروس Tartarus في العالم السفلي، وبتحريض من الأم جايا قام أبناؤها السبعة التيتان بقيادة أخيهم الأصغر، كرونوس Cronos، بثورة على أبيهم، فغافلوه وهو نائم وقتلوه، ونصبوا كرونوس، أي: الزمن، زعيماً للتيتان الجبابرة وله السلطةً على الكون، ولأن أباه أورانوس تنبأ له أن أحد أبنائه سينتزع منه السلطة، قرر كرونوس، بعد أن تزوج إحدى شقيقاته ريا Rhea، أن يبتلع أولاده، وبعد أن ابتلع كرونوس خمسة من أولاده، قدمت له زوجته ريا حجراً ملفوفاً في ملابس رضيع ليبتلعه بدلاً من وليدها السادس زيوس، الذي سلمته للأرض جايا لتحميه، وبعد ان شب زيوس Zeus احتال بمعونة أمه حتى صار ساقياً لأبيه كرونوس، فوضع له في الشراب ملحاً

وخردلاً، فتقيأ وأخرج أولاده الذين ابتلعهم شباباً قوياً، ليقود بهم زيوس حرباً ضد أبيه وعشيرته من الجبابرة التيتان، انتهت بزيوس إلهاً لمملكة السماء وكبيراً للآلهة، وتنصيبه أخاه بوسيدون Poseidon إلهاً للبحار والمحيطات، وأخاه هاديس Hades إلهاً لممكة الموتى والعالم السفلي، ثم تزوج زيوس من هيرا Hera ربة البيت والزواج، وأنجب منها هيفاستوس Hephaestus إله النار والمعادن وراعي الصناعة والحدادة، وأريس Aries إله الحرب، وتزوج ابنة عمه ليتو Leto، وأنجب منها أبولو Appolo إله الشمس وراعي الآداب والفنون، وأرتيميس Artemes إلهة الصيد والعفة والطهارة، وأنجب هرمس Hermes ليكون إله الزراعة ورسوله إلى الآلهة الأخرى وإلى البشر من عشيقته مايا Maya التي هي أرضية من البشر، وصاهر زيوس البشر فتزوج، سراً لكي لا تغضب عليه هيرا، من سيميلي Semele ابنة كادموس Cadmos ملك طيبة، وأنجب منها ديونيسوس Dionysos إله المرح والخمر[1]

وهكذا، كما يقول روبن هارد Robin Hard، في كتابه: خرافات الإغريق Greek Mythology:

"اكتملت قبيلة الآلهة في جبل الأوليمب"[2]

---

١) ملحمة: مولد الآلهة Theogony، وهي خريطة الوجود الإغريقية، نشر نصها الإغريقي مع ما يقابله من الترجمة الإنجليزية هيوج إيفلين وايت Hugh Evylen White، سنة ١٩١٤م، ضمن ترجمته للأعمال الكاملة لهزيود، انظر:

Hugh Evelyn White: Hesiod, The Homeric Hymns and Homerica with an English translation, P78-153.

2) Robin Hard:Greek Mythology,P141.

وقبيلة آلهة الإغريق هذه، هي وكل ما يدور حولها من حكايات، يقول المؤرخون، ولا تعجب، إنها وُلدت على يد رجل واحد، ليس أي رجل، بل قروي ساذج!

فيقول دكتور عبد المعطي شعراوي:

"وهكذا قدم لنا القروي الإغريقي البسيط هزيود تساؤلات وملاحظات حول كيفية حدوث كل شئ، وحاول أن يصل إلى تفسير لكل ظاهرة أو عادة أو شعيرة أو تقليد، ولعله أول إغريقي يفعل ذلك، إذ إن هوميروس لم يفعل في الإلياذة والأوديسا مثلما فعل هزيود في قصائده، ومن هنا جاءت أهمية هزيود كصانع للأساطير الإغريقية"(١)

فهزيود، كما يقول روبن هارد:

"هو الذي وضع قوائم Listed معظم الآلهة في ملحمته: مولد الآلهة Theogony، وقسمها إلى مجموعات، وهو الذي حدد أنسابها، ومنحها أسماءها"(٢)

وقبل أن تعرف هزيود ينبغي أن تعلم ثلاثة أشياء.

فأما الأول، فهو أن أساطير هزيود عن الألوهية والخلق، مع الإلياذة، والأوديسا(•) لهوميروس، كانت هي النواة التي قامت عليها وتكونت حولها حضارة الإغريق كلها، فهذه الأساطير، كما يقول ديورانت:

---

١) أساطير إغريقية: ج١، ص١٨.

2) Greek Mythology,P36.

"أصبحت عقيدة اليونان الأولين، وفلسفتهم، وآدابهم، وتاريخهم، جميعاً، ومنها استمدوا الموضوعات التي زينوا بها مزهرياتهم، وهي التي أوحت إلى الفنانين ما لا يحصى من الرسوم، والتماثيل، والنقوش"[١]

وأما الشئ الثاني، فهو أن الرومان أو روما، كما يقول ب. كوملان:

"قد جعلت أغلب آلهة الإغريق أرباباً لها، إلا أنها عندما أدخلتها في طقوسها الدينية وآدابها أطلقت عليه أسماء لاتينية ظلت لاصقة بها"[٢]

بل إن الدولة الرومانية كلها لم تكن سوى امتداد للإغريق، فهي بناء سياسي وعسكري هائل، قلبه وعقله إغريقي، فحيثما توسعت الإمبراطورية الرومانية وحلت كانت تفتح، بالجيوش والسلاح، الطريق أمام ثقافة الإغريق!

وأما الثالث، فهو أن ثقافة الإغريق وفلسفاتهم وآدابهم وفنونهم، التي نبتت من خريطة هزيود للوجود ورويت بها، كانت هائلة الآثار، لا في الإمبراطورية الرومانية وحدها، بل في كل الأمم والشعوب وفي كل العصور، ما عدا عالم وحيد، مسته دون أن تؤثر في تكوينه ومساره وتاريخه، ألا وهو العالم المعصوم من خرائط الوجود المزورة بالوحي وخريطة الوجود الإلهية المحفوظة.

يقول الأمي ول ديورانت:

●) الإلياذة ملحمة تروي قصة حرب طروادة وما أحاط بها من أساطير، والأوديسا تروي أسطورة أوديسيوس Odysseus حاكم جزيرة إثاكا Ithaca .

١) قصة الحضارة: ج٦، ص٣٢٠.

٢) الأساطير الإغريقية والرومانية، ص٧.

"كان اليونان، ولا يزالون، شعباً مغامراً يقظاً، فهاجروا بمئات الآلاف إلى آسيا، ومصر، وإبيروس، ومقدونيا، والدم الهليني واللغة اليونانية والثقافة اليونانية قد شقت طريقها إلى داخل آسية الصغرى، وفينيقية وفلسطين، واخترقت سوريا، وبابل، وتخطت نهري الفرات ودجلة، بل وصلت إلى بكتريا والهند نفسهما"[١]

فإليك القروي الساذج الذي وضع خريطة الوجود التي حكمت وعي الإغريق والرومان، وكونت أذهانهم ونفوسهم، وكانت النبع الذي تدفقت منه فلسفاتهم وآدابهم وعلومهم وفنونهم، ثم انسابت في الأمم والشعوب.

هزيود Hesiod قروي أو فلاح، المعلومات عنه شحيحة، فسيرته مجهولة، وأصوله غير معلومة، وما أنتجه من أعمال لا يتفق مع سيرته وتاريخه، ويقول دكتور عبد المعطي شعراوي إن بعض مؤرخي الأدب:

"يثير غبار الشك حول صحة ما جاء في أعمال هزيود عن أصله ونسبه وحياته الشخصية"[٢]

ولأن اسم هزيود ارتبط بالأساطير، وأعماله كانت النبع الذي تدفقت منه الأساطير في الإغريق والرومان، فقد ملأ المؤرخون الفجوات في سيرته، وفسروا أعماله الهائلة بأسطورة من الأساطير!

يُرجح المؤرخون أن هزيود عاش بين القرن الثامن والقرن السابع قبل الميلاد، وكان أبوه دبوس، كما يقول هو نفسه في ملحمته: الأعمال والأيام،

---

١) قصة الحضارة: ج٨، ص٧-٨.

٢) أساطير إغريقية: ج١، ص١٤.

فلاحاً في سيمي Cyme في إيوليا Iulia في آسيا الصغرى، أصابته فاقة، فهاجر إلى أسكرا Ascra في إقليم بويتيا Boetia الإغريقي، حيث امتهن الفتى هزيود مهنة أبيه، الزراعة ورعي الأغنام.

ثم، وهو ما زال في شبابه، أنتج هزيود عدة ملاحم، أشهرها: الأعمال والأيام Warks and Days، ومولد الآلهة Theogony، وكتالوج النساء Catalogue of women، ثم كتب كتاباً عن التنجيم وقراءة الطوالع، ويعتبره بعض المؤرخين الاقتصادي الأول في تاريخ العالم لاحتواء كتاباته على أفكار في الاقتصاد لا يُعرف له فيها سابق.

وهذه، كما أخبرناك من قبل، خلطة القبالاه والأشخاص الذين تكونوا بها والأفكار التي خرجت منها والجمعيات التي أقيمت لبثها في كل العصور.

فكيف أنتج الفلاح وراعي الأغنام ملاحمه التي توله بها الفلاسفة والمفكرون والأدباء والفنانون؟

وهزيود يرعى الأغنام في سفح جبل هيليكون Helicon ظهرت له الموسيات Muses، وهن ربات الشعر:

"ونفثت في جسمه روح الشعر"[١]، "ولقنته أنشوداته الرائعة"[٢]!!

فهل أدركت الآن مَن القروي الساذج، هزيود أم المؤرخون الأميون؟!

---

١) قصة الحضارة: ج٦، ص١٨٤.
٢) أساطير إغريقية: ج١، ص١٥.

ألف ليلة وليلة

كما ترى، الهندوسية، التي هي ديانة عالمية يعتنقها مئات الملايين من البشر، لا يعرف أحد من الذي وضع نصوصها وابتكر طقوسها، وصانع الأساطير الإغريقية التي تكونت بها حضارة الإغريق والرومان مشكوك في أصله ونسبه ولا يعلم أحد من يكون!

فاعلم أن سيرة هزيود التي قرأتها، الرجل الذي يسافر بين البلدان، ويتنقل عبر القارات، ثم يهبط على مكان لا يعلم أحد فيه أصله ولا بلده ولا ديانته ولا مواهبه، بل ولا اسمه الحقيقي، ثم يعمل عملاً، أو يكون الواجهة التي يظهر من خلالها عمل، يغير وعي المكان الذي هبط عليه، ويصير نبعاً يتكون به أهله ويتدفق في ما يعتقدونه ويفهمونه، وفي ما يبدعونه ويبتكرونه، هذه السيرة هي السيرة التقليدية لرؤوس الحركات السرية في كل العصور، وهي السيرة التي انسابت عبرها خريطة الوجود البني إسرائيلية، وما كونته القبالاه حولها من ابتكارات، في كل الأمم والشعوب.

وهذه السيرة نفسها هي سيرة جماعات وطوائف كاملة من اليهود، تتنقل بين البلاد والقارات، وتعتنق ديانات الشعوب التي تحل بينها، وتمارس عاداتها، وتتسمى بأسمائها، وتبدو وكأنها جزء من نسيجها، وهي فيما بينها تدين باليهودية، وتتزاوج في ما بينها، وتتوارث أسماءها اليهودية وأنسابها.

فإذا رجعت إلى كتابينا: الوحي ونقيضه، واليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية، ستجد أمثلة نموذجية على هؤلاء الرجال وهذه الجماعات،

كأسر الملك الإلهي في أوروبا، ويهود الدونمة في تركيا العثمانية، واليهود الذين هبطوا على مصر في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، فشوهوا وعيها وأفسدوا عقلها ومسخوا روحها.

ثم اعلم أن العمل الذي يعمله هذا المتنقل في المكان الذي هبط عليه، فرداً كان أو جماعة، قد يكون جمعية علمية أو جماعة أدبية أو منظمة سياسية أو طريقة دينية، يدس من خلالها ما يريد دسه من أفكار في أذهان من يخلب لبهم بريق راياتها وزخرف شعاراتها فيدخلونها، ثم يكونون هم أداة بث هذه الأفكار وتغيير وعي عموم الناس بها.

ولكن أوسع هذه الأعمال التي يعملها هؤلاء المتنقلون انتشاراً، وأشدها خطراً، وأبقاها أثراً، أدوات اللهو ووسائل الترفيه والتسلية، يمتعون بها عموم الناس بإثارة خيالهم، وإلهاب مشاعرهم، ومداعبة عواطفهم، وتحريك غرائزهم، ومن خلال هذه الإثارة والإلهاب، وفي ثنايا هذه المداعبة والتحريك، يصنعون وعي هذه العوام بفحوى خريطة الوجود البني إسرائيلية ومكوناتها وآثارها، ويسربون القبالاه وعوالمها وأخلاقها إلى أذهانهم ونفوسهم.

فإذا وعيت ذلك وفهمته، ولم يذهلك اختلاف الأسماء والألقاب، وتبديل الأردية والثياب، عن أن الذي في داخلها هو هو، فستفطن وحدك أنه في دورة الإفساد الأولى أساطير هزيود، هي نفسها في دورة الإفساد الثانية أفلام هوليوود!

أما إذا كان وعيك فوق الزمان، ولا يقيده المكان، ولا يخدعه تباين الأشكال والألوان، واختلاف اللغة واللسان، فستدرك ان أساطير هزيود وأفلام هوليوود هي نفسها ألف ليلة وليلة!

فألف ليلة وليلة، التي كتبت بلغة عربية عامية دارجة لكي تكون قريبة للعوام وأقدر على تغيير وعيهم والتأثير فيهم، وامتلأت بالمشاهد الجنسية والألفاظ الفاحشة، والتي حولت الخليفة العادل المجاهد وأحد أعظم الحكام في كل العصور، هارون الرشيد، إلى رمز للهو والفساد وطلب الملذات، ألف ليلة وليلة يهودية، تعرف يهوديتها من أفكار اليهود وآثارهم فيها، ومن سريان القبالاه في شخوصها وحكاياتها، فالقبالاه هي روح ألف ليلة وليلة.

ومنهجنا، كما لابد تدرك الآن، تتبع الأفكار والآثار، وهو منهج الوحي، وليس تتبع الأشخاص والأسماء، وهو منهج الأميين.

ويهودية ألف ليلة وليلة في أهدافها وأسلوبها، وتسريب القبالاه إلى الأذهان ملفوفة في حكاياتها، قولٌ سبقنا إلى القول به دكتور جمال البدري في دراسته الرصينة: اليهود وألف ليلة وليلة، وزاد علينا التنقيب عمن يكون هؤلاء اليهود الذين أنتجوها.

بعد أن فحص دكتور جمال البدري، وهو عضو في اتحاد الكتاب والمؤرخين في العراق، ألف ليلة وليلة، جعل فرضية دراسته هي أن:

"مؤلف الليالي ليس فرداً واحداً مشخصاً، بل هي مؤسسة لها صفة الديمومة والاستمرارية، بغض النظر عن الأشكال والتطورات التاريخية والسياسية والثقافية المحيطة بها"[1]

وكما ترى، فرضية دكتور جمال البدري التي خرج بها من دراسة ألف ليلة وليلة، هي نفسها ما أخبرناك وما نخبرك به عن نصوص الهندوسية وطقوسها، وعن هزيود وملاحمه، وهي لب ما يخبرك به بيان الإله إلى خلقه عن الطائفة من بني إسرائيل التي تتوارث صناعة الضلالات والأباطيل وبثها، وبها تسيطر على وعي البشر في كل العصور.

وبعد أن تعقب دكتور جمال البدري خط سير نسخ ألف ليلة وليلة تاريخياً، وحدد البؤرة التي خرجت منها النسخة الأولى، وبعد أن قام بتحليل فحوى حكاياتها وشخصيات أبطالها، وانتبه إلى اتساع جغرافية حكاياتها التي تكاد تستوعب كل ما هو معروف من العالم في وقتها، بلاداً وجزراً وبحاراً، بما يستحيل معه أن يكون من ألفها شخص واحد ولا فئة مستقرة في بلد بعينه أو بقعة جغرافية محدودة، وبعد أن تتبع أفكار اليهود وآثار التلمود في تلافيفها، كانت النتيجة التي وصل إليها هي:

"ألف ليلة وليلة تم تأليفها في نفس بيئة تأليف التوراة والتلمود البابليين، ووفق طريقتهما المرحلية، وتمت كتابتها بشكلها الأَوْلي من قبل سنهدرين

---

١) دكتور جمال البدري: اليهود وألف ليلة وليلة، ص١٥.

اليهود تحت إشراف رأس الجالوت(•)، وبمساعدة الحاخام المصري سعديا الفيومي المقيم في مدرسة سورا بالكوفة، ثم تمت عملية نشرها وإذاعتها في مجالس بغداد"[1]

وهذه هي غاية من ألفوها:

"ثمة أهداف سياسية دينية نفسية تقف من وراء التأليف، باتجاهين: الأول: التخفيف من العداء ضد اليهود من قِبل الأوساط غير اليهودية ثقافياً، والثاني: كسب المعتدلين من مختلف الطبقات والفئات والمستويات لتقبل المقولات اليهودية، وبالتالي تقبل الفكر والسلوك اليهودي"[2]

وما نزيده لك نحن، أن ألف ليلة وليلة لم تكن فقط من أجل تقبل الفكر والسلوك اليهودي، بل من أجل إزاحة خريطة الوجود الإلهية، و بث خريطة الوجود البني إسرائيلية وتسريب فحواها وآثارها وأخلاقها من خلال حكاياتها، وهو، كما أخبرناك، عمل بني إسرائيل الرئيسي في التاريخ.

•) السنهدرين هو مجمع الربانيين والأحبار الذي يدير شؤون الطائفة اليهودية دينياً ودنيوياً، ورأس الجالوت هو الاسم الذي كان يطلق على رأس الطائفة اليهودية ورئيس السنهدرين في الدولة العباسية، ورأس الجالوت الذي ظهرت في عهده ألف ليلة وليلة هو الربي هاي بن شريرا.

١) اليهود وألف ليلة وليلة، ص١٥١.

٢) اليهود وألف ليلة وليلة، ص١٥٢.

هي خريطة بني إسرائيل

ونعود بك مرة أخرى إلى هزيود والملحمة التي كان واجهة لها، وعرفها المؤرخون باسمه، لتعرف كيف أن هذه الملحمة: مولد الآلهة إنما وُلدت من رحم خريطة بني إسرائيل للوجود.

في مولد الآلهة وما تحويه من أساطير تنسب لهزيود عناصر ومكونات وعلاقات بين هذه المكونات ليست من خيال شعراء، ولا سبيل لأن يعلمها أحد أو أن يبتكر حولها ويصوغها شعراً إلا إذا كان راضعاً من خريطة الوجود البني إسرائيلية ومفطوماً عليها، وعلى رأس هذه العناصر والمكونات بروميثيوس وأسطورته!

فإليك أولاً القبالي ورأس حركة الروزيكروشيان فرنسيس بيكون، الذي يعرفه الأميون على أنه أبو العلوم التجريبية، يخبرك في مقدمة كتابه: حكمة القدماء Wisdom of the ancients، الذي قال إنه ألفه ليكشف فيه المعاني الخفية والتعاليم السرية المخبوءة خلف أساطير الإغريق، أن هزيود لم يكن سوى واجهة للأساطير التي تنسب إليه وعرفت باسمه:

"هذه الخرافات Fables ليست من ابتكار من أذاعوها وتُنسب إليهم، سواء هوميروس أو هزيود، بل انتقلت إليهم من أزمنة أقدم ومصادر أعرق، وفي اعتقادي أن أصولها واحدة، وأنه لا أعظم ولا أشرف من هذه الأصول، ومن ثَم توقيري Esteem لهذه الأساطير، وتعاملي معها على أنها آثار مقدسة Sacred Relics وروح الزمن الجميل Breath of Better

Times، القادمة إلينا من تراث أعرق الأمم، عبر ملاحم الإغريق وغنائياتهم"(١)

وإذا لم تستطع أن تعرف وحدك أعرق الأمم وينبوع الحكمة القديمة، التي أخبرك القبالي بيكون أنها أصل أساطير الإغريق ومصدرها الحقيقي ولم يصرح باسمها طوال كتابه هذا، فيمكنك أن تعود إلى: خريطة الوجود البني إسرائيلية، لتراه يُعرفك بها صريحة في كتابه: أطلنطس الجديدة.

ثم إليك ما تتيقن به من صحة ما أخبرك به بيكون ويتوارثه القباليون ورؤوس عالم السر والخفاء، ولا وعي للأميين من المؤرخين به.

الشئ الذي تنفرد به خريطة الوجود الإغريقية في ملحمة هزيود من بين كل خرائط الوجود، كما يقول دكتور عبد المعطي شعراوي هو أن:

"الآلهة ليست هي التي خلقت الكون، بل الكون خُلق أولاً، في البدء كان الخواء، ثم الأرض، ثم البحار والجبال، ثم السماء، ثم مجموعة التياتن، ثم الآلهة وعلى رأسهم كبيرهم زيوس، ثم بدأت الآلهة في الإنجاب، أنجبت الآلهة العظمى، أعضاء مجلس الآلهة فوق جبل أولمبوس، ثم الآلهة الصغرى، ثم انصاف الآلهة، ثم الحوريات، ثم الأبطال، ثم أفراد البشر"(٢)

وما يعتقد دكتور عبد المعطي شعراوي ومن نقل عنهم من الغربيين أن ملحمة هزيود تنفرد به، ليس سوى قصة الخلق القبالية والهندوسية في المرآة، فجوهر هذه هو نفسه جوهر تلك، ألا وهو أن الآلهة والكون والإنسان كانوا

1) Francis Bacon:Bacon's Essays and Wisdom of the ancients,P320-321.
٢) أساطير إغريقية: ج ٢، ص٣٨.

وحدة واحدة، ثم انفصل بعضهم عن بعض، وأن الخلق كان بالصدور أو الميلاد وليس بالإرادة الإلهية، وأن الإنسان على صورة الإله أو أن الآلهة تشبه الإنسان.

والفرق بينهما أن الخلق في القبالاه والهندوسية كان بصدور الكون والإنسان عن الإله أو الآلهة، وفي خريطة الوجود الإغريقية ولدت الآلهة والإنسان من الكون.

وأما الطبعة الثالثة من هذه وتلك، فهي العلمانية بكل فروعها وطبقاتها، الليبرالية والماركسية والإلحاد، وجوهرها أن الإنسان هو الذي خلق بأفكاره الإله وصنع بمعارفه الكون.

وقبيلة الآلهة التي رأيتها في خريطة الوجود الإغريقية، وُلدت من خريطة الوجود البني إسرائيلية، فسفر التكوين، كما علمت، يتكلم عن آلهة وليس عن إله واحد.

فإليك القبالية هيلينا بلافاتسكي تعرفك في كتابها: العقيدة السرية بهذه الآلهة:

"الإله في سفر التكوين ليس واحداً، فهناك ثلاثة مجموعات من الآلهة Elohim، الأول يهوه Jehovah، الذي تحول إلى الإنسان بجنسيه الذكر والأنثى، والثاني الحية، وهي ليست الشيطان، بل هي الملاك الساطع Bright Angel، أحد الآلهة، والذي وعد المرأة أنها لن تموت إن أكلت من

الشجرة وأوفى بوعده، والثالث لوسيفر الذي وهب الإنسان المعرفة والنور، وجعله ذا طبيعة خالدة Immortal "[1]

ولكي لا تتوهم أن ما قرأته من خيالات القباليين وأوهامهم، إليك آلهة أخرى وصل إليها الأكاديمي الرصين وأستاذ التوراة العبرية في جامعة نيويورك كمال الصليبي في كتابه: خفايا التوراة:

"والقصة لا تذكر إطلاقاً أن الرب يهوه قام بطرد المرأة والحنش من جنة عدن مع الإنسان... فلماذا لم يقم الرب يهوه بطرد المرأة مع الإنسان الذي كان زوجها من الجنة، وقد كان إثمها أعظم من إثمه؟ ... هل كانت حواء في الأصل إلهة وليس امرأة عادية، وهل كان الحنش في الأصل إلهاً مثلها، فلم يكن للرب يهوه صلاحية في طرد أي منهما من الجنة كما فعل بالإنسان؟، حواء لم تكن في الواقع زوجة الإنسان الأول، بل إلهة أماً لجميع المخلوقات الحية، ويبدو أن الحنش أيضاً كان من الآلهة الموجودين أصلاً في الجنة"[2]!!

وأما الإله الذي اتفقت فيه بلافاتسكي القبالية والصليبي الأكاديمي، دون أن يكون لأي منهما صلة بالآخر ولا علم به، بل لأنهما ينهلان من النبع نفسه وتحكمهما معاً خريطة الوجود البني إسرائيلية، فهو الإنسان!

يقول كمال الصليبي:

"هذه القصة لا تفترض إطلاقاً كون الرب يهوه الإله الوحيد في الوجود، بل إنها تعتبره واحداً من مجموعة الآلهة التي تنعم وحدها بأبدية الحياة، والتي

---

1) The secret doctrine,Vol.1,P388.

٢) دكتور كمال الصليبي: خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، ص٣٠.

كان لها وحدها في البداية معرفة الخير من الشر قبل أن يخلق الرب يهوه الإنسان، فاعتدى هذا المخلوق على انحصار المعرفة بالآلهة وأكل من الشجرة"[1]

وما التف حوله كمال الصليبي تخبرك به بلافاتسكي صريحاً:

" الإنسان إله Man is God"[2]

فلعلك وصلت الآن بنفسك إلى أن زيوس كبير آلهة الإغريق ليس سوى يهوه شيخ قبيلة الآلهة في خريطة بني إسرائيل.

ولأن الإنسان هنا وهناك إله، والآلهة كالبشر، فربما يكون تعجبك قليلاً وصدمتك خفيفة إذا علمت أن زواج الآلهة بالبشر الذي رأيته في أساطير هزيود إنما أتى به من خريطة بني إسرائيل للوجود!

"١وَحَدَثَ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يَكْثُرُونَ عَلَى الأَرْضِ، وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ، ٢أَنَّ أَبْنَاءَ اللهِ رَأَوْا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ، فَاتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا. ٣فَقَالَ الرَّبُّ: «لاَ يَدِينُ رُوحِي فِي الإِنْسَانِ إِلَى الأَبَدِ، لِزَيَغَانِهِ، هُوَ بَشَرٌ، وَتَكُونُ أَيَّامُهُ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً». ٤كَانَ فِي الأَرْضِ طُغَاةٌ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ، وَبَعْدَ ذلِكَ أَيْضًا، إِذْ دَخَلَ بَنُو اللهِ عَلَى بَنَاتِ النَّاسِ وَوَلَدْنَ لَهُمْ أَوْلاَدًا، هؤُلاَءِ هُمُ الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ ذَوُو اسْمٍ"[3]

---

١) خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، ص٢٨.

2) The secret doctrine,Vol.3,P63.

٣) تكوين: ٦: ١-٤.

ولست في حاجة إلى أن نذكرك أن من ترجموا السفر وضعوا لفظ الجلالة مكان كلمة: إلوهيم، التي هي في الأصل العبري بأداة التعريف: هاإلوهيم، فالترجمة الدقيقة للعبارة:

"... أن أبناء الآلهة رأوا بنات الناس أنهن حسنات... إذ دخل بنو الآلهة على بنات الناس وولدن لهم أولاداً".

فمِن البشر مَن هم مِن نسل الآلهة، وهو ما تجده في ملحمة هزيود في عشق عدد من الآلهة الخالدة Immortals ، رجالاً ونساءًا، لنساء ورجال من البشر الفانين Mortals، أو زواجهم وإنجابهم منهم الأبطال، وعلى رأسهم زيوس نفسه الذي تزوج من ألكميني Alcmene الأرضية وأنجب منها البطل هرقل Heracles، ويصف هزيود زيوس بأنه:

"أبو الآلهة والناس Father of Gods and Men"[١]

ولا ينبغي أن يكون قد فاتك أن التيتان، الذين يصفهم هزيود بأنهم آلهة Titan Gods، ليسوا سوى فيلم اقتبس هزيود ومن خلف هزيود قصته من هؤلاء الجبابرة بني الآلهة في خريطة بني إسرائيل، وكلمة: تيتان الإغريقية هي حرفياً: الجبابرة العربية، وهجبوريم العبرية.[•]

1) Theogony, in:Hesiod, The Homeric Hymns and Homerica with an English translation, P81.

●) تمتلئ أفلام هوليوود بأمثال هذه القصص، وبعضها أفلام تجسد الأساطير، وبعضها، وهو الأخطر، يدور في إطار حديث يخدع المشاهد من باب أنه خيال علمي، وأحد هذه الافلام يجسد أساطير هزيود عن التيتان، والمعارك بين الآلهة، والإنسان القادر على أن يكون كالآلهة ويصارعها، في صورة عصرية مع بعض التحوير كالمعتاد، ويزيده خداعاً للمشاهد العربي التلاعب بالترجمة وحجب الكلمات الصادمة لوعيه كالمعتاد

وما جاء في ملحمة هزيود، كما أخبرناك، أساطير وليس خرافات محض، فما فعله هزيود هو نفسه ما فعله بنو إسرائيل في خريطتهم للوجود، العبث بالمكونات، وتغيير العلاقات، ونزع الأفعال والصفات من أصحابها ونسبتها إلى غيرهم، ثم إضافة بعض الابتكارات والتفنن في التحويرات.

فآلهة السماء والأرض والبحار والجبال والعالم السفلي ليست سوى الملائكة، وكل ما فعله هزيود هو أنه أسند إليها الإرادة والفعل بدلاً من المهمة والحفظ، وجسدها في صورة البشر، وغير اسمها من ملائكة إلى آلهة، وحوَّل اجتماعها من الملأ الأعلى إلى جبل الأوليمب، بالضبط كما حول بنو إسرائيل الإله إلى آلهة وزوجوها بالبشر، وكما حول القباليون إبليس إلى إله، والجن إلى آلهة.

والتيتان الجبابرة، هم والعمالقة ذوو العين الواحدة، والآخرون ذو الأذرع المائة ليسوا سوى الجن والشياطين، وصورة المسوخ التي رسمها لهم هزيود هي أوصافهم في القبالاه وعوالمها.

وهزيود جعل هؤلاء التيتان آلهة، لأن الجن والشياطين في ابتكارات القباليين على خريطة الوجود البني إسرائيلية كانوا، هم والملائكة، آلهة مع الإله في جنة عدن، وهو ما تجده عند هيلينا بلافاتسكي صريحاً ولكنه مقلوب:

أيضاً، وهو فيلم: مدينة مظلمة Dark City ، الذي أخرجه ألكس برويياس Alex Proyas سنة ١٩٩٨م، والمدينة المظلمة هي الوجود المظلم الذي ينيره في نهاية الفيلم الإنسان وقد حل محل الآلهة.

"سمائيل Samael، رئيس الجن والشياطين Demons في التلمود، هو عند التلموديين أحد الآلهة Elohim، وهو شكل رمزيSymbolic form عند القباليين للتيتان"(١)

ومعركة الوجود التي دارت رحاها بين زيوس والتيتان، هي نفسها المعركة التي افترض كل من تكون وعيه بخريطة الوجود البني إسرائيلية من القباليين والأميين وقوعها بين الآلهة في جنة بني إسرائيل.

فالقباليون يجسدونها صريحة ويتفننون في ابتكار تفاصيل ووقائع لها، كما تجد في أحد فصول كتاب: العقيدة السرية لبلافاتسكي، واسمه يغنيك عن أن نسرد عليك ما احتواه من ابتكارات عن وقائع المعركة بين الإله يهوه وأتباعه من الملائكة وبين الإله لوسيفر وأتباعه من الجن والشياطين، والفصل اسمه:

"الحرب الأولى في الجنة The first war in the heavens"(٢)

وأما المؤرخون الأميون، فإن هذه الحرب التي تحكم وعيهم تتسرب في ثنايا ما يكتبون، وفي الأمثلة التي يستخدمون.

فإليك الأمي ول ديورانت يجمع في عبارة واحدة بين الإيمان بالمعركة التي أقامها بنو إسرائيل في الجنة وبين ارتباط هذه المعركة في وعيه بمعركة زيوس والتيتان:

---

1) The secret doctrine,Vol.1,P450.
2) The secret doctrine,Vol.2,P45.

"وكان على رأس هذا النظام الإلهي الجديد رب الأرباب زيوس العظيم، ولم يكن زيوس أول من وُجد من الآلهة، فقد سبقه كما رأينا من قبل أورانوس وكرونوس، ولكنهما هما والجبابرة Titans قد ثُلت عروشهم كما ثُلت عروش جيش الشيطان Lucifer"[1]

ولأن جرثومة بني إسرائيل تستوطن وعي ديورانت، ومَن تستوطن هذه الجرثومة وعيه يختل تكوينه وتفسد موازينه ويضطرب فهمه، وأعظم آثار هذا الخلل والفساد والاضطراب أنه لا يعي هذه الجرثومة، ولا يدرك أنها هي التي تحكمه، ولا يفطن إلى آثارها في ما يراه وما يفهمه، ديورانت، لأنه أمي، هذا هو تفسيره للأساطير ولماذا تصدر، وللشرك وتعدد الآلهة وكيف تولد:

"لقد فُطر الإنسان على أن يعبد آلهة متعددة كما فُطر على الزواج من نساء متعددات، ولا يقل عمر فطرته الأولى عن فطرته الثانية، لأنها توائم كل المواءمة ما في العالم من تيارات متعارضة، وإن مسيحية البحر المتوسط في هذه الأيام لا يُعبد فيها الله بقدر ما يعبد فيها الأولياء والقديسون، ذلك أن الشرك هو الذي يوحي إلى حياة السذج بالأساطير وما فيها من خيال وسلوى"[2]

والوسيلة الوحيدة للوعي بالجرثومة البني إسرائيلية وإدراك آثارها والتحرر منها ومن سيطرتها على الوعي هي الوحي، فمن كان أمياً يفتقد الوحي مصدراً للمعرفة فهو بالضرورة من أتباع بني إسرائيل وأبناء خريطتهم للوجود.

---

١) قصة الحضارة: ج٦، ص٣٢٨.
٢) قصة الحضارة: ج٦، ص٣١٩.

فإليك تصحيح الوحي لما أنتجه وعي ديورانت البني إسرائيلي وفهمه المختل: الشرك لا يلهم الأساطير، بل الأساطير، التي أنتجها رجل واحد، كما رأيت، أو في الحقيقة كان مجرد واجهة للطائفة التي لفقتها، هي مصدر الشرك ووسيلة بثه من أجل طمس مسألة الألوهية وتضليل البشر عن الإله الحق، وتغييب التوحيد والوحدانية.

وتعدد الآلهة ليس فطرة، بل هو التيه الذي يذهب فيه البشر في كل اتجاه ويدورون حول أنفسهم حين يفتقدون خريطة الوجود الحقيقية أو تُحجب عنهم، وكائناً ما كان ما يصلون إليه، أو يصل إليه بعضهم، فلن يكون إلا داخل التيه.

فإذا أردت أن تتيقن أن ديورانت نفسه داخل التيه ويرى ويفهم من خلاله، وأنه ليس سوى أحد أتباع بني إسرائيل، وأن وعيه محكوم بخريطتهم، فتأمل كيف حين أراد أن يدلل على ما يقوله، ضرب مثالاً سوَّى فيه بين الإله الذي خلق الإنسان ويعبده ويتطلع إليه فوقه وبين المرأة التي ينكحها الرجل ويفترشها تحته!!

ثم إليك نموذجاً على التيه في بلاد العرب هو هو، ومن خلال خريطة هزيود البني إسرائيلية للوجود هي هي، بعد أن عبرت جرثومة بني إسرائيل من الغرب إلى الشرق، واستوطنت وعي أبنائها ليتحولوا إلى أتباع لهم وهم لا يشعرون.

يقول توفيق الحكيم في إحدى رسائله إلى صديقه أندريه في كتابه: زهرة العمر:

"إني أعيش في الظاهر كما يعيش الناس في هذه البلاد، أما في الباطن فما زالت لي آلهتي وعقائدي ومُثلي العليا، وكل آلامي مرجعها هذا التناقض بين حياتي الظاهرة وحياتي الباطنة"[١]!!

فهذا هو الإله الذي اختاره توفيق الحكيم ليتعبد له ويجاهد في سبيله، يخبرك به في حرارة، في رسالة أخرى:

"إني أومن بأبولون[•]، أومن بأبولون، إله الفن الذي عفَّرت جبيني أعواماً في تراب هيكله، إنه ليعلم كم جاهدت من أجله وكم كافحت وناضلت وكددت، باسمه أخوض المعركة الكبرى وأنازل كل مجتمع وكل حياة وكل عقبة تحول بيني وبين فني الذي منحته زهرة عمري التي لن تعود"[٢]

١) زهرة العمر، ص٢١٠.

•) أبولون **Apollon** هو الرسم والنطق اللاتيني الفرنسي لأبولو، إله الشمس والآداب والفنون عند الإغريق والرومان.

٢) زهرة العمر، ص٣٠٧.

شيطان بني إسرائيل

والآن لعلك في شوق إلى أن تعرف من يكون بروميثيوس، وماذا تكون أسطورته التي هام بها الأميون من المفكرين والأدباء والفنانين في الغرب والشرق.

بروميثيوس Prometheus، الذي وُلد هو وأسطورته في ملحمتي هزيود: مولد الآلهة[١]، والأعمال والأيام[٢]، ثم صاغها صياغة فنية إسخيلوس Aeschylus في مسرحيته: بروميثيوس مقيداً[٣] Prometheus Bound، أحد الجبابرة التيتان، ولكن لأن اسمه معناه: المتبصر One who thinks ahead، فقد أدرك بثاقب بصره أن النصر في الحرب التي اندلعت بين قبائل الآلهة سيكون مع آلهة الأوليمب، ولذا انحاز في المعركة إلى زيوس في مواجهة الآلهة التيتان، قبيلته، وانضم إليه أخوه السائر في أثره دائماً إبيميثيوس Epimetheus، أي: المتهور One who thinks afterwards.

وبعد انتصار آلهة الأوليمب واستتاب الأمر لكبيرهم زيوس، قرر أن يعمر الأرض بمخلوقات جديدة، فأوكل هذه المهمة لبروميثيوس وأخيه إبيميثيوس مكافأة لهما.

---

1) Theogony, in: Hesiod, The Homeric Hymns and Homerica with an English translation, P117-125.
2) . Warks and Days, in: Hesiod, The Homeric Hymns and Homerica with an English translation, P2-64.
3) Edwyn Robert Bevan: The Prometheus Bound of Aeschylus، rendered into English verse

وبعد أن صنع بروميثيوس مادة الحيوانات والطيور والإنسان من التراب والماء، ثم صوَّرها هياكل من الطين، صعد إلى أثينا Athena، ربة الحكمة، ليستشيرها كيف يتمم الخلق، وما الملامح والصفات التي يمنحها لكل مخلوق.

وفي غيبة بروميثيوس، كان أخوه العجول إبيميثيوس قد أتم خلق الحيوانات والطيور فعلاً، ومنح بعضها أشعاراً وأوباراً وأصوافاً، وجعل لبعضها الآخر مخالب وأنياباً، ولبعضها الثالث سرعة أو جناحاً، ولبعضها الرابع صوتاً أو جمالاً.

وبعد أن انتهى إبيميثيوس من خلق الحيوانات والطيور، وأراد خلق الإنسان انتبه إلى أنه منح كل مخلوق صفة تميزه وينفرد بها، ولم يعد في جعبته شئ يمنحه للإنسان ويميزه به.

وعندما عاد بروميثيوس الداهية واسع الحيلة، قرر أن يجعل هذا المخلوق الضعيف، الذي لا حول له ولا قوة ويفتقد كل ميزة، أقوى المخلوقات، بأن يجعله على صورة الآلهة ويهبه قدرات الآلهة.

وبدأ بروميثيوس ما انتواه بأن جعل الإنسان معتدل القوام، منتصب القامة، ورأسه مرفوعة كالآلهة نحو السماء، ثم غامر بنفسه، فصعد إلى السماء وغافل زيوس، وسرق قبساً من نار الآلهة وخبأها في عصا مجوفة صنعها من ساق نبات الشَّمار(•) Hollow fennel stalk، ثم عاد إلى الأرض، ليهب بها

(•) الشمار بقلة من الفصيلة الخيمية، ومنه نوع حلو يزرع ويؤكل ورقه وسوقه نيئاً، ونوع آخر سكري يؤكل مطبوخاً.

الإنسان نور المعرفة، وضياء العقل والقدرة على التفكير، ويجعله بها قادراً على النطق والكلام.

والخطوة الأخيرة التي كان بروميثيوس على وشك أن يفعلها، هي أن يهب الإنسان الخلود، غير أن زيوس تنبه له ومنعه، ولولا ذلك لصار الإنسان إلهاً خالداً كاملاً.

وفي ثورة غضبه، والسحب والغيوم تتجمع من حوله، أوقف زيوس بروميثيوس وقال له متوعداً:

"يا ابن إيابيتوس Iapetus، يا من فُقت الجميع في مكرك ودهائك، لا تسعد بأنك خدعتني وسرقت النار، فسأصب لعنتي Plague عليك وعلى الرجل الذي خلقت"(١)

فأما عقاب بروميثيوس، فكان أن أمر زيوس بأن يُعتقل بروميثيوس، وأن يُقيد طريحاً على ظهره بسلاسل قاسية وأغلال لا تفك في رأس أحد جبال القوقاز في أطراف الأرض، ثم سلط عليه عُقاباً هائلاً، يلتهم كبده كل يوم، فإذا التئم الكبد الخالد في الليل عاد العقاب إلى التهامه من جديد في النهار.

وظل بروميثيوس هكذا إلى أن جاء هرقل بن زيوس من زوجته الأرضية ألكميني، ففك أغلاله، وحل سلاسله، وحرره من عذابه وآلامه، في إحدى المهام

---

1) Warks and Days, in: Hesiod, The Homeric Hymns and Homerica with an English translation, P7.

الاثنتي عشرة التي كلفته بها ربة الزواج هيرا، لتتخلص منه، بعد موافقة زوجها زيوس.

وبعد تحريره، أتم ابن إيابيتوس النبيل أياديه على الإنسان الذي خلقه، فبدلاً من أن يعود إلى عالم الآلهة في رأس جبل الأوليمب، اختار بروميثيوس أن يذهب إلى الأرض ليعيش مع الإنسان، فعرَّفه ماذا يأكل وكيف يعد طعامه، وكيف يصنع ما يقيه غوائل الحر والبرد، ووبأي شئ يبني ما يأوي إليه، ثم علمه هو ونسله القراءة والكتابة، ثم الزراعة والتجارة، ثم ركوب البحر والصناعة.

وأما عقاب الرجل الذي عاقبه به زيوس، واللعنة التي أنزلها عليه، فهي حواء الإغريقية!

بعد أن توعد زيوس بروميثيوس في ثورة غضبه بالعذاب، كان هذا هو عقابه للرجال الذي أخبره به:

"سأجعل الرجال Men يدفعون ثمن النار التي أخذوها شراً، قد تسعد به قلوبهم، ولكن في عناقهم Embrace له هلاكهم"[1]

أمر زيوس ابنه هيفيستوس Hephaestus رب النار والمعادن، القاسي القبيح الأعرج، أن يخلط التراب بالماء ليصنع مخلوقة في شكل الإنسان، وأن يهبها القدرة على النطق والكلام، ويجعلها في صورة عذراء لطيفة جذابة Sweet lovely Maiden، لها وجه مشرق كالإلهات الخالدات، وأمر ابنته

1) Warks and Days, in: Hesiod, The Homeric Hymns and Homerica with an English translation, P7.

التي أنجبها من رأسه دون أم، الربة العذراء وإلهة الحكمة أثينا Athena، أن تُلبسها ثوباً فتاناً مطرزاً بالذهب والفضة، وأمر ربة الحب والجمال الفاتنة أفروديت Aphrodite أن تتوج رأسها بتاج من زهور الربيع الملكية الفواحة، وأن تمنحها من أنوثتها الطاغية، وتبث في جسدها رغبة عشق عارمة، وأمر رسوله هرمس Hermes أن يجعلها بلا حياء، وأن يهبها صوتاً ناعماً عذباً وأكاذيب خلابة وطبيعة مخادعة، فكانت هذه هي المرأة الأولى، وسماها زيوس: باندورا Pandora، أي: هدية الجميع، جميع الآلهة للرجال.

ثم أمر زيوس رسوله هرمس أن يأخذ باندورا، وأن يأخذ معه جُرة Jar أو صندوقاً(•)، ملأه، وطعمه بالذهب، ورصعه بالدر والجواهر، وزينه بالرسوم والمناظر، وأن يسلم باندورا ومعها الصندوق المغلق هدية لإبيميثيوس في الأرض، حيث يعيش معه الرجال حياة مديدة طاهرة، بلا شقاء ولا أحزان، ولاخطايا ولا أوزار.

وما إن رأى إبيميثيوس الغر الساذج الهدية الفاتنة حتى هام بها، فقبِلها هي والصندوق مخالفاً وصية أخيه الفطن بروميثيوس ألا يقبل أي هدايا تأتي من جهة الآلهة!

وأغوت زينة الصندوق وما زُخرف به من ذهب ودر وجواهر ورسوم باندورا، ففتحته لترى ما فيه، فانطلق منه ما خبأه فيه زيوس من آلام وأمراض وشرور وآثام وتعاسة وبلايا، لتعم الأرض وتكون لعنة للإنسان.

(•) في ملاحم هزيود أنها جرة، وفي مسرحية إسخيلوس: بروميثيوس مقيداً، التي أخذها من ملاحم هزيود، أنه صندوق.

ومن باندورا، كما يقول هزيود في: مولد الآلهة:

"أتى جنس النساء ونوع الإناث، منها انحدر الجنس اللدود المهلك Deadly race وقبيلة النساء، اللاتي يعشن بين الرجال الفانين من أجل تعاستهم الكبرى، راضيات عند الغنى، ساخطات عند الفقر"(١)

والآن بعد أن عرفت بروميثيوس، وإذا كنت قد أفقت من الغيبوبة التي أدخلتك فيها أسطورته وارتد إليك عقلك، فالسؤال: من أين أتى هزيود في ملاحمه، ومن أين أتى إسخيلوس في مسرحيته، التي صاغها من هذه الملاحم، ببروميثيوس، وبالتفاصيل التي صاغوا منها قصته وشخوصها؟

إليك أولاً إجابة الأميين.

ينقل دكتور عبد المعطي شعراوي عن روبرت جريفز Robert Graves، أن قصة بروميثيوس وإبيميثيوس وباندورا:

"ليست من التراث الأسطوري الأصيل، بل قصة من القصص التي يرويها واحد من أعداء المرأة، وربما يكون هزيود هو مبتكرها"(٢)

ونقول لك: بل هي أسطورة أصيلة لا خرافة، أقامها هزيود وإسخيلوس حول نواة، ورسموا ملامحها وصاغوا تفاصيلها منها، مع ما يلزم من الابتكار في الصياغة والتحوير في التفاصيل، وهذه النواة هي خريطة الوجود البني

---

1) Theogony, in: Hesiod, The Homeric Hymns and Homerica with an English translation, P123.

٢) أساطير إغريقية، ج١، ص٨٩.

إسرائيلية وما تفرع عنها في القبالاه وعوالمها، وهي، كما علمت، قديمة قدم بني إسرائيل وتلازم وجودهم.

أول ما ينبغي أن تكون قد انتبهت إليه في خريطة الوجود الإغريقية أن خلق الإله للإنسان وللمخلوقات لم يكن مباشرة، بل عبر وسيط، بالضبط كما رأيت سابقاً في القبالاه وفي الهندوسية.

فالآلهة التيتان بروميثيوس وإبيميثيوس في الإغريقية، هما شجرة الحياة في القبالاه، والآلهة العشرة البراجاباتيس في الهندوسية.

وهذا هو أحد وجهي بروميثيوس، أو دوره الأول في خريطة الوجود الإغريقية، وأما دوره الثاني والرئيسي فهو أنه لوسيفر أو شيطان بني إسرائيل الذي وهب الإنسان المعرفة سرقة من الإله وعلى غير إرادته.

وكما ترى، خرائط الوجود المزورة، على ما بينها من اختلافات تُوهم الأميين أنها ذات أصول مختلفة ولا صلة بينها، هي في حقيقتها واحدة، والفروق بينها مصدرها الابتكار في تحوير مواصفات مكوناتها، وفي التباديل والتوافيق بين هذه المكونات، بوضع هذا في مكان ذاك، ونسبة صفات ذاك ودوره لهذا، وهكذا.

وهذه الابتكارات والتحويرات والتباديل والتوافيق تغرر بالأميين بعد أن يغيب وعيهم في تفاصيلها المثيرة، لكنها لا تخدع ذوي البصائر من أهل الوحي في اتفاق جوهرها ووحدة نبعها، ومن يبثون الأباطيل والضلالات يعلمون أنها واحدة.

فإليك القبالية هيلينا بلافاتسكي تخبرك ماذا يكون بروميثيوس في القبالاه والحركات السرية:

"وأبناء حركة الصليب الوردي، الروزيكروشيان Rusicrucians، على اطلاع واسع على التعاليم السرية للقبالاه، وهم يتدارسون في تعاليمهم أن الخلق كله كان ثمرة الحرب التي اندلعت في الجنة عقب تمرد الملائكة Rebellion of Angels على أمر الخالق، وبروميثيوس والنار التي جلبها ليست سوى طبعة أخرى من ثورة لوسيفر الأبي الخالد، الذي طُرد إلى الأرض ليعيش بين البشر"[١]

بروميثيوس، كما ترى، هو نفسه لوسيفر، فلم يفعل هزيود في ملاحمه سوى أنه أضاف إلى مخاطرته بنفسه بعصيانه أمر كبير الآلهة وهبته المعرفة للإنسان على غير إرادته، خلقه للإنسان، أو نقل الوساطة في الخلق بين الخالق والمخلوقات إليه.

وبعد ذلك، فزيوس كبير الآلهة هنا هو أدوناي أو يهوه كبير الآلهة هناك، والأكل من الشجرة في خريطة الوجود البني إسرائيلية هو سرقة النار في الخريطة الإغريقية، وحيازة الإنسان للمعرفة ليصير إلهاً أو كالآلهة هي ثمرة هذه وتلك، وبروميثيوس الذي ثار على الإله من أجل الإنسان، ومنَّ على الإنسان بالمعرفة، ثم هبط إلى الأرض ليرافقه في حياته ويعينه على بدء مسيرته ويعلمه كيف يعيش فيها، ثم علمه الزراعة والتجارة، ووهبه الأدب

---

1) The secret doctrine,Vol.2, P237.

والفن ومقومات الحضارة، هو نفسه شيطان بني إسرائيل ولوسيفر القبالاه والحركات السرية.

والإنسان في خريطة الوجود الإغريقية حاز المعرفة وصار شبيهاً بالآلهة، وكان بينه وبين أن يكون إلهاً كاملاً خطوة، هي أن يكون خالداً، لولا أن تنبه يهوه في خريطة الوجود البني إسرائيلية وأقام الكروبيم ولهيب السيف المتقلب ليحرس الطريق إلى شجرة الحياة المانحة للخلود.

وفي ملاحم هزيود، وعند الإغريق الذين تكونوا بها، كما يقول دكتور عبد المعطي شعراوي:

"لا فرق بين الرجل الإغريقي وآلهته في الشكل والمظهر والسلوك والتصرفات، لا فرق بينهما سوى أن الإله خالد لا يموت والإنسان زائل ذائق الموت"[١]

لأن الآلهة، إلوهيم، في ملحمة بني إسرائيل خلقوا الإنسان على صورتهم وفي شكلهم:

"٢٦وَقَالَ اللهُ: نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا"[٢]

وباندورا الإغريق مزج فيها هزيود بين القبالاه وخريطة الوجود البني إسرائيلية، فهي، في أحد وجهيها، كما رأيت، ليست سوى حواء بني إسرائيل،

١) أساطير إغريقية: ج١، ص٨٥.
٢) تكوين: ١: ٢٦.

رمز الغواية ومصدر الشرور، واللعنة التي صبها الآلهة على الرجال ليعاقبوهم بها.

"لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ"[١]

وأما وجه باندورا الآخر، فهو أنها خُلقت من التراب والماء مباشرة وليس من الرجل الأول كحواء بني إسرائيل.

فلا تتوهم أن هذا من ابتكارات هزيود المحض، فهذا الوجه الآخر ليس سوى ليليث القبالية!

وليليث Lilith في سفر زوهار، وفي القبالاه، وفي جمعيات السحر وعبادة الشيطان، هي زوجة لآدم سابقة على حواء، خلقها الإله خلقاً مباشراً من التراب كآدم وليس من ضلعه كحواء، ثم أمرها بطاعة آدم فأبت وفرت إلى ساحل البحر الأحمر.

ولأن ليليث تمردت على الإله وخرجت على طاعته فطردها، فقد أحبها قائد الثورة والمطرود الأول، لوسيفر، وتزوجها!

والآن إليك من ملاحم هزيود ما يزيدك يقيناً بأن أصلها في خريطة بني إسرائيل، وما توقن به أن ما في هذه الخريطة لا يمكن أن يعرفه ولا أن يصل إليه الا من يحوز أصله في الوحي.

---

١) تكوين: ٣:١٧.

في أسطورته، خلق بروميثيوس الإنسان، كما علمت، من التراب والماء ثم صوَّره من الطين.

فإليك إحدى غرائب الأدمغة الأمية، تعرف منها أن ثَمة معارف لا مصدر لها إلا الوحي، وأن ثَمة أسئلة إذا استقل العقل في الإجابة عليها، بالغاً ما بلغ صاحبه من علم وتحصيل للمعارف، فلن يكون ما يصل إليه إلا أباطيل وضلالات، بعضها مقلوب الحق، وبعضها من الهزل والطرائف.

يقول السير جيمس فريزر في كتابه: الفلكلور في العهد القديم، وهو يبحث، بمنهجه الأمي، عن أصل قصة خلق الإنسان من ماء وتراب في خريطة الوجود البني إسرائيلية، ومن أين جاءت:

"يُحكى في الأسطورة الإغريقية أن بروميثيوس الحكيم قد خلق الإنسان من الطين عند بانوبيس التي تقع عند فوكيس، وقد تخلفت عن عملية الخلق كمية من الطين كان من الممكن رؤيتها بعد هذا بزمان طويل على شكل صخرتين كبيرتين تشرفان على واد ضيق ... وقد قمت أنا بزيارة هذا المكان فوجدته وادياً مهجوراً، أو بالأحرى تجويفاً يقع على الجانب الجنوبي من تل بانوبيس ... وقد بدا الوادي جافاً بعد صيف طويل لم تسقط فيه الأمطار في بلاد اليونان، ولكني أبصرت في قاع الوادي تربة مفتتة مائلة إلى الاحمرار، ربما كانت مخلفات أثرية من الطين الذي خلق منه بروميثيوس أول أبوين على وجه الأرض"[1]!!

---

١) الفلكلور في العهد القديم، ص٢٩-٣٠.

أرأيت إلى الكوميديا؟!

العلّامة الأمي وجد شبهاً بين خلق الإنسان من طين في خريطة بني إسرائيل وأسطورة بروميثيوس، فجعل الأسطورة مصدراً للخريطة، ثم حول الأسطورة إلى حقيقة بحث عن آثارها، ووجد ما تخلف عنها من الطين بعد آلاف السنين!!

فهل أدركت أين هي المشكلة ؟

المشكلة أنه من عبيد بني إسرائيل، وعيه محصور داخل خريطة بني إسرائيل للوجود، وعقله يعمل داخل سيرة البشر الأولى كما رسمها بنو إسرائيل في هذه الخريطة، فأسئلته تنبعث منها، ومكونات هذه الخريطة هي فرضياته التي يبدأ من عندها، ومنهجه والطريقة التي يبحث بها عن الإجابة أتى بها من سيرة البشر فيها، وإجاباته وما يصل إليه يعود به إليها.

ولا تثريب على أمثاله من عبيد بني إسرائيل في الغرب، إذ إن عالمه الذي ولد ويعيش فيه، هو كله، بعقائده وأفكاره وعلومه وآدابه وفنونه، ليس إلا ثمرة مكتملة وترجمة حية لخريطة بني إسرائيل للوجود وسيرة البشر الأولى فيها، وهذا العالم وكل من فيه تكونوا بمحاكاة سيرة بني إسرائيل المقدسة.

فلو أنه بدلاً من الضرب في مشارق الأرض ومغاربها بحثاً عن أصول خريطة الوجود البني إسرائيلية في الصخور والطين، أو مع ذلك، ذهب إلى بيان الإله إلى خلقه الصادر عن ذاته مباشرة بلا وسيط ولا راوٍ يروي، لوجد خريطة الوجود الإلهية الحقيقية نقية صافية خالية من التحوير والابتكارات، هي دليل نفسها على أنها الحق ومن الحق.

ولكن أنَّى له ذلك والعالم الذي نبت فيه يحكمه، وخريطة بني إسرائيل تفترس وعيه وتعشش في عقله ووجدانه، وما تفتحه من أبواب الانفلات والابتكار رضاعه وفطامه.

وقد تقول: ربما لا يعلم، وله بذلك العذر.

ونقول لك: ليست المشكلة أنه لا يعلم، بل أنه لن يقبل علماً يأتيه من غير عالمه وخريطة الوجود التي انفتق بها وعيه، وتسري مياهها فيه، بل وإذا علم الحق وكان منصفاً وأقر بأنه حق فلن يتبعه، فهذا وأضرابه شعارهم: لولا نُزل هذا القرآن على رجل من الغرب عظيم!

فإليك نموذجاً في عبارة للمستشرق إرنست رينان، تراه فيها يعرف الحق ويقر به، دون أن يعتنقه، بل وهو يشن حملات شعواء لاقتلاعه وإحلال ما يعرف أنه باطل محله.

يقول رينان إنه:

"لا يستطيع أن يقاوم شعوراً يجرفه حين يدخل المساجد ويرى خلوها من التماثيل والزخارف التي تثقل الكنائس وتشغل العابد عن الرب، وحين يرى وحدة المسلمين في صلاتهم، وهو أنه يتمنى لو أنه كان مسلماً"[(1)]!!

فالذي منع هذا أن يكون مسلماً وجعله عدواً للإسلام وعقائده وحضارته، مع يقينه أنه الحق، هو ما يحجز جيمس فريزر وأشباهه في الغرب عن النظر في خريطة الوجود الإلهية الحقيقة، بل إنهم ينقبون، ويكدون في التنقيب، عما

---

١) روبرت بريفالت: أثر الإسلام في تكوين الإنسانية، ص١١٩.

يضعونه إلى جوار التوراة ليقارنوها به من خرافات الهند والصين، وأساطير الرومان والإغريق، وآثار ما فني من القبائل والشعوب، ويتعمدون تجاهل القرآن ويتحاشون ذكره، ولو من باب أنه مصدر كغيره من المصادر.

فهل أدركت أين العقدة ؟

العقدة هي أن وعي فريزر وأشباهه وعقولهم وتكوينهم ووجدانهم محصور داخل خريطة الوجود البني إسرائيلية ولا يقبل إلا ما يتوافق معها ويدور في داخلها، وكل خرائط الوجود المزورة تتوافق معها وتدور في داخلها، لأنها أصلاً فروع تفرعت منها.

فها هو موريس بوكاي، أحد أبناء الغرب، يخبرك صريحاً أن المشكلة ليست في أن مَن في عالمه لا يعلمون، بل في أنهم لا يريدون أن يعلموا:

"حاولت إقامة حوار من أجل دراسة مقارنة حول عدد من الأخبار المذكورة في القرآن والتوراة معاً في موضوع واحد، ولاحظت أن هناك رفضاً باتاً للنظر بعين الاعتبار، ولو لمجرد التأمل، فيما يحتويه القرآن مما يتعلق بموضوع الدراسة المزمعة، كأن الرجوع إلى القرآن يعني الاعتماد على الشيطان"[١]

فهل استبان لك الآن لماذا هذا التجاهل والتحاشي والرفض البات؟

لأن القرآن بيان الإله إلى خلقه، وخريطة الوجود فيه هي الحق الذي ينسف خريطة الوجود البني إسرائيلية، وتنقطع به الابتكارات، وتنهار عوالم الباطل

١) موريس بوكاي: القرآن والإنجيل والتوراة والعلم، ص٧.

التي تكونت بها ويقوم كل شئ فيها عليها، والابتكارات وعوالمهم التي تكونت بها أحب إليهم من الحق!

وأما التثريب، كل التثريب، فعلى عبيد عبيد بني إسرائيل من الأميين في الشرق، اتخذوا القرآن مهجوراً، ودخلوا خلف الأميين في الغرب جحر الضب البني إسرائيلي، لتستوطن الخريطة المزورة وعيهم، وتسري في تكوينهم، فمن خلالها يرون، وبها يفهمون، ومن مياهها الملوثة ما أنتجوه وما زالوا ينتجون.

فإذا أردت أن تتيقن، فارجع إلى ما أتيناك به من أفكارهم و آثارهم وابدأ القراءة من البداية.

والآن إليك وجوهاً أخرى من أسطورة بروميثيوس، توقن منها أن من صدرت عنه راضع من بني إسرائيل وخريطتهم وسيرتهم.

في الأسطورة أن بروميثيوس خبأ نار المعرفة حين اختلسها من الآلهة في عصا من ساق شجيرة الشَّمار، وهذه العصا، التي أهملها من فطنوا إلى وجوه الشبه بين الأسطورة وقصة الخلق البني إسرائيلية، ليست سوى الحية التي اختبأ فيها الشيطان ليدل الإنسان على شجرة المعرفة.

فإذا تعجبت وتساءلت: كيف تكون العصا هي الحية؟!

فالإجابة: لأن هذه الحية هي نفسها ليست سوى عصا موسى!

الحية في خريطة الوجود البني إسرائيلية، لم تأت بها الطائفة منهم التي تحوز الأصل لا من شرق ولا من غرب، كما توهم الأميون وكدوا في البحث عنها في الصخور والأحافير والأساطير.

لم يفعل بنو إسرائيل شيئاً سوى أنهم قلبوا عصا موسى إلى حية، كما وجدوها تنقلب في سيرتهم:

"٢فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «مَا هذِهِ فِي يَدِكَ؟» فَقَالَ: «عَصًا»، ٣فَقَالَ: «اطْرَحْهَا إِلَى الأَرْضِ»، فَطَرَحَهَا إِلَى الأَرْضِ فَصَارَتْ حَيَّةً، فَهَرَبَ مُوسَى مِنْهَا، ٤ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مُدَّ يَدَكَ وَأَمْسِكْ بِذَنَبِهَا». فَمَدَّ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِهِ، فَصَارَتْ عَصًا فِي يَدِهِ"(١)

فعصا موسى التي جعلها الرب الإله تفعل الأعاجيب، فالتهمت ثعابين سحرة فرعون، وضرب بها موسى النهر فاستحال ماؤه دماً، وفلق بها البحر، وفجر بها عيون الماء في سيناء، نقلها بنو إسرائيل إلى خريطة الوجود لتؤدي عجيبة أخرى، بعد أن قلبوها كما فعل موسى إلى:

"الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ"(٢)

ولأن العصا لمَّا انقلبت إلى حية، بدت لكل من رآها تهتز كأنها جانٌّ، فلم يكن بعيداً على بني إسرائيل أن يدخلوا فيها إلى الجنة كبير الجان.

ثم جاء هزيود، فأعاد الحية إلى أصلها، وقلبها في خريطته للوجود إلى عصا مرة أخرى.

ومن الطريف أن تعلم أنه ليس في التوراة ما يُعرف منه من أي شئ كانت عصا موسى، ولكن لأنه عليه السلام كان راعياً للأغنام في البادية، وعصاه

---

١) خروج: ٢:٤-٤.
٢) تكوين: ٣:١.

يهش بها على غنمه، فثَمة من ذهب إلى أن عصاه هذه كانت من الشجيرات التي تنبت في البوادي.

وفي ذلك أثر ضعيف رواه الإمام الدارمي في كتابه: الرد على الجهمية، بسنده عن عكرمة، عن ابن عباس، موقوفاً عليه أن:

"سيد السموات السماء التي فيها العرش، وسيد الأرضين التي نحن عليها، وسيد الشجر العوسج، ومنه عصا موسى"[1]

والعوسج شجيرة من الفصيلة الباذنجانية تنمو في الأراضي الرملية، وتكثر في صحراوات الجزيرة العربية والشام وسيناء.

ولأن العوسج لا وجود له في اليونان، فقد حوله هزيود، وهو يعيد الحية إلى أصلها العصا، إلى شجيرة الشَّمار التي تنتشر في حوض البحر المتوسط!

ومن العصا التي خبأ بروميثيوس فيها النار إلى النار نفسها، وهي شئ آخر لا شبيه لمعانيه في الأسطورة إلا في سيرة بني إسرائيل، وفي أصل هذه السيرة في الوحي.

فأما عن النار في الأسطورة، من أين أتى بها هزيود، فارتباط النار في الأسطورة بالآلهة، واقترانها بالمعرفة، وحملها علم الآلهة إلى الإنسان، وارتفاع الإنسان بهذه النار وما جلبته له من علم ومعرفة فوق المخلوقات كلها، ليصير المخلوق الإلهي أو المخلوق المختار عند الإله بروميثيوس، فلست في حاجة إلى كبير ذكاء لتدرك أنها ليست سوى النار التي كلم منها الإله يهوه موسى عليه

١) الإمام الدارمي: الرد على الجهمية، حديث رقم ٩٠، ص٥٠.

السلام، وجاءه منها علمه، وبهذا العلم الآتي منها ارتفع بنو إسرائيل فوق البشر واصطفاهم الإله وصاروا شعبه المختار.

"[٢]وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ بِلَهِيبِ نَارٍ مِنْ وَسَطِ عُلَّيْقَةٍ(•)، فَنَظَرَ وَإِذَا الْعُلَّيْقَةُ تَتَوَقَّدُ بِالنَّارِ، وَالْعُلَّيْقَةُ لَمْ تَكُنْ تَحْتَرِقُ،[٣]فَقَالَ مُوسَى:«أَمِيلُ الآنَ لأَنْظُرَ هذَا الْمَنْظَرَ الْعَظِيمَ، لِمَاذَا لاَ تَحْتَرِقُ الْعُلَّيْقَةُ؟». [٤]فَلَمَّا رَأَى الرَّبُّ أَنَّهُ مَالَ لِيَنْظُرَ، نَادَاهُ اللهُ مِنْ وَسَطِ الْعُلَّيْقَةِ وَقَالَ: «مُوسَى، مُوسَى!»، فَقَالَ: «هأَنَذَا»، [٥]فَقَالَ: «لاَ تَقْتَرِبْ إِلَى ههُنَا، اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ"(١)

فهزيود، كما ترى، لم يأت في ملاحمه بشئ جديد، ولا ابتدع شيئاً من بنات أفكاره، لا النار، ولا المعرفة، ولا أن تلك حاملة لهذه، ولا أن الإله مصدر هذه وتلك.

والابتكار الوحيد الذي ابتكره، والتحوير الذي فعله، كما رأيت في كل الابتكارات والتحويرات، هو أنه نقل المكونات التي بدأت بها سيرة بني إسرائيل إلى خريطة الوجود، وصنع بها مادة، فبرك منها بداية سيرة بني آدم، ليموه بهذه الفبركة السيرة الإلهية الحقيقية.

ومما يزيدك يقيناً أن هزيود إنما أتى بالمادة التي لفق منها الأسطورة من سيرة بني إسرائيل، أنه لا شبيه لهذه المادة في أي تراث سابق على سيرة بني إسرائيل.

•) العليقة هي شجرة التوت، وهي من الفصيلة الوردية.
١) خروج: ٣: ٢-٥.

والسير جيمس فريزر تتبع سيرة بني إسرائيل، في كتابه: الفلكلور في العهد القديم، ولأنه أمي والفرضية التي بدأ منها أن كل ما في هذه السيرة ليس سوى تلفيق جمع فيه كاتبها كل ما وصله من حكايات القبائل البدائية والشعوب البائدة، فقد استعرض فريزر معارفه الغزيرة عن تراث هذه القبائل والشعوب، واختال بمهاراته ومواهبه في ربط جزيئات سيرة بني إسرائيل بهذا التراث وإيجاد شوابه لها فيه، ولكنه لم يجد لقصة الإله والنار والمعرفة أثراً، فغض طرفه وسكت عنها، رغم أنها محور هذه السيرة وبدايتها وأشد مكوناتها إثارة!

فإليك ما تعمد الأمي جيمس فريزر أن يُعرض عنه، تعلم منه المصدر الأصلي لقصة الإله والنار والاصطفاء والمعرفة، وأنها حقيقة لا أسطورة، وأنه حتى بني إسرائيل لا يبتكرون، ولكنهم بما أوتوه يعبثون، ثم في ما ينتجه عبثهم تسير خيالات الأميين، وفي الأوهام التي تخلقها هذه الخيالات يعيشون.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾[1]

وإليك مرة أخرى من أسطورة هزيود ما لا أصل له ولا تفسير له إلا في الوحي.

بين هزيود الذي ولدت أسطورة بروميثيوس في ملاحمه وبين إسخيلوس الذي صاغها مسرحية حوالي قرن من الزمان، فقد عاش هزيود في أواسط

---

١) طه: ٩-١٣.

القرن السابع قبل الميلاد، وولد إسخيلوس في الربع الأول من القرن السادس قبل الميلاد، سنة ٥٢٥ ق م.

وتتفق الأسطورة والمسرحية في أن بروميثيوس خلق الإنسان، وأنه وهبه المعرفة وعلمه التفكير وأنطقه، ليكون شبيهاً بالآلهة، وأنه كاد أن يجعله خالداً لولا أن تنبه زيوس ومنعه من ذلك، وأنه سرق النار من الآلهة وأعطاها للإنسان.

ولكن ثمة فرق بين الأسطورة والمسرحية في مسألة النار والمعرفة، وإن كانت الفحوى واحدة، فإسخيلوس نص في مسرحيته على أن بروميثيوس سرق النار ليهب الإنسان بها المعرفة ويعلمه التفكير وينطقه[١]

أما في ملاحم هزيود، فقد علم بروميثيوس الإنسان التفكير والكلام، ثم سرق النار من الآلهة ليهبها له في الأرض مصدراً للطاقة وينشر بها الدفء في حياته، وليعرفه كيف يستخدمها ويصنع بها ما ييسر أحواله.

في ملاحم هزيود، بعد أن بدأ الرجال الذين خلقهم بروميثيوس حياتهم على الأرض كانوا يذبحون الماشية قرباناً للآلهة، ولم يكن مباحاً لهم أن يأكلوها، ولا يعرفون كيف يكون طهيها، فاحتال ابن إيابيتوس النبيل لكي يبيح للإنسان أكل اللحم ويعلمه كيف يطهوه.

ذبح بروميثيوس ثوراً عظيماً وجعله قسمة بين زيوس والإنسان، لكي يرضى زيوس أن يقاسم الإنسانُ الآلهةَ أكل الأنعام، ولكن غلبته مواهبه في

1) The Prometheus Bound of Aeschylus,rendered into English verse,P10.

المكر وتدبير الحيل، فقسم الذبيحة قسمين، فجعل في كومة عظامها البيضاء بما اختلط بها من رقائق اللحم، وزين الإناء الذي وضعها فيه وغطاها بطبقة من الدهن البراق، وفي الكومة الأخرى وضع اللحم وغطاه بالأحشاء.

ووضع بروميثيوس الكومتين أمام زيوس ليختار التي تروق لها ويترك الأخرى للإنسان، فاختار الكومة البراقة، وحين رأى ما فيها علم أنه خُدع، فامتلأ غضباً ولكنه أخفاه وقبل العظام والدهن لأنها اختياره.

ولهذا، كما يقول هزيود:

"اعتادت قبائل الرجال في الأرض أن تأكل اللحم وأن تقدم العظم قرباناً للآلهة في المعابد"[1]

ثم سرق بروميثيوس النار من الآلهة، ليعلم الإنسان كيف يطبخ اللحم، ثم ليعرفه كيف يوقدها ويحتمي بها من البرد.

وينقل دكتور عبد المعطي شعراوي، عن جريفز، وعن بورا Bowra في كتابه: تجربة الإغريق Greek Experience، في تفسير عادة الإغريق تقديم العظم وما اختلط به من شرائح اللحم لتحرق في المعابد قرباناً للآلهة، وفي تفسير أصلها في ملحمة هزيود أنه:

"ربما تكون هذه الرواية من ابتكار هزيود، إذ إنها قصة طريفة مضحكة لتبرير عقاب زيوس لبروميثيوس، وقد تكون أيضاً أسطورة من الأساطير

1) Theogony,in:Hesiod,The Homeric Hymns and Homerica with an English translation,P119.

السببية، إذ إنها تفسر السبب في تقديم الجزء الردئ من الذبيحة قرباناً للآلهة"[1]

ومرة أخرى، نقول لك: ما في أسطورة هزيود توظيف وليس ابتكاراً من عنده كما توهم الأميون، فهذه القصة التي يقولون إنها طريفة ومضحكة، ولم يجدوا لها مصدراً، أصلها في الوحي وما أخبرك به عن بني إسرائيل:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[2]

الإله يخبرك في بيانه أنه عاقب بني إسرائيل ببغيهم، فضيق عليهم وحرم أن يأكلوا من الذبيحة إلا العظم وما اختلط به من لحم، والذي فعله هزيود أنه رد العقوبة في ملحمته للآلهة فأباح لها العظم وحرم عليها اللحم.

ولأن ملاحم هزيود هي النواة التي تكون بها الإغريق وتخلقت حولها حضارتهم، فقد صارت هذه شعيرة عند الإغريق ورثوا فيها عن بني إسرائيل عقاب الآلهة وهم يحسبون أنهم يتقربون إليها!!

فلعلك تكون قد أدركت الآن ماذا يكون بنو إسرائيل في البشر، ولماذا أفرد لهم عز وجل في بيانه إلى خلقه ما أفرده لهم، ولماذا تتبع لك سيرتهم وأتاك بما فيها من تفاصيل؟

---

١) أساطير إغريقية: ج١، ص٨٧.

٢) الأنعام:١٤٦.

فيثاغورس القبالي

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾

(القصص:٥٠)

أخوية فيثاغورس

علمتَ من قبل أن ثَمة سيرة تقليدية لمن كونوا الحركات السرية في كل العصور، وأن هذه السيرة انسابت عبرها خريطة الوجود البني إسرائيلية وما بُني عليها من ابتكارات في كل الأمم والشعوب، وهي سيرة الرجل الذي يسافر بين البلدان، ويتنقل بين القارات، ثم يقر في مكان لا يعلم أحد فيه أصله ولا بلده ولا ديانته ولا مواهبه، بل ولا اسمه الحقيقي، ثم يعمل عملاً يغير به وعي المكان الذي قر فيه.

وعلمت أن هذا العمل الذي يعمله هذا المتنقل في المكان الذي هبط عليه، قد يكون جمعية علمية أو جماعة أدبية أو منظمة سياسية أو طريقة دينية، يدس من خلالها ما يريد دسه من أفكار في أذهان من يخلب لبهم بريق راياتها وزخرف شعاراتها فيدخلونها، ثم يكونون هم أنفسهم أداة بث هذه الأفكار وتغيير وعي عموم الناس بها.

فإليك نموذجاً آخر لهذه السيرة التي تنساب بها خريطة بني إسرائيل وامتدادها في القبالاه، في أحد أشهر أعلام البشر، وإحدى أقدم الجمعيات السرية في التاريخ، توقن بها أن الفساد، وإن تعددت الضلالات والأباطيل التي يفرزها وتفرقت وسارت في مشارق الأرض ومغاربها، فمنابعه واحدة.

في سنة ٥٧٠ قبل الميلاد، وفي جزيرة ساموس Samos الإغريقية، ومن أب يُرجح أنه فينيقي الأصل من مدينة صيدا Sidon، وهو كثير التنقل ويعمل

بالتجارة، ولد فيثاغورس Pythagors، أول الفلاسفة، والذي منح الفلسفة اسمها.

فالفلسفة كلمة مركبة من مقطعين: فيلو Philo، وتعني محبة، وسوفيا Sophia أي: الحكمة، فهي محبة الحكمة، وفيثاغورس هو الذي نحتها، وهو أول من سمى نفسه فيلسوفاً، أي: محب الحكمة، وكان المشتغلون بالتأمل والفكر قبله يسمونهم: العارفون Sages.

وقد كان أفلاطون Plato مولعاً بأفكار فيثاغورس وتقاليده وأسلوب حياته، وقال عنه أرسطو Aristotle إن جمهوريته ليست سوى ترجمة لهذه الأفكار والتقاليد، وامتدت آثار فيثاغورس إلى كل من جاء بعده من عظام الفلاسفة الإغريق، بل وإلى كل من أنجبهم الغرب من فلاسفة، حتى قال الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل في كتابه: تاريخ الفلسفة الغربية:

"فلست أعلم عن رجل آخر كان له من التأثير في نطاق الفكر ما كان لفيثاغورس، وأقول ذلك لأن ما قد يبدو لك أفلاطونياً ستجده عند التحليل فيثاغورياً في جوهره ... ولولاه لما فكر المسيحيون في المسيح على أنه الكلمة"[١]

وما خلَّد فيثاغورس في تاريخ العالم كله، وجعله حاضراً مذكوراً في كل العصور، أثره في علم الحساب والأعداد، ونظريته في الهندسة التي أقام برهانها وأثبتها، وهي أنه:

---

١) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية ج١ الفلسفة القديمة، ص٨٠

"في مثلث قائم الزاوية، مربع طول الوتر المقابل للزاوية القائمة يساوي حاصل جمع مربع طول الضلعين الآخرين"

فإليك الوجه الآخر لفيثاغورس وما لا تذكره المؤلفات التي تمتلئ بقصائد مدحه، وكتب المدارس والجامعات التي تحوي نظرياته وأفكاره.

وهو على أعتاب الشباب قام فيثاغورس بالرحلة التقليدية الشبيهة بالأساطير التي يحججها رجال القبالاه والحركات السرية عبر التاريخ، كل واحد منهم في أثر الآخر(•)، وفي رحلته هذه، كما يقول القبالي والماسوني من الدرجة الثالثة والثلاثين مانلي هول، في كتابه: التعاليم السرية عبر العصور:

"رحل إلى مصر، وبمثابرته، وبعد صد ورفض، حاز ثقة كهنة طيبة Priests of Thebes، فتتلمذ على أيديهم وأطلعوه على أسرار عبادة إيزيس(•)، ثم وجد هذا القلب الجسور طريقه إلى فينيقيا وسوريا، فتلقى من كهنتها أسرار عبادة أدونيس Adonis ، ثم عبر إلى وادي الفرات فمكث طويلاً إلى أن تضلع من Versed in الأسرار الكلدانية والبابلية، ثم عبر في

•) في دورة الإفساد الثانية، أشهر من قاموا بهذه الرحلة، التي تبدأ عادة بمصر، أو تنتهي بها، اليهودي القبالي كاجليوسترو مؤسس مذهب ممفيس المصري في الماسونية، وآرثر إدوارد ويت الأستاذ الأعظم لحركة الروزيكروشيان، والقبالية هيلينا بلافاتسكي مؤسسة جمعية الحكمة الإلهية، وتلميذتها اليهودية القبالية أليس بيلي الأم الروحية لحركة العهد الجديد، والقبالي الماسوني أليستر كراولي أبو الشيطانية الحديثة ومؤسس جمعية الفجر الذهبي لممارسة السحر وتعليم فنونه.

•) عبادة إيزيس هي نفسها العقيدة السرية المتوارثة بين الصفوة عبر التاريخ، كما تقول بلافاتسكي، ولها كتاب أقل شهرة من كتاب العقيدة السرية في كشف أسرار عبادة إيزيس هذه، عنوانه: إيزيس سافرة Isis Unveiled.

مغامرة كبرى فارس إلى هندوستان Hindustan، حيث استقر به المقام عدة سنوات تلميذاً لحكماء البراهمانية، ثم مطلعاً على أسرارها"[١]

وبعد ما يربو على ثلاثين عاماً من الاطلاع على الأسرار وحيازتها، عاد فيثاغورس ليقيم في مدينة كروتونا Crotona، جنوب إيطاليا، وهي إذ ذاك مستعمرة إغريقية وأكثر المدن نشاطاً وسعة وثروة، فأنشأ مدرسته لتعليم الحساب والهندسة العلنية، لتكون رافداً وغلافاً لجمعيته السرية!

بعد أن استقر فيثاغورس في كروتونا ذاع صيته فيها وفيما حولها من المستعمرات الإغريقية، فصار مقصداً للزوار، وقبلة للسؤال وطلب المشورة، وأستاذاً لمحبي الحساب والهندسة وراغبي تعلمها.

ومن هؤلاء كون فيثاغورس مدرسة لتعليم الحساب والهندسة، فإليك وصف أحد أشهر أساتذة الفلسفة في بلاد العرب لفيثاغورس ومدرسته، قبل أن نعرفك بحقيقته وحقيقتها، يقول الدكتور يوسف كرم:

"وكانت فرقته مفتوحة للرجال والنساء من اليونان والأجانب على السواء، يعيش أعضاؤها في عفة وبساطة بموجب قانون ينص على الملبس والمأكل والصلاة والتراتيل والدروس والرياضة البدنية، يصدعون بما يؤمرون غير ناظرين إلا إلى أن المعلم قد قال، وكان المعلم متشبعاً بعاطفة

---

1) The secret teachings of all ages,P65.

دينية قوية ومقتنعاً بفكرة جليلة، وهي أن العلم وسيلة فعالة لتهذيب الأخلاق وتقديس النفس"(١)

والجمعية الخيرية التي وصفها لك الدكتور يوسف كرم، هي في حقيقتها جمعية سرية نموذجية، وإحدى أقدم الجمعيات السرية في تاريخ العالم، وبعض مؤرخي الحركات السرية يعُدونها أصل الماسونية، أو أحد الجذور القديمة لها، وبعضهم الآخر يراها نسخة في الغرب القديم من حركة الروزيكروشيان في الغرب الحديث.

قسَّم فيثاغورس تلاميذ مدرسته، وجُلهم من الشباب، إلى ثلاث مراتب أو درجات، وأعضاء كل مرتبة لا يعلمون شيئاً عن التي تليها، فتعاليم كل درجة وطقوسها، وما يتعلمه ويمارسه من فيها، سر لا يعلمه إلا هم.

فالمرتبة الأولى في مدرسة فيثاغورس، هي المرتبة العلنية، مرتبة الغلاف والحشود، التي تعقد لها المؤتمرات وتسلط عليه الأضواء، لترصدها الصحف والكاميرات ويتوهم فيها الأميون جمعيات البر والتقوى والإحسان، وهذه المرتبة ، كما يقول الفيلسوف الأفلوطيني يامبليخوس الخليقدوني Iamblichus Chalcidensis في تأريخه لحياة فيثاغورس Life of Pythagoras:

"مرتبة المستمعين أو السميعة *Akousmatikoi*، وهذه المرتبة كان يحتشد فيها الرجال والنساء، ويحضرون في مكان عام للاستماع فقط من أجل

١) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، ص٢٥.

تعلم الحساب والهندسة، وغير مسموح لهم بالكلام ولا النقاش، وبعد انتهاء وقت التعلم يعودون إلى بيوتهم"[١]

وفي أثناء السنوات التي يستمعون فيها، والتي قد تصل إلى خمس سنوات، يترقى من يتوسم فيه من يعلمهم ما ترغبه الجمعية من مواهب عقلية ومحاضن نفسية إلى المرتبة التي بعدها، وهي:

"مرتبة الرياضيين أو الحسَّابين Mathematikoi، وهؤلاء يسمح لهم بالسؤال والنقاش، ويتعلمون الحساب والهندسة مع تطبيقاتها ممزوجة بمحبة الحكمة ومعانيها، في مكان مغلق"[٢]

وأما المرتبة الثالثة، والتي لا يصعد إليها أحد من مرتبة الرياضيين إلا بالانتخاب ممن هم فيها، فهولاء هم: أخوية فيثاغورس Pythagoras Brotherhood !!

فهؤلاء هم:

"الصفوة Electi، وأبناء فيثاغورس الذين يسميهم باسمه Pythagoreans، ويتعلمون المعاني العميقة للأعداد والأشكال الهندسية، والحكمة وأسرارها المخبوءة فيها، وصلتها بالإله والكون والإنسان والحياة والموت والخلود"[٣]

---

1) Iamblichus Chalcidensis: Life of Pythagoras,P13.
2) Life of Pythagoras,P42.
3) Life of Pythagoras,P43-44.

وأبناء فيثاغورس وأعضاء أخويته هؤلاء، لا ينتقلون إلى هذه الدرجة إلا بعد طقوس للترقي، وبعد قسم يقسمونه بالولاء لفيثاغورس وطاعته المطلقة مع الكتمان والمحافظة على الأسرار، ثم يقيمون معه في مدرسته إقامة دائمة، وهو الذي يعلمهم الحكمة وطقوسها وكيف يمكن الوصول إليها بنفسه.

أما قبل مرتبة الصفوة، فكان التلاميذ لا يرون فيثاغورس ولا يسمعون اسمه، ولا يعرفون عن رأس مدرستهم إلا أنه السيد أو الأستاذ Master، فمرتبة الرياضيين كان يُعلمهما النابهون من أبناء فيثاغورس، ومرتبة السميعة عهد فيثاغورس بتعليمها إلى هيباسوس Hippasus أنجب حوارييه، لكي يستكشف من يصلح منهم للترقي.

وقبل أن تعرف ما هي الأسرار والحكمة التي كان يعلمها فيثاغورس لأبنائه ويورثها لهم، تنبه أنك لو أُخفيت الأسماء، لكانت السيرة التي قرأتها الآن هي سيرة القبالي الماسوني آدم فيسهاوبت Adam Weishaupt، مؤسس منظمة الإليوميناتي Illuminati أو النور البافارية ورئيسها، وهي المنظمة التي أوقدت نيرات الثورة في فرنسا.

فمن الطريف، أو لعله من الأدلة على بلاهة أكثر بني الإنسان، أن تعلم أن أعضاء المنظمة وكوادرها امتلأوا بأفكار فيسهاوبت، وكانوا يتحركون بتعاليمه، وثاروا وأشعلوا الثورة بأمره، وهم لم يروه ولا يعرفونه ولا يعرفون حتى اسمه، فكل ما كانوا يعرفونه عن قائد منظمتهم هو اسمه الحركي: سبارتاكوس Spartacus!

مرة أخرى، التاريخ لا يتكرر ولا يكرر أشخاصه ولا حوادثه كما يتوهم الأميون، ولكن الأذهان والنفوس التي تنتج هذا التاريخ هي هي، وما فيها هو هو.

وأما ما ينبغي أن تكون قد تنبهت إليه وحدك، وقد وصلت إلى هذا الموضع من رحلتك الوعرة هذه داخل المسارات التي حفرتها أفكار بني اسرائيل في وعي البشر، ثم سرت من خلالها ابتكاراتهم واستقرت في الأمم والشعوب، فهو أنك أمام القبالاه!

فالحكمة السرية، ووجود طبقة من المعارف لا ينبغي أن يطلع عليها إلا صفوة من البشر يتوارثونها بينهم، ويتعاهدون على إخفائها وكتمانها عن عموم الناس، وتكوين أغلفة من المعارف العلنية تحجبها عن البشر ويذهلون بها عنها هو، كما علمت، جوهر القبالاه.

وتكوين جمعيات، وإنشاء درجات لنقل هذه الطبقة من الحكمة والمعارف السرية إلى الصفوة من البشر، عبر طقوس واختبارات وأقسام، ووضع رموز لها يذهل عموم الناس بما فيها من غموض وإثارة عن حقيقة معانيها التي لا يعلمها إلا هذه الصفوة، هو النبع الذي تكونت به ومن مياهه الحركات السرية في شرق العالم وغربه، وعبر التاريخ كله.

والحركات السرية، عبر العصور وفي كل الأمم والشعوب، هندستها وطريقة تنظيمها، وفلسفة هذه الهندسة والتنظيم، واحدة، وهي تكوين طبقات ودوائر من الأعضاء حول نواة، هي القلب النابض والعقل المسيطر والطاقة

الدافعة، وهي وحدها التي تعلم غايات المنظمة الحقيقية وأهدافها التي تسعى إليها.

والدوائر التي حول هذه النواة تغلفها، وكل دائرة أظهر من سابقتها وأكبر اتساعاً وأكثر أعضاءًا، وهي أقل منها علماً وإحاطة بالغايات والأهداف، وكل طبقة أو دائرة من الأعضاء هي قناة يتم عبرها ضخ أفكار النواة وتعاليمها إلى الطبقة التي تليها، ومع سريان الأفكار والتعاليم من دائرة إلى دائرة وانتقالها من طبقة إلى طبقة تُموه الأفكار وتُصنع للتعاليم الأغلفة، ومع كل انتقال يزداد ما تموه به الأفكار والمعتقدات الحقيقية سمواً وبراءة، وتزداد الشعارات والأغلفة رنيناً وبريقاً.

فالنواة، التي هي الفاعل الحقيقي، لا يتجاوز عدد من فيها في كل الحركات السرية أصابع اليدين، ولا يعلم من هم أحد.

والطبقة الخارجية قد تكون مئات أو ألوفاً مؤلفة، هي التي يراها عموم الناس ويسيرون خلف ما تقوله من شعارات رنانة وما ترفعه من أغلفة براقة، لا يعلم حقيقتها والغاية منها وما تفضي إليه حقاً لا الذين يرفعونها ولا الذين يسيرون خلفهم!!

وفي زمانك هذا الذي تكاد تصل فيه دورة الإفساد الثانية إلى تمامها، العالم كله ليس سوى جمعية سرية، نواتها نواة الحركات السرية في كل العصور، وشعاراتها الجذابة وأغلفتها الخلابة التقدم والمدنية، والليبرالية والعلمانية، ووحدة الأديان وتوحيد الإنسانية، وحقوق الإنسان وأفكار التحرير النسائية،

وطبقتها الخارجية مَن يهتفون بهذه الشعارات ويرفعون هذه الرايات في كل أمة من أمم الكرة الأرضية!

وأما إذا كنت فطناً حقاً، فستكون قد أدركت أن الفلسفة، التي تبدو لك صروحاً عقلية، هي ابتكارات لتفسير الوجود وفهم الحياة وبناء المعارف، وأبنية عقلية هائلة التركيب وشديدة الإحكام والاتقان، تذهل عقول الأميين بتركيبها وإحكامها واتقانها عن أنها أقيمت أصلاً على فرضيات خاطئة ولا دليل عليها!

فالفلسفة وصروحها ليست سوى أثر من آثار حجب الوحي، ودَوَرَان داخل التيه الذي صنعه بنو إسرائيل بحجب خريطة الوجود الالهية.

وإذا كنت أشد فطنة، فلن يكون قد فاتك أن كلمة فلسفة التي صاغها القبالي فيثاغورس، وكان أول من تسمى فيلسوفاً، هي كلمة تتكون، كما علمت، من مقطعين: فيلو Philo وسوفيا Sophia، ومعناها: محبة الحكمة، والحكمة هي القبالاه، فالفلسفة، كما ترى، ليست سوى محبة القبالاه!

شفرة فيثاغورس

فالآن إليك ماذا تكون الحكمة والأسرار التي خبأها فيثاغورس في أعداده وأشكاله الهندسية، وما الذي علمه وورَّثه للصفوة من أبنائه.

كوَّن فيثاغورس مدرسته وأقامها على ثلاثة علوم: الحساب والهندسة، والموسيقى، والفلك أو استطلاع النجوم، وفي الدرجات الأولى كانت هذه العلوم والفنون تُلقى إلى من يريدون تعلمها منفصلة، وكعلوم محض لا أسرار فيها ولا صلة لها بالحكمة ولا بالعقائد.

أما الدرجة العليا، والصفوة الذين يلازمون فيثاغورس ويعلمهم هو بنفسه، فكان يعلمهم أن هذه العلوم والفنون مزيج لا ينفصل أي منها فيه عن الآخر، وأن هذا المزيج كله هو وسيلة لمعرفة الإله وفهم الكون وحقيقة الإنسان، وهي كما ترى خلطة القبالاه التقليدية التي اعتدت أن تقابلك في كل مسار نسير بك فيه.

فأما عن الإله، فهو عند فيثاغورس موناد Monad، وهي كلمة إغريقية تعني: واحد One ، أو: وحدة Unit، انفرد فيثاغورس بتسمية الإله بها، وصارت عَلماً على فلسفته وتعاليمه.

فلا يغرنَّك أن إله فيثاغورس اسمه الواحد، فهذا الموناد، كما يقول مانلي هول، في كتابه: التعاليم السرية عبر العصور:

"جسمه من النور، وهو العقل الأسمى Suprem Mind الذي صدر عنه كل شئ، وحل في كل جزء من الكون، وهو القوة التي يتحرك بوجودها فيه كل شئ"(١)

فكما ترى، موناد فيثاغورس ليس إلا اسماً إغريقياً لعين صوف القبالي وبراهمان الهندوسي.

ولأن فيثاغورس كان مولعاً بالمثلثات والثلاثيات، ومن مبادئه أنه لا يمكن أن يكون الإنسان حكيماً إلا إذا وضع أي مشكلة تواجهه في صورة مثلثة، وعندئذ ستنحل من تلقاء نفسها، فقد حل معضلة الوجود بأن قسمه إلى ثلاث عوالم أو طبقات، فالطبقة لأولى: هي العالم السامي Sublime World، وهو عالم الواحد وحده، والثانية: العالم العلوي Superior، وفيه الآلهة الخالدة، والثالثة: العالم السفلي Inferior، وفيه العالم المادي المنظور من كون وإنسان ومخلوقات.

وكل عالم من العوالم الثلاثة هو كرة Sphere، وكرتا العالم العلوي والعالم السفلي توجدان داخل كرة العالم السامي الذي هو الإله.

فهذه، كما لابد أدركت، بيضة القبالاه التي باضتها في رأس فيثاغورس وأخويته، كما باضت أختاً لها في رأس الهندوس من عبَّاد براهمان.

إله فيثاغورس واحد، لأنه هو نفسه الوجود كله، ولأن الآلهة الأخرى أجزاء منه وتوجد في داخله، فقد كان فيثاغورس يعتقد أن النجوم والكواكب المنيرة

---

1) The secret teachings of all ages,P66.

آلهة خالدة يجب لها التوقير والعبادة Adoration، ولكنها جزء من الواحد وتأتمر بأمره.

ولأنها كلها أسماء بلغات مختلفة لشئ واحد، فكما رأيت في الهندوسية والقبالاه بالضبط، كان فيثاغورس يعتقد ويعلم أبناءه في أخويته أن:

"ثمة اتصال دائم Constant interplay وتوحد بين الإنسان والكون، فالإنسان هو الكون الأصغر، والكون هو الإنسان الأكبر، والإنسان والكون على صورة الإله، وفَهم واحد منهم يوصل إلى معرفة الباقين "[1]

فلست الآن في حاجة إلى أن نعرفك أن ما قرأته من تعاليم فيثاغورس وأخويته هو استلهام لشجرة الحياة القبالية التي تمثل الذات الإلهية، وهي في الوقت نفسه تمثيل للإنسان والكون اللذين صدرا عن الإله وعلى صورته.

ولأن الإنسان في القبالاه والهندوسية صدر عن الإله، ويمكنه في الديفيقوت والموكشا، كما علمت، أن يعود للتوحد بالإله أو أن يحل الإله فيه، فقد كان فيثاغوس القبالي يعتقد بحلول الواحد في الإنسان، وفيثاغورس نفسه كان عموم تلاميذه من السميعة الذين لا يرونه، كما يقول يامبليخوس:

"يعدونه واحداً من آلهة الأوليمب الخالدة التي تظهر للبشر الفانين من أجل تعليمهم وإعانتهم، وبعضهم يراه أحد الآلهة التي تسكن القمر"[2]

أما الصفوة من أبناء فيثاغورس، فلهم في وصفه عبارة شهيرة، هي أن:

---

1) The secret teachings of all ages,P66.
2) Life of Pythagoras,P14.

"العقلاء ثلاثة أنواع، النوع الأول: الإله، والثاني: الإنسان، والثالث: الإنسان الذي يتجلى فيه الإله، وهو فيثاغورس"(١)

وكان فيثاغورس، يؤمن بتناسخ الأرواح Metempsychosis، مثل الهندوس والقباليين، ويقول إن:

"روح الإنسان تهاجر بعد موته من جسده، وتعود لتحل في إنسان آخر أو حيوان له صفاته، فإذا كان جباناً رعديداً عادت في أرنب، وإن كان شرساً حلت في ذئب، فإذا مات هاجرت مرة أخرى، وهكذا، إلى أن تصير خالدة"(٢)

ويروي المؤرخ الإغريقي ديوجينيس ليرتيوس Diogenes Laërtius، الذي دوَّن أخبار فيثاغورس ضمن تاريخه لفلاسفة الإغريق، أن فيثاغورس كان يقول لأبنائه في الأخوية إن:

"روحه هاجرت عدة مرات، وأنه عاش قبل حياته التي يرونه فيها أربع حيوات أخرى ويتذكرها جميعاً، ففي الأولى كان أثاليدس Aethalides ابن إله الحرب، وفي الثانية كان يوفوربس Euphorbus أحد أبطال حرب طروادة، وفي الثالثة كان هيرموتيموس Hermotimus رسول الآلهة إلى البشر، وفي الرابعة كان صياداً على شاطئ بحيرة"(٣)

---

1) Life of Pythagoras,P15.
2) The secret teachings of all ages,P66.
3) The secret teachings of all ages,P66.

وإذا عجبت، فما يُزيل عجبك، ويجعلك توقن أن تكوين قادة الحركات السرية في كل العصور واحد، أن ترى صورة طبق الأصل من فيثاغورس في دورة الإفساد الثانية، بعده بأربعة وعشرين قرناً.

ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ادعى اليهودي القبالي الخيميائي كاجليوسترو Cagliostro، مؤسس المذهب المصري في الماسونية، وأحد الشركاء في التدبير للثورة في فرنسا، أن عمره ثلاثمائة عام، وأنه عاش قبل حياته هذه حياة أخرى، كانت في بداية المسيحية، وتوله به العوام في كل مكان يحل فيه ويمارس طقوس السحر والتخييل حين زعم أنه كان في حياته تلك صديقاً للمسيح ورافقه على الصليب!

وأما عن الحساب والهندسة وصلتها بهذا المونـاد أو الإله، فقد كان فيثاغورس وأخويته، خلافاً للإغريق وفلاسفتهم جميعاً، يوقرون علم الحساب ويرونه سابقاً على الهندسة وأهم منها، ويفسرون ذلك بأن العلوم الأخرى كلها، كالهندسة والموسيقى والفلك، تعتمد عليه ولا يتأثر هو بها.

وكان فيثاغورس وأخويته يقدسون الأعداد ويؤمنون أن كل شئ، بداية بالإله، ثم الكون والإنسان، إلى أصغر شئ في الوجود، عدد أو تكوينه من الأعداد، وعدده هذا يميزه وهو علامته ولا يشترك معه فيه شئ آخر.

وكان فيثاغورس يعرف العدد بأنه:

"المجال والصورة التي يظهر فيها عقل الموناد والطاقة المخزونة فيه، وكان هيباسوس يقول إن الأعداد هي المادة لأولية التي تكون بها كل شئ في الوجود"(١)

ومن بين الأعداد كان فيثاغورس وأخويته:

"لا يعتبرون الواحد Monad ولا الاثنين Duad أعداداً، فالأعداد عندهم تبدأ بثلاثة Triadوأربعة Tetrad"(٢)

فأما الواحد، فلأنه رقم الموناد أو هو نفسه الموناد السرمدي الذي صدر عنه الآلهة والإنسان والكون، التي هي أيضاً أعداد، ويحويها في داخله.

وأما الاثنين، فلأن:

"الواحد هو الأب Father، والاثنين هو الأم Mother"(٣)

فالواحد صدر عنه الاثنين، ثم صدر عنهما معاً باقي الوجود.

وعند فيثاغورس وأخويته، كل الأعداد الفردية وما يتكون منها مذكر Musculine، وكل الأعداد الزوجية وما تكوَّن بها مؤنث Femenine.

وأقدس الأرقام عند فيثاغورس بعد الواحد رقم ١٠، فهو رقم التمام والكمال Perfect Number، لأنه رقم الوجود كله، والوجود كله وأعداده في داخله، ولأن الموناد هو نفسه الوجود، فالعشرة، كالواحد، رقم الإله أو الذي يتجلى به الإله.

---

1) The secret teachings of all ages,P70.
2) Life of Pythagoras,P219.
3) The secret teachings of all ages,P70.

وكان فيثاغورس يصور رقم ١٠ في شكل فريد، هو مثلث متساوي الأضلاع والزوايا، وليس قائم الزاوية كمثلث الهندسة المحض، ويحوي في داخله عشر نقاط مرتبة في أربعة صفوف TETRACTYS، وترتيب النقاط والصفوف يبدأ من زاوايا المثلث، ولا يتغير بتغير اتجاه النظر.

فإذا نظر أحد إلى المثلث من أي زاوية يقابله في الصف الأول نقطة واحدة، ثم في الصف الثاني نقطتان، ثم ثلاث نقاط، ثم أربعة، ليكون المجموع دائماً عشرة[•]

وكان فيثاغورس يعلم من يرتقي إلى مرتبة الصفوة ويصبح من أبنائه، وهو يعرفه بكلمة سر الأخوية أن:

"ما تعتقد أنه أربعة فهو في حقيقته عشرة ومثلث كامل، وهو كلمة السر بيننا Our password "[١]

ولأنه مثلث الوجود، فكل صف من النقاط داخل المثلث:

"يمثل عدداً وشكلاً هندسياً، ويناظر شيئاً في الوجود من أول الموناد نفسه، مروراً بالكون المنظور والعناصر والإنسان والحيوان، وصولاً إلى البيت الذي يعيش فيه الإنسان والشارع الذي يسير فيه، والوجود كله أحد عشر مثلثاً، كل واحد منها يمثل مستوى من الوجود، وكل صف من النقاط في مثلث منها يمثل شيئاً ويقابل نظيراً له في المثلثات الأخرى"[٢]

●) انظر صورة مثلث فيثاغورس القبالي في ملحق الصور.

1) Tobias Dantzig:Number,the language of science,P42.

2) Life of Pythagoras,P239.

فالصف الأول في المثلث الأول: رقم ١، ويناظره في المثلث الثاني: المونـاد، وفي الثالث: النقطة الهندسية، وفي الرابع: النار، وفي الخامس: الهرم، وفي السادس: البذرة، وفي السابع: الإنسان، وفي الثامن: الذكاء، وفي التاسع: العقل، وفي العاشر: الربيع، وفي الحادي عشر: الطفل.

وهكذا في باقي الصفوف.

وبلغ من تقديس مثلث الوجود هذا في أخوية فيثاغورس، أن قسم الولاء للأخوية والطاعة لفيثاغورس كان عليه، فقد كانت بداية القسم:

"به هو By him، من وهب أرواحنا المثلث TETRACTYS **الذي يُعرفنا مصدر كل شئ، ويحوي أصول كل شئ في الطبيعة الخالدة"**(١)

ويقول يامبليخوس إن:

"المقصود بقولهم: به هو By him فيثاغورس نفسه، لأن عقيدتهم في المثلث من اختراعه His invention"(٢)

بل وكانت الأخوية تتعبد وتصلي ضارعة متبتلة لرقم ١٠ والمثلث الذي توهم يامبليخوس أن فيثاغورس هو الذي اخترعه، فهذا هو نص صلاة فيثاغورس وأخويته كما أورده توبياس دانتزج Tobias Dantzig في كتابه: العدد لغة العلم Number,the language of science، الذي يؤرخ فيه للأعداد وفلسفتها عبر التاريخ:

---

1) Life of Pythagoras,P235 ،The secret teachings of all ages,P68
2) Life of Pythagoras,P235

"باركنا أيها الرقم الإلهي Divine Number الذي خلق الآلهة والناس، أنت أيها المثلث المقدس Holy Tetractys، يا من تحوي أصول الخلق السرمدية، أيها الرقم الإلهي، يا من تبدأ بالواحد الأصل وتنتهي بالأربعة المقدس، يا أم كل شئ، يا من فيك كل شئ، ويتصل بك كل شئ، يا أول موجود، أيها الكامل بلا نقص، الدائم بلا كلل، أيها العشرة المقدس يا مفتاح كل شئ"(١)

1) Number,the language of science,P42.

حـــــل الشـــــفـرة

وها هنا ينبغي أن نتوقف قبل أن تتلبسك الحالة الفيثاغورسية فتقوم لتصلي للأرقام والمثلثات، ويحسبك من يراك من أهل السراية الصفرا، لنعرفك أن ما قرأته من تعاليم فيثاغورس وأسرار أخويته، والتي هي الحكمة، ومحبتها هي الفلسفة، ليست سوى قبالاه مصفاة.

ولكي تعرف المعنى الحقيقي لتعاليم فيثاغورس، التي يورد الأميون والقباليون بالتقليد والمحاكاة من الفلاسفة وأساتذة الفلسفة نُتفاً منها في مؤلفاتهم، ويمجدونها دون أن يدركوا أصلها ولا حقيقتها، بل ودون أن يفهموا ما الذي تعنيه، لابد أن تعرف أولاً وجهاً من قصة الخلق القبالية لم نعرفك به من قبل.

قصة الخلق في القبالاه أو التراث الباطني اليهودي مركبة متعددة الوجوه، وفوارة بالابتكارات، وقد رأيت عند الهندوسية بعضاً من هذه الوجوه والابتكارات، فإليك بعضها الآخر.

علمتَ أن الإله عين صوف في القبالاه خلق الكون والإنسان بالصدور عنه في صورة فيوضات انبثقت من ذات الإله وعلى صورته، وأن الخلق كان عبر السفيروت أو شجرة الحياة، التي تمثل الوجود كله، فكل بلورة مضيئة فيها تمثل صفة في الإله، وتناظر في الوقت نفسه عضواً في الإنسان وكوكباً أو نجماً في الكون.

وما لم تعلمه أن هذا الصدور والانبثاق للوجود في شجرة الحياة كان عبر حروف اللغة العبرية الاثنين وعشرين وأصواتها، وما يقابل هذه الحروف وأصواتها من أعداد في حساب الجُمَّل.

فالإله، عين صوف، في سفر الخلق في القبالاه[١] Yezirah صدرت عنه أصوات الحروف العبرية، وبامتزاج أصوات الحروف معاً، وبالتباديل والتوافيق بينها، تكوَّن كل شئ في الكون وكل عضو في الإنسان، فكل شئ انبثق عن الإله الصوت الذي تحدثه حروف اسمه صدر وكان[•]

وحروف العبرية وأصواتها والخلق الذي كان من خلالها، تقسَّم في القبالاه ثلاثة أقسام.

فالقسم الأول هو الحروف الأصول أو الأمهات Mother Letters، وهذه الحروف الأمهات، وهي: آلف، ومِم، وشين، ومن أصواتها:

"تكوَّنت ثلاثة أصول في الكون، وهي الهواء والماء والنار، وثلاثة أصول في السنة، وهي البرد والاعتدال والحر، وثلاثة أصول في الإنسان، وهي الرأس والصدر والبطن"[٢]

والقسم الثاني هو الحروف السبعة المركبة Double Letters، وهي: بيت، وجيمل، ودالت، وكاف، وبي[•]، وريش، وثاف، ومن أصواتها:

---

١) سفر الخلق Yezirah نشر نصه العبري مع ما يقابله من الإنجليزية دكتور إيزيدور كاليش Isidor Kalisch سنة ١٨٧٧م.

●) انظر صورة من سفر الخلق Yezirah تمثل انبثاق حروف العبرية وأصواتها من المثلث رمز عين صوف في ملحق الصور.

2) Isidor Kalisch:Sepher Yezirah, a book on creation with English translation, P24.

"خلق الإله في الكون الكواكب السبعة والسموات السبع والأرضين السبع والاتجاهات السبعة، وفي السنة أيام الأسبوع السبعة، وفي الإنسان بوابات الحواس السبع"(١)

وإذا كنت قد انتبهت إلى أن الاتجاهات ستة فقط، فاعلم أن الاتجاه السابع في القبالاه وقصة خلقها هو سرة الكون والذي تدور الاتجاهات الأخرى كلها حوله ويحفظ توازنها، ألا وهو الهيكل!

والقسم الثالث من الحروف هو الحروف الاثني عشر البسيطة Simple Letters، وهي: حيت، وهي، وفاف، وزاين، وسامخ، وطيت، ويود، ولامد، ونون، وصادي، وعاين، وقوف، ومن أصواتها:

"خلق الإله الأبراج الاثني عشر في الكون، والشهور الاثني عشر في السنة، والأعضاء الاثني عشر الرئيسة في الإنسان"(٢)

وكما ترى، في القبالاه كل شئ في الوجود تكوَّن أو انبثق عبر حروف العبرية وأصواتها، وهو ما يفسر لك اعتقاد فيثاغورس وأخويته أن:

"كل شئ في الوجود له صوت، والمخلوقات كلها تغني معاً نشيداً خالداً تمجد فيه الموناد، والإنسان لايسمع هذه الألحان الإلهية Divine Melodies، لأن روحه المطمورة في الوجود المادي خاملة، فإذا تحرر من

●) بيت هي الباء الخفيفة، وبي هي الباء الثقيلة، وتنطق فاءًا، ويقابلها في الإنجليزية حرف: P.

1) Isidor Kalisch:Sepher Yezirah,a book on creation with english translation, P30.

2) Sepher Yezirah,a book on creation with english translation, P36-38.

هذا العالم السفلي وقيوده يمكنه أن يسمع هذه الألحان وتتوحد روحه مع موسيقى الوجود"(١)

وتنقيب فيثاغورس ومثابرته في البحث عن الطريقة التي يتمكن بها من إحداث أصوات منتظمة متناسقة منسجمة ومنضبطة بقواعد ونسب حسابية، من أجل اكتشاف اللحن الإلهي والتوحد مع الكون ومشاركته العزف، أوصله إلى اكتشاف التونات(•) ووضع قواعد السلم الموسيقي!

والمفتاح الذي يفض لك مغاليق تعاليم فيثاغورس وأخويته، ويجعلك تدرك الصلة بين أعداد فيثاغورس وحسابه وبين قصة الخلق القبالية، هو الجماتريا Gematria أو حساب الجُمَّل.

في القبالاه، كل حرف في العبرية له رسم يُرسم أو يكتب به، وله صوت ينطق به، وله عدد يقابله، ومن ثَم فكل شئ في الوجود، الإله، والكون ومكوناته، والإنسان وأعضائه، له عدد، وهذا العدد هو جمع أعداد الحروف التي يتكون منها اسمه(•)

ولأن الخلق كان عبر أصوات الحروف، أو الحروف هي التي خلقت، فبنية الوجود كله بنية صوتية عددية، والعدد ليس مجرد رقم يقابل اسم الشئ، بل هو، كالصوت الذي يُحدثه نطق اسم الشئ، سابق على وجوده، وهو خالقه وجوهره وحقيقته، ويحوي أسراره، ومطبوع فيه تاريخه وسيرته.

---

1) The secret teachings of all ages,P83.

•) التون Tone في الموسيقى تعني الخصائص التي تميز صوتاً عن صوت، كالنوع ودرجة الحدة والقوة والتردد والمدة التي يستغرقها في الزمن، وتعني في السلم الموسيقي المسافة بين نغمتين.

•) انظر صورة لحروف العبرية والإغريقية وما يقابلها من أعداد في حساب الجمَّل في ملحق الصور.

فالآن يمكنك وحدك أن تحل طلاسم فيثاغورس وأن تفك شفرة تعاليمه هو وأخويته.

فيثاغورس كان يقدس الأعداد ويعلم أتباعه في الأخوية أن:

"العدد هو الجوهر الأول First Essence في الوجود الذي تتكون منه كل الأشياء ويسري فيها ويحكمها"(١)

لأن كل شئ في الوجود في القبالاه هو في حقيقته عدد، وهذا العدد هو الذي خلقه ويتحكم فيه، وهو خاتمه الذي يحوي أسراره وتاريخه، ومطبوع فيه حاضره ومستقبله.

فإذا ما كنت نبهاً وتساءلت: ولكن حساب الجمل للكلمات وتحويلها به إلى أعداد يرتبط بالعبرية، وفيثاغورس وأخويته تعاليمهم بالإغريقية، فإليك رد القبالي الماسوني مانلي هول على تساؤلك:

"وتحويل الكلمات إلى أعداد بحساب الجمَّل لا يصح إلا إذا كان باستخدام الكلمات العبرية والإغريقية فقط، وبنطقها القديم"(٢)

والواحد، عند فيثاغورس وأخويته، هو رقم الموناد أو الإله لأن الواحد، كما تقول هيلينا بلافاتسكي:

"يقف في عالم الخفاء Occultism وحده، فهو الرقم الإلهي"(٣)

---

1) Life of Pythagoras,P29
2) The secret teachings of all ages,P70.
3) The secret doctrine,Vol.3,P101

والعشرة هو العدد الكامل والمقدس، لأن عدد التجليات التي تكتمل بها ذات الإله في السفيروت أو شجرة الحياة عشرة، فالعشرة في القبالاه، كما يقول القبالي ماك جريجور ميثرز:

"هو عدد الألوهية Deity، لأن تجليات الإله في شجرة الحياة Sephiroth عشرة"(١)

ومثلث فيثاغورس الذي يصور رقم ١٠ المقدس، يحوي الوجود كله في نقاطه وأعداده وصفوفه، كما تحوي شجرة الحياة الوجود كله في كراتها والقنوات الواصلة بينها.

وداخل هذا المثلث، الأعداد المفردة مذكرة والأعداد الزوجية مؤنثة، لأن كرات شجرة الحياة في العمود الأيسر مذكرة وفي العمود الأيمن مؤنثة، ومن الموناد المذكر والدواد المؤنث خرجت الأعداد، لأنه من التقاء الصفة الأولى في شجرة الحياة، وهي التاج، بالصفة الثانية، وهي الفهم، تكونت باقي الصفات وطبقات الوجود كلها، والتاج صفة ذكورة، والفهم صفة أنوثة.

النقاط والأعداد في مثلث فيثاغورس، كما ترى، هي نفسها كرات شجرة الحياة، وإن كنت في شك فإليك القبالي ديون فورتشن Dion Fortune يخبرك صريحاً في كتابه: القبالاه الباطنية The Mystical Quabalah أن:

---

1) The Kabbalah Unveiled,P21.

"النقطة في مثلث فيثاغورس تقابل التاج في شجرة الحياة، والنقطتان الحكمة، والنقاط الثلاثة الفهم، والأربعة العطف والحنو"(١)

والابتكار الذي ابتكره فيثاغورس هو أنه دمج بين مثلث القبالاه، الذي هو رمز الإله والبيت الذي يحوي اسمه، وبين معاني شجرة الحياة التي تمثل الذات الإلهية والوجود الذي انبثق من هذه الذات.

فلن تعجب الآن أو تسأل لماذا كان فيثاغورس وأخويته يتعبدون للمثلث ويصلون أمامه خاشعين، لأن هذا المثلث ليس سوى الإله نفسه، فمثلث فيثاغورس هو نفسه المثلث الذي تصور القبالاه إلهها عين صوف في أضلاعه الثلاثة، التي ترمز لوجود الإله وحضوره، ولعلمه وإحاطته، ولقوته وقدرته.

والنقاط الأربعة داخل مثلث فيثاغورس هي نفسها الحروف التي يتكون منها الرباعي المقدس Tetragrammaton، الذي هو رمز لاسم الإله داخل مثلث القبالاه، وترتيب نقاط فيثاغورس في مثلثه هو نفسه ترتيب حروف القبالاه في مثلثها، والترتيب في المثلثين واحد ومتناظر من أي زاوية يقف أمامها الناظر.

فالمثلثان في حقيقتهما شئ واحد، لكن أحدهما بالحروف والآخر بالأعداد، والأعداد في القبالاه، كما علمت، هي نفسها الحروف(•)

فهل فهمت الآن لماذا كان فيثاغورس يبدأ حل أي مشكلة تواجهه بتحويلها إلى مثلث، ويقول إنها تنحل بذلك تلقائياً، لأنه يستحضر بهذا المثلث الإله في مسكنه ويكتب به اسمه الأعظم.

---

1) Dion Fortune: The Mystical Quabalah,P170.

●) انظر صورة للمثلثين معاً في ملحق الصور.

ثم هل أدركت معنى عبارة فيثاغورس شديدة الغموض التي كان يستقبل بها الداخلين في أخويته، والتي تبدو وكأنها هذيان ولا معنى لها؟

ما يراه أحد أربعة هو في حقيقته عشرة، وهو نفسه المثلث الذي يتعبد له فيثاغورس، لأن ما يبدو للناظر إلى المثلث من أي اتجاه أربعة ليس إلا رمزاً لإخفاء الإله فيه داخل مثلثه، والعشرة هي حقيقة هذه الأربعة لأنها العدد الذي يتكون منه الإله وتكتمل بها ذاته، والمثلث هو بيت هذه الذات ومحل استحضارها.

والآن ربما تجد نفسك تكرر السؤال الذي سألته عند الهندوسية: من الذي أخذ من الآخر، وأيهما النبع والآخر تفرع منه: بنو إسرائيل أم فيثاغورس وأخويته ؟

وإجابتنا على سؤالك هي هي: بنو إسرائيل، وخريطتهم للوجود التي حجبوا بها خريطة الوجود الإلهية عن البشر، وما ابتكروه وفرعوه من هذه الخريطة في القبالاه، واستيطانهم لوعي الأميين وأذهانهم ونفوسهم بهذه الخريطة وابتكاراتها، هو النبع الذي سرت منه وبه وتكونت حوله الأباطيل والضلالات في أمم العالم كلها، شرقه وغربه.

فالله عز وجل في بيانه إلى خلقه أفرد لبني إسرائيل من بين العالمين مساحة هائلة، يبدو معها وكأنه عز وجل لم ينزله إلا من أجلهم، ولم يخبرك بكلمة واحدة عن هندوس ولا إغريق.

ونزيدك على هذه الإجابة هنا أن نجعلك ترى دليلها صريحاً عند القباليين ورؤوس عالم السر والخفاء.

فالقبالي الماسوني الإنجليزي ماك جريجور ميثرز، وهو أحد الشركاء مع أبي الشيطانية الحديثة أليستر كراولي Aliester Crawly في تأسيس جمعية الفجر الذهبي Golden Down، وهي أشهر جمعية في الغرب لتعليم السحر وفنونه، يخبرك في كتابه: القبالاه سافرة أن:

"عقيدة فيثاغورس في المثلث Tetractys، وخروج الأربعة من الواحد، وتصوير الإله في رموز من الأعداد، استلهمها من مصادر قبالية Qabalistic Sources في أثناء تجواله في بلاد الشرق"(١)

ثم إليك القبالي الأمريكي مانلي هول، وهو ماسوني من الدرجة الثالثة والثلاثين، وعضو جمعية الحكمة الإلهية التي أنشأتها هيلينا بلافاتسكي، ومؤسس الجمعية الفلسفية Philosophical Society، يعرفك، في كتابه: التعاليم السرية عبر العصور، ماذا تكون هذه المصادر القبالية بالضبط وأين التقى بها فيثاغورس:

"تضلع فيثاغورس من تعاليم الشرق وكُشفت له خفاياها، وقد حصَّل هذه التعاليم من رحلاته في الشرق ومكوثه بين اليهود في بابل، وتلقى التعاليم السرية لموسى Secret traditions of Moses من الربانيين Rabbins"(٢)

وكما ترى، بدلاً من أن يهدي بنو إسرائيل البشر إلى الحق ويعرفوهم بخريطة الوجود الحقيقية التي أنزلها الله عز وجل عليهم واستودعهم إياها،

---

1) The Kabbalah Unveiled,P21,214.
2) The secret teachings of all ages,P65

حجبوها لكي يحتكروا الإله ويحتكروها خالصة لهم، ولفقوا خريطة مزورة، وتفننوا في توليد الابتكارات منها، ثم بثوا خريطتهم المزورة وابتكاراتها، واستوطنوا بها وعي البشر في مشارق الأرض ومغاربها.

ومن هذا البث تكونت أمم الضلال، وبه كونت فلسفاتها وعلومها وآدابها وفنونها، ودخلت البشرية كلها في التيه، إلى أن أشرقت شمس القرآن وأنزل عز وجل فيه خريطة الوجود الإلهية نقية محفوظة مصونة من عبث البشر وابتكاراتهم، وأقام بها أمة الوحي، لينهي به وبها دورة الإفساد البني الإسرائيلي الأولى.

فالآن، إذا كنت قد ثابرت إلى أن وصلت إلى ها هنا، فأنت على مشارف الذروة، وبينك وبينها خطوة، وقد صرتَ مؤهلاً لأن تخطوها وتعرف حل الشفرة التي تحويها آيات سورة الإسراء، وماذا يكون إفساد بني إسرائيل وعلوهم في الأرض الكبير.

شفرة سورة الإسراء

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

(الإسراء:٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾

(الإسراء: ١ – ٩)

قيـــــــود

إذا تأملت ما قاله المفسرون في تفسير صدر سورة بني إسرائيل لترى كيف فهموا الآيات، وكيف تفكروا فيها، وما الذي كان يحكم أذهانهم وهم يفسرون ما تخبر عنه، فستجد أن السمت الغالب على كل ما ذكروه في تفسيرها هو تقييدها بما في أذهانهم من معارف وما وصلهم من أخبار عن بني إسرائيل، فقيدوا الآيات بقيود ليست فيها، وأضافوا إليها معانٍ أتوا بها من أذهانهم ومن عند أنفسسهم، دون أن يوجد في نص الآيات ما يوحي بها أو يدل عليها.

والعلة في ما وضعه المفسرون من قيود وما أضافوه من زيادات لا وجود لها في الآيات، أنهم شُغلوا بتحديد متى كانت مرتا الإفساد ومن يكون العباد الذين يبعثهم الله على بني إسرائيل، ومن ثَم انصرفوا إلى البحث عن هذا الإفساد وهؤلاء العباد خارج الآيات، فقيدوا الآيات وفسروها وحصروا فهمها داخل ما يوافق معارفهم.

والمدخل الصحيح لفهم آيات سورة الإسراء، والذي لا يمكن فهم ما تعنيه من غيره، هو القدوم عليها للإجابة عن السؤال التالي: ما الذي تريد أن تخبرنا به الآيات نفسها عن بني إسرائيل، وما صلة ما تريد الآيات أن تخبرنا به بموقع بني إسرائيل من البشرية في القرآن كله، دون الانشغال بما جاء من سيرة بني إسرائيل من خارج القرآن.

وهو السؤال الذي لا تصح الإجابة عليه إلا بتحرير الآيات من قيود المفسرين وإضافاتهم، ثم الالتزام التام في التعامل مع الآيات بنصها، كلمات

وحروفاً، لأن العلة الثانية التي صرفت المفسرين عن فهم آيات سورة الإسراء، هي أنهم فسروا الآيات تفسيراً إجمالياً افتقد الدقة، ولم يول عناية ولا رتب أثراً على ما قُدم من الكلمات وما أُخر، وما حُذف وما أثبت، وما أُفرد وما كُرر، ولا على ما ذكر في مرة إفساد ولم يذكر في الأخرى، وهي فروق شديدة الدقة في الصياغة ولكنها هائلة الآثار في المعنى.

وما يجمع العلتين معاً أن المفسرين تعاملوا مع آيات سورة الإسراء بمنهج مقلوب، ففهموها وفسروها بالتاريخ، والمنهج الصحيح هو استفراغ الوسع لفهم ما الذي يريد بيان الله عز وجل أن يخبرنا به عن بني إسرائيل من الآيات نفسها، ثم فهم التاريخ به.

والقيود التي قيد بها المفسرون الآيات وما أضافوه إليها من عند أنفسهم أفضى إلى شيئين:

الأول: أنه فكك نسيج الآيات وأفقدها الروابط بينها، فبهذه القيود والإضافات لا يمكن فهم علاقة آيات إفساد بني إسرائيل بذكر آية الإسراء بالنبي عليه الصلاة والسلام قبلها، ولا بذكر الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام هدى لبني إسرائيل، ولا بذكر القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم بعدها.

والشئ الثاني: أن هذه القيود والإضافات أغلقت الآيات وأصممتها وقزَّمتها عندما قيدتها بوقائع موقوتة وأحداث محدودة، وعزلتها عن تاريخ البشر وعن مسيرة البشرية، بل وعما يخبر به القرآن نفسه عن بني إسرائيل.

هذه الآيات، كما سترى، هي نواة هائلة الكثافة تحوي في داخلها تاريخ البشرية كله، وفيها تفسير كل ما أنتجته البشرية من أباطيل وأضاليل في كل عصورها.

ففي هذه الآيات الليبرالية والعلمانية، والعقد الاجتماعي والقومية، وفيها الداروينية والماركسية، وفيها ما يسمى بحقوق الإنسان وحركات التحرير النسائية، وفيها الأساطير والخرافات الوثنية.

أولاً: تقييد الزمان بالماضي

أول قيود المفسرين، أنهم قيدوا ما تخبر عنه الآيات بأنه حدث في الماضي، مع أنه لا يوجد في نص الآيات أي قرينة ولا دليل يوحي بأن مرتي الإفساد المذكورتين كانتا في الماضي قبل نزول القرآن، أو ستكونان بعده، أو أن إحداهما قبل نزوله والأخرى بعده.

وقيدهم هذا فرعٌ، أصله ما أخبرناك به من قبل، وهو أنهم فهموا أن كل ما جاء في القرآن من سيرة بني إسرائيل هو إخبار عن ماض حدث وانتهى وانقطعت آثاره.

وعبارة الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره تنطق لك بهذا الفهم الذي ينضح من بين سطور غيره من المفسرين، فهو يخبرك أن هذه الآيات:

"تشير إلى حوادث عظيمة بين بني إسرائيل وأعدائهم من أمتين عظيمتين، حوادث بينهم وبين البابليين وحوادث بينهم وبين الرومانيين"(١)

وما حكم أذهان المفسرين، قديماً وحديثاً، وهم يَقْدمون على الآيات لتفسيرها، أنهم فهموا أن الإخبار بهذا الماضي غايته العظة والعبرة، لكي لا نسير سيرة بني إسرائيل ونفعل مثلهم، وهو وَهْم توهموه وتوارثوه، والكتاب الذي بين يديك كله هو من أجل نقض هذا الفهم وإزالة هذا الوهم.

١) تفسير التحرير والتنوير: ج١٥، ص٢٨.

والذي قال من بين المفسرين أن مرتي الإفساد المذكورتين ليستا من الماضي هو الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى، فقال، بعد أن أشار إلى أقوال أئمة المفسرين:

"تحدث العلماء كثيراً عن هاتين المرتين، وفي أي فترات التاريخ حدثتا، وذهبوا إلى أنهما كانتا قبل الإسلام، والمتأمل لسورة الإسراء يجدها قد ربطتهم بالإسلام، فيبدو أن المراد بالمرتين أحداث منهم حدثت في حضن الإسلام"[١]

وتفسير فضيلة الشيخ الشعراوي لآيات سورة الإسراء كلها شبيه بتفسير فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار لها في دراسة عنوانها: سورة الإسراء تقص نهاية إسرائيل، نشرها في المجلد رقم: ٢٨ من مجلة الأزهر، وأورد نصها الدكتور محمد سيد طنطاوي، رحمه الله، في أطروحته التي حصل بها على درجة الدكتوراة، ونُشرت في كتاب عنوانه: بنو إسرائيل في القرآن والسنة.

يقول الشيخ عبد المعز عبد الستار في دراسته إن:

"هاتين المرتين لم تكونا قبل البعثة، وإنما هما في الإسلام... ويقعان في المستقبل لمن أُنزل عليه الكتاب عليه الصلاة والسلام"[٢]

---

١) تفسير الشعراوي: ج١٣، ص٨٣٤٨.
٢) الدكتور محمد سيد طنطاوي: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، ص٦٧٣، ٦٧٥.

ويستدل الشيخ عبد المعز عبد الستار على ما ذهب إليه بأن: ﴿ فَإِذَا ﴾ في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا ﴾:

" تدل على تحقيق المجئ لا محالة"[1]

وهو الدليل الذي بسطه الشيخ الشعراوي بقوله:

"معلوم أن إذا ظرف لما يستقبل من الزمان، كما تقول: إذا جاء فلان أكرمته، فهذا دليل على أن أولى الإفسادتين لم تحدث بعد .... وقوله: ﴿وَعۡدُ﴾ كذلك لا يكون بشئ مضى، وإنما بشئ مستقبل"[2]

وما وصل إليه الشيخ عبد المعز عبد الستار، بحماسه واستبشاره أن تكون آيات سورة الإسراء نبوءة بالانتصار على اليهود وإزالة إسرائيل، وما وصل إليه الشيخ الشعراوي، بالفتح والإلهام، صحيح، وما استدلا به خطأ!

فما فاتهما، رحمهما الله تعالى، أن صدر سورة الإسراء كله إخبار لنا في القرآن بما أخبر الله عز وجل به بني إسرائيل في التوراة، فهذه الآيات أُنزلت على بني إسرائيل، وهي ما قضاه الله عليهم في الكتاب، ثم أنزلها عز وجل ليخبرنا بها في القرآن.

وعلى ذلك، فقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ﴾ يفيد المستقبل فعلاً، ولكنه المستقبل بالنسبة لزمن نزول التوراة وليس بالنسبة لزمن نزول القرآن، ولذا تظل المشكلة كما

١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، ص ٦٧٨.
٢) تفسير الشعراوي: ج١٤، ص ٨٣٥٣.

هي، فيحتمل أن تكون المرتان بعد نزول التوراة وقبل نزول القرآن، أو أن تكون المرتان بعد نزول القرآن، أو أن تكون إحداهما قبل نزول القرآن والأخرى بعده.

الدليل على أن المرتين بعد نزول القرآن شئ آخر غير الذي قاله الشيخان الجليلان، وسوف تكتشف وأنت ترى حل شفرة الآيات أن دخول العباد المسجد في المرتين هو الذي بعد نزول القرآن، أما الإفساد وما استغرقه من الزمان فمسألة أخرى هائلة، غيَّبها عن المفسرين المعنى الضيق الذي فهموه للإفساد.

ثانياً: تقييد الأرض بالمقدسة

ثاني قيود المفسرين لآيات سورة الإسراء من عند أنفسهم، أنهم قيدوا في تفسيرهم المكان الذي يشهد إفساد بني إسرائيل، فجعلوا الأرض في قوله تعالى:﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هي الأرض المقدسة تحديداً، أو بيت المقدس وما حولها من أرض الشام، مع أن الأرض في الآية مطلقة بلا تقييد.

ويستوي في تحديد الأرض وتقييدها بأنها المقدسة من صرح بذلك، كالقرطبي وأبي حيان، ومن لم يصرح، كابن كثير وابن عاشور، لأن التفسير كله قائم ومحوره أن الأرض التي فيها الإفساد هي الأرض المقدسة.

فيقول الإمام القرطبي في هذه الأرض:

"يريد أرض الشام وبيت المقدس وما والاها"(١)

وانفرد الإمام الفخر الرازي في تفسيره: مفاتيح الغيب، من بين المفسرين جميعاً، بأن قال:

"وقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، يعني أرض مصر"(٢)

ولم يبين، رحمه الله، لماذا، واستناداً إلى أي دليل، فسر المقصود بالأرض في سورة الإسراء بأنه مصر.

أما الغريب حقاً، فهو أنه، رحمه الله، خالف غيره من المفسرين وقال إن الأرض هي مصر، ثم عاد فتابعهم، وأقام تفسيره على أن الأرض هي المقدسة.

---

١) الجامع لأحكام القرآن: ج١٠، ص٢٢١٤.
٢) الإمام الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ج٢٠، ص١٥٦.

والإمام الطبري أطلق هذه الأرض، وجعلها البلاد كلها لا بلداً محدداً، فقال في بداية تفسيره للآيات إن معناها:

"لتعصن الله يا معشر بني إسرئيل، ولتخالفن أمره في بلاده مرتين"[1]

ولكنه حصر تفسير الإفساد والآيات كلها فعلاً داخل الأرض المقدسة.

والإمام الآلوسي قريب منه، فقد ذكر في تفسيره: روح المعاني:

"المراد بالأرض الجنس، أو الشام وبيت المقدس"[2]

ولكنه، رحمه الله، لم يبين ما المقصود بجنس الأرض، وماذا يكون معنى الإفساد على هذا القول، ثم أكمل تفسيره للآيات، وقد حصر، كغيره، الإفساد وبعث العباد في الأرض المقدسة.

فلم نجد أحداً من أئمة المفسرين خرج على هذا القيد أو افترض أن الأرض المقصودة في الآيات والتي تشهد إفساد بني إسرائيل قد تعني شيئاً آخر غير الأرض المقدسة.

والذي أوهم المفسرين بهذا القيد وجعلهم يحصرون إفساد بني إسرائيل في الأرض المقدسة ذكر المسجد الأقصى في الآيات، إذ افترضوا أن دخول العباد الذين يبعثهم الله عز وجل على بني إسرائيل المسجد يعني بالضرورة أن بني إسرائيل موجودون فيه، وأن إفسادهم يكون في الأرض التي من حوله، وأن تسليط العباد عليهم فيها.

---

١) جامع البيان: ج١٤، ص٤٥٥.
٢) الإمام الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ج١٥، ص١٦.

وما في نص الآيات وما تخبر عنه لا صلة له بما توهمه المفسرون، فبنو إسرائيل في الآيات، كما سترى، موجودون في المسجد ومن حوله عند دخول العباد إليه في مرة الإفساد الثانية دون الأولى، والإفساد في المرتين غير مقيد بالمسجد ولا هو محصور في الأرض التي هو فيها، ومرتا الإفساد ليستا متطابقتين، وهي الفرضية التي سربها إلى أذهان المفسرين التعامل مع الآيات وتفسيرها من خارجها، وما ترتب عليه من افتقاد الدقة وعدم الانتباه إلى الفروق الدقيقة والصياغة الساحرة للآيات[•]

[•] في صحيح البخاري ومسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أنه: " قدم رجلان من المشرق فخطبا، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحراً".

ثالثاً: تقييد معنى الإفساد والعلو بالمادي

ثالث قيود المفسرين لآيات سورة الإسراء، أنهم قيدوا الإفساد في الأرض، فى مرتيْه، وكذلك العلو الكبير، بسلسلتين، انطمر بينهما المعنى الحقيقي لهذا الإفساد والعلو الذي أولاه عز وجل هذا القدر من العناية.

فالسلسلة الأولى، أنهم قيدوا الإفساد والعلو بأنه مادي، ويستوي في ذلك أيضاً من صرح ومن لم يصرح، بل ومن أشار منهم، ضمن أقواله ونُقوله، إلى معنى غير مادي للإفساد والعلو، إذ التفسير كله محوره المعاني المادية.

فالطاهر بن عاشور صرح بأن هذا الإفساد والعلو:

"مجاز في الطغيان والعصيان ... وتشبيه للتكبر والطغيان بالعلو على الشئ لامتلاكه"(١)

وهو نفسه تفسير أبي حيان:

"لتفسدن: لتعصن في الأرض المقدسة، ولتعلن، أي: تطغون وتعظمون"(٢)

والقرطبي جعل الإفساد:

"مخالفة أحكام التوراة"(٣)

وهو نفسه تفسير الفخر الرازي:

---

١) تفسير التحرير والتنوير: ج١٥، ص٣٠.
٢) تفسير البحرالمحيط:ج٦، ص٨.
٣) الجامع لأحكام القرآن: ج١٠، ص٢١٤.

"وقوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾، يريد المعاصي ومخالفة أحكام التوراة"[1]

ونقل الإمام الآلوسي قولاً عابراً مجهلاً لم ينسبه لأحد، فقال:

"واختار بعضهم، وقيل إنه الحق، أن الأُولى تغيير التوراة وعدم العمل بها"[2]

ولم يفسر، رحمه الله، كيف يكون تغيير التوراة إفساداً، ثم ترك ما نقل أنه الحق، وعاد ليتم تفسيره متابعاً من سبقه من المفسرين، فقال في معنى العلو الكبير:

"لتغلبن الناس بالظلم والعدوان، وتفرطن في ذلك إفراطاً مجاوزاً للحد"[3]

والعلو الكبير عند القرطبي هو:

"التكبر والبغي والطغيان والاستطالة والغلبة والعدوان"[4]

وعند الفخر الرازي هو التجبر، لأنه:

"يقال لكل متجبر: قد علا وتعظم"[5]

ومخالفة الأحكام معصية وليس فساداً، فضلاً عن أن يكون إفساداً يُنص عليه هذا النص ويُفرد له هذا الإفراد، ويستحق أن يبعث عز وجل عباداً مخصوصين لإزالته.

---

١) مفاتيح الغيب: ج٢٠، ص١٥٦.
٢) روح المعاني: ج١٥، ص١٧.
٣) روح المعاني: ج١٥، ص١٧.
٤) الجامع لأحكام القرآن: ج١٠، ص٢١٤.
٥) مفاتيح الغيب: ج٢٠، ص١٥٦.

ولو كان العلو الكبير هو البغي والطغيان والظلم والعدوان والتجبر، لكان في الأمم من هو أولى من بني إسرائيل بالذكر والتخليد في بيان الإله إلى خلقه، فهل كان لبني إسرائيل يوماً دولة في بطش الرومانية، أو سطوة البريطانية، أو جبروت الأمريكية، لكي يتقدموا على هذه الإمبراطوريات ويستأهلوا هذه المكانة؟!

ومرة أخرى، الشيخ الشعراوي، رحمه الله، هو الذي فطن إلى أن الإفساد لا ينحصر في المعاني المادية فقط، فطرح احتمالاً آخر وقال عند بداية تفسيره للآيات، وهو يبين معنى الفساد عموماً:

"وكما يكون الإفساد في الماديات، كمن أفسدوا علينا الماء والهواء بالملوثات، كذلك يكون في المعنويات، فالمنهج الإلهي الذي أنزله الله تعالى لهداية الخلق وألزمنا بتنفيذه، فكونك لا تنفذ هذا المنهج، أو تكتمه، أو تحرف فيه، فهذا كله إفساد لمنهج الله تعالى"[1]

وطرْحُ الشيخ الشعراوي للمعنى المعنوي للإفساد، وتفسيره بأنه تحريف الوحي وكتمانه، وصل به، رحمه الله، إلى مفتاح الآيات الذي يحل شفرتها، وأوقفه عند النبع الذي تتفجر منه معانيها.

ولكنه، رحمه الله، اكتفى بهذا الاحتمال والطرح في بداية تفسيره للآيات، عند شرحه للمعنى اللغوي للإفساد، ولم يتم ما بدأه عند وصوله إلى تفسير المقصود بمرتي إفساد بني إسرائيل، فلم يفسر رحمه الله ما هو التحريف، وما الذي حُرف، ولا كيف يكون التحريف إفساداً وما الذي يفسده، ولا أين موقعه

١) تفسير الشعراوي: ج١٣، ص٨٣٤٧.

من مرتي الإفساد، ولا علاقة هذا التحريف ببعث العباد المذكورين في الآيات، وبالكتاب الذي أنزل على موسى قبلها، وبالقرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في ختامها.

فلم يضع، رحمه الله، المفتاح الذي أُلهمه في موضعه الذي تنفتح به الآيات وتكشف أسرارها، ولم يضرب النبع الذي حام حوله ووقف عنده لتتفجر مياهه التي حبسها المفسرون، إذ ادَّخر عز وجل رؤية شفرة هذه الآيات وحلها وتفجير ينابيعها لعبد من عباده اختاره لها واصطفاه من أجلها.

رابعاً: تقييد معنى المرة بالحادثة

رابع القيود التي حبست ينابيع الآيات، وهي السلسلة الثانية التي طمر تحتها المفسرون المعنى الحقيقي لإفساد بني إسرائيل وعلوهم، تقييد مرتي الإفساد بأنها حوادث ووقائع.

فالمفسرون، لأنهم فهموا من الإفساد المعنى المادي فقط، افترضوا، من عند أنفسهم، ودون أن يوجد في الآيات ما يدل على ما افترضوه، أن كل مرة من مرتي الإفساد هي حادثة أو واقعة موقوتة بزمان محدد، ومحصورة في مكان معين.

فنقل الطبري فى: جامع البيان، والقرطبي في: الجامع لأحكام القرآن، والسيوطي في: الدر المنثور، وأبو حيان في: البحر المحيط، في المقصود بمرتي الإفساد، رواية نصها لا يتغير، فمنهم من نسبها لابن عباس، ومنهم من نسبها لعلي بن أبي طالب، أو لابن مسعود، أو لابن زيد.

ويوجز لك الفحوى الواحدة لهذه الرواية ذات الأسانيد المختلفة، وإقرار المفسرين لهذه الفحوى، قول الطبري تعقيباً على نُقوله:

"فعلى القول الذي ذكرنا عن ابن عباس، وقول ابن زيد، كان إفساد بني إسرائيل الذي يفسدون في الأرض المرة الأولى قتلهم زكريا نبي الله، مع ما كان سلف منهم قبل ذلك وبعده ... وأما قول ابن اسحق الذي روينا عنه، فكان إفسادهم المرة الأولى ما وصف مع قتلهم إشعيا بن أمصيا نبي الله... وأما

إفسادهم في الأرض المرة الآخرة، فلا اختلاف بين أهل العلم أنه كان قتلهم يحي بن زكريا"[1]

وحتى الشيخ الشعراوي رغم أنه افترض أن الإفساد قد يكون معنوياً، وقد يكون المقصود به تحريف التوراة وكتمها، فلأنه رحمه الله تعامل، في تفسيره كله، مع هذا التحريف والكتم على أنه واقعة حدثت في الماضي وليس فعلاً مستمراً في الزمان، حين وصل إلى تفسير إفساد بني إسرائيل، فارق الإفساد بمعنى التحريف، ولم يجد ما يفسر به مرة الإفساد الأولى، التي أقام تفسيره على أنها في الإسلام، إلا معنى الواقعة أو الحادثة المحصورة في لحظة من الزمان وبقعة من المكان.

فقال، رحمه الله، عن مرة الإفساد الأولى:

"في المدينة أبرم رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم معاهدة يتعايشون بموجبها، ووفَّى لهم رسول الله ما وفوا، فلما غدروا هم، واعتدوا على حرمات المسلمين وأعراضهم، جاس رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال ديارهم، وقتل منهم من قتل، وأجلاهم عن المدينة إلى الشام وخيبر، وهذا هو الفساد الأول الذي حدث من بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة"[2]

فاقترب، رحمه الله، من وضع يده على التفسير الصحيح للآيات، لكنه ابتعد عنه مرة أخرى حين حصر الإفساد في أنه حادثة أو واقعة، وصُرِفَ رحمه الله

---

١) جامع البيان: ج١٤، ص٤٦٨-٤٦٩.
٢) تفسير الشعراوي: ج١٣، ص٨٣٥٢.

عن أن الإفساد المقصود دورة طويلة في الزمان، تبدأ من تحريف الوحي، وتنتهي بعودة الوحي وإزالة التحريف.

والذي صرفه عن متابعة ما بدأه، وإقامة تفسيره للآيات على أن الإفساد هو تحريف الوحي، اقتفاءه أثر الشيخ عبد المعز عبد الستار في دراسته، وهي دراسة، على قصرها، عجيبة، يختلط فيها العلم بالخطابة، والاستدلال بالاستبشار، وكان الشيخ فيها أول من خالف أقوال أئمة المفسرين، ووضع يده فعلاً على عدد من مفاتيح التفسير الصحيح لآيات سورة الإسراء، ولكنه لم ير الباب الذي لا تنفتح الآيات وتشرق معانيها إلا بوضع هذه المفاتيح في مواضعها منه.

والعلة في ذلك، أنه، رحمه الله، اهتدى إلى هذه المفاتيح من خارج نص الآيات وليس من داخلها، ولا بحل الشفرة اللغوية التي تحويها، فصارت المفاتيح في يده وبابها محجوب عنه.

يقول الشيخ عبد المعز عبد الستار في بيان مرة الإفساد الأولى:

"ولا تنطبق هذه المرة تمام الانطباق إلا على الدور الذي قاموا به على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فهم أفسدوا في الأرض ونقضوا عهد الله ورسوله ... وانطلقوا بالبغي والمكر والفساد في الأرض يشككون في شخص النبي عليه الصلاة والسلام ونزاهته ورسالته، ويفتحون دورهم

وصدورهم لأعداء النبي عليه الصلاة والسلام ويدلونهم على عورات المؤمنين"[١]

وكما ترى، الشيخ عبد المعز عبد الستار لم يفهم من معنى الإفساد سوى البغي والخيانة، وخرج بالإفساد من الأرض المقدسة والماضي السحيق، ولكنه حصره مرة أخرى في المدينة، وفي لحظة من الزمان.

وما لم يرد على ذهن أحد من المفسرين ألبتة، لا قديماً ولا حديثاً، أن الإفساد المقصود في الآيات دورات طويلة في الزمان، وهو التفسير أو الفرضية التي يتغير معها معنى الآيات تغيراً تاماً، وتتحول من آيات مغلقة مصمتة تخبر عن حادثة أو واقعة محصورة في بقعة من الأرض ولحظة من الزمان، إلى آيات فوق الزمان والمكان، وشمس مشرقة على تاريخ البشرية، وكاشفة لمسيرتها، ومشرفة على مسار العالم كله.

---

١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، ص٦٧٦.

خامساً: تقييد الغاية من بعث العباد بعقاب بني إسرائيل

خامس القيود، أن المفسرين قرنوا بين بعث العباد على بني إسرائيل ودخولهم المسجد في المرتين وبين الإفساد مباشرة، فقد عدوا بعث هؤلاء العباد ودخولهم المسجد تالياً في الزمان مباشرة لإفساد بني إسرائيل، أو أنه مقترن به وفي نفس زمن حدوثه.

فإليك ما فهموه من الغاية من بعث العباد على بني إسرائيل صريحاً في عبارة الإمام الآلوسي:

"في الكلام تقدير، أي: فإذا حان وقت حلول العقاب الموعود... أرسلنا لمؤاخذتكم بتلك الفعلة"[1]

وقد توهم المفسرون ذلك، أولاً: لأنهم فهموا الإفساد بالمعنى المادي وعلى أنه حادثة أو واقعة موقوتة بزمن محدد وفي مكان معين، وثانياً: لأنهم فرعوا من ذلك أن المقصود الأصلي من بعث هؤلاء العباد عقاب بني إسرائيل أو التنكيل بهم على هذه الحادثة أو الواقعة.

فإليك عبارة أبي حيان التوحيدي تجمع لك المسألتين معاً:

"أعلم الله بني إسرائيل في التوراة أنه سيقع منهم عصيان وكفر لنعم الله تعالى، وأنه سيرسل عليهم أمة تغلبهم وتقتلهم وتذلهم، ثم يرحمهم بعد ذلك، ويجعل لهم الكرة ويردهم إلى حالهم الاول من الظهور، فتقع منهم المعاصي وكفر النعم والظلم والقتل والكفر بالله من بعضهم، فيبعث الله عليهم أمة أخرى

---

١) روح المعاني: ج١٥، ص١٧.

تخرب ديارهم وتقتلهم وتجليهم جلاءًا مبرحاً ... وقد كان بين آخر الأولى والثانية مائة وعشر سنين ملكاً مؤيداً ثابتاً"[١]

فكما ترى، جعل أبو حيان، والمفسرون جميعاً مثله، المعصية والبغي إفساداً وعلواً كبيراً، ثم جعلوا بعث العباد قريناً لهذه المعصية والبغي، ومن أجل عقاب الجيل من بني إسرائيل الذي وقعت منه، وحصروا مرتي الإفساد وبعث العباد في المائة سنة من تاريخ البشرية التي كان لبني إسرائيل في الأرض المقدسة فيها دولة، وانتهى الأمر على ذلك!

وأما الشيخ عبد المعز عبد الستار، والشيخ الشعراوي مثله، فأدرك أن العباد المبعوثين على بني إسرائيل هم النبي عليه الصلاة والسلام وصحبه، فاقترب من حقيقة الآيات خطوة، ولكنه ابتعد عنها مرة أخرى، حين حصر الغرض من بعثهم في عقاب بني إسرائيل وليس إصلاح ما أفسدوه، فبعد أن حصر الإفساد في نقض العهد والخيانة، قال:

"... فسلط الله عليهم عباده المؤمنين، فأجلوا بني النضير وقتلوا بني قريظة وسبوهم، ثم فتحوا خيبر، ثم منَّ عليهم الرسول فاستبقاهم عملاء حتى أجلاهم عمر في خلافته"[٢]

وما صرف الشيخ عبد المعز عبد الستار عن إدراك الغاية الإلهية من بعث العباد في الآيات، وجعله يحصرها في عقاب بني إسرائيل والتنكيل بهم، انحصار وعيه هو وذهنه ووجدانه في زمانه ومكانه.

---

١) البحر المحيط: ج٦، ص٨.
٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، ص٦٧٦.

فقد كتب، رحمه الله، دراسته أصلاً، كما تنطق هي بذلك، متأثراً بإنشاء دولة إسرائيل واستعلائها على العرب جميعاً، ومن ثَم رأى في آيات سورة الإسراء بشارة الخلاص، وقذفت البشارة التي رآها في وجدانه شعوراً جارفاً، وأوقدت في عقله استشرافاً ورجاءًا أن:

"يشرفنا الله في القريب، فإنا لنطمع أن يعذبهم الله بأيدينا ويخزهم وينصرنا عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين"[1]

وما لم يدركه الشيخ عبد المعز عبد الستار، رحمه الله، أن دول العرب كلها، وليس مصر وحدها، قد تتعايش مع دولة إسرائيل وتهادنها، وقد تعاديها وتحاربها، وقد تهزمها في معركة وتنتصر عليها، ولكنها لن تزيلها، ولا يمكنها أن تزيلها، ولن تدخل واحدة منها المسجد، بل لن يدخلوه ولو اجتمعوا معاً وكان بعضهم لبعض ظهيراً، لأن هذه الدول، بتكوينها ومعمارها ونسيجها وحدودها ونظمها ونخبها وجيوشها، هي نفسها أثر من آثار دورة الإفساد البني الإسرائيلي، والإفساد يزيله إصلاح، ولا يزيل بعضه بعضاً.

والعباد الذين يبعثهم الله عز وجل لإزالة إفساد بني إسرائيل ويدخلون المسجد، كما ستعلم، هم حملة الرسالة، والذين توسم فيهم الشيخ عبد المعز عبد الستار أن يكونوا هم هؤلاء العباد، منهم من يقيم شعائر الدين ويوقر الشرع وأهله، ومنهم من يهدمها ويطرحه ويطرحهم خلف ظهره، ولكن لا هؤلاء ولا أولئك من حملة الرسالة، فلا بخريطتها للوجود يرون ويفكرون، ولا بمفتاحها للتصنيف يترابطون، ولا بمعيارها وميزانها يزنون ويحكمون، ولا من أجلها

---

١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، ص٦٧٨.

يتحركون أو يسكنون، ولا هي ميزان من يوالون ومن يعادون، ولا من نبعها كونوا علومهم وآدابهم ويكونون.

الإفساد، كما ستعلم، دورات طويلة في الزمان وليس حوادث أو وقائع محدودة في الزمان والمكان، وبعث العباد مقصوده الأصلي إصلاح ما أفسده بنو إسرائيل وليس مجرد عقابهم والتنكيل بهم، فعقاب جيل من بني إسرائيل أو التنكيل بهم قرين لإزالة إفساد كل أجيالهم، وليس هو الغاية من بعث العباد.

فما لم ينتبه إليه أحد من المفسرين أن الإفساد لا يكون أصلاً إلا بعد صلاح أو إصلاح، ومن ثَم فوجود مرة إفساد ثانية يعني تلقائياً إصلاح ما أفسده بنو إسرائيل في المرة الأولى وإزالة آثاره، فهذه هي مهمة العباد والغاية من بعثهم.

آيات سورة الإسراء تخبر في ظاهرها عن مرتي إفساد، ولكنها تخبر في حقيقتها، وبحل شفرتها، عن ثلاثة إصلاحات.

سادساً: تقييد الآيات بالإسرائيليات

بعد أن قيد المفسرون آيات سورة الإسراء بأنها تخبر عن ماض حدث وانتهى، وأن ما تخبر عنه من إفساد بني إسرائيل وعلوهم الكبير ينحصر في الأرض المقدسة، وأنه علو وإفساد مادي، وأنه محصور في حوادث معينة ووقائع محددة، وأن الغاية من بعث العباد عقاب بني إسرائيل، حاولوا تفسير متى كانت دورتا الإفساد بمطابقة ما فهموه من الآيات على ما يعرفونه من سيرة بني إسرائيل وتاريخهم، وما وصلهم عنهم من أخبار، وربما الأصح أن ما وصلهم من هذه السيرة وهذه الأخبار هو نفسه الذي كون هذه القيود على الآيات في أذهانهم، وحبسهم عن رؤية ما فيها وفهمه.

فذهب جُل المفسرين، كالطبري والقرطبي وأبي حيان والسيوطي والفخر الرازي والآلوسي، إلى أن المرة الأولى هي التى انتهت بتسليط جالوت على بني إسرائيل إلى أن قتله داوود عليه السلام، وأن الثانية هي التي انتهت بغزو بختنصر الكلداني لبني إسرائيل وحصاره لأورشليم، ثم اقتحامها وهدم الهيكل، وسبي بني إسرائيل إلى بابل.

ونقل بعضهم في الاستدلال على ذلك رواية نسبوها لابن عباس، وفيها:

"بعث الله عليهم جالوت، فجاس خلال ديارهم، وضرب عليهم الخراج والذل، فسألوا الله أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون في سبيل الله، فبعث الله طالوت ... ورجَّع الله إلى بني إسرائيل ملكهم، فلما أفسدوا بعث الله عليهم في المرة الآخرة بختنصر فخرب المساجد وتبر ما علوا تتبيراً"[١]

---

١) جامع البيان: ج١٤، ص٤٧١، الدر المنثور: ج٩،ص٢٥٣.

ومن الغريب أن السيوطي نقل رواية في: الدر المنثور عن ابن أبى حاتم عن عطية المفسر، وفيها أن بني إسرائيل:

"أفسدوا في المرة الأولى، فأرسل الله عز وجل جالوت، فقتلهم وأذلهم، ثم أفسدوا في المرة الثانية، فقتلوا يحى بن زكريا فبعث الله علهم بختنصر"[1]

ووجه الغرابة فى هذه الرواية أنها جعلت قتل بني إسرائيل ليحى عليه السلام هو الإفساد الذى عوقبوا بسببه، مع أن بختنصر كان قبل يحى بستة قرون!

ونقل الطبري والقرطبي وأبو حيان روايتين، إحداهما عن سعيد بن جبير، والثانية عن محمد بن إسحق، وفيهما أن المرة الأولى هي:

"غزو سنحاريب الأشوري، والثانية غزو بختنصر الكلداني"[2]

وأما الشيخ الطاهر بن عاشور فقد اختار أن:

"المرة الأولى هي مجموع حوادث متسلسلة تسمى في التاريخ بالأسر البابلي، وهي غزوات بختنصر ملك بابل وأشور بلاد أورشليم، وأما المرة الثانية فهي سلسلة غزوات الرومانيين بلاد أورشليم ...أرسل قائد رومية القائد سيسيانوس[*] **مع ابنه القائد طيطوس الجيوش في حدود سنة أربعين بعد المسيح، فخُربت أورشليم، وأسر طيطوس نيفاً وتسعين ألفاً من اليهود"**[3]

---

١) الإمام السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ج٩، ص٢٥٣.
٢) جامع البيان: ج١٤،ص٤٧٢، الجامع لأحكام القرآن: ج١٠، ص٢١٦، البحر المحيط: ج٦، ص٩.
●) سيسيانوس هذه تصحيف لاسم الإمبراطور الروماني، وصحتها: فسبسيانوس Vespesianos
٣) تفسير التحرير والتنوير: ج١٥، ص٣٨.

وعلى ذلك، فالمفسرون جميعاً، عدا الشيخ عبد المعز عبد الستار والشيخ الشعراوي، يرون أن العباد المقصودين في قوله تعالى: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾، وقوله: ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يقعون بين جالوت الكنعاني، وسنحاريب الأشوري، وبُختنصر الكلداني، وفسبسيانوس وتيتوس الرومان، وعليك أن تختار.

فإليك ما اختاره الدكتور محمد سيد طنطاوي، رحمه الله، في كتابه ورسالته للدكتوراة: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، بعد أن طاف على ما قاله المفسرون، وفحص وقارن، وحقق ودقق:

"الرأي الذي نختاره هو أن العباد الذين سلطهم الله على بني إسرائيل بعد إفسادهم في الأرض هم جالوت وجنوده، كما يراه المحققون من أهل التفسير ... ولهذه الأسباب نرجح أن يكون المقصود بالعباد الذين سلطهم الله على بني إسرائيل عقب إفسادهم الثاني في الأرض هم الرومان بقيادة تيطس"[1]

وكل ما قاله المفسرون في مرتي الإفساد، ومتى كانتا، ومن يكون العباد المبعوثون، لا محل له، لأنهم أتوا به مما في رؤوسهم هم وليس من الآيات، فكل ما ذكروه خارج عن نص آيات سورة الإسراء، ولا علاقة له بنسيجها، ولا وجود له في سبيكتها اللغوية.

نورد لك أولاً نبذة موجزة عن مملكة بني إسرائيل لكى تدرك معنى ما قاله المفسرون.

---

١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، ص٦٦٧، ٦٧٢.

فى عهد داوود وسليمان كانت مملكة إسرائيل موحدة وبلغت أوج قوتها في عهد سليمان، وبعد وفاة سليمان عليه السلام انقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتين، مملكة يهوذا في الجنوب، وعاصمتها أورشليم، ويحكمها رحبعام بن سليمان، وهذه المملكة كانت تضم سبطي يهوذا وبنيامين.

والمملكة الثانية، مملكة إسرائيل في الشمال، وتضم الأسباط العشرة الباقية وعاصمتها السامرة، وقد رفض هؤلاء الأسباط العشر حكم رحبعام بن سليمان وولوا عليهم يربعام بن ناباط، مع أنه ليس من نسل داوود ولا من سبط يهوذا، وهو سبط المُلك فى بنى إسرائيل، بل من سبط إفرايم.

وفي سنة ٧٠٢ قبل الميلاد تقريباً(•) غزا سنحاريب **Sennacherib** بن سرجون الثاني ملك أشور مملكة إسرائيل في الشمال، وخربها ودمر مدنها، وشرد أهلها.

والأسباط العشرة من بني إسرائيل، أهل هذه المملكة، تفرقوا في البلاد وتبددوا، ولا توجد وثائق تاريخية عن مصيرهم، أو أين ذهبوا، ولا يُعرف لهم تاريخ محدد، بل ولا يوجد خبر عن مصير هؤلاء الأسباط العشرة في العهد القديم، ولذلك تعرف هذه الأسباط العشرة بالأسباط المفقودة أو الضائعة The Lost Tribes.

وهذه الأسباط الضائعة في التاريخ، حاضرة، كما أخبرناك من قبل، في عالم السر والخفاء.

(•) ثمة خلاف بين المؤرخين متى كان غزو سنحاريب لمملكة إسرائيل الشمالية، وهل كان مرة واحدة أم مرتين، ومصدر الاختلاف التباين بين سجلات الدولة الأشورية وبين ماهو مسطور في العهد القديم.

وبعد أن غزا سنحاريب الأشوري مملكة إسرائيل الشمالية، حاول غزو مملكة يهوذا في الجنوب، لكنه لم يستطيع دخول أورشليم بعد أن حاصرها، فرفع الحصار وعاد إلى أشور.

سنحاريب إذاً لم يدخل أورشليم أصلاً، ولا وصل إلى المسجد فلا يمكن أن يكون هو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أما بُختنصر الثاني الكلداني Nebuchadnezzar، فهو الذي غزا مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ قبل الميلاد، واقتحم أورشليم وخربها، وهدم الهيكل، وسبى بني اسرائيل إلى بابل، وهؤلاء كانوا جميعاً من سبط يهوذا وسبط بنيامين.

وما ينبغي ان تعجب منه، أن كل من ذكرهم المفسرون على أنهم العباد الذين بعثهم الله عز وجل على بني إسرائيل في مرتي الإفساد ملوك وثنيون، ومن أقوام مختلفة!

فسنحاريب الأشوري وثني، والجزء الأول من اسمه: سِن Senn، هو اسم إله القمر في الأساطير الأشورية والبابلية، ومعنى اسمه: إله القمر آخاني!

وأما بختنصر الكلداني فوثني أيضاً، واسمه نفسه دليل على وثنيته، فبختنصر، أو نبوخذ نصر، هو تعريب اسم الملك الكلداني نبو كودور أسور *Naboukhodonósôr*، ومعنى اسمه: حامي الإله نبو Nabou، إله الحكمة عند الأشوريين والبابليين.

وفسبسيانوس وتيتوس الرومان وثنيون، من أبناء خريطة الوجود الرومانية، التي هي امتداد لخريطة الوجود الإغريقية التي لفقها هزيود، كما علمت.

والغريب هنا أن المفسرين جعلوا هؤلاء الوثنيين، ومن أمم مختلفة، تفسير العباد المبعوثين على بني إسرائيل في سورة الإسراء، مع أن الله عز وجل وصفهم بأنهم: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾، وهو وصف يوحي، نفسياً وشعورياً، وقبل أن يكون ثَمة بحث، بأنهم مؤمنون موحدون صالحون، ثم إن هؤلاء العباد، كما سترى، أمة واحدة في المرتين.

ومن المثير للانتباه، وهو مما يزيدك يقيناً أن كل ما قاله المفسرون في تفسير آيات سورة الإسراء ومن يكون العباد فيها إنما أتوا به من عند أنفسهم، وقيدتهم فيه الأخبار التي وصلتهم من سيرة بني إسرائيل، والمنهج المقلوب الذي انتهجوه بتفسير الآيات بالتاريخ بدلاً من تفسير التاريخ بها، مما يزيدك يقيناً أن الحافظ ابن كثير، في تفسيره، ضرب صفحاً عن كل ما أورده من سبقه من المفسرين في من يكون هؤلاء العباد الذين سلطهم الله عز وجل على بني إسرائيل في المرتين، وقال بعد أن أشار إليهم إشارة عابرة:

"وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها، لأن منها ما هو موضوع، من وضع بعض زنادقتهم"[1]

ومعنى كلام ابن كثير أن كل ما نقله المفسرون فيمن يكون هؤلاء العباد الذين سُلطوا على بني إسرائيل، هو من الإسرائيليات التي جاءوا بها من كتب أهل الكتاب ورواياتهم، وأنه ليس فيها شئ تصح نسبته إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

---

١) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ج٥، ص٤٧.

شفرة سورة الإسراء(•)

ينبغي أن تعلم أولاً أن سكوت النبي عليه الصلاة والسلام عن تفسير صدر سورة بني إسرائيل، معناه إرادة الله عز وجل أن تنطلق العقول والأفهام في فهمها وتفسيرها دون قيد سوى نص الآيات نفسها، وما تجيزه اللغة من فهم لها واستنباط لمعانيها.

فآيات سورة الإسراء هي، في حقيقتها، كالآيات الكونية التي تصف الطبيعة أو تركيب الكون، وما فسره المفسرون منها، وما فسروه بها، قيدتهم فيه معارفهم عن بني إسرائيل وما وصلهم من أخبار عن سيرتهم في الأرض المقدسة.

وتفسير آيات سورة الإسراء وفهم فحواها ومعرفة ما تخبر عنه، وما المقصود بإفساد بني إسرائيل، وما هو علوهم الكبير، يحتاج معارف واسعة شاملة ومترابطة، ولا يمكن فهم ما الذي تعنيه من غيرها.

لا يمكن تفسير آيات سورة الإسراء حقاً إلا بمعرفة سيرة بني إسرائيل في الأمم التي نثرهم الله عز وجل بينها، وأين كانت مواقعهم منها وآثارهم فيها، وما الذي كانوا يفعلونه عبر التاريخ، وما غايتهم فيه وما الذي يريدونه منه، وما هي وسائلهم في تحريك التاريخ ودفعه نحو هذه الغاية، وهم متناثرون بين الأمم بلا

(•) لست في حاجة إلى أن نذكرك أن الشفرة هنا معناها اختيار الكلمات وما تعنيه والعلاقات بينها، وما قدم وما أخر، وما حذف وما أثبت، وصياغة الآيات وتركيبها اللغوي، وأن حل هذه الشفرة باللغة والعقل، وليس المقصود الإشارات أو الرموز السرية أو تفسيرها بالمعاني الباطنية.

حول ظاهر ولا قوة، فلا أرض تجمعهم، ولا حاكم يحكمهم ويقوم بأمرهم، ولا لهم دولة.

وهي كلها، كما ترى، معارف تقع في الجوانب المجهولة والخفية من التاريخ، ويحتاج الوصول إليها إلى صبر وجلد، وقوة وأناة، وفتوح وبصيرة، من أجل إعادة فحص التاريخ كله وقراءته وفهمه بطريقة غير تلك التي رآه بها المؤرخون، الشرقيون منهم والغربيون، وفهموه ودونوه من خلالها.

فهْم آيات سورة الإسراء يحتاج إلى جمع المشاهد الرئيسية في طول التاريخ وعرض الدنيا كلها معاً، وإدراك الرابط الذي يربط بينها جميعاً، وكيف تكوَّن المسار الذي سارت فيه، ومن غير ذلك تظل طلسماً مطلسماً، وكل ما يقال في تفسيرها لا يفي بحقيقتها ولا يكشف حقاً ما هو خبئ فيها.

آيات سورة الإسراء فوق الزمان وتحيط به، وتشرف على المكان وهو كله فيها، ولا يمكن لوعي ولا عقل أن يدرك ما تحويه، ولا أن يفهم ما الذي تعنيه، إلا إذا رفعه الله عز وجل فوق الزمان والمكان، ورآهما مطلقين من القيد، فأحاط بما في طول هذا وما في عرض ذاك، ولا وسيلة لذلك إلا الوحي.

فمن خلال ما قرأته في الكتاب الذي بين يديك، لابد أدركت أن تفسير آيات سورة الإسراء يحتاج، مع المعارف الواسعة الشاملة المترابطة، الى دراسة سيرة بني إسرائيل وآثارهم في التاريخ من خلال إخبارات القران عنهم.

فسيرة بني إسرائيل، وحركتهم في التاريخ، وآثارهم في الأمم والشعوب، حافلة، كما رأيت، بالأسرار والخفايا، وبعض هذه الأسرار والخفايا، الوعي بها

وإدراكها وفهمها فوق طاقة البشر وما يملكونه من وسائل للإدراك وتحصيل المعرفة.

والقرآن، بيان الإله إلى خلقه، لأنه العلم الشامل المحيط، ومصدر المعرفة المطلق الكاشف للزمان والمكان، فهو المصدر الوحيد الذي يكشف عِظَم آثار بني إسرائيل في التاريخ والبشرية، وهو الضوء الوحيد الذي يرشد الى مناطق استكشاف هذه الآثار، ويضئ المناطق المجهولة التي لا يمكن العثور على هذه الآثار وما تحفل به من أسرار وخفايا، هي حقائق التاريخ لا ما يُدونه المؤرخون، إلا فيها.

فلا يمكن فهم تاريخ العالم والمسار الذي سار فيه، ولا كيف تكونت الأمم وكونت عقائدها وعلومها وآدابها وفنونها على الصورة التي تكونت وكونتها بها، إلا بمعرفة آثار تحريف الوحي فيها، ولا يمكن معرفة التحريف وما الذي حُرف، ولا إدراك أن ثَمة وحياً وتحريفاً أصلاً، إلا بمعرفة الأصل، ولا مصدر للأصل، ولبيان التحريف وما حُرف، إلا القرآن.

فربما توهمت وأنت تقرأ ما أتيناك به من آثار بني إسرائيل وسيرتهم وخريطتهم للوجود في الهندوسية والإغريق، أنَّا عرفناه بالاطلاع على تواريخ هذه الشعوب وحضارات هذه الأمم.

فاعلم أنَّا لم نعرفه ونصل إليه بمجرد الاطلاع والقراءة، بل رأيناه أولاً في القرآن، ومن قبل أن يكون ثَمة اطلاع ولا قراءة، ثم رأيناه بالقرآن عند الإطلاع والقراءة.

فكم من أمي اطلع وقرأ، فلم يُسطِّر قلمه سوى الإعجاب بما قرأ والوله بما عليه اطلع، فلولا أنَّا رأينا ما رأيناه في القرآن، ورأيناه بالقرآن، لكان حالنا، مع ما اطلعنا عليه من تواريخ وأساطير، ومن فلسفات وعلوم، ومن آداب وفنون، ومن أسرار ورموز، ومن مجاهيل عالم السر والخفاء، كحال هؤلاء الأميين، ولصرنا إلى ما صاروا إليه من عَته وبلَه!

والمعضلة الحقيقية هي أن إخبارات القرآن عن بني اسرائيل، هي نفسها تحتاج الى تحريرها من القيود والأوهام التي سلسلتها وطمرتها عبر القرون، وهو أيضاً طريق طويل، شاق ووعر، وأول خطوة في هذا الطريق هي تحرير هذه الإخبارات من فهمها على انها تتكلم عن ماض، وأن الغرض منها العبرة والعظة.

إخبارات القرآن عن بني اسرائيل، وإن كانت في ثنايا قصصٍ مات من عاشوها، فهي تخبر عن مطلقات، عن تكوين ذهني ونفسي، وخلال وسجايا، وأفعال وسلوك، وأهداف واساليب لبني إسرائيل دائمة، ويورثها كل جيل منهم للذي يليه.

تعلم ذلك من أن بني اسرائيل الذين يقص لك القرآن أخبار أجيالهم الغابرة، هم أنفسهم من يخاطب في كل زمان وكل مكان أجيالهم الحاضرة، فبنو اسرائيل، بتكوينهم، في كل أجيالهم جيل واحد، وفي كل عصورهم عصر واحد، له غاية واحدة لا تتغير، ووسائل يتوارثونها لا تتبدل.

فالآن يمكنك أن تفهم ما الذي تخبر عنه آيات سورة الإسراء.

المفسرون، كما رأيت، قيدوا آيات سورة الإسراء زماناً فجعلوها تخبر عن ماض حدث وانتهى، وقيدوها مكاناً فجعلوا مجال الإفساد ومكان العلو الكبير الأرض المقدسة، وقيدوا الإفساد والعلو والكبير بأنه مادي، وحوادث أو وقائع، لأنهم فهموا أن المراد من الإخبار في الآيات العظة والعبرة بسيرة بني إسرائيل.

وهذه القيود أصمتت الآيات وأغلقتها وطمرتها وجعلتها ساكنة لا علاقة لها بحياة البشر ومعزولة عن مسارهم وتاريخهم، بينما هي في الحقيقة ناطقة بشئ آخر، وتحوي شفرة لا يمكن حلها وإخراج ما تحويه إلا بتحريرها من القيود التي قيدها بها المفسرون من عند أنفسهم دون أن يوجد في نص الآيات ما يدل عليها أو يوحي بها.

آيات سورة الإسراء شفرة لغوية، وتفسيرها ومعرفة ما أراد الله عز وجل أن يخبرنا به فيها هو في حل هذه الشفرة اللغوية.

﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾

الإفساد الذي تخبر عنه الآيات وتنطق به دورات في الزمان وليس حوادث أو وقائع فساد، قتل رجل أو اثنين أو مائة ألف، فالآيات تخبرنا عن شئ أشد خطراً وأعمق أثراً في تاريخ البشرية وتكوينها من مجرد قتل رجلين، حتى لو كانا نبيين، والهدف من الإخبار به أهم وأكبر من مجرد العظة والعبرة.

الآيات تخبر عن مرتي إفساد، كل مرة هي دورة طويلة في الزمان، وكل دورة تبدأ من صلاح أو إصلاح، لأن الفساد والإفساد في العربية، كما ستعلم، هو نقيض الصلاح والإصلاح، ولا يكون إلا بعدهما.

فتفهم من ذلك أن الدورة الأولى تبدأ بالصلاح ثم يتلوه إفساد يربو ويستشري حتى يشمل الأرض كلها، وعندما يصل الإفساد إلى ذروته يبعث الله عز وجل عباداً، لا لمجرد التنكيل ببني إسرائيل كما فهم المفسرون، بل لإزالة إفسادهم ومحو آثاره من الأرض، ويواكب هذا الإصلاح لما أفسده بنو إسرائيل تسلط هؤلاء العباد عليهم.

وبعد أن يصل الإصلاح إلى تمامه، يبدأ بنو إسرائيل دورة إفساد أخرى، تزيد وتتوسع إلى أن تصل إلى ذروتها بأن تعم الأرض كلها، فيأتي عباد الله مرة أخرى لإزالة الإفساد وآثاره وإعادة الصلاح.

وكما سترى، إفساد بني إسرائيل المقصود ليس محصوراً في الأرض المقدسة، وإزالة هذا الإفساد لا ترتبط بإخراجهم من المسجد وما حوله من الأرض المقدسة في الدورتين، بل في الدورة الثانية فقط.

وذكر المسجد الأقصى في الآيات ليس تقييداً للإفساد بأنه في الأرض التي هو فيها، بل هو علامة على شيئين آخرين، علامة تعرف بها، مع العلامات الأخرى في الآيات، من هم العباد الذين يسلطون على بني إسرائيل ويزيلون إفسادهم ويمحون آثاره، ومتى يُبعثون عليهم، وعلامة على أن وصول بني إسرائيل إليه وعلوهم المادي حوله هو ذروة دورة الإفساد الثانية.

فنص آيات سورة الإسراء، بصياغته المعجزة المشفرة لغوياً، يخبرك أن دورتي الإفساد ليستا متشابهتين تماماً، كما توهم المفسرون، بل بينهما فروق ستعرفها مع استكمال تحريرها.

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

إذا كان الإفساد المقصود في آيات سورة الإسراء دورات في الزمان وليس حوادث أو وقائع موقوتة بلحظة فيه، وإذا كان المسجد في الآيات علامة على العباد وإشارة إلى زمان بعثهم، وعلى مرحلة في دورة الإفساد الثانية أو على ذروتها، فما المقصود بالأرض التي تشهد هذا الإفساد والعلو الكبير لبني إسرائيل.

لكي تعرف المقصود بالأرض في سورة الإسراء، ينبغي أن تعرف أولاً معاني كلمة الأرض في القرآن.

الأرض في القرآن إما أن ترد مقيدة أو مطلقة، فالأرض المقيدة كقوله تعالى في إبراهيم عليه السلام في سورة الأنبياء:

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾[1]

وكقوله تعالى فيها:

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١﴾[2]

١) الأنبياء: ٧١.
٢) الأنبياء: ٨١.

فالأرض هنا مقيدة بأنها: ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ أو:﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾، فصارت كلمة الأرض بهذا القيد منصرفة إلى بقعة محددة معينة، هي التي بورك فيها، وهي الأرض المقدسة.

أما الأرض حيث ترد مطلقة في القرآن، فإنها تعني إما:

أولاً:الأرض كلها:

أي: الكرة الأرضية، كقوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞ﴾[2]

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠﴾[3]

ثانياً: جنس الأرض أو تربتها:

كقوله تعالى:

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾[4]

---

١) آل عمران: ١٨٩.
٢) الزخرف: ٨٤.
٣) الرحمن: ١٠.
٤) البقرة:٧١.

ثالثاً: بقعة في الأرض أو مكان فيها:

وذلك دون إرادة تحديدها أو تعيينها، لأن التحديد والتعيين ليس مراداً ولا مقصوداً في المعنى، ولا يضيف إليه، كقوله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾[1]

وفي هذه المعاني الثلاثة للأرض حين تأتي مطلقة في القرآن المراد التعميم والإطلاق، وليس تحديد بقعة معينة، ولا الإخبار أو الكناية عن بلد بعينه.

رابعاً: مصر:

الأرض حين ترد في آيات القرآن مطلقة، خالية من القيد، لا تعني بلداً محدداً بعينه، ولا أن ما تخبر به يتعلق بهذا البلد دون سائر البلدان، إلا في حالة واحدة لا ثاني لها، حين يتعلق الكلام بمصر.

كقوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾﴾[2]

وقوله تعالى عن يوسف:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ﴾[3]

وقوله عز وجل عن فرعون:

---

١) التوبة: ١١٨.
٢) يوسف: ٥٥.
٣) يوسف: ٥٦.

﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا ﴾[1]

فالمقصود في هذه الآيات كلها مصر تحديداً، مع إطلاق لفظ الأرض فيها، لأن هذا هو اسم مصر فعلاً في اللغة المصرية القديمة.

فالأرض المطلقة في الآيات التى تخبر عن مصر تعني مصر دون حاجة لتقييدها، لأن كلمة: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هي الترجمة العربية الحرفية لاسم مصر القديمة في لسان أهلها وكتابتهم[•]

فاسم مصر القديمة عند أهلها، كما يقول السير آلان جاردنر Alan Gardiner في كتابه: فقه اللغة المصرية القديمة Egyptian Grammer:

" تا Ta، أي: الأرض، وكانوا أحياناً يسمونها: تامري Ta-Meri، أي: الأرض المحبوبة، أو تاوي Ta-Wy، أي: الأرضيْن، مثنى الأرض"[2]

فالآن نريدك أن تتأمل الآيات مرة أخرى، الأرض في آيات سورة الإسراء مطلقة غير مقيدة، والقيد الذي قيدها به المفسرون، وهو أنها الأرض المقدسة، جاءوا به من عند أنفسهم، وليس في الآيات ما يدل عليه.

وما خطر على أذهانهم من أن ذكر المسجد في الآيات تقييد للأرض بأنها التي هو فيها وَهْم، لأن المسجد في الآيات علامة على مرحلة من دورة الإفساد

---

١) القصص: ٤.

●) انظر رسم اسم مصر بالهيروغليفية في ملحق الصور.

2) Egyptian Grammar:P479,599.

الثانية، وعلامة تعرف بها من هم العباد الذين يزيلون هذا الإفساد ومتى، وليس تقييداً للأرض التي يكون فيها هذا الإفساد.

تعرف ذلك من أن الله عز وجل قرن ذكر المسجد في الآيات بهؤلاء العباد والوعد ببعثهم في المرتين، لا بالإفساد، ولا حتى ببني إسرائيل.

فالسؤال الآن الذي يجب أن تجيب عليه هو: إذاً ما المقصود بالأرض في سورة الإسراء، في قوله تعالى مخاطباً بني إسرائيل:

﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

المقصود بالأرض هو الأرض كلها، لا بقعة دون بقعة، ولا بلد دون بلد، الأرض في آيات سورة الإسراء هي الكرة الأرضية كلها!

الأرض في آيات سورة الإسراء صنو الأرض في قوله تعالى:

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗا﴾[1]

فالمقصود بالأرض في قوله تعالى:﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗا﴾ الأرض كلها، لأنه لو كان المقصود الأرض المقدسة، لكان المعنى أنهم مجتمعون فيها معاً، وهو ما يناقض قوله: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ﴾.

فالمقصود هنا أن الله عز وجل عقاباً لهم نثرهم في الأرض كلها وبعثرهم وشتتهم في بلادها وأنحائها.

١) الأعراف: ١٦٨.

وكذلك الإفساد في سورة الإسراء، فهو إفساد يعم الأرض كلها التي نثر فيها عز وجل بني إسرائيل وشتتهم بين أممها وشعوبها، يؤكد ذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ... وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾[١]

فالله عز وجل يصف اليهود بالسعي إلى الإفساد، وليس مجرد الفساد أو الإفساد، والسعي يعنى قصد الشئ والمسارعة فيه والإسراع نحوه.

ثم إنه عز وجل وضع هذا الإفساد في صيغة المضارعة التي تعني التجدد والاستمرار والتكرار، فحرر بذلك هذا السعي من قيد الزمان.

وأخبرنا عز وجل أن هذا السعي المستمر المتجدد نحو الإفساد في الأرض كلها، فحرره من قيد البقعة والمكان.

فإذا جمعت قوله عز وجل: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ مع قوله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أسفر لك المعنى وأشرق ما تخبرك به الآيات.

إفساد اليهود أو بني إسرائيل ليس محصوراً في الأرض المقدسة، كما فهم المفسرون، بل على خلاف ذلك ونقيضه، هو قرين عدم وجودهم فيها، وتشتتهم في الأرض كلها، وعودتهم إلى الأرض المقدسة واجتماعهم فيها هي إحدى ثمار هذا الإفساد في دورته الثانية.

---

١) المائدة: ٦٤.

ومن المثير أن الصيغة التي وصف عز وجل بها إفساد اليهود في الأرض كلها في سورة المائدة صيغة فريدة لم ترد في القرآن إلا مرتين، وهذا الموضع الثاني منهما.

والموضع الأول قوله تعالى في آية الحرابة:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]

فهذه الصيغة لا ترد فى القرآن إلا لوصف مَن الفساد حرفته وقرين نشاطه وسعيه وحركته.

فإفساد بني إسرائيل المذكور في سورة الإسراء، بنص الآيات، إفساد يعم الأرض كلها ولا تنجو منه بقعة فيها، وعلوهم الكبير علو في الأرض كلها، لا في بلد أو ناحية منها دون أخرى.

---

١) المائدة: ٣٣.

﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾

السؤال التالى: ما هو، وكيف يكون هذا الإفساد الذي يعم الأرض كلها، وما هو تفسير العلو الكبير الذي يعلوه بنو إسرائيل على أمم الأرض كلها؟

المفسرون، كما رأيت، انصرفت أذهانهم إلى الإفساد والعلو الكبير بالمعنى المادي، القتل والتخريب والبغي والتسلط والتجبر والطغيان، وفهمهم للإفساد والعلو الكبير على هذا النحو هو ما أصمت الآيات وأغلقها، ولو فطنوا إلى تفسير الإفساد والعلو الكبير بالمعنى العقائدي لصارت الآيات ينبوعاً يتدفق بالمعاني والإخبارات والدلالات، ولانفتحت على تاريخ العالم وسيرة البشرية كلها.

لكي تعرف ما هو الإفساد الذي يعم الأرض كلها ولا تنجو بقعة فيها منه، لابد أولاً أن تعرف ما هو الفساد والإفساد أصلاً.

في لسان العرب لابن منظور:

"الفساد نقيض الصلاح ... والمفسدة خلاف المصلحة، والاستفساد خلاف الاستصلاح"[1]

وفي القاموس المحيط للفيروزأبادي:

"فسد يفسد فساداً وفسوداً ضد صلح، والمفسدة ضد المصلحة، واستفسد ضد استصلح"[1]

---

١) ابن منظور المصري: لسان العرب ج٣، ص٣٣٥.

وفي تاج العروس لمرتضى الزبيدي:

"فسد ضد صلح ... وقيل: فسد الشئ: بطل واضمحل، ويكون بمعنى تغير"[2]

وفي المعجم الوسيط الذي قام عليه مجمع اللغة العربية برئاسة الدكتور شوقي ضيف:

"فسد اللحم واللبن: أنتن أو عطب، وفسد الرجل: جاوز الصواب والحكمة، وفسدت الأمور: اضطربت وأدركها الخلل، وأفسد الشئ جعله فاسداً"[3]

وكما ترى، أئمة اللغة وأساطين العربية يُعرفون الفساد تعريفاً واحداً يتفقون عليه، ولا اختلاف بينهم فيه، وهو أن الفساد نقيض الصلاح، والإفساد نقيض الإصلاح، وهو ما تعرف منه أن الصلاح هو الأصل، وأنه إذا قيل: حدث فساد أو إفساد، فهو يعني، تلقائياً وبالضرورة، أن هذا الفساد والإفساد كان مسبوقاً بصلاح أو إصلاح.

فإذا صرحت أن اللحم أو اللبن فسد وأنتن، فإنك تعني في الوقت نفسه، ومن غير حاجة إلى تصريح، أنه كان قبل هذا الفساد والإنتان صالحاً، وإذا أخبرك أحد أن الأمور فسدت واضطربت، فإنك ستفهم، من غير أن تكون في حاجة إلى أن يخبرك، أن الأمور كانت قبل فسادها واضطرابها صالحة ومستقرة.

---

١) مجد الدين الفيروزأبادي: القاموس المحيط ج١، ص٣٢٠.
٢) مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس ج٨، ص٤٩٥.
٣) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص٦٨٨.

ومن هنا تفهم أن كل دورة إفساد لبني إسرائيل تبدأ من بعد صلاح أو إصلاح، أي من بعد وحي ورسالة من الله عز وجل لإصلاح عالم البشر وإعادة البشرية إلى الحق، ثم تبدأ دورة إفساد بني إسرائيل وتربو وتزيد وتتوسع حتى تعم الأرض كلها.

وها هنا تفهم لماذا سبق عز وجل ذكر دورتي الإفساد بذكر الكتاب الذي أنزل على موسى ليكون هدى لبني إسرائيل في قوله تعالى:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾[١]

فإنزال الكتاب على موسى عليه السلام، وهداية بني إسرائيل إليه، وتكوين أمة الوحي منهم به، هو الإصلاح الذي سبق دورة الإفساد الأولى.

فإذا فهمت ذلك، وعرفت صلة الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام بالإفساد المذكور بعده، فسوف تدرك وحدك معنى هذا الإفساد والمقصود به.

إفساد بني إسرائيل في آيات سورة الإسراء ليس القتل والتخريب والبغي، كما فهم المفسرون، بل هو في المرة الأولى كتم الكتاب الذي أنزل عليهم وإخفاؤه، وتحريف الوحي، وبث التحريف في البشر وإضلالهم به، بدلاً من هدايتهم بالوحي.

---

١) الإسراء: ٢.

حتى إذا اكتمل إفسادهم، وعم التحريف وآثاره الأرض كلها، ولم تعد بقعة فيها بمنأى عنه، بعث الله عز وجل عباده بالوحي والرسالة، لا لمجرد التنكيل ببني إسرائيل، بل ليعيدوا الصلاح ويغسلوا الأرض بالوحي من إفساد بني إسرائيل ويقيموا أمة الوحي التي تعيد تكوين وعي البشر وأذهانهم ونفوسهم وإصلاح حياتهم ومجتمعاتهم بالرسالة من جديد.

وهذا هو الإصلاح الذي تبدأ من عنده دورة الإفساد الثانية.

وما ينبغي أن تعلمه لكي ينير لك الطريق وتفهم ماذا تكون دورة الإفساد الثانية والإصلاح الذي يكون بعدها، أن الفساد والإفساد ليس الذنوب والخطايا والآثام ولا مخالفة الأحكام، ولا وجود الأباطيل والضلالات في العالم.

الفساد اختفاء الميزان الذي يُعرف به الصواب من الخطأ، والإفساد طمس المعيار الذي يُميز به بين الحق والباطل، الفساد والإفساد فقْدُ الأمة التي يتجلى فيها الوحي وتترجمه في واقعها واجتماعها، وتكون بها خريطة الوجود الإلهية حياة حية، ويكون بها المعيار مرفوعاً، والميزان منصوباً.

دورة الإفساد الثانية هي مصارعة بني إسرائيل للوحي والرسالة في وعي البشر وأذهانهم ونفوسهم لكي تحل خريطتهم للوجود محلها، ومصارعتهم للوحي والرسالة في عالم البشر لكي يزيحوا مفتاح التصنيف الإلهي للبشر بمفتاحهم، وكفاحهم الشاق الدؤوب من أجل تغييب الموازين وإزالة المعايير من اجتماع البشر وأخلاقهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم.

وذروة هذه الدورة أن تصل موجات التحريف وخريطة الوجود البني إسرائيلية إلى الأمة التي أزالت الإفساد الأول، وتستوطن، عبر السياسات والقوانين والعلوم والآداب والفنون، وعيها، فتختفي منها الموازين وتضيع المعايير، وتحل محلها، معياراً للصواب والخطأ، أهواء الأشخاص، عواماً وعلماء وحكاماً.

وأن تترك أمة الوحي مفتاح التصنيف الإلهي فتنحل، ليعاد تكوينها وتركيبها بمفتاح التصنيف البني إسرائيلي، فتحل الدولة ومن يحكمونها محل الإله، وتصير هذه الدول التي أقيمت بالتزوير والتحريف، ومن يقومون عليها، نقيضاً لوحي الإله، ووجوده ينقض وجودها ووجودهم، ومعاييره وموازينه خطراً داهماً يتهددها ويتهددهم، فتكون رسالتهم، وما يحفظ وجودهم وسلطانهم ودولهم وعالمهم المزور، غياب الوحي وتغييب معاييره وموازينه عن شعوبهم، بالإعلام والتعليم، والسياسات والقوانين، والمغنواتية والفنانين، والأدباتية والمثقفين، وأجهزة الأمن والجيوش التي هي للتشريفة والعرض فقط[•]

●) في مؤتمر القمة العربية الذي عُقد في القاهرة سنة ٢٠٠٠م، في أعقاب دخول رئيس وزراء إسرائيل أرييل شارون المسجد الأقصى واندلاع انتفاضة الأقصى، سُئل رئيس اليمن: علي عبد الله صالح في مؤتمر صحفي: لماذا لا تتوحد الجيوش العربية وتقوم بتحرير المسجد الأقصى، فكان رده: "الجيوش العربية لم تصمم من أجل الحروب والقتال، فهي جيوش للتشريفة والعرض فقط"!!

وفي يوم ١٩ يونيو سنة ١٩٧٣م أرسلت السفارة البريطانية في القاهرة رسالة إلى وزارة الخارجية في لندن تقترح فيها شروطاً لعقد صفقات توريد السلاح للدول العربية، وكان أحد هذه الشروط ضمان عدم استخدام هذا السلاح ضد إسرائيل!!

وبعد أن وضعت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م أوزارها نشرت مجلة الإيكونوميست البريطانية تقريراً عن استراتيجية الغرب الجديدة بخصوص إمداد بلاد العرب بالسلاح بعد الحرب قالت فيه إن هذه الاستراتيجية سوف تتجه نحو تزويد جيوش بلاليص ستان بالسلاح الذي يُمَكِّن دولها وحكوماتها من السيطرة على شعوبها دون أن يرتقي إلى أن يكون خطراً على إسرائيل أو تهديداً لأمنها!!

وأما أمضى وسائلهم في تغييب الوحي، وأسفاه، فبعض المشايخ وتحريف الدين، فمن دافع عن الوحي ومعاييره وموازينه، أباحوا دمه وصار، عندهم، من الخوارج على الدولة التي حد حدودها ووضع فواصلها وأرسى أصولها وأسس قواعدها ورسم ملامحها فعلاً اليهود والماسون، في غلاف من الغرب الذي يستوطنون وعيه ويركبون ظهره، وفي غلاف من حكامها ونخبها الذين يستوطن هذا الغرب وهؤلاء اليهود والماسون وعيهم ويركبون ظهورهم[•]

واليهود والماسون أقاموا هذه الدول، مغلفين في الأغلفة التي علمت، بمفتاح التصنيف البني إسرائيلي، وأقاموها على عقد روسو الاجتماعي ودينه المدني، الذي أتى به من خريطة الوجود البني إسرائيلية.

ومن دافع من هؤلاء المشايخ عن الدولة وسياساتها وقوانينها وجيشها، لدفع الضرر ودرء المفسدة والفتنة إن كان ذا وعي وبصر، أو لأنه ممن يطمح إلى المناصب وتصدر المجالس ويحب الأضواء والكاميرات ويهفو إلى الظهور في الصحف والشاشات، أو لأن الدولة وجيشها عنده هي الحق وميزان الصواب والخطأ ومعيار الحق والباطل، لأنه هو نفسه ممن ولد في عالم التحريف وتكون

•) الماسوني إيفلين بيرنج Evylen Baring، الشهير باللورد كرومر، صاحب أكبر بصمة في تاريخ مصر الحديثة، بعد الماسون الذين حرفوا مسار مصر وأقاموا لمحمد علي دولته، والذي صنعها في الحقيقة ووضع قواعدها، وهو الذي أطاح بالشريعة وأحل القوانين الوضعية محلها، وكان أباً روحياً لكل من أنجبتهم مصر من زعماء وساسة وقادة ثورة، ومحرري مرأة، ومفكرين وأدباء، له عبارة بليغة يقول فيها: نحن لا نحكم مصر، بل نحكم من يحكمون مصر!!

وعيه به وبخريطته للوجود وموازينه ومفتاح تصنيفه، كان مشتركاً، أدرك ذلك أو لم يدرك، في تغييب الوحي وترسيخ التحريف!![•]

ولكن لأن الوحي الخاتم باق محفوظ ومعصوم من التحريف، والمعايير والموازين فيه مصونة من التبديل والتغيير، وهو بحفظه وعصمته وصونه ونقاء مصدره الإلهي فوق الدول، وأبقى من ساستها وسياساتها وقوانينها، وأقوى من أجهزة أمنها وجيوشها، تعود أمة الوحي إلى الوحي والرسالة، ويبعثها عز وجل من جديد، لا لمجرد عقاب بني إسرائيل، بل ليعيدوا الصلاح ويغسلوا الأرض بالوحي من إفساد بني إسرائيل مرة أخرى، ويعيدوا تكوين وعي البشر وأذهانهم ونفوسهم وإصلاح حياتهم ومجتمعاتهم بالرسالة كما فعلوا أول مرة.

آيات سورة الإسراء تخبرك عن إفسادين، ولأن الإفساد لا يكون إلا بعد صلاح، فهي تخبرك تلقائياً، كما علمت، عن ثلاثة إصلاحات: الإصلاح الأول الذي يسبق دورة الإفساد الأولى وتبدأ من بعده، والإصلاح الثاني الذي يزيل الإفساد الأول وتبدأ من بعده دورة الإفساد الثانية، والإصلاح الثالث يزيل الإفساد الثاني.

•) بعد أن كتبنا هذا الكلام نشرت الصحف المصرية أن أحد أعضاء اللجنة التي وضعوها، لكي تضع دستور مصر طالب في أثناء مناقشات المادة الثانية أن تحذف عبارة: "الإسلام دين الدولة"، وقال إن الدولة لا دين لها، وأن هذه العبارة بها تزيد كبير وتحدث انقساماً في المجتمع، والعضو الذي قال هذا هو الدكتور سعد الدين هلالي أستاذ الشريعة والفقه المقارن بجامعة الأزهر!!

وهي قالة سبق للدكتور سعد الدين هلالي أن قالها ودعا إليها في كتابه: الإسلام وإنسانية الدولة (ص٣١٥)، وهو الكتاب الذي يؤصل فيه لعلمانية الدولة بفقه الإسلام!!

وما لا يعلمه أستاذ الشريعة والفقه الأمي(!!) أن الدولة في كل الأحوال لها دين، فإن لم يكن دين الله فهو دين روسو المدني الذي وضعه وأقام دولته القومية العلمانية من أجل إزاحة مسألة الألوهية والوحي!

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

لو كان المقصود بالعلو الكبير لبني إسرائيل الطغيان والتجبر، أو التحكم في الأرض، أو تكوين الدولة، أو الجيوش وحيازة الأسلحة، لكان هناك من الأمم والشعوب والإمبراطوريات من هو أولى بالذكر منهم، لكي تكون العبرة والعظة بما آل إليه أكبر.

فبنو إسرائيل عبر التاريخ كله، كما تعرف، لم تكن لهم إمبراطورية مُهابة شديدة البأس كالإمبراطورية المصرية القديمة، ولا واسعة وعتية كالإمبراطورية الرومانية، ولا فى سطوة بريطانيا العظمى إبان أن كانت إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس، ولا في قوة الولايات المتحدة الأمريكية وضخامة جيوشها وعتادها وما تملكه من أسلحة تقليدية ونووية.

ومع ذلك فالله عز وجل لم يسجل العلو الكبير في كتابه وبيانه إلى خلقه إلا لبني إسرائيل، فلم يصف عز وجل فئة ولا قوماً ولا أمة بالعلو الكبير سوى بنى إسرائيل، ولم يصف أحداً بالعلو أصلاً بعد بني إسرائيل سوى فرعون في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾[1]

وقوله تعالى:

---

١) القصص: ٤.

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[١]

والعلو الذي وصف به عز وجل فرعون ليس العلو المادي، كما قد يتبادر لذهنك لأول وهلة، فكم شهد التاريخ من جبابرة وطغاة وأباطرة وقياصرة، ولم يسجل لهم عز وجل هذا الوصف بالعلو.

علو فرعون هنا ليس مجرد العلو المادي، الطغيان والتجبر والسلطة والسطوة والظلم، بل علوه العقائدي وحلوله في أذهان رعاياه فى البلاد التي يحكمها وتحويها مملكته محل الإله، مصدراً للخير والشر، وفيصلاً بين الصواب والخطأ، ومنبعاً للأخلاق والقيم.

علو فرعون في الأرض، تفسيره في قوله تعالى على لسان فرعون نفسه:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾[٢]

وفي قوله تعالى عن فرعون:

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾[٣]

١) الدخان: ٣٠-٣١.
٢) القصص: ٣٨.
٣) النازعات: ١٥-٢٤.

علو فرعون هو أنه جعل نفسه الرب الأعلى، وحل في أذهان رعاياه هذا المحل.

فتفهم من وصف بني إسرائيل وحدهم بالعلو الكبير أمرين:

الأول: أن علو بني إسرائيل فوق علو كل مالك الأرض وإمبراطورياتها في كل العصور، بل إن علو بني إسرائيل في الأرض كلها عند ذروة دورة الإفساد يفوق علو فرعون في مملكته وما بلغه من منزلة في وعي رعاياه.

والثاني: أن هذا العلو، ميزانه ومقياسه ومداره ليس القوة والبأس المادي، بل شئ آخر لم تمتلكه هذه الإمبراطوريات والممالك، ولم يصل إليه فرعون.

وهذا الشئ الآخر هو السطوة على وعي البشر، وامتلاك عقولهم، والسيطرة على أذهانهم ونفوسهم، ومن ثَم التحكم في كل ما يتكون داخل هذا الوعي، وما تنتجه هذه العقول والأذهان والنفوس.

فإذا كنت قد علمت أن إفساد بني إسرائيل في الأرض هو عملهم على إزاحة وحي الإله ومعاييره وموازينه، وإزالة خريطته للوجود ومفتاح تصنيفه من وعي البشر وأذهانهم ونفوسهم، فاعلم أن علوهم الكبير هو تمكنهم من ذلك، وحلولهم وخريطتهم ومفتاحهم محل وحي الإله فى أذهان البشر، واستيطانهم لوعيهم، مصدراً مطلقاً للمعرفة وإدراك الوجود وفهم الحياة وبناء المجتمعات.

علو بنى إسرائيل الكبير هو أن يحل مفتاح تصنيفهم لأمم البشر والشعوب، المفتاح العرقي الدموي القومي السُلالي، محل مفتاح تصنيف الإله للبشر، ألا وهو العقائد ومسألة الألوهية واليوم الآخر، وأن تتفكك أمة الوحي إلى دول

يفصل بينها ويحد حدودها ويحرك جيوشها ويحكم من يحكمونها مفتاح تصنيف بني إسرائيل، فتصير كلها أمة بني إسرائيل ومحضناً لدولتهم.

علو بني إسرائيل في الأرض الكبير هو حلول خريطة الوجود البني إسرائيلية في أذهان البشر، شرقاً وغرباً، محل خريطة الوجود الإلهية، وصنعها وتحكمها في كل ما يصدر عنهم من أفكار ومعارف ومناهج وعلوم وآداب وفنون وأخلاق وقيم ونظم وقوانين.

علو بني إسرائيل في الأرض الكبير هو أن تصير أفكارهم المنظار الذي يرى به البشر، والميزان الذين يزنون به، والمعيار الذي يتحاكمون إليه، والقواعد التي يخضعون طوعاً لها، والضوابط التي يلتزمون من تلقاء أنفسهم بها، وأن يرى الناس التاريخ، وترى كل أمة تاريخها، كما يريد لهم بنو إسرائيل أن يروه، وأن يفهموا الحاضر كما أرادوا لهم أن يفهموه، وأن يستشرفوا المستقبل حيث أرادوا لهم أن يستشرفوه، وأن يقيموا دولهم ويكونوا مجتمعاتهم ويضبطوا علاقاتهم، ويحكموا على القيم والأخلاق، ويحددوا الصواب والخطأ، بما يبتكره بنو إسرائيل ومن يستوطن بنو إسرائيل وعيهم ونفوسهم، وبما يدسونه في العلوم والمناهج من معايير مزورة وموازين محرفة.

يقول فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار في تفسير علو بني إسرائيل الكبير في المرة الثانية، إنهم أُمدوا بثلاثة أشياء:

"١- أموال تتدفق عليهم من أقطار الأرض ٢- بنين مهاجرين ومقاتلين ينتخبون لحماسهم وصلاحيتهم لبناء دولتهم ٣- ... كثرة الناصر لهم والنافر لدولتهم، ولقد اتفق الشرق والغرب، ولم يتفقوا يوماً، على إنشاء إسرائيل"[١]

إفساد بنى إسرائيل وعلوهم في الأرض الكبير ليس دولة إسرائيل وما تمتلكه من جيش وسلاح، كما فهم الشيخ عبد المعز عبد الستار والشيخ الشعراوي، علو بني إسرائيل الكبير هو العالم كله، وبلاد العرب كلها، كما تراه وتراها في زمنك هذا، بمعماره القومي ومعمارها، وخريطته وخريطتها، ودوله ودولها،، ونخبه ونخبها، وجيوشه وجيوشها، وعلومه وعلومها، وآدابه وآدابها، وفنونه وفنونها.

١) بنو إسرائيل في الكتاب والسنة، ص٦٧٧.

﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾

ثمة سؤال، كما علمت، شغل المفسرين وجدُّوا في البحث عنه، وصرفهم عن الفحوى الحقيقية للآيات، وعن السؤال الذي كان ينبغي أن يجدوا ويكدحوا في الإجابة عليه حقاً، وهو: ما هو الإفساد الذي يستحق أن يُنص عليه بمثل هذا النص، وأن يُخلد في مرتَيْه هذا التخليد؟

والسؤال الذي شغل المفسرين هو: من هم العباد الذين يبعثهم عز وجل على بني إسرائيل؟

والمشكلة ليست في السؤال نفسه، ولكن في طريقة البحث عن الإجابة، فقد اجتهدوا في التنقيب عن هؤلاء العباد خارج الآيات، ولم يولوا أي عناية لتحرير أوصافهم وعلاماتهم فيها.

لكي تعرف من يكون هؤلاء العباد، ينبغي أولاً أن تعرف ما الذي تخبر به الآيات عنهم.

أولاً: ﴿عِبَادًا﴾:

لفظ: **"عباد"** لا يرد في القرآن إلا لوصف أهل الصلاح والإيمان والطاعة كقوله تعالى:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾[1]

وقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[2]

وأدنى مقام ترد فيه كلمة: **"عباد"** في القرآن، هو مقام التوبة والاستغفار والإنابة كقوله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[3]

ولم ترد كلمة: **"عباد"** في القرآن لوصف عباد غير مؤمنين إلا في موضعين، هما قوله تعالى في سورة الفرقان:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾[4]

وقوله تعالى في سورة المائدة على لسان المسيح عليه السلام:

---

١) الفرقان: ٦٣.
٢) الأنبياء: ١٠٥.
٣) الزمر: ٥٣.
٤) الفرقان: ١٧.

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[1]

والموضعان اللذان جاءت فيهما كلمة: **"عباد"** لوصف غير المؤمنين والصالحين يتفقان في أنهما في الآخرة وليس في الدنيا.

فإليك من فتوحات فضيلة الشيخ الشعراوي قوله في تفسير ذلك:

"في منطقة الاختيار يتمايز العبيد والعباد، فالمؤمنون بالله يخرجون عن اختيارهم إلى اختيار ربهم، فتراهم ينفذون ما أمر الله به، ويجعلون الاختيار كالقهر، وهؤلاء هم العباد، أما الكفار الذين اختاروا مرادهم وتركوا مراد الله، فهؤلاء هم العبيد، ولا يقال لهم عباد أبداً لأنهم لا يستحقون شرف هذه الكلمة، فإذا جاءت الآخرة فلا محل للاختيار والتكليف، فالجميع مقهور لله تعالى، فالجميع عبيد وعباد في الوقت ذاته، فالكل عباد في الآخرة، وليس الكل عباداً في الدنيا"([2])

ثانياً: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾:

لم يصف الله عز وجل من يبعثهم على بني إسرائيل بأنهم عباد فقط، ولكنه عز وجل أضافهم إلى ذاته ونسبهم لنفسه، فقال عز وجل:

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾

ولم يقل: بعثنا عليكم عباداً أولي بأس شديد.

---

١) المائدة: ١١٨.

٢) تفسير الشعراوي: ج١٤، ص٨٣٥٦-٨٣٥٧، مع تصرف يسير.

وإضافته عز وجل هؤلاء العباد لذاته، ونسبتهم لنفسه، إضافة تشريف ونسبة رفعة وتكريم، تعني أنهم عباد مؤمنون صالحون.

وهو ما فطن إليه فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، فقال رحمه الله في دراسته، عن عمر بن الخطاب وأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الذين دخلوا المسجد الأقصى:

"هم الذين يستحقون شرف هذه النسبة، لأنهم الموحدون أتباع عبده الذي أسري به، أما أتباع بختنصر أو سابور أو سنحاريب، فقد كانوا عبَّاد وثن لا يستحقون شرف الاختصاص بالله في قوله: ﴿لَّنَآ﴾"(١)

ثالثاً: إرادة الله إرادتهم:

في المصحف الذي بين يديك قوله:

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـٔـُۥاْ وُجُوهَكُمۡ﴾

أي: يسوء هؤلاء العباد وجوهكم، وهي قراءة نافع المدني، وابن كثير المكي، وأبي عمرو البصري، وحفص عن عاصم الكوفي، وأبي جعفر المدني، ويعقوب الحضرمي من العشرة، ووافقهم الأعمش من الشواذ(•)

وأما قراءة ابن عامر الدمشقي، وشعبة عن عاصم، وحمزة الكوفي، وخلف العاشر، فهي:

---

١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، ص٦٧٦.

•) للتذكرة، القراءات الشاذة، هي قراءات صحيحة ولكنها لم تبلغ حد التواتر في الأسانيد، ويستنبط منها ولا يُتعبد بها، وسميت شاذة لخروجها عن رسم المصحف العثماني.

﴿فإذا جَاءَ وعْدُ الآخرةِ لِيَسُوءَ وجُوهَكُمْ﴾

بنسبة الفعل وإرادته إلى الله عز وجل بياء الغيبة مع الإفراد، أي: يسوءَ الله وجوهكم.

وقراءة الكسائي الكوفي[1]:

﴿فإذا جاءَ وعْدُ الآخرةِ لنَسُوءَ وجُوهَكُمْ﴾

بنسبة الفعل وإرادته إلى الله عز وجل بنون العظمة، أي: نسوءَ نحن وجوهكم.

وتعدد القراءات، كما أخبرناك من قبل، من فوائده إتمام المعنى، أو بيان معانٍ لا تستبين بقراءة واحدة.

وكما ترى، ما ينبئك به تعدد القراءة في هذا الموضع من آيات سورة الإسراء، أن الله عز وجل يوحد في إرادة الفعل، وسَوْء وجوه بني إسرائيل، بينه وبين هؤلاء العباد، وهو ما يعني أنهم يفعلون ذلك بأمره عز وجل.

رابعاً:أمة جديدة مبعوثة برسالة:

وصف عز وجل هؤلاء العباد بقوله:

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾

وفي لسان العرب:

---

١) الإمام ابن الجزري: النشر في القراءات العشر: ج٢، ص٣٠٦، الإمام أحمد بن محمد البنا: اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: ج٢، ص١٩٣-١٩٤.

"بعث: بعثه يبعثه بعثاً: أرسله وحده، وبعث به: أرسله مع غيره، والبعث: الرسول"[1]

وفي تاج العروس:

"بعث: أرسله وحده، وبعث به: أرسله مع غيره، وبعث الناقة: أثارها أو كانت باركة فأهاجها، وكل شئ أثرته فقد بعثته، وبعث فلاناً من نومه: أيقظه، وبعث الجند يبعثهم بعثاً: إلى الغزو"[2]

وفي المعجم الوسيط:

"بعثه: بعثاً وبعثة: أرسله وحده، ويقال بعثه إليه وله: أرسله، وبعث فلاناً من نومه: أيقظه، وبعث الله الخلق بعد موتهم: أحياهم ونشرهم، وبعث فلاناً على الشئ: حمله على فعله"([3])

فكما ترى، البعث في العربية يعني أصلاً الإرسال، ويقتضي وجود مُرسِل ومُرسَل ورسالة، فصفة من صفات العباد في آيات سورة الإسراء أن الله عز وجل يبعثهم برسالة، والرسالة لا تكون إلا وحياً.

ولكن لأن أئمة المفسرين حصروا آيات سورة الإسراء في الأرض المقدسة، وفي زمن دولة بني إسرائيل، ولأنهم كانوا يبحثون في تفسيراتهم عمن يعاقب بني إسرائيل وينكل بهم، وليس عمن يزيل إفسادهم، ولأنهم لم يجدوا من هؤلاء،

---

١) لسان العرب: ج٢، ص١٦.
٢) تاج العروس: ج٥، ص١٦٧.
٣) المعجم الوسيط ، ص٦٢.

في ما بين أيديهم من معارف، إلا عبَّاد الأوثان، فقد اضطروا إلى تأويل معنى البعث وصرفه عن معناه الأصلي.

فإليك المعنى الأصلي وكيف صرفه الطاهر بن عاشور، معاً، في عبارة واحدة:

"والبعث مستعمل في تكوين السير إلى أرض إسرائيل وتهيئة أسبابه، حتى كأن ذلك أمر بالمسير إليهم، وهو بعث تكوين وتسخير لا بعث بوحي وأمر"(١)

فالمعنى الحقيقي، كما تراه في كلام ابن عاشور نفسه، هو أن بعْث هؤلاء العباد إنما هو بأمر من الله عز وجل، أي بوحي ورسالة، ولكنه رحمه الله، لِما قد علمت، اضطر إلى جعله: كأنه أمر من الله!!

ثم إليك هذه الفرضية العجيبة التي اضطر القاضي ابن عطية الأندلسي إلى افتراضها، في تفسيره: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لكي يوائم بين ما يقتضيه معنى البعث من الوحي والرسالة، وبين عبَّاد الأوثان الذين حصر المفسرون العباد المبعوثين فيهم:

"وقوله: ﴿بَعَثْنَا﴾ يحتمل أن الله قد بعث إلى ملك تلك الأمة رسولاً يأمره بغزو بني إسرائيل، فتكون البعثة بأمر، ويحتمل أن يكون عبَّر بالبعث عما ألقي في نفس الملك الذي غزاهم"(٢)

---

١) تفسير التحرير والتنوير: ج١٥، ص٣٠.
٢) القاضي ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ج٣، ص٤٣٩.

فلا تفهم إذا كان ملك تلك الأمة وثنياً لا يؤمن بالله، كمن ذكرهم هو نفسه في تفسيره، فما الذي يدعوه إلى طاعة هذا الرسول المفترض، وشن حرب انصياعاً لأمر إله لايؤمن به؟!

بقي في: ﴿بَعَثْنَا﴾، أن تعلم أنها تحمل في ثناياها صفة أو علامة أخرى لهؤلاء العباد، فبَعَث تدل في معانيها المختلفة على الانتقال من حالة إلى أخرى، أولاهما: سكون أو خمود وخمول أو موت وعدم، وثانيتهما: حركة أو فعل ونشاط أو وجود وحياة.

فالبعث، كما رأيت في معاجم اللغة، إثارة الناقة من قعود، وتحريك الجيش من سكون، والانتقال من النوم إلى اليقظة، ومن الموت إلى الحياة، ويوم القيامة هو يوم البعث، لأنه انتقال من سكون الموت إلى حركة الحياة.

وهذا هو نفسه جوهر بعث بمعنى أرسل، فالبعث ليس مجرد إرسال رسالة، بل هو إنهاض رسول وتحريكه بها بعد إذ كان قاعداً ساكناً.

فتفهم من ذلك أن العباد الذين يبعثهم عز وجل على بني إسرائيل في أول مرة كانوا قبل بعثهم أمة خاملة لا ذكر لها، أو أنهم لم يكونوا أمة أصلاً، ثم صاروا أمة، وصار لهم ذكر وارتفاع بهذا البعث.

فهؤلاء العباد، من غير تأويل ولا صرف للمعنى عن أصله، أمة تبعث برسالة جديدة لإصلاح الأرض وغسلها وإزالة إفساد بني إسرائيل منها، وهم قبل بعثهم في المرة الأولى أمة خاملة لم يكن لها وجود، أو لم يكن لها ذكر من قبل.

وهاهنا تدرك أن العباد الذين يبعثهم عز وجل على بني إسرائيل في المرة الثانية ليسوا مجرد عباد مؤمنين، كما قال الشيخ عبد المعز عبد الستار والشيخ الشعراوي، ولا هم سيزيلون إسرائيل بأن يعودوا إلى الصلاة والصيام والزكاة.

الذين سيدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة، ويتبرون ما علا بنو إسرائيل تتبيراً هم أهل الوحي وحملة الرسالة، هو وهي ما يترابطون به، وما يرابطون من أجله، وهو وهي ميزانهم ومعيارهم، وغايتهم ووسيلتهم.

وهو ما مسه الشيخ الشعراوي، من بعيد، في فتح خاطف، في ثنايا تفسيره للآيات، إذ قال رحمه الله: إننا:

"ننتظر وعد الله سبحانه ... سيتحقق هذا عندما ندخل معهم معركة على أسس إسلامية وإيمانية، لا على عروبة وعصبية سياسية، لتعود لنا صفة العباد، ونكون أهلاً لنصره تعالى"[1]

خامساً: هم هم في المرتين:

وآيات سورة الإسراء تخبرك أن هؤلاء الأمة أو العباد، الذين يبعثهم عز وجل برسالة جديدة لإصلاح الأرض كلها وغسلها بالوحي، ويدخلون المسجد في المرة الأولى، موجودون طوال دورة الإفساد الثانية وإن علا عليهم بنو إسرائيل، وهم أنفسهم من يعودون مرة أخرى في نهاية دورة الإفساد الثانية، لإزالة الإفساد وإصلاح الأرض كلها بالوحي مرة أخرى، وهم هم من يدخلون المسجد في المرة الثانية.

١) تفسير الشعراوي: ج١٤، ص٨٣٦٦.

فالله عز وجل يقول:

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾

أي: على هؤلاء العباد، لأن الضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد لهم.

ويقول عز وجل:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: ليسوءَ هؤلاء العباد وجوهكم، والضمير في قوله: ﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ في المرة الثانية يعود على من دخلوا في المرة الأولى، فمَن يدخلون المسجد في المرة الثانية هم أنفسهم من دخلوه في المرة الأولى.

فهؤلاء العباد المؤمنون، أو الأمة الجديدة المبعوثة بالوحي، أمة واحدة متصلة، وهم هم الذين يزيلون إفساد بني إسرائيل ويصلحون الأرض بالوحي ويدخلون المسجد في المرتين.

﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

أولاً: اسم المسجد إشارة إلى زمان دخوله:

استدل الشيخان الجليلان عبد المعز عبد الستار والشعراوي، رضي الله عنهما، على أن مرتي الإفساد كانتا بعد الإسلام، بقوله تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾

ودليلهما أن: ﴿فَإِذَا﴾ تدل على المستقبل.

وقد رأيت أن ما استدلا به خطأ، لأن آيات سورة الإسراء إنما أنزلت أولاً على بني إسرائيل في التوراة، وإنزالها في القرآن كان مرة ثانية لإخبارنا بما أخبر به عز وجل بني إسرائيل، ومن ثَم فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا﴾ مستقبل بالنسبة لزمن نزول التوراة، لا بالنسبة لزمن نزول القرآن.

والخطأ الثاني، وهو الخطأ الحقيقي والأصلي، أن الشيخين، رحمهما الله تعالى، وحَّدا بين زمان مرة الإفساد وزمان دخول العباد المسجد، وكغيرهما من المفسرين في كل العصور، قرنوا هذا بذاك، ولم يفطنوا، بسبب القيود التي قُيدت بها الآيات عبر القرون، وما ترتب عليها من أخطاء في فهمها، إلى أنهما مسألتان منفصلتان، فدخول العباد إلى المسجد لحظة، أما الإفساد فمسار ودورة.

الدليل على أن دخول العباد إلى المسجد في المرتين، وليس الإفساد، بعد نزول القرآن، هو ما علمته في بدايات رحلتك في هذا الكتاب، أنه من منهج

القرآن أنه يسمي الأماكن بأسمائها التي تُعرف بها عند أهلها، وفي زمنها الذي يتحدث عنها فيه، وقد رأيت مثلاً لذلك في: الأيمن والغربي، وفي: مصر.

البقعة المقدسة اسمها في العبرية: هار هبيت همقداش، أي: جبل البيت المقدس، أما الهيكل فكلمة أكادية شاعت عَلماً على البيت المقدس إبان السبي البابلي.

وكان هذا هو اسم البقعة المقدسة منذ أن كان لبني إسرائيل دولة في الأرض المقدسة، وظل اسمها إلى العهد الروماني.

وبعد أن دخلت أورشليم في سيادة الإمبراطورية الرومانية، تحول اسمها سنة ١٣٠م، في عهد الإمبراطور الروماني إيليوس هادريانوس إلى: إيليا كابيتولينا أي: مدينة إيليوس، وأقيم في جبل الهيكل الذي هُدم معبد صغير لجوبتر، كبير معبودات الرومان، وغلب اسم معبد جوبتر على البقعة المقدسة، لفترة قصيرة، إلى أن دخلت الإمبراطورية الرومانية في المسيحية، وهدم معبد جوبتر، فعاد اسمها إلى أصله: جبل الهيكل.

أما المسجد الأقصى، فعَلم قرآني غير مسبوق، والبقعة المقدسة صارت المسجد والأقصى بنزول القرآن، وهو ما أشار إليه الشيخ الطاهر بن عاشور عند كلامه عن المسجد الأقصى في تفسيره لآية الإسراء، فقال رحمه الله:

"وأحسب أن هذا العَلم للمسجد من مبتكرات القرآن، فلم يكن العرب يصفونه بهذا الوصف"[1]

---

١) تفسير التحرير والتنوير: ج١٥، ص١٤.

فمن القاعدة القرآنية التي قد علمت، ومن تسمية الله عز وجل للبقعة المقدسة ووصفه لها بالمسجد في زمان دخول العباد إليها، تعلم أن أن دخول هؤلاء العباد إليه، في المرتين، بعد نزول آيات سورة الإسراء وليس قبلها.

ثانياً: المسجد يتعلق بالعباد لا بالإفساد ولا ببني إسرائيل:

المسجد في آيات سورة الإسراء علامة من العلامات على العباد الذين يدخلونه، ولا يتعلق بالأرض، فليس المراد من ذكره تقييد الأرض التي تشهد الإفساد بأنها التي هو فيها، بل ولا يتعلق ذكره ببني إسرائيل في المرة الأولى التي يدخله فيها العباد، فالله عز وجل يقول:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾

والديار، في قوله تعالى: ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾، كما ترى، مطلقة من أي وصف أو قيد، وليس في الآيات أي شئ يوحي بأنها في الأرض المقدسة، أو في أي مكان آخر، أو في الأرض كلها، وتقييدها بأنها في الأرض المقدسة هو من أخطاء المفسرين في فهم الآيات، ومن الإضافات التي أضافوها إليها من عند أنفسهم.

فإليك نماذج ممن صرح بهذه الإضافة، ومن الخطأ في الفهم الذي كان مصدرها، معاً.

يقول الإمام الفخر الرازي:

"والديار ديار بيت المقدس"[1]

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسير هذه الآية:

"هي ديار بلد أورشليم، فقد دخلها جيش بختنصر، وقتل الرجال وسبى، وأحرق المدينة وهيكل سليمان بالنار، ولفظ الديار يشمل هيكل سليمان لأنه بيت عبادتهم"[2]

وكما ترى، الطاهر بن عاشور رحمه الله، لكي يطابق بين الآية وبين ما في رأسه هو، أضاف إضافة من عنده، فقيد الديار بأنها في أورشليم، وزاد على ذلك أن حول: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ في الآية إلى إحراقها وإحراق الهيكل في تفسيره، والجوسان ليس من معانيه الإحراق، والآيات تخبرنا أن العباد يدخلون المسجد، لا أنهم يحرقونه، كما قال الشيخ ابن عاشور، ولا أنهم يخربونه، كما قال الإمام الطبري ونقل في بعض نُقوله[3]

في لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس:

"جاس جوساً وجوساناً: تردد، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾، أي: ترددوا بينها للغارة، وقال الفراء: وجاسوا وحاسوا بمعنى واحد: يذهبون ويجيئون، وقال الزجاج: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾، أي: فطافوا في خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه، وفي الصحاح: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾، أي:

---

١) مفاتيح الغيب: ج٢٠، ص١٥٧.
٢) تفسير التحرير والتنوير: ج١٥، ص٣١.
٣) جامع البيان: ج١٤، ص٤٨٩.

تخللوها فطلبوا ما فيها، كما يجوس الرجل الأخبار فيطلبها، والجوْس: طلب الشئ باستقصاء"[1]

وليس في المعجم الوسيط زيادات في المعنى على ما في لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس سوى شئ واحد، نأتيك به لطرافته:

"... ويقال: جاسوا خلال الديار: ترددوا بينها بالإفساد وطلبوا ما فيها، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾[2]

ووجه الطرافة أن من وضعوا المعجم جعلوا: **"جاسوا"** قرينة للإفساد، أو أن الإفساد جزء من معناها، ثم استشهدوا بالآية على ذلك، فجعلوا العباد الذين يبعثهم الله عز وجل على بني إسرائيل مبعوثين للإفساد لا للإصلاح!

جوَسان العباد في المرة الأولى، كما ترى، هو البحث والاستقصاء والحركة خلال الديار، لتعقب بني إسرائيل وتتبعهم، دون وجود علو يهدمونه أو يتبرونه، وهذه الديار التي يجوسون خلالها قد تكون في أي بقعة من الأرض، أو في الأرض كلها، لأنها لم تقيد في الآيات بأنها في الأرض المقدسة.

وآيات سورة الإسراء تخبرك أن العباد الذين يبعثهم الله عز وجل على بني إسرائيل يدخلون المسجد في المرة الأولى دون وجود لبني إسرائيل فيه ولا علو لهم حوله، فالله عز وجل يقول:

---

١) لسان العرب: ج٦، ص٤٣، القاموس المحيط: ج٢، ص٢٠٣، تاج العروس: ج١٥، ص٥١٨.
٢) المعجم الوسيط، ص١٤٧.

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾

فلم يقل عز وجل: وليدخلوا المسجد وليتبروا ما علوا تتبيراً كما في أول مرة، فتعرف من ذلك أن العباد يدخلون المسجد في المرة الأولى وفي المرة الثانية، ولكن وجود بني إسرائيل في المسجد وحوله، وعلوهم المادي بالبناء والتشييد، وتتبير العباد لما شادوه وشيدوه، في المرة الثانية فقط، أما في الأولى فلا.

ما تخبرك به الآيات أن دخول العباد للمسجد الأقصى في المرة الأولى يواكب بعثهم وتسليطهم على بني إسرائيل وجوسانهم خلال ديارهم، لا أن بني إسرائيل موجودون فيه أو حوله.

أما في المرة الثانية، فيدخل العباد المسجد وبنو إسرائيل فيه وقد شادوا وشيدوا حوله، ليتبروا ما علوا تتبيراً، ووصول بني إسرائيل إلى المسجد في المرة الثانية يواكب ذروة دورة الإفساد أو مرحلة منها، وليس المعنى أن الإفساد ينحصر فيه أو في الأرض المقدسة التي حوله.

الفرق بين دورتي الإفساد

أحد أخطاء المفسرين في فهم ما الذي تخبر عنه آيات سورة الإسراء، افتراضهم أن مرتي الإفساد متطابقتان أو متشابهتان تماماً، وهو الخطأ الذي كان سببه التعامل الإجمالي مع الآيات وعدم الانتباه إلى دقائق نسيجها وتفاصيل شفرتها اللغوية.

وبين مرتي الإفساد، كما تخبرك الآيات نفسها لا تفسيراتها، أشياء مشتركة أو متشابهة، وبينهما اختلافات وفروق.

فالمشترك والمتشابه، أن كل دورة إفساد تبدأ من إصلاح بنزول الوحي، وتكوين أمة به، وإقامة خريطته للوجود ومفتاح تصنيفه ومعاييره وموازينه فيها وبها، وأن كل مرة إفساد هي دورة طويلة في الزمان، وأن الإفساد في المرتين يعم الأرض كلها، وأن من يزيلون الإفساد ويعيدون الصلاح في كل مرة عباد مؤمنون حملة رسالة، وأنهم أمة واحدة، وهم هم في المرتين.

وأما الفروق وما تختلف فيه دورتا الإفساد، فهو أن العباد أمة جديدة مبعوثة في الدورة الأولى، ولكنهم موجودين طوال الثانية.

وبنو إسرائيل لا وجود لهم حول المسجد ولا علو لهم في ذروة الدورة الأولى وحين يصل العباد إليه، فدخول المسجد في هذه المرة يواكب إزالة الإفساد فقط أو هو علامة على إنهاء دورة الإفساد وإشارة إلى من يكون العباد، أما في الدورة الثانية فبنو إسرائيل موجودون في المسجد وحوله في ذروتها أو

المرحلة الأخيرة منها، ولهم علو وبناء وتشييد حين يدخله العباد في هذه المرة الثانية، وهو ما يتبرونه حينها تتبيراً.

يزيدك يقيناً بذلك قوله تعالى في أواخر سورة الإسراء نفسها:

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾[1]

فإليك أولاً ما قاله المفسرون في معنى الآية.

مرة أخرى، قيد المفسرون: ﴿ ٱلْأَرْضَ ﴾ في الآية، من عند أنفسهم، بأنها المقدسة، فقال الإمام الطبري والإمام القرطبي والشيخ الطاهر بن عاشور رحمهم الله إنها:

"أرض الشام"[2]

وانفرد الإمام الآلوسي بأنها أرض مصر، فاضطره ذلك إلى أن افترض، دون دليل، أن بني إسرائيل، أو ذريتهم، عادوا إلى مصر بعد غرق فرعون، فقال:

"هي أرض مصر، وهذا ظاهر إن ثبت أنهم دخلوها بعد أن خرجوا منها، وإن لم يثبت فالمراد من بني إسرائيل ذرية من أراد فرعون استفزازهم"[3]

والذي أوقع الإمام الآلوسي في هذا اللبس توحيده بين الأرض التي أراد فرعون استفزاز بني إسرائيل منها، والأرض التي قال لهم عز وجل من بعد

---

١) الإسراء: ١٠٤.

٢) جامع البيان: ج١٥، ص١١١، الجامع لأحكام القرآن: ج١٠، ص٣٣٨، تفسير التحرير والتنوير: ج١٥، ص٢٢٨.

٣) روح المعاني: ج١٥، ص١٨٧.

فرعون: اسكنوها، فلم يفطن، رحمه الله، أن هذه غير تلك، فالأولى مصر، أما الثانية فشئ آخر.

وأما: ﴿وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾، فقد ذهبوا جميعاً إلى أن المراد بها:

" قيام الساعة، أو يوم القيامة"[1]

والللفيف **هو:**

"ما اجتمع من الناس من قبائل شتى، والجمع العظيم من أخلاط شتى، قال الله تعالى: ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾، أي: أتينا بكم من كل قبيلة، وفي الصحاح: أي: مجتمعين مختلطين"[2]

ومن ثَم ذهب المفسرون إلى معنى واحد لم يختلفوا عليه في تفسير الآية، فهاك هو في عبارة الإمام الطبري:

"فإذا جاءت الساعة حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة، مختلطين، قد التف بعضكم على بعض، لا تتعارفون، ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيه"[3]

وما قاله المفسرون رحمهم الله في الآية يناقض، كما ترى، بعضه بعضاً، فقد قالوا إن الأرض هي المقدسة أو الشام، وهو ما يعني اجتماع بني إسرائيل فيها، وهو ما لا يستقيم مع وجود: ﴿لَفِيفٗا ﴾ في الآية التي تعني، كما رأيت في لسان

---

١) جامع البيان: ج١٥، ص١١١، تفسير التحرير والتنوير: ج١٥، ص٢٢٩، الجامع لأحكام القرآن: ج١٠، ص٣٣٨، مفاتيح الغيب: ج٢١، ص٦٧، البحر المحيط: ج٦، ص٨٤، روح المعاني: ج١٥، ص١٨٧..

٢) لسان العرب: ج٩، ص٣١٨.

٣) جامع البيان: ج١٥، ص١١١.

العرب، جمعهم من بين أقوام شتى، أي أنهم كانوا قبل جمعهم متفرقين، وتعني أيضاً أن هؤلاء الذين سيجئ بهم عز وجل هم أنفسهم أخلاط مختلفة وإن التفت ببعضها، لأن الشئ الواحد، أو النسيج الواحد، أو القوم المتجانسين المؤتلفين لا يوصف اجتماعهم بأنه لفيف.

وإذا كان: ﴿وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ في الآية هو يوم القيامة، كما ذهب المفسرون، لكان معناها الصريح، مع وجود: ﴿لَفِيفًا ﴾، أن الله عز وجل أخبر بني إسرائيل ويخبرنا أنه سيحشرهم يوم القيامة وحدهم دون البشرية كلها، أو أنه عز وجل سيحشر البشرية كلها في صعيد ويحشر بني إسرائيل، أمة وحدها، في صعيد آخر!

التفسير المستقيم للآية هو تفسير الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى، فالأرض:

"جاءت هكذا دون تقييد بمكان معين، لينسجم مع آيات القرآن التي حكمت عليهم بالتفرق في جميع أنحاء الأرض، فلا يكون لهم وطن يتجمعون فيه"(١)

ووعد الآخرة هو:

"الإفساد الثاني لبني إسرائيل"(٢)

وتفسير الشيخ الشعراوي هو الصحيح، إلا في شئ واحد، فلأنه، رحمه الله، كما علمت، فهم الإفساد بمعنى الحادثة أو الواقعة المادية المحصورة في مكان

---

١) تفسير الشعراوي: ج١٤، ص٨٧٨٨.
٢) تفسير الشعراوي: ج١٤، ص٨٧٨٨.

وفترة من الزمان، فقد عد الإفساد وإنهاءه ببعث العباد متلازمين في الزمان، ومن ثَم كان تفسيره أن: ﴿وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ هو الإفساد نفسه.

أما الصواب، فلأن الإفساد دورة طويلة سائرة في الزمان، فلا تلازم بينه وبين بعث العباد إلا في مرحلته الأخيرة، من أجل إنهائها، وهذا هو: ﴿وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الذي تقترن فيه ذروة دورة الإفساد بجمع بني إسرائيل، ثم بعث العباد عليهم.

وعد الآخرة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾، هو نفسه وعد الآخرة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾.

وها هنا ما أتيناك بهذه الآية وتفسيرها أصلاً من أجله.

إذا كانت هذه الآية من تمام خطاب الله عز وجل لبني إسرائيل، وهي كذلك، ومما قضاه إليهم في الكتاب وأخبرنا به في صدر السورة، فهي تخبرك بالفرق الرئيس بين دورتي الإفساد.

فالله عز وجل في صدر سورة الإسراء خاطب بني إسرائيل فأخبرهم، ويخبرنا معهم، أنهم سيفسدون في الأرض كلها مرتين، وأنه عز وجل سيبعث عباده ويسلطهم عليهم في ذروة كل دورة لإنهائها، ثم في خاتمة السورة أخبرهم ويخبرنا أنه لن يجمعهم من تفرقهم في الأرض وبعثرتهم بين الأمم، إلا مع تمام الدورة الثانية ومجئ وعده بإعادة بعث عباده عليهم لإنهائها.

وهو ما يعني أنهم في أثناء الدورتين متفرقون غير مجتمعين، وأنهم سيظلون متفرقين متناثرين بين الأمم منذ بدء دورة الإفساد الأولى، وفي أثنائها، وعند إنهائها وبعث العباد عليهم، وعند بداية دورة الإفساد الثانية، وفي أثنائها، ولن يكون اجتماعهم في الأرض المقدسة وعلوهم المادي بالتشييد والبناء إلا مع ذروة هذه الدورة الثانية، التي يعود عز وجل لتسليط عباده عليهم معها.

وربما تساءلت: إذا كان قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾، في خواتيم سورة الإسراء، هو بقية إخباره عز وجل لبني إسرائيل عن دورتي إفسادهم في صدرها، فلماذا فرَّق عز وجل بين الآيات، وأخبرنا ببعض ما أخبرهم به في فاتحتها وببعضه الآخر في نهايتها؟

والإجابة: حصر الله عز وجل سورة الإسراء كلها بين خطابه لبني إسرائيل في صدرها، وخطابه لهم في خاتمتها، لكي تفهم أن كل ما بين الصدر والخاتمة هو أيضاً من خطابه عز وجل لبني إسرائيل.

فسورة الإسراء، سورة بني إسرائيل، هي كلها، موجهة لبني إسرائيل!

يؤكد لك ذلك أن الله عز وجل ختم سورة الإسراء، بعد ما أخبر به من إسكان بني إسرائيل الأرض ومجيئه عز وجل بهم عند وعد الآخرة لفيفاً، بذكر القرآن الذي أنزل بالحق مرة أخرى، وذكر النبي الذي بعث به مبشراً ونذيراً، وأن الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب إذا يتلى عليهم يخرون، لِما عرفوا فيه من الحق، للأذقان سجداً، ثم يخرون باكين خشعاً، لأنهم رأوا وعد ربهم لهم في التوراة بإنهاء دورة الإفساد ، وإخراج الوحي للعالم، وإعادة تكوينه به، وإقامة

أمته فيه، ونصب ميزانه في الأرض بها، قد تحقق وصار بهذا القرآن وهذا النبي مفعولاً.

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾[1]

١) الإسراء: ١٠٧-١٠٨.

دورتا الإفساد ومن هم العباد

صدر سورة الإسراء كله هو إخبار عن قصة الصراع بين الوحي وبين تحريفه عبر الزمان، قصة الصراع بين الوحي وتحريفه على وعي البشر: أيهما الذي يكوّنه، وعلى أذهانهم ونفوسهم: أيهما الذي يبنيها ويملؤها، وعلى حياتهم ومجتمعاتهم: أيهما الذي يصنعها ويصبغها.

هي قصة الصراع بين خريطة الوجود الإلهية وخريطة الوجود البني إسرائيلية، وبين مفتاح تصنيف البشر الإلهي ومفتاح تصنيفهم البني إسرائيلي.

بعد أن تحررت آيات سورة الإسراء مما قيده بها المفسرون، وزال عنها الغبار الذي تراكم عبر القرون، وعادت جديدة كما أنزلت، وانحلت شفرتها اللغوية، وفهمت ما الذي تعنيه وما الذي تريد أن تخبرك به، سيكون من اليسير عليك معرفة دورتي الإفساد اللتين تتكلم عنهما الآيات، ومن يكون العباد الذين يبعثهم الله عز وجل على بني إسرائيل.

دورة الإفساد الأولى

الإصلاح الأول، الذي بدأت من بعده دورة الإفساد الأولى، هو إنزال الكتاب على موسى عليه السلام هدى لبني إسرائيل، لكي يتكونوا بخريطة الوجود الإلهية، ويقيموا الوحي ومنهجه وميزانه حياة حية وواقعاً نابضاً، فتراهم الأمم والأقوام فتهتدي بهم وتقتدي، وبذلك يصير الكتاب الذي آتاه عز وجل لموسى بصائر وهدى ورحمة للناس أجمعين.

ودورة الإفساد الأولى هي التي تبدأ بكتم الكتاب وإخفاء الوحي وتحريفه، ثم بث هذا التحريف في الأقوام والأمم حتى يعم التحريف وآثاره الأرض كلها، فتغيب وتُحجب خريطة الوجود الإلهية، وتستوطن خريطة الوجود البني إسرائيلية المزورة وعي البشر، وتتكون بها وبآثارها أذهانهم ونفوسهم، وتحكم فهمهم للوجود والحياة، وتصبغ كل ما يصدر عنهم.

ويصير ميزان التحريف ميزان البشر، ومفتاح بني إسرائيل لتصنيف البشر هو الذي يتكون به معمارهم، وهو مصدر الروابط التي تربطهم، والحدود والفواصل التي تفصلهم، وقواعد التحريف التي هي نقيض الوحي وقواعده هي ما يحكم المجتمعات ويضبط العلاقات بين الأفراد والجماعات، وبذا يحل التحريف محل الوحي في وعي البشر وعقولهم ونفوسهم، وفي كل مناحي الحياة وشؤون العمران والاجتماع.

دورة الإفساد الأولى، دورة حجب الوحي وبث تحريفه، هي الدورة التي كان من نواتجها، كما رأيت، حضارة الإغريق، ودولة الرومان، وأساطير الهندوسية والبوذية، وسيرة بني إسرائيل المقدسة، وما استقرت عليه المسيحية.

والإصلاح الثاني الذي ينهي دورة الإفساد الأولى ويزيل آثارها هو أن يبعث الله عباداً له أولي بأس شديد بوحي أصيل ورسالة جديدة، يغسلون به الأرض من التحريف وآثاره، ويجوسون خلال ديار بني إسرائيل، وهم حينئذ خارج الأرض المقدسة، ويواكب إزالة هؤلاء العباد لإفساد بني إسرائيل دخولهم المسجد.

فمن يكون هؤلاء العباد المبعوثين بالوحي والرسالة لإزالة الإفساد الأول؟

لست في حاجة إلى التخمين ولا الاستنتاج، فالله عز وجل عرَّفك بهم صراحة، وبصفتهم التي وصفهم بها في آيات سورة الإسراء، والتي هي صفتهم في التوراة، لأن آيات صدر سورة الإسراء، كما علمت، هي إخبار لنا بما أخبر به عز وجل بني إسرائيل في التوراة.

صفة هؤلاء العباد في سورة الإسراء، وفي التوراة، هي في قوله تعالى:

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾

ومن العجيب أن المفسرين، وهم ينقبون عن هؤلاء العباد في أخبار الأمم السابقة وبطون الإسرائيليات، غاب عنهم أن الله عز وجل قد أخبرنا هو نفسه بهؤلاء العباد، وبصفتهم هذه، بل وأخبرنا عز وجل أن هذه هي صفتهم التي أخبر بها بني إسرائيل في التوراة، وجعلها علامة لهم يعرفون بها من يكون هؤلاء العباد الذين يُبعثون عليهم، وذلك في قوله تعالى في سورة الفتح:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾[١]

فإذا جمعت آيات سورة الإسراء مع آية سورة الفتح، لأشرقت شمس الآيات، وأسفرت عن معناها، وكشفت ما تريد إخبارنا به، ومن هم العباد الذين يبعثهم الله على بني إسرائيل دون حاجة للتخمين ولضرب أخماس في أسداس.

١) الفتح: ٢٩.

فتأمل وقارن بروية: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ في سورة الفتح هي: ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ في سورة الإسراء، و: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ هي تفسير: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾، و: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ هي ما قضاه الله عزو وجل إلى بني إسرائيل في الكتاب من صفة هؤلاء العباد.

العباد الذين يبعثهم الله عز وجل لإزالة إفساد بني إسرائيل وإصلاح الأرض كلها بالرسالة وغسلها بالوحي هم:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾

وجوَسان العباد خلال الديار هو تتبع النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه لبني إسرائيل خلال ديارهم وتنكيلهم بهم وإجلاؤهم منها، بنو النضير وبنو قينقاع وبنوقريظة، ثم جوسانهم خلال ديارهم وتتبعهم في خيبر وفدك وتيماء وإجلاؤهم منها، ثم تعقبهم في كل مكان من جزيرة العرب، ومن الشام، وإخراجهم منها.

وفي العهدة العمرية، التي كتبها عمر بن الخطاب لأهل إيلياء أو بيت المقدس، ووقع عليها بنفسه مع قادة الفتح أنه أعطاهم:

"أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا

من صليبهم، ولا من شئ من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود"[1]

فهذا هو التتبع والتعقب والاستقصاء الذي في معنى: ﴿**فَجَاسُواْ**﴾.

وأطلق عز وجل الديار التي يجوس خلالها العباد ولم يقيدها بأي قيد، بل ولم ينسبها لبني إسرائيل، فلم يقل عز وجل: فجاسوا خلال دياركم، لأنها، كما ترى، ليست محصورة في مكان ولا بلد بعينه، وبعض هذه الديار ليست أصلاً ديارهم.

فجوسان العباد خلال الديار إنما هو تعقب لبني إسرائيل، لا في ديار في بلد، بل في كل ديار ينتقلون إليها أو يحلون فيها في كل بلد.

ودخول العباد المسجد هو دخول عمر بن الخطاب في صحابة النبي عليه الصلاة والسلام المسجد الأقصى حاجاً متعقباً آثار رسول الله فيه[•]

فإليك لماذا قدَّر الله عز وجل لعمر رضي الله عنه أن ينهض من المدينة إلى الشام، وكيف فتح بيت المقدس وتسلمها بنفسه، خلافاً لغيرها مما فتحوه من البلدان.

يقول الإمام الطبري في: تاريخ الرسل والملوك، في سبب قدوم عمر إلى الشام:

١) الإمام الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج٣، ص٦٠٩.

●) إذا رجعت إلى تحقيق رحلة الإسراء وتحقيق وقائع الفتح العمري، في كتابنا: المسجد الأقصى القرآني، فستعلم أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد دخول الحاج، وأنه في ما فعله داخله كان يحاكي أفعال النبي عليه الصلاة والسلام في رحلة الإسراء به.

"كان سبب قدوم عمر إلى الشام أن أبا عبيدة حضر بيت المقدس، فطلب أهله منه أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام، وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك، فسار عن المدينة"[1]

وليس في تاريخ الطبري ما يفسر لماذا اشترط أهل بيت المقدس أن يكون من يكتب عقد صلحها ويسلمونها له الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه، وهو شرط لم تشترطه أي بلد أخرى مما فُتح قبلها وحولها من كبريات المدن.

أما الواقدي فيروي، في: فتوح الشام، أنه لما اشتد الحصار حول بيت المقدس، خرج إلى أبي عبيدة رسول من عند بترك المدينة، فطلب منه وقف القتال، وكان مما قال له:

"اعلموا ان صفة الرجل الذي يفتح بلدنا هذا عندنا، إن كان هو أميركم فلا نقاتلكم، بل نسلم إليكم، وإن لم يكن إياه فلا نسلم إليكم أبداً"[2]

فإليك مصداق ما رواه الواقدي في صفة من يفتح بيت المقدس في سِفر زكريا:

"٩اِبْتَهِجِي جِدًّا يَا ابْنَةَ صِهْيَوْنَ، اهْتِفِي يَا بِنْتَ أُورُشَلِيمَ، هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي إِلَيْكِ، هُوَ عَادِلٌ وَمَنْصُورٌ وَدِيعٌ، وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَى جَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ(•)،

---

١) تاريخ الرسل والملوك: ج٣، ص٦٠٨.

٢) الواقدي: فتوح الشام: ج١، ص٣٢٢-٣٢٣.

•) من المألوف في أسفار العهد القديم أن يخلط كاتبوها بين الحمير والإبل، وأشهر موضع لذلك قصة يوسف مع إخوته:"٢٦فَحَمَلُوا قَمْحَهُمْ عَلَى حَمِيرِهِمْ وَمَضَوْا مِنْ هُنَاكَ"(خروج:٤٢:٢٦)، مع أن الحمير لا يمكنها قطع المفازات والصحاري الشاسعة ولا تتحمل حرارتها، ولايستطيع الحمار أن يحمل ما يزيد على ربع وزنه الذي يتراوح بين ١٠٠ و١٥٠ كجم، بينما الجمل سفينة الصحراء ويمكنه أن يحمل ما يعادل وزنه الذي يبلغ عدة مئات من الكيلوجرامات، والله أخبرك في كتابه أنها عير لا حمير.

١٠وَأَقْطَعُ الْمَرْكَبَةَ مِنْ أَفْرَايِمَ وَالْفَرَسَ مِنْ أُورُشَلِيمَ وَتُقْطَعُ قَوْسُ الْحَرْبِ، وَيَتَكَلَّمُ بِالسَّلاَمِ لِلأُمَمِ، وَسُلْطَانُهُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ، وَمِنَ النَّهْرِ إِلَى أَقَاصِي الأَرْضِ"[١]

فإذا قرأت نص ما في سِفر زكريا بعناية، فلن تكون في حاجة إلى من يخبرك أن ما يقوله المسيحيون من أنها نبوءة في المسيح عليه السلام لا علاقة له بما يقوله السفر فعلاً.

فالسفر يخبر عن حاكم يدخل أورشليم، وهو عند دخوله على رأس مملكة حقيقية واسعة لها حدود وتخوم، والمسيح عليه السلام لم يكن يوماً ملكاً ولا كان له في الأرض مملكة، ومملكة السماء ليس لها تخوم ولا تحدها حدود.

صفة من يدخل أورشليم في نبوءة سفر زكريا هي في الحقيقة صفة دخوله، فهو حاكم لدولة مترامية الأطراف، ويدخلها فاتحاً منتصراً، ويدخلها مع ذلك بعدل وفي وداعة، وهي صفة دخول لبيت المقدس لم تتحقق إلا في دخول عمر في صحابة النبي عليه الصلاة والسلام بيت المقدس، ولا نظير لها في التاريخ بعد ذلك إلا في دخول عبد آخر من عباد الله إليها، إذ دخلها الناصر صلاح الدنيا والدين فاتحاً منتصراً، خاشعاً باكياً.

فإليك وصف أستاذة مقارنة الأديان في أوكسفورد والمؤرخة البريطانية كارين أرمسترونج لدخول عمر بن الخطاب بيت المقدس في كتابها: القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث:

---

١) زكريا:٩:٩-١٠.

"عبر عمر عن مبدأ التراحم التوحيدي أكثر من أي ممن فتحوا أورشليم قبله، فقد أشرف على أكثر غزو للمدينة سلاماً، ودون أي إراقة للدماء، لقد كان فتحاً لم تشهد المدينة مثله في تاريخها الطويل والمأساوي في غالب الأحوال، فبمجرد أن استسلم المسيحيون لم يحدث قتل، أو تدمير للمتلكات، أو إحراق للرموز الدينية المنافسة، وأيضاً لم يكن هناك طرد للسكان ولا نزع للملكية، أو محاولة لإجبار السكان على اعتناق الإسلام"[١]

فكما ترى، كارين أرمسترونج لم تفعل في عبارتها التي تصف بها دخول عمر القدس سوى أنها ترجمت، دون أن تدري، نبوءة سفر زكريا!

بقي ان تعرف لماذا سبقت آية الإسراء بالنبي عليه الصلاة والسلام إلى المسجد الأقصى دورتي الإفساد.

دخول المسجد في الآيات، كما علمت، علامة على أن دخول المسجد في الإسلام وبعد نزول الآية في المرتين، لأن المسجد صار اسماً لهذه البقعة بنزول الآية لا قبلها، وهو علامة على العباد الذين يدخلونه، فسبق عز وجل ذكر آيات إفساد بني إسرائيل بالإسراء وقال:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[٢]

---

١) كارين أرمسترونج: القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ص٣٨٦.

٢) الإسراء: ١.

لأن النبي عليه الصلاة والسلام هو أول هؤلاء العباد، وهم جميعاً أمته وأتباعه، فالإسرء به عليه الصلاة والسلام إلى المسجد الأقصى، وذكر هذا الإسراء به إلى المسجد قبل ذكر دخول العباد إليه، لكي يفتتح عليه الصلاة والسلام المسجد لأمته، لأن النبي عليه الصلاة والسلام هو المبعوث بالوحي والرسالة الجديدة، ولكي يسبق دخولُه دخولَهم، فلا تتقدم أمته عليه وهم أتباعه.

دورة الإفساد الثانية

الدورة الثانية هي التي تبدأ من بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام وإنزال القرآن عليه، وحياً جديداً أصيلاً محفوظاً بذاته، لإقامة الأمة الجديدة به، من أجل إصلاح الأرض كلها وتطهيرها من التحريف وإزالة آثاره، بإعادة تكوين وعي البشر وبناء أذهانهم ونفوسهم بخريطة الوجود الإلهية، وبإعادة المعيار والميزان الإلهي إلى عالم البشر، وإقامه منهجه عز وجل ونظامه لعالم البشر في الأمة الجديدة حياة حية، تراها الأمم فتهتدي إلى الله عز وجل، وتعرف وحيه سبحانه وتعالى من آثاره في عقائدها وأفكارها، وفي أخلاقها وقيمها، وفي نظامها ومعمار مجتمعها، وفي العلاقات بين أفرادها وجماعاتها، رجالاً ونساءًا، وأغنياء وفقراء، وأقوياء وضعفاء، وآباءًا وأبناءًا، وحكاماً ومحكومين.

ودورة الإفساد الثانية هي الدورة الخفية، التي لم ير فيها العرب والمسلمون بني إسرائيل واليهود إلا في مرحلتها الأخيرة، بعد أن عم الإفساد الأرض كلها ووصل بنو إسرائيل مع ذروته إلى بلادهم، وظهر المشروع اليهودي على سطح الأرض العربية.

ولا تعجب إذا قلنا لك إن العرب ما زالوا إلى يومك هذا لا يفقهون حقاً كيف وصل بنو إسرائيل إلى بلاد العرب وأقاموا دولتهم، فإذا كانت دورة الإفساد الأولى، كما رأيت، هي دورة الأساطير والأمم الوثنية، فدورة الإفساد الثانية هي دورة الماسونية والحركات السرية.

دورة الإفساد الثانية هي التي تبدأ بتغلغل بني إسرائيل واليهود في نسيج الغرب، إلى أن تمكنوا من إسقاط مسألة الألوهية من وعيه، وإزاحة المسيحية والكنيسة وتعاليم النص من قلبه، ثم أعادوا تكوين الغرب بعالم النص، وأحلوا بني إسرائيل وسيرتهم محل مسألة الألوهية مقدساً مركزياً، ومحوراً يدور التاريخ حوله، ويتحرك به ومن أجله، وفي اتجاه غاياته.

والحركات السرية وعالم السر والخفاء كانت هي القنوات التي تسلل فيها ومن خلالها بنو إسرائيل، وطبقات اليهود والماسون من حولهم، في نسيج الغرب، وتمكنوا بها، وبامتصاص المواهب والطاقات والعقول الخلاقة في الغرب وتكوينها فيها، من السريان في عقل الغرب وأعصابه وشرايينه، ومن السيطرة على مقاليده ومفاتيحه.

بنو إسرائيل تمكنوا عبر الحركات السرية من استيطان وعي الغرب وعقله ونفسه، وحولوه إلى آله هائلة يملكون مفاتيحها وأزرارها، أو إلى حمار يستوطنون رأسه ويمتطون ظهره.

دورة الإفساد الثانية في شقها الأول هي الغرب كله، وكل ما كونه وأنتجه منذ استولى بنو إسرائيل على وعيه، وسيطرت الحركات السرية على مقاليده

وحركته، هي دورة الماسونية والحركات السرية، والعلمانية والليبرالية، والعقد الاجتماعي والدولة القومية، والداروينية والماركسية، وحقوق الإنسان وحركات التحرير النسائية، والأمم المتحدة والمنظمات الدولية.

وأما شقها الثاني، فبلاليص ستان العربية التوراتية، إذ بعد أن صار زمام الحمار الغربي في أيدي بني إسرائيل والطبقات التي حولهم من اليهود والماسون، وثبوا به إلى بلاد العرب، لا لكي يستعمروها، كما فهم العرب وما زالوا يفهمون، بل ليتمموا دورة الإفساد في الأرض كلها.

وتمام دورة الإفساد الثانية هو إعادة تكوين بلاد العرب بالتحريف، عبر إزاحة مفتاح التصنيف الإلهي من وعيها، وإعادة رسم خريطتها ووضع حدودها بمفتاح تصنيف البشر التوراتي المزور القائم على الدماء والأعراق، وعبر صنع ساستها ونخبها وتكوين أذهانهم ونفوسهم بخريطة الوجود البني إسرائيلية المحرفة، لا بتعليمهم إياها، بل بتربيتهم على فحواها ومضمونها وآثارها، وبتحويلها إلى واقع حي ونسيج اجتماعي، وإحلاله محل نسيج هذه البلاد الأصلي الذي صنعه الوحي، بسطوة السلاح والجيوش، وعبر السياسات الإدارية والقانونية والإعلامية والتعليمية، وعبر القصص والروايات، والأفلام والمسلسلات، ثم عبر وضع النخب المزورة التي صنعوها بالتحريف وكونوها بآثاره على رأس هذه المجتمعات وعلى صدرها.

وما يسميه الساسة والنخب والعلمانيون في بلاد العرب النهضة والعصر الحديث، وما يصمه المتدينون والإسلاميون بأنه غزو ثقافي، لم يكن في حقيقته سوى غزو توراتي، محوره وغايته إزاحة خريطة الوجود الإلهية من أذهان

العرب وإزالة آثارها في مجتمعاتهم وإحلال خريطة الوجود البني إسرائيلية وآثارها محلها.

خريطة بلاد العرب كما هي الآن، الخريطة العرقية الوطنية القومية، خريطةٌ بني إسرائيلية، مفتاح تصنيف البشر فيها المفتاح التوراتي، والدولة الوطنية القومية ليست سوى الدولة التوراتية البني إسرائيلية.

ومعمار بلاد العرب كما هي الآن بفواصله وحدوده هو معمارها في عصر دولة بني إسرائيل في التوراة، كونه الغرب، الذي يكمن في رأسه بنو إسرائيل ويمتطي ظهره اليهود والماسون، بإخراج مفتاح تصنيف بني إسرائيل للبشر من التوراة وبثه في عقول أهلها، ثم إقامته في أرضها وخرائطها.

وكل ما شهدته بلاد العرب، منذ حملة الماسوني نابليون بونابرت على مصر، التي مولها بيت مال روتشيلد، من دول وساسة وسياسات، ومن مناهج علمانية ونظريات، ومن أحزاب وحركات، الليبرالية منها واليساريات، ومن نظم تعليم وصحف وإذاعة وتلفزيونات، ومن فنون وآداب وكتب وكتابات، لم تكن سوى آثار سريان خريطة الوجود البني إسرائيلية، ومفتاح التصنيف التوراتي في وعي أبنائها وأذهانهم ونفوسهم، ثم تدفقها من هذا الوعي ومن هذه النفوس والأذهان إلى السياسات والمجتمعات والمناهج والآداب والفنون.

تاريخ بلاد العرب منذ حملة نابليون، خلاصته إزاحة خريطة الوجود الإلهية بخريطة الوجود البني إسرائيلية، وهذا هو الإفساد الثاني لبني إسرائيل في الأرض كلها وعلوهم في الأرض الكبير.

وهو الإفساد الذي واكب ذروته والمرحلة الأخيرة منه وصول بني إسرائيل إلى المسجد وعلوهم فيه وحوله بالبناء والتشييد، كما أخبرك عز وجل.

دورة الإفساد الثانية وعلو بني إسرائيل الكبير هي التي تعيش الآن مرحلتها الأخيرة، أو ذروتها، أو ما قبل الذروة بقليل، فنرجو من الله عز وجل أن يمُن علينا، ونسوء وجوه بني إسرائيل، وندخل المسجد كما دخله محمد رسول الله والذين معه أول مرة، ونتبر ما علا بنو إسرائيل تتبيراً.

ولكن ذلك لن يحدث، كما قد تتوهم، بالجيوش والسلاح فقط، ولا بالدعاء والعبادة وحدها، ولا بالخطابة وصراخ حاخامات الجيوش ومشايخ دولة روسُو في الناس: عودوا إلى الله، ولا يعلم أحد كيف، ولا أين يجدون الله لكي يعودوا إليه: أفي التعليم، أم في الإعلام، أم في النوادي، أم في الشواطئ، أم في الأفلام والمسلسلات، أم في المساجد التي يغلقونها ويقيدونها ويعتقلون من يجلس فيها؟[•]

•) بعض هؤلاء الحاخامات يوظفون قواعد الوحي وعالمِه ودولتِه، ويسخرون موازينه ومعاييره من أجل ترسيخ التحريف وموازينه وعالمه، ومن أجل تمكين دولة روسو البني إسرائيلية وإقرار أنها هي الحق وميزان الصواب والخطأ، فاعلم أن الحفاظ على الدولة وجيشها للضرورة أو لدفع الضرر ودرء المفاسد مسألة، وأما إنزالها منزلة الإله وإحلالها محله معياراً وميزاناً فمسألة أخرى، فالأولى من بصر العلماء وميزانهم، والثانية من تحريف الحاخامات وأهوائهم، فالله أخبرك في بيانه أنه عز وجل هو وحده الحق:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾ (الحج: ٦٢)، فمن وافق وحيه وميزانه فهو على الحق بقدر موافقته له، ومن خالفه فهو على الباطل بقدر مخالفته له ، فرداً كان أو جماعة أو جيشاً أو دولة، ولو فتح جيشٌ مشارق الأرض ومغاربها، ولو دان لدولة داني البلدان وقاصيها، ما منحه ذلك ولا منحها شرعية إبطال الحق ولا إحقاق الباطل، ولا جعل ما يفعله أو تفعله صواباً إلا أن يوافق وحي الإله ومعياره وميزانه، ولو لم يكن ذلك كذلك لكان ميزان الحق والباطل ومعيار الصواب والخطأ فرعون والإسكندر ويوليوس قيصر ونابليون وكل طاغية جبار في زمنه، وهؤلاء الحاخامات كمن يريد تطبيق أحكام المواريث على علاقات الزنى!

لن ندخل المسجد إلا بعودة عباد الله أولي البأس الشديد من حملة الرسالة والقائمين بها وعليها، لكي يزيلوا إفساد بني إسرائيل بإعادة الوحي إلى الحياة وعالم البشر، ولكي يطهروا به الأرض كلها من آثار هذا الإفساد، فيمحقوا كل ما أنتجه من قيم وسلوك وأخلاق، ومن أفكار وآراء، ومن مناهج ونظريات، ومن حركات ومنظمات، ومن روابط وفواصل، ومن معمار وخرائط.

﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا﴾

بقى سؤال: هل إفساد بني إسرائيل مرتان فقط أم تحتمل الزيادة؟

نقل أغلب المفسرين، كالطبري والقرطبي والسيوطي وأبي حيان، عن قتادة المفسر، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا﴾:

"فعادوا، فبعث الله عليهم محمداً صلى الله عليه وسلم، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون"[(١)]

ومن ثَم، ذهب هؤلاء المفسرون إلى أن بعثة النبى كانت عقاباً لبني إسرائيل على مرة إفساد ثالثة، غير المرتين اللتين فسروا بهما الإفساد المذكور فى سورة الإسراء.

والطريف هنا أن هذا التفسير والقبول به يعني ضمناً أن الإفساد المقصود في سورة الإسراء ليس حصراً على الأرض المقدسة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام بُعث وسُلط على بني إسرائيل وهم خارج الأرض المقدسة ومشتتون في بقاع الأرض.

والشيخ الشعراوي، رغم أنه قال إن مرتي الإفساد في الإسلام، وأن أولاهما كانت في المدينة، وكان عقاب بني إسرائيل بعث النبي عليه الصلاة والسلام وتسليطه عليهم، وأن الثانية هي إنشاء دولة إسرائيل واستعلاؤها على العرب

---

١) جامع البيان: ج١٤، ص٥٠٦، الجامع لأحكام القرآن: ج١٠، ص٢٢٤، البحر المحيط: ج٦، ص١١، الدر المنثور: ج٩، ص٢٦٤.

في زمانك هذا، فإنه ذهب، كغيره من المفسرين، وإن لم يورد ما أوردوه عن قتادة، إلى أن تفسير: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾:

"إن عدتم للفساد عدنا، وهو جزاء الدنيا ولا ينجيكم من جزاء الآخرة"(١)

والأستاذ سيد قطب، رحمه الله، لم يخرج في تفسيره: في ظلال القرآن عما قاله أئمة المفسرين في شئ، غير أنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، فتح عدد مرات الإفساد وقال باحتمال وقوع ثالثة ورابعة، فكان من الأمثلة التي ضربها على ذلك:

"ولقد عادوا إلى الإفساد، فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها، ثم عادوا إلى الإفساد فسلط عليهم عباداً آخرين، حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم هتلر، ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة إسرائيل التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات، وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب تصديقاً لوعد الله القاطع"(٢)

والمثال الذي استشهد به الأستاذ سيد قطب على ما رآه، وهو تسليط هتلر على اليهود في القرن العشرين وما فعله بهم، ظاهر الخطأ، لأن ما فعله هتلر كان ذريعة لإعادة اليهود إلى الأرض المقدسة وليس إخراجهم منها.

وما لم يدركه سيد قطب أن هتلر نفسه وما فعله جزء من دورة إفساد بني إسرائيل في الأرض، ومن آثارهم في العالم، فهم من صنعو رأسه ونفسه،

---

١) **تفسير الشعراوي: ج١٤، ص٨٣٧١.**

٢) **الأستاذ سيد قطب: في ظلال القرآن ج٤، ص٢٢١٤.**

وأقالوا دولته من عثرتها، والنازية كلها وفلسفتها وسياساتها وأهدافها ليست سوى استلهام ومحاكاة لسيرة بني إسرائيل المقدسة.

وهي إحدى القصص الطويلة التي ليس موضعها في هذا الكتاب، لكي لا نزاحم في رأسك الإفساد المخصوص المذكور في سورة الإسراء، ألا وهو تحريف الوحي، بغيره من ألوان الفساد والإفساد التقليدي.

أما بكاء اليهود ونحيبهم على ما فعله بهم من صنعوه وأنهضوه، وتضخيمهم لهذا الذي فعله بهم، فهي شيمة نفسية من شيم بني إسرائيل، وخصيصة خلقية من خصائصهم، أنبأك بها عز وجل في بيانه إلى خلقه، في ما قصه عليك عن أول ما فعلوه بعد أن ألقوا أخاهم في الجب:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾[1]

فهتلر أخوهم، وهم من صنعوه، وفي غيابات الحرب ألقوه، ثم يطلعون على البشرية كل عشاء يبكون!

ما اتفق فيه المفسرون، في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا﴾، كما رأيت، هو عدم تقيدهم في تفسيرهم بعدد مرات الإفساد وبعث العباد الذي نصت عليه آيات سورة الإسراء، وطرحهم لإمكان وجود مرات أخرى من الإفساد والبعث، وإن اختلفوا بعد ذلك في: متى وأين ومَن.

---

١) يوسف:١٦.

ونسألك أولاً سؤالاً لم يسأله أحد من المفسرين: ختم الله عز وجل آيات إفساد بني إسرائيل في الأرض في سورة الإسراء بقوله تعالى:

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾(١)

فمن الذى يخاطبه عز وجل في هذه الآية، هل يخاطب بني إسرائيل في زمن نزول التوراة الذين أخبرهم وقضى إليهم في الكتاب أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً، أم يخاطب بني إسرائيل في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ونزول القرآن، أم يخاطب بني إسرائيل في بقاع الأرض كلها وفي كل زمان إلى يوم القيامة؟

فإليك الإجابة.

اعلم أولاً أن سورة الإسراء كلها مكية إلا آيتين مختلفاً فيهما، وليستا من صدرها، وهذا يعني أن آيات إفساد بني إسرائيل، وعلوهم في الأرض الكبير، وخطاب الله عز وجل لبني إسرائيل في نهايتها، نزلت في مكة قبل أن يهاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وقبل أن يرى بني إسرائيل في المدينة بثلاث سنوات.

ومن حكمة الله عز وجل إنزاله هذه الآيات في مكة وليس في المدينة، وقبل الهجرة ولقاء النبي عليه الصلاة والسلام ببني إسرائيل وليس بعدها، لكي لا تربط الأذهان بين الآيات والخطاب فيها لبني إسرائيل وبين قبائل اليهود المدينة.

١) الإسراء: ٨.

فتوقيت نزول الآيات، قبل الهجرة وفي مكة، قرينة أن المخاطب بها ليس يهود المدينة فقط ولا وحدهم.

ثم تذكر ثانياً ما قد علمته من قبل، وهو أن بني إسرائيل هم الفئة الوحيدة في البشر التي يروي لك عز وجل في القرآن قصصهم، ثم يخلط الرواية عن أخبارهم وسيرتهم في صيغة الغيب بتوجيه النداء والخطاب لهم في صيغة الحضور، ليس في سورة الإسراء وحدها، بل في كل موضع ترد فيه سيرتهم.

فإذا لم يكن الخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ لبني إسرائيل في الكتاب الذي أنزل عليهم، ولا لبني إسرائيل عصر النبي عليه الصلاة والسلام، فلمن يكون؟

بعد تحرير آيات سورة الإسراء من القيود التي قيدها بها المفسرون من عند أنفسهم، دون نص مرفوع إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ودون أي وجود لهذه القيود في نص الآيات، وبعد أن علمتَ ما الذي تتكلم عنه وتخبر به بعد حل شفرتها اللغوية، نقول لك: إن خطابه عز وجل لبني إسرائيل في سورة الإسراء، والتي أنزلت في مكة وليس في المدينة، هو خطاب مطلق مفتوح لبني إسرائيل في كل مكان، وفي كل زمان إلى يوم القيامة.

فإذا كان ذلك كذلك، فهو يعنى أن الآيات تريد أن تخبرك ان بنى إسرائيل موجودون في الأرض سائرون في الزمان ويتحركون عبر التاريخ بالإفساد، وأن وصمة الإفساد لا تنقطع ولا تزول عن أحد منهم، فرداً أو جماعة، إلا بأمر واحد فقط، تعرفه إذا خرجت من آيات إفساد بني إسرائيل إلى الآيات التي قبلها

والتي بعدها، والتي حصر عز وجل بينها دورات إفسادهم وعلوهم فى الأرض الكبير.

ذهب المفسرون جميعاً إلى أن آيات إفساد بني إسرائيل في الأرض وعلوهم الكبير وبعث العباد عليهم تبدأ بقوله تعالى:

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾[1]

وتنتهي بقوله تعالى:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾[2]

ونقول لك: بل هي تبدأ بآية الإسراء، وتنتهي بهذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، وإن شئت قولاً أصوب فهي تنتهي بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾، وما يعقبه من ذكر القرآن والنبي المبعوث به، وأن الذين أوتوا الكتاب من قبله يسجدون عند تلاوته باكين خاشعين وقد رأوا وعد ربهم قد تحقق وصار بهذا القرآن وهذا النبي مفعولاً.

تبدأ سورة الإسراء بقوله تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[1]

---

١) الإسراء: ٤.

٢) الإسراء: ٨.

ثم يتلوها ذكر الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام هدى لبني إسرائيل.

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾[2]

ثم تنتهي، بعد قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، بذكر القرآن:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[3]

فهل لحصر آيات إفساد بني إسرائيل وعلوهم الكبير بين الإسراء بالنبي الخاتم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وبين القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم من معنى، أو هل هذه الآيات لها صلة بإفساد بني إسرائيل، وتوجيهه عز وجل الخطاب لهم في نهايتها؟

نعم!

إذا تحررت الآيات من القيود التي ليست فيها، وفهمتها بالمعنى المطلق الذي عرفت، تسفر الرابطة بين تصدير السورة بآية الإسراء، يتلوها ذكر الكتاب الذي أنزل هدى لبني إسرائيل، وبين إفساد بني إسرائيل.

---

١) الإسراء: ١.
٢) الإسراء: ٢.
٣) الإسراء: ٩.

صدر سورة الإسراء كله خطاب لبني إسرائيل، وهو إخبار لنا من خلال هذا الخطاب، بالضبط كما في آيات خريطة الوجود في سورة البقرة.

فالله عز وجل يخاطب بني إسرائيل، الأمة التي أنزل الكتاب على موسى عليه السلام من أجل أن تحفظه ويكون هدى لها، فتهتدي بهداها الأقوام والأمم، لكي يخبرهم ويخبرنا معهم أن الكتاب والوحي قبل هذا النبي الخاتم كان ينزل على بيت المقدس ثم يخرج إلى الأمم والأقوام لهدايتها، فمسار الوحي، قبله عليه الصلاة والسلام، كان من الأرض المقدسة إلى ما حولها.

وببعثه النبي الخاتم تحول نزول الوحي من السماء إلى المسجد الحرام، وتحول مساره في الأرض من المسجد الحرام إلى ما حوله، والإسراء به عليه الصلاة والسلام إلى المسجد الأقصى تحديداً، وهو محل نزول الوحي على بني إسرائيل، إيذان وإعلام بتحول الرسالة إلى المسجد الحرام، وعلامة تسليم المسجد الأقصى الراية للمسجد الحرام.

آية الإسراء تخبرك في ظاهرها عن رحلة الإسراء بالنبي عليه الصلاة والسلام، وهي تخبرك في ماخلف هذا المعنى الظاهر بمعنى عميق، هو الذى يربطها بالكتاب الذي أنزل هدى لبني إسرائيل، وبإفسادهم وعلوهم.

وهذا المعنى أن بعثة النبي الخاتم والإسراء به إلى المسجد الأقصى علامة إنهاء الميثاق بين الله عز وجل وبين بني إسرائيل، أمة قائمة بالوحي وقوامة عليه وحافظة له وهادية إليه، وإبلاغهم أنهم، بتحول الوحي إلى المسجد الحرام

ونزول الكتاب جديداً أصيلاً محفوظاً عليه، صاروا أمة تابعة لا متبوعة، ولا طريق لها للاهتداء إلا اتباع هذا النبي والكتاب المحفوظ الذي أنزل عليه.

وهنا موقع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾، بعد ذكر الإسراء وذكر إفساد بني إسرائيل.

ما فهمه المفسرون من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾، أنه استئناف لكلام جديد، ومعنى منفصل عن آية الإسراء، ومعزول عن آيات إفساد بني إسرائيل.

فإليك ما فهموه جميعاً، وأقاموا تفسيرهم عليه، صريحاً، في كلام الطاهر بن عاشور، إذ قال في بداية تفسيره للآية إنها:

"استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى الغرض الأهم من هذه السورة، وهو تأييد النبي عليه الصلاة والسلام بالآيات والمعجزات، وإيتاؤه الآيات التي أعظمها آية القرآن"[1]

ونقول لك: بل إن دوران سورة الإسراء كلها حول القرآن وإعجازه، وإحكامه وأحكامه، وما فيه من هدى، وما في اتباعه من أجر، ليس إلا لأنها سورة بني إسرائيل وموجهة إليهم!

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ هو من تمام خطابه عز وجل لبني إسرائيل وبقية كلامه إليهم بعد قوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، أو الأدق: أنها تمام خطابه عز وجل لبني إسرائيل، وبداية الكلام عن القرآن في الوقت نفسه،

١) تفسير التحرير والتنوير: ج١٥، ص٣٩.

كشأن القرآن ومنهجه في نسج المعاني، وشد بعضها ببعض، ووصل المعنى اللاحق بآخر الكلام السابق.

فالله عز وجل يتمم خطابه لبني إسرائيل، أن سبيلهم الوحيد إلى الهدى والرشاد، وألا تكون جهنم لهم حصيراً، أن يتبعوا هذا القرآن الذي أنزل على النبي الخاتم وجاءهم به من المسجد الحرام.

وقوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾

وقوله:

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾

إبلاغ لبني إسرائيل أنهم لم يعودوا أمة الوحي ولا حفظته ولا رادة الأمم، وأن الله عز وجل أنهى الميثاق معهم، وحوَّلهم من الأمة المتبوعة إلى أمة تابعة لأمة خاتم النبيين وسيد المرسلين، لا سبيل لهم للهداية والنجاة إلا اتباعه والإيمان بالكتاب المحفوظ الذي أنزل عليه.

وهنا تفهم معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾.

فالمفسرون جميعاً أيضاً، ودون استثناء واحد، فهموا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ على أنه متعلق بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾، ولذلك فهموا

أنها قولة للتهديد والوعيد، وترتب على فهمهم هذا قولهم إن المعنى المقصود في الآيات هو: إن عدتم يا بني إسرائيل إلى الإفساد عدنا إلى عقوبتكم وتسليط عبادنا عليكم.

ولكن إذا فهمت أن الواو في قوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ للبيان والعطف على قوله تعالى:﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾، وليست للابتداء أو للاعتراض، كما قال الطاهر بن عاشور، وأن قوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ يتعلق بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ قبلها، وبقوله تعالى:﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ بعدها، فسيضئ أمامك معنى آخر مختلف تماماً، وهو أن العودة هنا عودة إلى الصلاح وليس إلى الإفساد، لأن الصلاح هو الأصل الذي يُعاد إليه وليس الفساد.

وبذلك يكون المقصود بقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ ليس تهديد بني إسرائيل وتوعدهم، بل دعوتهم أو دعوة من أراد الهداية منهم، أن يترك الفساد ويعود إلى الصلاح، ويكون المعنى: وإن عدتم إلى الصلاح عدنا إليكم بالرحمة، ثم بيَّن لهم عز وجل كيف يعودون إلى الصلاح، بأن يتبعوا هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم.

وها هنا نعود بك إلى السؤال الذي بدأنا منه لنختم به: هل الإفساد المذكور في صدر سورة الإسراء مرتان حصراً، كما تقول الآيات، أم يقبل الزيادة كما يقول المفسرون؟

الإفساد والعلو بصفته وتفاصيله في سورة الإسراء، ليس الإفساد المادي كالبغي والتخريب والقتل، ولا العلو المادي كالتسلط والتجبر والملك، بل الإفساد العقائدي والذهني والنفسي المرتبط بتحريف الوحي وبث هذا التحريف،

وبمصارعة الوحي في وعي البشر وأذهانهم ونفوسهم، وما يترتب على ذلك من آثار في عالمهم ومجتمعاتهم، والذي يعم الأرض كلها، مرتان فقط، كما تنص الآيات.

أما إفساد بني إسرائيل المادي، ووقائع الإفساد خارج مواصفاتها المذكورة في سورة الإسراء، ومن يبعثهم الله عز وجل عليهم لعقابهم والتنكيل بهم من المؤمنين أو من الكافرين، غير عباده المبعوثين بالصلاح والموكلين بإزالة الإفساد، والمخصوصين بصفاتهم في الآيات، فقد يتكرر، لا مرتين ولا ثلاثاً، بل عشرات المرات، وهي كلها داخل دورتي الإفساد الكبيرتين ومحصورة بين جوانبها، كما هو مسجل ومرصود في أحداث التاريخ، وكما أخبرك الله عزوجل في بيانه:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٧﴾﴾[1]

---

١) الأعراف: ١٦٧.

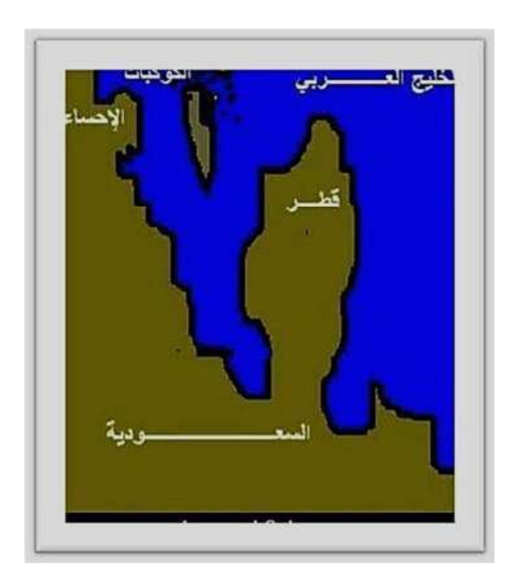
ملـحق الصــور



١- مصب نهر الأمازون في المحيط الأطلنطي



٢- أشهر مغاصات اللؤلؤ حول جزيرة البحرين



٣ – مجموعة عيون الكويكبات



٤- خط سير موسى عليه السلام وبني إسرائيل في اتجاه جبل الطور



٥ - العلامة الهيروغليفية التي تدل على الغرب و**اليد اليمنى**



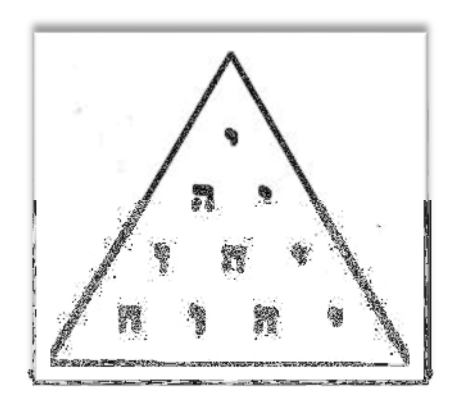
٦- العلامة الهيروغليفية التي تدل على الشرق و**اليد اليسرى**



٧- سفيروت أو شجرة الحياة في القبالاه



٨- آدم القديم أو السماوي في القبالاه



٩- الرباعي المقدس أو عين صوف، الإله في القبالاه



١٠- غلاف الطبعة الأولى من كتاب مفاتيح سليمان الصادرة باللاتينية سنة ١٦٨٦م

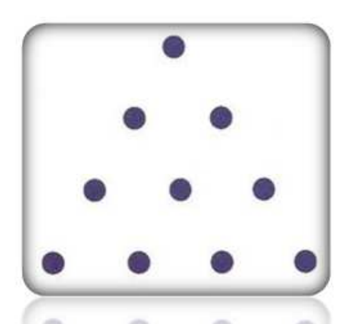
تقديم

هذه المخطوطة وجدناها في مقبرة قديمة باللغة العبرانية
لتسطرجيس الفرعون المعظم وقد حفظها عنده بعد إستخراج
الملك عاديموش ولما علم بقرب وفاته خباها في بئر جافة و
البئر بالحديد لكي لايصل إليها أحد فبقيت في البئر لمدة خمسمائة
عام حتى علموا أحفاد الملك عاديموش بهذه المخطوطة وهو الملك ترثال
حتى كانوا يخرقوا بطن الجبال وإرسال الرياح وهبوبها حتى وصلت إلى
يد شكلراش حتى وصلت هذه المخطوطة إلى يد الأنبا شمعون الإسرائيلي
وقام بترجمة الأقلام أوصيكم بأن لا تعطوا هذه النسخة لجاهل يا أولادي
وقد قمت بترجمتها إلى اللغة العربية لكي تنفع جميع الناس

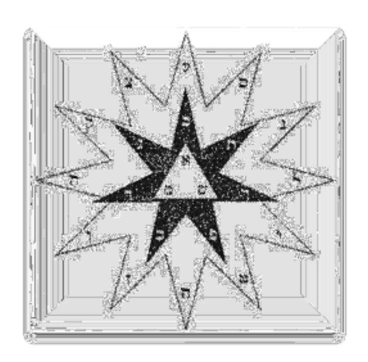
الأنبا شمعون — التوقيع

سنة ١٦٠٠

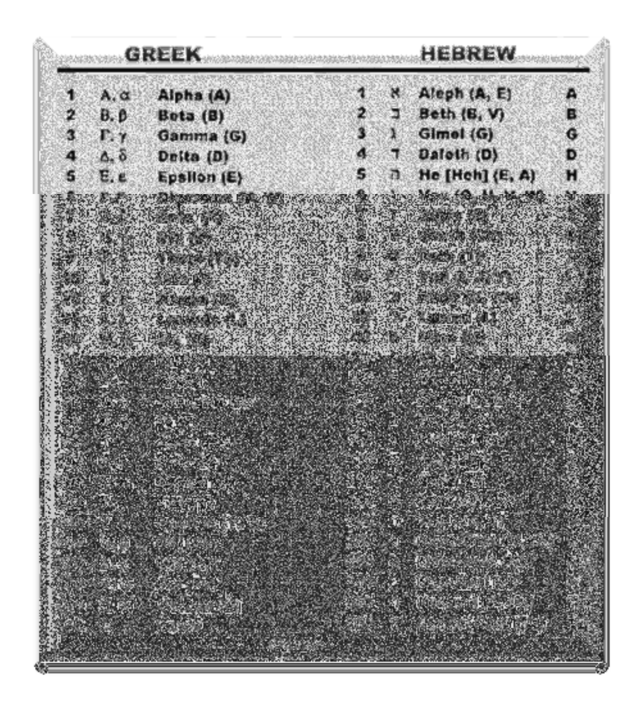
١١- الصفحة الأولى من مخطوط كتاب السحر الأسود، مكتوب فيها أن الذي ترجمها الأنبا شمعون سنة ١٦٠٠م، وفي أسفلها توقيعه



١٢- معبود فيثاغورس، المثلث القبالى، ورقم ١٠ المقدس

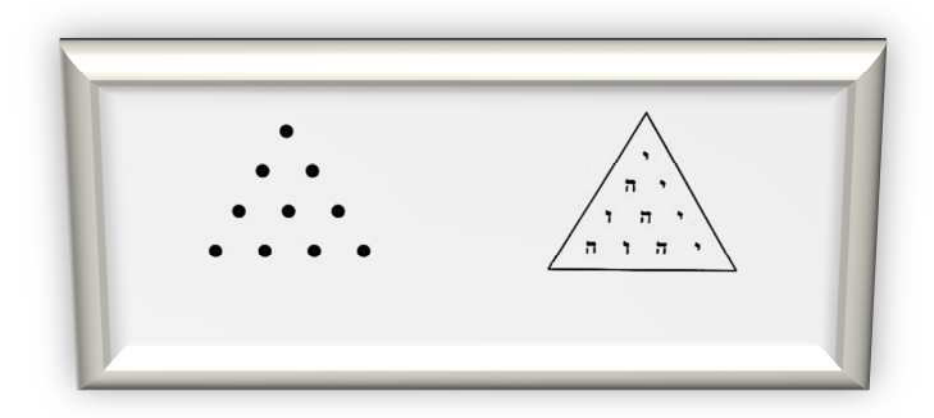


١٣- الخلق في القبالاه من الإله عين صوف عبر حروف العبرية

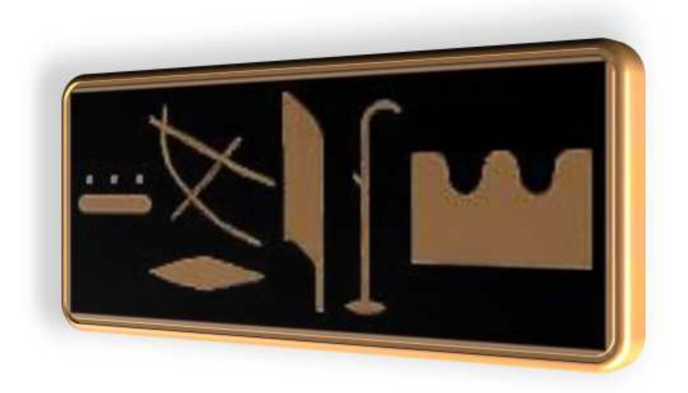


GREEK			HEBREW			
1	Α, α	Alpha (A)	1	א	Aleph (A, E)	A
2	Β, β	Beta (B)	2	ב	Beth (B, V)	B
3	Γ, γ	Gamma (G)	3	ג	Gimel (G)	G
4	Δ, δ	Delta (D)	4	ד	Daleth (D)	D
5	Ε, ε	Epsilon (E)	5	ה	He [Heh] (E, A)	H
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

١٤- حروف العبرية والإغريقية وما يقابلها من الأعداد في حساب الجُمَّل



١٥- مثلث القبالاه ومثلث فيثاغورس



١٦- تا مري، أو الأرض المحبوبة، اسم مصر في اللغة المصرية القديمة مرسومًا بالكتابة الهيروغليفية

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم:

بيان الإله إلى خلقه، والفرقان بين الحق والباطل، وخريطة الوجود الإلهية المحفوظة.

ثانياً: القواميس ومعاجم اللغة:

١- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، الإمام: معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

٢- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، الإمام: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

٣- أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بمرتضى الزبيدي، الإمام: تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية للطباعة والنشر، الكويت، ١٩٦٦م.

٤- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيرازي، الإمام: القاموس المحيط، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة ١٣٠١هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٨هـ|١٩٧٨م.

٥- مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، طبعة وزارة التربية والتعليم، ١٤٢٧هـ|٢٠٠٦م.

٦- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، الطبعة الرابعة، مكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٥هـ|٢٠٠٤م.

ثالثاً: التفسير والقراءات:

١- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، الإمام: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالاشتراك مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الدكتور عبد السند حسن يمامة، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،١٤٢٢هـ|٢٠٠١م.

٢- أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري، الإمام: النشر في القراءات العشر، أشرف على تصحيحه ومراجعته: الشيخ علي محمد الضباع، شيخ عموم

المقارئ المصرية، طبعة مصورة من طبعة المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بدون تاريخ.

٣- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الإمام: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القسم الأدبي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٥٣هـ|١٩٣٥م.

٤- أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، الحافظ: تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دارطيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤٢٠هـ|١٩٩٩م.

٥- أبو الفضل شهاب الدين السيد محمد الآلوسي البغدادي، الإمام: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، إدارة المطبعة المنيرية، درب الأتراك، مصر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٦- أبو القاسم الحسين بن مفضل بن محمد، الراغب الأصفهاني، الإمام: المفردات في غريب القرآن، دار التحرير، القاهرة، ١٩٩١م.

٧- أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، القاضي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، منشورات محمد على بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية،، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٢٢هـ|٢٠٠١م.

٨- أحمد بن محمد البنا، الإمام: اتحاف فضلاء الأربعة عشر بالقراءات الأربعة عشر، المسمى: منتهى الأماني والمسرات في علوم القراءات، حققه وقدم له: الدكتور شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، بيروت، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ|١٩٨٧م.

٩- جلال الدين السيوطي، الإمام: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالاشتراك مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الدكتور عبد السند حسن يمامة، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٢٤هـ|٢٠٠٣م.

١٠- سيد قطب، الأستاذ: في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون، ١٤٢٣هـ|٢٠٠٣م.

١١- محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، الإمام: تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه الدكتور زكريا أحمد النوتي، والدكتور أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٣هـ|١٩٩٣م.

١٢- محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، المشتهر بخطيب الري، الإمام: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ|١٩٨١م.

١٣- محمد الطاهر بن عاشور، الإمام: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٤- محمد متولي الشعراوي، الإمام: تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة، القاهرة، ١٩٩١م.

رابعاً: مصادر ومراجع ومؤلفات أخرى:

١- أحمد عبد المعطي حجازي، الشاعر: الطهطاوي مترجم أم داعية: الأهرام: العدد ٤٤١٤٤، ١٧ أكتوبر ٢٠٠٧م.

٢- إبراهيم عبد القادر المازني، الأستاذ: صندوق الدنيا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.

٣- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، الإمام: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ|١٩٦٧م.

٤- أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي، المؤرخ: فتوح الشام، تحقيق: هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، أمام الباب الأخضر بالحسين، القاهرة.

٥- أبو القاسم الشابي، الشاعر: ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله، قدم له وشرحه: مجيد طرار، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ|١٩٩٤م.

٦- أمل دنقل، الشاعر: الأعمال الشعرية الكاملة، مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ|١٩٨٧م.

٧- إيليا أبو ماضي، الشاعر: ديوان إيليا أبي ماضي، شاعر المهجر الأكبر، دار العودة، بيروت،١٩٦٩م.

٨- برتراند رسل، الفيلسوف: تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة: دكتور زكي نجيب محمود، مراجعة: أحمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م.

٩- ب. كوملان، المؤرخ: الأساطير الإغريقية والرومانية، ترجمة: أحمد رضا محمد رضا، مراجعة: محمود خليل النحاس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.

١٠- بهاء الأمير، دكتور: الحضارة القرآنية، ماذا غير القرآن في العالم وماذا أحضر للإنسانية، مخطوط.

١١- بهاء الامير، المسجد الاقصى القرآنية، دار الحرم للتراث، القاهرة ، ٢٠٠٤م.

١٢- بهاء الأمير: الوحي ونقيضه، بروتوكولات حكماء صهيون في القرآن، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦م.

١٣- بهاء الأمير: اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية، مكتبة مدبولي، ٢٠١٢م.

١٤- توفيق الحكيم، الأستاذ: زهرة العمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

١٥- جمال البدري، دكتور: اليهود وألف ليلة وليلة، دراسة تحليلية من الأعماق إلى الآفاق، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ|٢٠٠٠م.

١٦- جان جاك روسو، المفكر: العقد الاجتماعي، ترجمة: عادل زعيتر، مكتبة النافذة، ٢٠١٢م.

١٧- جيمس فريزر، السير: الفلكلور في العهد القديم، ترجمة: دكتورة نبيلة إبراهيم، مراجعة: دكتور حسن ظاظا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.

١٨- جيمس هنري برستد، المؤرخ: فجر الضمير، ترجمة: دكتور سليم حسن، مراجعة: عمر الإسكندري، وعلي أدهم، مكتبة مصر ١٩٥٨م.

١٩- روبرت بريفالت، المؤرخ: أثر الإسلام في تكوين الإنسانية، ترجمة: السيد أحمد أبو النصر الحسيني، بدون تاريخ، وبدون دار نشر.

٢٠- زكي نجيب محمود، دكتور: نافذة على فلسفة العصر، كتاب العربي السابع والعشرون، الصفاة الكويت، أبريل ١٩٩٠م.

٢١- زيغريد هونكه، المؤرخة: العقيدة والمعرفة، ترجمة: عمر لطفي العالم، دار قتيبة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ|١٩٨٧م.

٢٢- سعد الدين الهلالي، دكتور: الإسلام وإنسانية الدولة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م.

٢٣- طه حسين، دكتور: من بعيد، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٣٥م.

٢٤- طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.

٢٥- عبد الله محمد الغذامي، دكتور: الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م.

٢٦- عبد الله القصيمي، دكتور: الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات، بدون دار نشر، ١٩٧٢م.

٢٧- عبد المجيد الزنداني، الشيخ: أنه الحق، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الطبع الرابعة، ١٤٢٧هـ|٢٠٠٦م.

٢٨- عبد المجيد الزنداني: منطقة المصب والحواجز بين البحار، بحث منشور بموقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٢٩- عبد المجيد النجار، دكتور: خلاقة الإنسان بين النقل والعقل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ|١٩٩٣م.

٣٠- عبد المعطي شعراوي، دكتور: أساطير إغريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م.

٣١- عبد المنعم سعيد: الخطيئة الاصلية، الأهرام ٢٣ أغسطس ٢٠١١م.

٣٢- عثمان بن سعيد الدارمي، الإمام: الرد على الجهمية، قدم له وخرج أحاديثه وعلق عليه: بدر البدر، الدار السلفية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ|١٩٨٥م.
٣٣- فؤاد زكريا، دكتور: التفكير العلمي، مكتبة مصر، ١٩٩٢م.
٣٤- فتحي محمد الزغبي: تأثر اليهودية بالأديان الوثنية، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، مصر، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ|١٩٩٤م.
٣٥- قاسم أمين، الأستاذ: المرأة الجديدة، طبع على نفقة خليل صادق، صاحب مجلة مسامرات الشعب، مطبعة الشعب بدرب الجماميز، ١٣٢٩هـ|١٩١١م.
٣٦- قاموس الكتاب المقدس: تأليف: نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص واللاهوتيين، هيئة التحرير: دكتور بطرس عبد الملك، وجون ألكسندر طمسن، والأستاذ إبراهيم مطر، دار الكتاب المقدس بالشرق الأوسط، بدون تاريخ.
٣٧- كارل ماكس وفريدريك إنجلز: البيان الشيوعي، ترجمة: عفيف الأخضر، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٩٨م.
٣٨- كارين أرمسترونج، المؤرخة: القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة: دكتورة فاطمة نصر، ودكتور محمد عناني، سطور، القاهرة، ١٩٩٨م.
٣٩- كتاب السحر الأسود، ترجمه الأنبا شمعون سنة ١٦٠٠م، مخطوط.
٤٠- الكتاب المقدس: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ١٩٩٥م.
٤١- كمال الصليبي، دكتور: التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة: عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة العربية السادسة، ١٩٩٧م.
٤٢- كمال الصليبي: خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، دار الساقي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م.
٤٣- محمد سيد طنطاوي، دكتور: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ|٢٠٠٠م.
٤٤- محمد خليفة التونسي، الأستاذ: بروتوكولات حكماء صهيون، الخطر اليهودي، تقدير: الأستاذ عباس محمود العقاد، مكتبة دار التراث، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م.

٤٥- موريس بوكاي، دكتور: القرآن والإنجيل والتوراة والعلم، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس الغرب، ١٩٨٣م.

٤٦- نزار قباني، الشاعر: الأعمال السياسية الكاملة، الجزء الثالث، منشورات نزار قباني، بيروت، ١٩٩٩م.

٤٧- نوال السعداوي، دكتورة: الرجل والجنس، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦م.

٤٨- هانس كهن، المؤرخ: القومية، معناها وتاريخها، ترجمة: محمود أمين الشريف، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١١م.

٤٩- ول ديورانت، المؤرخ: قصة الحضارة،، ترجمة: دكتور زكي نجيب محمود، ومحمد بدران، اختارته وأنفقت على ترجمته الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، أجزاء مختلفة، ١٩٧١م، ١٩٧٤م، ١٩٧٥م.

٥٠- يوسف كرم، دكتور: تاريخ الفلسفة اليونانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٥هـ|١٩٣٦م.

خامساً: المصادر والمراجع الأجنبية:

1- **Alan Gardiner, Sir:Egyptian Grammar,being an introduction to the study of Hieroglyphs, Griffith Institute, Ashmolean Museam, Oxford, Third edition, 1957.**

2- **Albert Pike: Morals and dogma of the Ancient and Accepted Scottish Rite of Freemasonry, published by the authority of The Supreme Council of the thirty third degree, Charleston, 1871.**

3- **Alice Bailey: The Reappearance of the Christ, Lucis Trust, New York,1948.**

4- **Charles J. Rayan: Helena Blavatsky and the Theosophical Movement, a brief historical sketch, Theosophical University Press, second edition, 1975.**

5- **Claviculae Salomonis Et Theosophia Pneumatica: Andreas Luppius, Privil, 1686.**

6- **Don Perini, Professor: Kabbalah, Secrets of the jewish mysticism,Cornerstone University, 2008.**

7- **Edwyn Robert Bevan: The Prometheus Bound of Aeschylus, rendered into English verse,published by David Nutt, London,1902.**

8- **Francis Bacon, Sir: Bacon's Essays and Wisdom of the ancients, The University Press, Cambridge, Mass., USA, Little, Brown and Company, Boston, 1884.**

9- **Francis Bacon: New Atlantis, in: Works of Francis Bacon, William Benton, Publisher, Encyclopedia Britannica, Inc., Chicago, London, Toronto, copyright in the United States of America, 1952.**

10- **Helena Blavatsky: The key to theosophy, The Theosophical Publishing Society, Third and revised english edition, London, 1893, reprinted,1905.**

11- **Helena Blavtsky: The secret doctrine, The synthesis of science, religion and phylosphy, The Theosophical Publishing House, Third dition, London1893, reprinted,1924.**

12- **Hugh Evelyn White: Hesiod, The Homeric Hymns and Homerica with an English translation, William Heinemann, London, and G.P.Putnam'sons, New York, MCMXX.**

13- **Iamblichus Chalcidensis: Life of Pythagoras, accompanied by fragments of the ethical writings of certaine pythagorens and a collection of pythagoric sentences, taslated from the Greek by Thomas Taylor, J.M. Watkins, London, 1818.**

14- **Isidor Kalisch, Dr.: Sepher Yezirah, Abook on creation with English translation, L. H. Frank and Co., Publishers and Printers, New York,1877.**

15- **Jean Jacques Rousseau: The Social Contract, Translated with introduction by: G. D .H. Cole, Fellow of Magdalene Collage, Oxford, J. M. Dent & Sons, London, E. P. Dutton & Co., New York, 1913, Reprinted 1920.**

16- **Jean Jacques Rousseau: The Conffession, Translated from the French, Printed for J. Bew, London, MDCCLXXXIII.**

17- **King James Version of the Holly Bible, E.bbok.**

18- **Jacque Bergier and Louis Pauwels: The morning of the magicians, translated from the French bt Rollo Myers, Scarborough House Publishers, USA, 1991.**

19- **MacGregor Mathers: The kabbalaha unveiled, Translated into English from the Latin version of Knorr Von Rosenroth and collated with the original chalde and Hebrew text, George Redway Publishing, London, 1887.**

20- **Manly Palmer Hall: The secret teachings of all ages, printed for Manly Hall by H.S.Crocker company, incorporated, San Francisco, 1928.**

21- **Monier Williams, M.A., D.C.L.: Hinduism, Society for promoting Christian knowldage, London, Pott, Young and Co., New York, 1878.**

22- **Nesta Webster: Secret societies and submersive movemens, Boswell Publishing Co., London, 1924.**

23- **Robin Hard: Greek Mythology, Rotledge group, London and New York, 2004.**

24- **Sri Swami Sivananda: All about Hinduism, Devine Life Society, Uttar Pradesh, Himalayas, India, Fifth edition, 1993.**

25- **The Oxord history of India from the earliest times to the end of 1911, Oxford, at The Claredon Press, 1919.**

26- **Tobias Dantzig: Number, the language of science, Pi Press, New York, 2005.**

27- **W.J. Wilkins: Hindu Mythology, vedic and poranic, Thacker, Spink and Co., Calcutta and London, 1900.**

28- **Vincent Smith, M.R.A.S.: Rulers of India, Ashoka, published at the Clarendon Press for The University of Oxford, London, New York, 1901.**

29- **Wikipedia, The free encyclopedia . Wikipedia.org.**

30- **Zaine Ridling, Ph. D.: The Apocrypha with the apocryphal books, Division of Christian Education of the National Council of the Churches of Christ in the United States of America 1989.**

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

دكتور / بهاء الأمير

- **المؤلفات:**

١.كوسوفا، المذابح والسياسة، دار النشر للجامعات.
٢.النور المبين، رسالة في بيان إعجاز القرآن الكريم، مكتبة وهبة.
٣.المسجد الأقصى القرآني، دار الحرم للتراث.
٤.الوحي ونقيضه، بروتوكولات حكماء صهيون في القرآن، مكتبة مدبولي.
٥.اليهود والماسون في الثورات والدساتير، مكتبة مدبولي.
٦.اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية، مكتبة مدبولي.
٧.اليهود والماسون في ثورات العرب، مكتبة مدبولي.
٨.في عالم السر والخفاء، تحت الطبع، مكتبة مدبولي الصغير.
٩.الانفجار الكبير، ماذا غير القرآن في العالم وماذا أحضر للإنسانية، مكتبة وهبة.

دراسات منشورة على الإنترنت(•):

١. يهود الدونمة.
٢. اليهود والماسون في قضية الأرمن.
٣. حركة الجزويت اليسوعية.
٤. عن الإخوان والماسونية.
٥. معركة المادة الثانية من الدستور.
٦. قواعد في إدارة الصراعات والتعامل مع الأزمات.
٧. عن الفتنة والديمقراطية والحركات الإسلامية.
٨. نقد كتاب اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد.

(•) روابط الدراسات في مدونة صناعة الوعي على الإنترنت.

٩. نقد استخدام حساب الجُمَّل والأعداد في الاستنباط من القرآن.
١٠. حقيقة ما يحدث في مصر.
١١. فرعون بين التوراة والقرآن.
١٢. المسألة الإخناتونية.
١٣. معركتنا مع اليهود نموذج قديم وأحداث جديدة.

- **المرئيات(•):**

أولاً: مع الكاتب والمفكر الإسلامي جمال سلطان في برنامج حوارات بقناة المجد:

١. بروتوكولات حكماء صهيون، في مواجهة دكتور عبد الوهاب المسيري ودكتور أحمد ثابت.
٢. اليهود في الغرب، في مواجهة دكتور عمرو حمزاوي.

ثانياً: مع الشاعر المبدع والإعلامي اللامع أحمد هواس في برنامج قناديل وبرنامج كتاب الأسبوع بقناة الرافدين:

١. الوحي ونقيضه.
٢. المسجد الأقصى القرآني.
٣. خفايا شفرة دافنشي.
٤. ملائكة وشياطين.
٥. دور الحركات السرية في إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية والرموز اليهودية والماسونية في الدولار الأمريكي.
٦. القبالاه، التراث السري اليهودي، وآثارها في العالم.
٧. التنجيم والأبراج، أصلها وحقيقتها.
٨. البلدربرج حكومة العالم الخفية.

(•) مرئيات دكتور بهاء الأمير موجودة على شبكة المعلومات الدولية، الإنترنت، في موقع يوتيوب وفي العديد من المواقع الأخرى.

٩. الرمز المفقود.
١٠. لماذا العراق؟ خفايا الغزو الأمريكي للعراق.
١١. نبوءة نهاية العالم، الأساطير والحقائق.
١٢. البابية والبهائية، صِلاتها باليهود والغرب والحركات السرية.
١٣. القاديانية والنصيرية، صِلاتها باليهود والغرب والحركات السرية.

ثالثاً: مع الإعلامي والداعية الإسلامي خالد عبد الله في برنامج مصر الجديدة بقناة الناس:

١. خفايا الماسونية ومنظمات المجتمع المدني، الجزء الأول.
٢. خفايا الماسونية ومنظمات المجتمع المدني، الجزء الثاني.
٣. خفايا الماسونية ومنظمات المجتمع المدني، الجزء الثالث.
٤. الاحتفال الماسوني عند الهرم الأكبر، حقيقته والهدف منه.
٥. دكتور محمد البرادعي، مواقفه وأفكاره.

رابعاً: مع الإعلامي والشاعر والداعية الإسلامي دكتور محمود خليل في برنامج الدين والنهضة بقناة مصر ٢٥:

١. الفوضى في مصر، أسبابها ومن المستفيد منها.
٢. مصر بعد الثورة، الأخطار الداخلية والخارجية.
٣. رمضان شهر القرآن.
٤. الثورة والدولة.

خامساً: مع الإعلامي ياسر عبد الستار في قناة الخليجية:

١. الماسونية والثورات.

سادساً: في قناة الحدث:

١. من خلف الثورات.
٢. المشروع اليهودي وحروب الجيل الرابع.

٣. **من هي إسرائيل؟**
٤. **يهودية إسرائيل.**
٥. **حقيقة الماسونية**

سابعاً: في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٣م:

١. **نقد كتاب: سر المعبد للأستاذ ثروت الخرباوي.**

- **السمعيات:**

١. **برنامج في مكتبة عالم بإذاعة القرآن الكريم، ثلاث حلقات.**
٢. **برنامج مقاصد الشريعة بإذاعة القرآن الكريم، أربع عشرة حلقة.**

شفرة سورة الإسراء

بنو إسرائيل والحركات السرية فى القرآن

• ثم وأنا خارج يوماً من النوم, وعلى أعتاب اليقظة, وعيناي ما زالت بين الإغماض والفتح, أشرقت شمس الآيات في نفسي, وانبثق من شعاعها ما نوّر عقلي وكشف سرها, وانتشلني مما كنت غارقاً فيه من لجج ظلماء, وأرساني على ضياء وضاء.

• آيات سورة الإسراء فوق الزمان وتحيط به, وتشرف على المكان وهو كله فيها, ولا يمكن لوعي ولا عقل أن يدرك ما تحويه, ولا أن يفهم ما الذي تعنيه, إلا إذا رفعه الله عز وجل فوق الزمان والمكان, ورآهما مطلقين من القيد, فأحاط بما في طول هذا وما في عرض ذاك.

• صدر سورة الإسراء كله هو إخبار عن قصة الصراع بين الوحي وبين تحريفه عبر الزمان, على وعي البشر: أيهما الذي يكوّنه, وعلى أذهانهم ونفوسهم: أيهما الذي يبنيها ويملؤها, وعلى حياتهم ومجتمعاتهم: أيهما الذي يصنعها ويصبغها.

• دورة الإفساد الأولى هي أساطير الهند وخرافات الصين وفلسفات الإغريق ووثنيات الرومان, ودورة الإفساد الثانية هي دورة الماسونية والحركات السرية, والعلمانية والليبرالية, والعقد الاجتماعي والدولة القومية, والداروينية والماركسية, وحقوق الإنسان وحركات التحرير النسائية, والأمم المتحدة والمنظمات الدولية.

اقرأ في هذا الكتاب:

- خريطة الوجود الإلهية.
- خريطة الوجود البني إسرائيلية.
- بنو إسرائيل والحركات السرية في القرآن.
- بنو إسرائيل في الشرق.
- وشيطان بني إسرائيل في الغرب.
- فيثاغورس القبالي.
- شفرة سورة الإسراء ومن هم العباد.



مكتبة مدبولى

MADBOULY BOOKSHOP

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٢٥٧٥٦٤٢١

6 Talat harb SQ. Tel:25756421

www.madboulybooks.com - info@madboulybooks.com